

الحواضر والأمصار الإسلامية الجزائرية



الجزء الخامس



د. أيمن الهدوي
عين مليلة - الجزائر

د. حساني مختار



الحواضر والأمصا الإسلامية الجزائرية

الجزء الخامس

وزارة الثقافة
مديرية الثقافة لولاية جيجل
المكتبة المتنقلة
التاريخ: 2013/04/08
رقم الجرد: 5083
التصنيف: 164/965



عين مليلة - الجزائر

حَقُوقُ الطَّبِيعِ مَحْفُوظَةٌ

دار الهدى

للطباعة والنشر والتوزيع

المنطقة الصناعية ص ب 193 عين مليلة - الجزائر

الهاتف: 032.44.92.00 / 032.44.95.47 الفاكس: 032.44.94.18

web: www.elhouda.com e-mail: darelhouda@yahoo.fr

عنوان الكتاب: الحواضر والأمصار الإسلامية
الجزائرية

اسم المؤلف: الدكتور حساني مختار

عدد الأجزاء: 5

الحجم: 16 x 24

الرقم التسلسلي: 53 - 2011

رقم الإيداع القانوني: 2374 - 2011

ردمك: 4 - 359 - 26 - 9947 - 978

سنة الطبع: 2011

الْفُرُوقُ

عين مليلة: طريق باتنة، الهاتف: 030.34.46.85 الفاكس: 030.34.46.86 عين مليلة.

الحي البلدي، الهاتف: 032.44.83.57 الفاكس: 032.44.92.67 عين مليلة.

قسنطينة: حي كوحيل لخضر جنان الزيتون، الهاتف: 031.92.22.08 الفاكس: 031.92.27.08 قسنطينة

الجزائر: 01 شارع أوراس بشير باب الواد الهاتف: 021.96.62.20 الفاكس: 021.96.61.11 الجزائر.

02 شارع أحمد محمد الحراش: تلفاكس: 021.52.13.07 الجزائر.

وهران: 05 شارع زيفود يوسف عمارة الحرية، الهاتف: 041.40.46.47 // 041.40.46.89 الفاكس: 041.41.46.54

تم طبع هذا الكتاب بدعم من

وزارة الثقافة في إطار تلمعات

عاصمة الثقافة الإسلامية
TLEMCEN, CAPITAL OF ISLAMIC CULTURE



تلمسان 2011

مدينة بسكرة:

تقع مدينة بسكرة⁽¹⁾ على ارتفاع يقدر ما بين مائة ومائتي وعشرين مترا من على مستوى سطح البحر.

لمدينة بسكرة تاريخ عريق وموقع متميز فهي تضرب جذورها في أعماق التاريخ فقد تعاقبت على أرضها الحضارات والثورات من العهد الروماني إلى الفتوحات الإسلامية إلى الغزو الفرنسي والاستقلال. ثم أن موقعها الإستراتيجي وتضاريس مثمرة أيضا كل هذه المعطيات أعطتها أهمية عبر كافة المراحل والعصور التاريخية. وكما كانت الحواضر قديما على ضفاف الأودية والأنهار وعلى منابع المياه وفي الأماكن الحصينة والمنيعة فإن الحركة العمرانية لمدينة بسكرة انطلقت من مصادر المياه فكان منبع حمام الصالحين ونبع رأس الماء البدايات الأولى ببسكرة فشكلت منابع الحمام ما عرف بـ "بيسينام ADPISSINAME" حيث عثر بالقرب من هذا الحمام على بقايا أثرية. أما الثانية فكانت النواة الأولى لما عرف في العهد الروماني "فيسرة" (VESCERA) ويبدو أن طبيعة ماء منبع الحمام حال دون توسع "بيسينام" ليترك المجال إلى "فيسرة" لتتحول إلى بسكرة الحالية مع الفتوحات الإسلامية ولتوسع تحت ظروف تاريخية ومعطيات جغرافية اقتصادية وحضارية.

بسكرة وجذورها التاريخية:

إن التسمية الأصلية لعروس الزيبان التي تعرف الآن ببسكرة ما تزال محل خلاف المؤرخين سواء كانوا عرب أو أجانب فمنهم من يؤكد أن اسمها مشتق من كلمة "فيسرة" (VESCERA) الروماني الأصل والذي يعني الموقع التجاري نظرا لتقاطع طرق العبور بين الشرق والغرب الشمال والجنوب، ومنهم من يرى أن التسمية الأولى هي (AD PISCINAME) أو "بيسينام" وهي كذلك رومانية وتعني المنبع المعدني نسبة إلى حمام الصالحين إلا أن "جيزل" يبدى أقصى التحفظ فيها إذا كانت "فيسرة" قد

(1) هي اليوم عاصمة لولاية بسكرة.

أخذت تسميتها من بيسينام. إلا أن الجميع يشهد بالتاريخ المجيد لهذه المدينة التي ضربت جذورها في القدم. يرتبط تاريخ المدينة مع تاريخ مناطق الجنوب والجنوب الكبير بحيث أرجعت دراسة تاريخ المنطقة إلى حوالي 7000 سنة قبل الميلاد وقسمت تطورها إلى أربعة أقسام أساسية بحيث ميزت كل مرحلة بحيوان كان يعيش في ذلك الوقت وعلى تلك الرسوم التي وجدت على الصخور والحجارة، فالمرحلة الأولى من 7.000 إلى 5.000 قبل الميلاد سميت بمرحلة البوبال "(BUBALE)" وهو حيوان يشبه إلى حد كبير الثور (BUFFLE ANTIQUE) أما المرحلة الثانية تمتد من 3.000 ق.م وسميت بمرحلة "بقر" (BOVIDIENNE) المرحلة الثالثة ابتداء من 1.200 ق.م سميت بمرحلة "الحصان" للإشارة لوحظ على الرسوم الموجودة أن الأسلحة المستعملة من طرف قبائل هذه المرحلة تشبه إلى حد كبير الأسلحة التي يستعملها "الطوارق" حاليا (الخنجر والدرع). المرحلة ما بين القرن الثالث والأول قبل الميلاد سميت بمرحلة "الجمال" خلال هذه المرحلة يلاحظ أن الحصان يفسح المجال للجمال وهذا ما يجسد تصحر المنطقة وبروز قبائل. وبسكرة واحة ضمن واحات الزيبان، والزاب يعني بالأمازيغية واحة، أما ابن خلدون فقد عرف الواحة بأنها "وطن كبير يشمل قرى متعددة متجاورة جمعا جمعا أولاها زاب الدوسن ثم زاب مليلي ثم زاب بسكرة زاب تهودة وزاب بادس وبسكرة أهم هذه القرى كلها" وقد خضعت المنطقة، وما زاد في أهمية المدينة أنها منفذ للانتقال بين الواحات الصحراوية وأراضي التل خاصة من طرف قبائل الرحل⁽¹⁾.

كما تعتبر من بين الأسواق الهامة على الطريق الذي يربط بين القيروان والزاب حيث يمكن التوجه إلى طبنة من بسكرة مباشرة وكذلك تهودة، ومن هذه الأخيرة يمكن الانتقال إلى مدينة باغاية التي تبعد عن بسكرة بأربعة أيام، والطريق الذي يربط المدينتين يجتاز جبل أوراس⁽²⁾.

(1) ابن خلدون العبرج 6 ص 4.

(2) ابن حوقل صَوْرَةُ الْأَرْضِ ص 98.

اسم بسكرة:

تجدر الإشارة أن اسم فسكورة الدال على مدينة بسكرة في الكتابات اللاتينية يتطابق شكل مع اسم بسكرة.

ويبدو أن المدينة القديمة كانت توجد على الضفة اليسرى لوادي بسكرة يسار الطريق المتجه نحو سيدي عقبة وفي هذا المكان تمت الاكتشافات الدالة على تلك المدينة كانت منطقة بسكرة من بين المراكز البيزنطية الهامة لحماية منطقة إقليم الزاب وعرفت في تلك الفترة باسم "قسكرة"⁽¹⁾.

يظهر أن اسم بسكرة في العهد الإسلامي لم يظهر إلا عند الكلام على إخماد الفتنة التي قام بها أهل الزيبان عام 865/251 في وجه الأمير أبي عبد الله محمد الأغلبي الملقب بأبي الغرائق وقد استسلمت مدينة بسكرة دون أي مقاومة للقائد أبي خفاجة الذي أوفد عسكريا للقضاء على هذه الفتنة

بعد الأغلبة خضعت بسكرة للسلطة الفاطمية في النصف الأول من القرن الرابع الهجري ثم خضعت للحماديين.

يظهر أن البكري هو أول من وصف بسكرة في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي بقوله (وبسكرة كورة بها مدن كثيرة وقاعدتها بسكرة وهي مدينة كبيرة كثيرة النخيل والزيتون وأصناف الثمار)⁽²⁾.

هي مدينة ميسورة عليها خندق وبها جامع ومساجد كثيرة وحمامات وحواليها بساتين وهي غابة كبيرة مقدار ستة أميال فيها أجناس التمور منها جنس يعرف بالكسبا وهو الصيحاني يضربه المثل لفضله على غيره وجنس يعرف باللياري أبيض أسلس كان عبید الله الشيعي يأمر عماله بالمنع من بيعه والتحضير عليه وبعث ما هنالك إليه.

(1) البكري المصدر السابق ص 52.

(2) عن بسكرة انظر Biskra art de J de speis

حول بسكرة أرباط خارجية عن الخندق المذكور:

المظاهر العمرانية:

إن بسكرة الإسلامية قامت على أنقاض المدينة الرومانية القديمة وهي فيسكرة والمدينة الحديثة شيدت على نفس الأنقاض، اعتبرها البكري⁽¹⁾ من بين المدن الكبرى خلال القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، حيث كانت تحيط بها أسوار تحتوي على مجموعة من الأبواب من أبرزها باب المقبرة وباب الحمام وباب ثالث لم يذكر البكري اسمه و لعله كان يعرف باسم باب تهودة لقرب المدينة من بسكرة.

ومن المرافق العامة التي تعرض لها البكري الحمامات كما أشار أيضا إلى وجود مسجد جامع لكنه لم يتناول تاريخ تأسيسه ولعله كان في فترة الأولى فتوحات الإسلامية أو في عهد الدولة الفاطمية لأن خلفائها اهتموا ببناء المساجد ويبدو أنه لم يكن الوحيد بل توجد مساجد أخرى إلا أنها أقل أهمية منه.

اتبعت بسكرة في تحصيناتها نمط القصور الصحراوية حيث أن المدن لم تكن بها عمارة عسكرية مناسبة لاستعمال المدافع الآن البرج الذي كان بمدينة بسكرة كان مسلحا بستة مدافع

كان القادة المكلفين بالإشراف على مدينة بسكرة يتمتعون بمكانة مرموقة في أوساط العامة⁽²⁾ وكانت الحامية في حاجة ملحة إلى الخطب اليومي وهذا ما جعل أحمد باي يصدر قانونا بتزويدها بالخطب اللازم

(1) البكري المصدر السابق ص 52.

Paul Louis cambuzat op cit t 2 - P 61 .

- طالبي المرجع السابق ص 23

- عن ثورة بنو بلطيط ببسكرة انظر ابن عذارى: البيان، الجزء الأول، الصفحة 15.

(2) وثائق المكتبة الوطنية بالحامة رقم 320 ملف 319.

المياه:

فيما يتعلق بالمياه التي تتزود بها المدينة فإننا نجد هناك مصدرين للمياه الجارية الآتية من خارج المدينة على شكل جداول وأغلبها من وادي بسكرة المياه الباطنية التي تستخرج من الآبار وتتميز بالوفرة وهو ما سمح لسكانها بغرس البساتين وفي ذلك الصدد يقول البكري: (بداخلها جنان مليح يدخل إليه من النهر)⁽¹⁾.

لعبت المياه دورا هاما في ازدهار المدينة في عهد الفاطميين كان من بين المحاصيل الزراعية النخيل فقد ذكر البكري تمور بسكرة التي كان الإقبال عليها من قبل الفاطميين وبعض المحاصيل الزراعية إلا أنها قليلة نتيجة لقلّة الأمطار

وإذا إنتقلنا إلى النشاط التجاري فنلاحظ أن بسكرة كانت من بين الأسواق الكبرى لأنها تربط السودان الغربي وبقية الواحات الصحراوية بشبكة من الطرق التجارية يبدو أن العلاقة لم تكن مقتصرة على الجانب التجاري فقط بل شملت الميادين الثقافية والسياسية، فقد كانت تقصدها القوافل التجارية خاصة القادمة من السودان الغربي مما جعل أسواقها تحتوي على سلع إفريقية وتتمثل في العبيد والذهب والعاج وكذلك سلع المشرق الإسلامي، فقد ذكر ابن خلدون خلال زيارته لإمارة بني مزني في بسكرة لاحظ قوافل تجارية تربط القاهرة بتوات تمر بالقرب من مدينة بسكرة⁽²⁾، كما ارتبطت بسكرة بمدن المغرب الإسلامي الأخرى خاصة قسنطينة، وبجاية، والمسيلة، وقلعة بني حماد.

عناصر السكان:

السكان:

كانت منطقة بسكرة في العصور القديمة يستوطنها البربر من قبائل زناتة وكانوا رحل وأنصاف رحا مقيمين ينتقلون بقطعانهم في اتجاه الشمال نحو مراعي السهوب لوجود الكلاء في فصل الصيف والخريف ثم يعودون في فصل الشتاء.

(1) البكري المصدر السابق ص 53.

(2) ابن خلدون: العبر، الجزء السادس، الصفحة 209.

وحسب الباحثين المهتمين بتاريخ بسكرة أن اسم الزاب في العصور القديمة كان يدل على بسكرة وهو ما يتأكد من قول فول فالستان لا ينبغي الخلط بين زاب الموريتانية السطايفية وعاصمتها اليوم المسيلة وزاب النوميديّة وهي بسكرة التي كانت في العصر الروماني تشكل الحدود الزابية

ويطلق على الحدود اسم اللّماس وهي عبارة عن خط دفاعي لحماية الأراضي المغربية المحتلة من قبل الرومان من هجمات القبائل البربرية.

كانت بسكرة أهم هذه الحصون بالزيان ومركزها لأنها كانت بوابة تربط التل بالصحراء.

وخلال ازدهار الديانة المسيحية في شمال إفريقيا كانت بسكرة مركز أسقفية نوميديّة ويذكر كازيل أن أسقوفا كاثوليكيا من هذه المدينة حظر مؤتمر قرطاج سنة 411 ودفن بمدينة روما بمقبرة القديس كاليست من بين سكان بسكرة المولدون وهم خليط من البربر والبيزنطيين⁽¹⁾، حيث يعتقد بعض الباحثين أن هناك تصاهر بين جنود البيزنطيين والعائلات البربرية وحدث كذلك بين العرب والبربر بعد الفتوحات الإسلامية للنواحي المجاورة لبسكرة وبذلك ظهر عنصر جديد يتمثل في هؤلاء المولودين.

يظهر من كتاب ابن خلدون أن المنطقة الممتدة ما بين بسكرة وورجلان عرفت هجرة القبائل التي كانت مؤيدة للدولة المرابطية والحمادية بعد سقوط الدولتين على يد عبد المؤمن بن علي وتأسيس الخلافة الموحدية وفي هذا الصدد يقول: "في القرن الخامس الهجري نزل كثير منهم ما بين قصور الزاب وورجلان فاختطوا قرى كثيرة في عدوة واد ينحدر من الغرب إلى الشرق ويشتمل على المصر الكبير والقرية المتوسطة والأطم قد رف عليها الشجر ونضدت حفافها النخيل وانسخت خلالها المياه وزهت بينابيعها الصحراء وكثر في قصورها العمران⁽²⁾."

(1) ابن خلدون: العبر، الجزء السادس، الصفحة 209.

(2) نفسه ج 6 ص 21.

يستنتج من النص أن هؤلاء لم يكتفوا بالهجرة إلى هذه المنطقة بل ساهموا في تعميرها ببناء القرى والقصور واستصلاح الأراضي بها والمتمثلة في غرس أشجار النخيل وقد ذكر من بين تلك القبائل التي استقرت في هذه المنطقة سنجاس وهؤلاء من قبيلة مغراوة ولا تزال بقاياهم الآن في ولاية شلف وكذلك بني يفرن الذين ضعفوا بعد قيام الدولة المرابطية التي قامت على أنقاض إمارتهم على الخصوص في المغرب الأقصى لكن يظهر أن صراع هذه القبائل لم يتوقف حتى في هذه المنطقة التي لجأوا إليها وأكبر كارثة أحدثت بهم التدمير الذي أصاب قصورهم وقراهم خلال ثورة ابن غانية وهو ما يؤكد بقله: (من رغبة هؤلاء وبهم تعرف اليوم وهم أكثرهم من بني سنجاس وبني يفرن وتفرقت جماعتهم للتنازع في الرئاسة فاستقلت كل طائفة بقصور منها أو بواحد وكانت فيما يقال أكثر من هذا العدد أضعافاً وأن ابن غانية المسوفي خرب عمرانها واجتث شجرها وغرر مياهها ويشهد لذلك أثر العمران بها في أطلال الديار ورسوم البناء وأعجاز النخل المنقعر)⁽¹⁾.

وكانت ورجلان في عهد الدولة الحفصية تابعة لأمير الزاب من بني مزني ثم صارت هذه المناطق إقطاع للقبائل الهلالية لكن يبدو أيضا من مصادر التاريخ أن المنطقة عرفت هجرة عكسية من الجنوب نحو المناطق التلية وقد حدث هذا في أواخر عهد الخلافة الموحدية لأن تلك القبائل اغتنمت فرصة الأنهار الديمغرافي الذي نتج عن معركة العقاب 1212/609 التي أثرت في القبائل التابعة للموحدين فانتقل بنو عبد الوادي إلى ضواحي تلمسان، مغراوة إلى نواحي شلف، وغليزان، وبني توجين إلى نواحي تيهرت، وبني راشد إلى نواحي غليزان ومعسكر، وبني مرين إلى نواحي المسيلة ومنها إلى المغرب الأقصى

(1) - عن بني مزني، انظر ابن خلدون، المصدر السابق، الجزء السادس، الصفحة 209 ابن قنفذ: الفارسية، الصفحة 188 ابن أبي دينار القيرواني: المؤنس ن الصفحة 136.

ويحدد ابن خلدون القبائل البربرية بسدراتة⁽¹⁾ وبني مغراوة⁽²⁾، خاصة بني خزر وبالقرب من مضارب هؤلاء بني عبد الواد الذين تمتد مضاربهم حتى مدينة تاهودة إلا أن توزيع السكان بيسكرة والنواحي المجاورة لها قد تأثرت بالهجرة الهلالية حيث نجد مجموعة من القبائل العربية التي استقرت بالقرب من المدينة، وحلت محل بعض القبائل البربرية، مثل بني عبد الواد ومغراوة الذين تخلوا عن الواحات بعد فترة ضعف الدولة الموحدية نتيجة لمعركة العقاب⁽³⁾ وثورة بني غانية فتوجهت تلك القبائل إلى التل فاستقروا بالمنطقة المحصورة بين الجزائر العاصمة وتلمسان.

من بين المؤرخين الذين تعرضوا للتركيبة السكانية في المناطق المجاورة لبسكرة ابن خلدون ويبدو من النصوص التي أوردها أن هنالك تغيير في التركيبة السكانية قبل الهجرة الهلالية وبعدها في المرحلة الأولى أي قبل وصول الهلاليين كان يغلب على سكان المنطقة العنصر البربري وعلى الخصوص الزناتي وبعدها توافد على المنطقة القبائل الهلالية ويبدو أنهم أراحوا العنصر البربري إلى المناطق الجبلية وعلى الخصوص الأوراس ولعل من أبرز القبائل العربية التي استقرت بمنطقة بسكرة، الضحاك الذين عجزوا عن مقاومة الدواودة ويظهر أن الدولة الحفصية قد أحتاجت للعنصر العربي فقامت بتشجيع إقامته في المنطقة لحفظ أمنها من القبائل المعارضة لها وهو ما يؤكد ابن خلدون بقوله: (أولاد مسعود من رياح تلاقت الدولة أمرهم بالاصطناع والاستئالة وأقطعوهم ما غلبوا عليه من البلاد بجبل أوراس والزاب ثم الأمصار التي بالبسيط الغربي من جبل أوراس المسمى عندهم بالحضنة وهي نقاوس، ومقرة، والمسيلة، وأختص إقطاع المسيلة بسباع بن شبل بن يحيى من بعد ذلك فهي في قسم بنيه وسهامهم)⁽⁴⁾.

(1) عن سدراتة، انظر ابن خلدون: العبر، الجزء 6 ص 4.

(2) وعن مغراوة: نفس المؤلف: الجزء الأول، الصفحة 46

(3) عن مضارب بني عبد الواد، الصفحة 186 ابن خلدون ك العبر، الجزء السابع، الصفحة 72

(4) نفسه ج 7 ص 72.

يستنتج من النص أن تلك القبائل بعد انتقالها من تونس إلى الجنوب الجزائري قامت بمهاجمة القبائل البربرية فاستولت على بعض مضاربها ولم تواجه الدولة الحفصية توسع تلك القبائل ولم تحمي القبائل التي تعرضت للغزو من قبل الهلاليين بل اعترفت بالمضارب الجديدة لها وعلى الخصوص المدن التي كانت بإقليم الزاب والحصنة مثل نقاوس، ومقرة، والمسيلة ولعل هذا كان من بين العوامل السلبية لهذه المدن فأضعفتها وفقدت المكانة التي كانت لها قبل وصول الهلاليين.

ولم يقتصر الأمر على المناطق الواقعة في السهول بل شمل المناطق الجبلية مثل أوراس الذي كان أغلب سكانه من العنصر البربري كما ساهمت هذه القبائل في الصراع بين دول المغرب الإسلامي الزيانيين والحفصيين والمرينيين فكانت كل دولة من هذه الدول تتقرب من هذه القبائل وتريد كسب ودها والحصول على خدماتها في مواجهة أعدائها ومن بين الذين سلكوا هذه السياسة يغمراسن بن زيان وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون: (أولاد سباع بن يحيى لحقوا بيغمراسن بن زيان فكسبهم وحلّوهم فارتاشوا وقاتلوا واحتلوا وزحفوا إلى موطنهم فتغلبوا على أطراف الزاب من واركلان وقصور ريغ وصيروها سهاما بينهم وانتزعوها للموحدين فكان آخر عهدهم بملكها)⁽¹⁾. فهذه السياسة التي سلكتها الأنظمة في هذا الوقت كانت عاملا أساسيا في تغيير الخريطة السكانية بالمناطق المجاورة لبسكرة والحصنة فتم تقسيم الأرض على تلك القبائل وهو ما يؤكد ابن خلدون فيقول: واختص إقطاع مقرة بأحمد بن عمر بن محمد وهو ابن عم شبل بن سباع وأما الزاب فالجانب الغربي وقاعدته طولقة لأولاد سباع بن يحيى

وأما الجانب الشرقي من الزاب وقاعدته بادس وتنومة فهو لأولاد نابت رؤساء كرفة إلا أن عمال الزاب تأخذ منه في الأكثر جباية⁽²⁾.

(1) ابن خلدون العبرج 6 ص 4

(2) نفسه ج 6 ص 42.

لم يقتصر الأمر على منطقة الزاب بل توسع نفوذ هذه القبائل إلى أبعد من ذلك فتوجهوا إلى المنطقة المعروفة اليوم بولاية الأغواط فحلوا محل القبائل الزناتية المتمثلة في بني راشد التي كان جبل العمور يحمل اسمها جبل بني راشد وعندما استقر الهلاليون في المنطقة عرف بجبل عمور نسبة لهم وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون: ففضلوا الاستقرار ببلاد الزاب وخاصة مدنه وكانوا لا يزالون بتلك الناحية حتى عهد ابن خلدون وحتى العمور الذين استقروا ما بين جبل أوراس شرقا إلى جبل بني راشد غربا، وأولاد ماضي الذين تمركزوا هم الآخرون بالمنطقة المحصورة ما بين سفوح جبل أوراس المطل على بسكرة⁽¹⁾ متصلين بالعمور إلا أن من أبرز القبائل الهلالية التي استقرت ببسكرة وضواحيها آل ومزي الذين نزلوا في البداية بقرية بجناش كما أسلفنا

ومن خلال ما سبق نلاحظ أن الطابع المغربي لسكان مدينة بسكرة والمناطق المجاورة لها فقد أهميته، وهذا يرجع إلى عاملين أساسيين:

أولا: ضعف القبائل البربرية نتيجة للحروب⁽²⁾ التي عاشتها بلاد المغرب الإسلامي مع بداية عهد الدولة الفاطمية حيث أدى ذلك إلى تقسيم السكان إلى عنصرين الأول موالي لهم بينما الثاني موالي للدولة الأموية بالأندلس وتمثل هؤلاء الموالين في الزناتيين الذين كان البعض منهم مستقرين بنواحي بسكرة ولعل استقرارهم في تلك الناحية يرجع بالدرجة الأولى إلى الحروب التي عاشها المغرب الإسلامي خلال القرن الرابع الهجري، وشمل عهد الفاطميين والزيريين فترك هؤلاء مضاربهم⁽³⁾.

(1) ابن خلدون: العبر، الجزء السادس، الصفحة 81.

(2) حساني: الصراع بين الأمويين والفاطميين على السيادة في المغرب الإسلامي جامعة الجزائر 1979 ورقة 150.

(3) ابن خلدون العبر، الجزء السادس، الصفحة 34.

أحياء المدينة:

من بين الذين تناولوا حمامات بسكرة البكري حيث قال وهي مدينة مسورة عليها خندق وبها جامع ومساجد كثيرة وحمامات⁽¹⁾ وقال عنها ياقوت الحموي وهي ذات أسواق وحمامات مدنية

ويعلق العياشي على تحصيناتها فيقول: (البلاد التي سلكتها شرقا وغربا أحسن منها ولا أحصن من أسوارها وخنادق خلف)⁽²⁾.

الأسوار يقول ابن حوقل عن بسكرة: (بسكرة بكسر الكاف وراء بلدة بالمغرب من نواحي الزاب وهي مدينة مسورة)⁽³⁾ ويقول عنها ياقوت الحموي نفس كلام⁽⁴⁾ يقول البكري عن بسكرة: (وداخل المدينة آبار كثيرة عذبة وجنان يدخل إليه الماء من النهر)⁽⁵⁾ يقول العياشي عن الحياة الاقتصادية للمدينة: (هي كثيرة الزرع والنخيل).

قد جمعت بين التل والصحراء ذات نخيل كثير وزرع كثيف وأرحاء متعددة تطحن الحبوب، الزيتون كان أجودها في ناحية بسكرة ومن بين الذين تعرضوا له العياشي حيث قال: (زيتون ناعم وبالجمل ما رأيت في البلاد سلعتها شرقا وغربا)⁽⁶⁾.

التمور بمنطقة الزاب من بين أهم المناطق المنتجة للتمور وكان ينقل منها إلى السودان الغربي وهناك أنواع من التمر وهو اللبياري أحتره عبيد الله المهدي الخليفة الفاطمي حيث منع من بيعه فكان ينقل كله إلى المهديّة.

(1) المصدر السابق ص 52.

(2) ابن حوقل صورة الأرض ص 98.

(3) نفسه ص 62.

(4) البكري نفس المصدر ص 62.

(5) الرحلة ص 52.

(6) نفسه ص 416.

علق البكري على إنتاج التمور في بسكرة فقال: (وهي مدينة كبيرة كثيرة النخيل وهي في غابة كبيرة مقدارها ستة أميال فيها أجناس التمور منها جنس يعرفونه بالكبياري وهو الصحيح في يضرب به المثل لفضله على غيره)⁽¹⁾.

من بين المتوجات متوجات النسيج ولعل السبب في ذلك يرجع إلى كثرة مربي المواشي فكانت تصنع بها البرانيس والقنادير والحنابل وينقل بعضها إلى بلاد السودان ومن بين اللذين ذكروا هذه الصناعة العياشي الذي قال: (وبها كتان جيد)

الملح:

لقد كان في العصور الوسطى بمنطقة الزيبان جبل من الملح وكانت تجارته رائجة في العصور الوسطى فقال عنه البكري: (وبها جبل يقطع فيه الملح كالصخر الجليل، ومنها كان يستعمل في طعام خلفاء الدولة الفاطمية)⁽²⁾

الأسواق من بين الذين تناولوا أسواق بسكرة الإدريسي الذي قال: (عنها ومن مدينة نقاوس إلى حصن بسكرة مرحلتان وبه سوق وعمارة وفيه من التمر كل غريبة وظرفية)⁽³⁾ أما ياقوت الحموي فيقول عنها: (وهي مدينة مسورة ذات أسواق)⁽⁴⁾

سوق بسكرة القديم يقع يقع في مدينة بسكرة القديمة وقد قال عنه العياشي في رحلته: (وببسكرة سوق فيه شتى أنواع الفواكه والخضر والبقول وكثرة اللحوم والسمن فيه)⁽⁵⁾ وقال عنه العنري: (رغم ماتحويه منطقة الزاب في سوقها من حبوب وثمار وحرف وتجار الجملة إلا أن المنطقة أصيبت بمجاعة).

(1) البكري المصدر السابق ص 53.

(2) نفسه ص 53.

(3) الإدريسي، وصف إفريقية ص 63.

(4) ياقوت الحموي، معجم البلدان ص 422.

(5) نفسه ص 425، رابع بونار تحقيق كتاب العنري مجاعة قسنطينة ص 76 تاريخ الطبع 1974.

خنقة سيدي ناجي كانت مركزا عمرانيا واقتصاديا خلال العهد العثماني وكانت المدينة مقسمة إلى خمس حارات منها حارة كرزدة وحارة لواتة وحارة سدراتة وبكل حارة مسجد وسوق ومحلات كما أختصت كل عائلة بنوع من الحرف كالحدادة وصناعة الجرار والأواني

لعل ذكر أسماء هذه الحارات التي تنسب لقبائل بربرية يؤكد بأن خنقة سيدي ناجي سكنتها القبائل الأمازيغية التي استقرت بهذه المناطق قبل وصول الهلاليين.

المنشآت الدينية:

* مسجد أبي الفصل يحيى

* يوجد هذا المسجد في حي قداشة

ورد ذكره عند بعض الرحالة والمؤرخين أمثال العياشي الذي قال عنه في رحلته المشهورة: وقد ذهبنا معا إلى قبة أبي الفضل وصلينا العصر في مسجد هذا الوالي الصالح

ويضيف في نص آخر: دخلنا المسجد وطلعنا إلى مئذنته وهي رائعة وغاية في الأتقان والطول والسعة تقدر الدابة على الصعود إليها بحملها وأدراجها مائة وأربع وعشرين درجة والمسجد في غاية السعة وإتقان البناء إلى أنه قل عامره وضعف ساكنوه فلا ترى به مدرسا ولا قارئا مع أن هذه المدينة من أعظم المدن وأجمعها المنافع كبيرة مع توفر أسباب العمران

فالتعليق الذي جاء به العياشي بالنسبة لبسكرة يرجع بالدرجة للوضعية التي كانت عليها المدينة خلال زيارته لها حيث عانت من الصراعات بين الحامية التركية والقبائل العربية مما أدى ببعض سكانها إلى التخلي عنها والهجرة لمناطق أخرى كقسنطينة والجزائر

لكن من ناحية أخرى يبرز لنا سعة هذا المسجد وعمارته وقلة المصلين به.

كما قال أن مولاي أحمد المغربي الذي يقول في رحلته التي تأتي بعد رحلة العياشي بحوالي قرن ما يلي: (وزرنا سيدي عبد الرحمان وسيدي أبي الفضل الذي يعتبر من الأولياء الصالحين)⁽¹⁾ ويقول عن المسجد الورتلاني في رحلته: (وزرنا سيدي عبد الرحمان وسيدي أبي الفضل)⁽²⁾.

مسجد عبد الرحمان الأخضرى:

مسجد عبد الرحمان الأخضرى يقع في مليلي ببلدة بنطوس بلدية مخادمة التي تبعد بحوالي 30 كلم جنوب غرب الولاية

وقد ذكره العياشي فقال عنه: (ومررنا بقرية أمليلي ظهرا ثم دخلنا لزيارة مسجد سيدي الشيخ عبد الرحمان الأخضرى وهو إمام الجامع بين علم الظاهر والباطن له تآليف مشهورة وكرامات مأثورة)⁽³⁾.

نزلنا بسكرة ضحى يوم الاثنين وكان نزولنا خارج البلد من غريبه لأجل الوباء واضطر الناس لدخول البلد لشراء الزاد ووجدنا الركب الذين دخلوا قبلنا نازلين بداخل البلد وخوف أهل البلد من أبناء ناصر بن بو عكاز وحذروا هم من غارتهم على ركب الحجاج فلم يسرح الركب سارحة فاشترينا الحشيش

دخلت البلد لزيارة أبي الفضل رحمه الله وقبره خارج المدينة وحوله مسجد ومساكن أقوام من جيرانه.

وقد علق على بسكرة العياشي التي زارها خلال فترة الوجود العثماني بها التي يظهر أن الأمن فيها يكاد يكون منعدما نتيجة للصراع بين الحامية العثمانية بداخلها

(1) نقلا عن مولاي بلخمي رحلة المغاربة في العهد العثماني 1979 ص 104.

(2) الورتلاني، الرحلة ص 91.

(3) نفسه، ص 92.

والقبائل العربية الموجودة في محيطها ولعل السبب الأساسي في ذلك رفض هذه القبائل تقديم ما يجب عليها من ضرائب لصالح بايلك الشرق مما جعل البايات يقومون بهجوم على مضاربها كما حدث في عهد صالح باي.

يقول العياشي في شأن هذه الحروب وتأثيرها على المدينة: وبالجملية فما رأيت في البلاد التي سلكتها شرقا وغربا أحسن منها ولا أحصن ولا أجمع لأسباب المعاش إلا أنها أبتليت بتحالف الترك عليها وعساكر الأعراب يستولي عليها هؤلاء تارة وهؤلاء تارة أخرى إلا أن بنى الترك عليها حصن حصين على رأس الماء الذي يأتي إليها فتملكوا البلاد وأضروا بأهلها وأجحفوا بهم في الخراج ولم يقدرُوا على الخروج عليهم لتمسكهم من الماء الذي له حياة البلد وأهله فاجتمعت عليها غارة العرب من خارج وظلم الأتراك من الداخل وقد أشرفت على الخراب وقاربت بيابا لولا ما اتصل من أسباب عمرانها الموجب لرغبة الناس في سكناها⁽¹⁾.

يبدو أيضا أن المدينة فقدت مكانتها العلمية التي كانت عليها خلال العصور الوسطى لأن العياشي لم يذكر من علمائها الذين التقى بهم غير سيدي أبو الطيب نصير وهو ما يؤكد بقوله: (وقد لقيت فيها سنة 1059هـ رجلا من الصالحين يجمع بين العلم والعمل والزهد وهو سيدي أبو الطيب نصير)⁽²⁾.

لم يتوقف العياشي عن وصف ما عانت منه هذه المدينة في هذه الفترة التاريخية التي أثرت تأثيرا كبيرا على أهلها نتيجة لمعاملة الحامية التركية لسكانها وسيطرتها على منابع المياه فيها تناول الأمراض التي أصابتها ومنها مرض الطاعون الذي تعرضت له سنة 1060هـ وكان له تأثير عليها وفي هذا الصدد يقول: (ولما رجعت من الحجاز سنة 1060هـ وجدته قد توفي بالوباء الواقع في تلك السنة وكان وباء مفرط مات فيه في بسكرة على ما قيل نحو من سبعين ألف نفس).

(1) العياشي، المصدر السابق ص 63.

(2) الدرعي الرحلة مخطوط بالمكتبة الوطنية رقم ورقة 120.

ولكن خلال العودة من الحج ذكر بعض علماء بسكرة ويبدو أنهم من رجال الطرق الصوفية وهو ما يتأكد من قوله: (وقد دخلنا المدينة فوجدنا أكثر حوماتها خالية ومساجدها دائرة ولقيت بها سيدي محمد الصالح وهو رجل من أهل الخير منفرد في مسجده بإزاء داره يلزم فيه الصلوات الخمس وخرج إلينا من فقهاء البلد سيدي محمد الرماني وهو أيضا رجل من أهل الخير غلبت عليه الديانة والانقطاع عن الخلق وقرا علي صحيح البخاري من رواية أبي در) (1).

ثم عاودنا دخول البلد لزيارة سيدي محمد بن بوعلي فوجدناه على سطح دار بشرف على الطريق وقد لقيته بداره سنة سنة 1065 وهو في مرمة له في داره يعمل بها بيده فينسج الثياب وأخبرنا أن قوته من كسب يديه وأخبرنا أن قوته من إنتاج يديه وقد انتشر صيته في هذا الوقت بتلك البلاد وله أتباع وأصحاب يجتمعون إليه في أوقات الذكر

زاوية الأخضرى:

يعتبر عبد الرحمان الأخضرى من كبار علماء عصره القرن العاشر السادس عشر الميلادي وقد ألف في مجموعة من الفنون المتداولة في عصره منها الفقه وعلم البيان والمنطق وتوجد مخطوطاته في أغلب الخزائن العامة والخاصة في الجزائر وخارجها مما يؤكد اهتمام العلماء بعلمه وقد قال العياشي في شأنه: (ومررنا بقرية أمليلي لزيارة الشيخ الأخضرى وصلينا بمسجده وهو إمام جمع بين علمي الظاهر والباطن وله تآليف مشهورة وكرامات ماثورة) (2).

أما سيدي خالد الموجود ضريحه في سيدي خالد قد اختلف الناس في شأنه منهم من يقول بأنه من أولياء الله الصالحين ومنهم من يذهب أبعد من ذلك فيقول أنه من

(1) الدرعي، المصدر السابق ورقة 123.

(2) العياشي، الرحلة ورقة 123.

الأنبياء وقد قال في شأنه العياشي: (قبر سيدي خالد وهو القبر المنسوب لنبي الله خالد بن سنان عليه السلام وهو من المزارات الشهيرة في تلك البلاد تقصده الناس من نواحي إفريقيا كلها وعليه مسجد عظيم وحوله مدرسة والناس يؤثرون عن ذلك المشهد كرامات)⁽¹⁾.

أما محمد بن أحمد بن داود فيذكره في عقده بما يلي: يعتبر سيدي الأخضر من علماء التصوف في الجزائر وهو من تبني فكرة نبوة النبي سيدي خالد.

مسجد محمد الصالح:

يقع المسجد في أحد أحياء المدينة وهو من المساجد المندثرة وقد حفظ لنا كل من العياشي والدرعي أخبار يسيرة عن المسجد فقال عنه العياشي: (وقد دخلنا بسكرة عقبة فوجدنا أكثر حوماتها خالية ومساجدها كاثرة ولقيت بهذه المدينة سيدي محمد الصالح وهو رجل من أهل الخير منفردا في مسجده إزاء داره يلزم الصلوة الخمس ويجمع إليه أناس من أصحابه يذكرهم)⁽²⁾ (أما الدرعي فقال عنه ومن هؤلاء العلماء سيدي محمد الصالح وهو رجل من أهل الخير له مسجد إزاء داره يلزم فيه الصلوات الخمس)

ضريح سيدي موسى الخدري:

يقع في بسكرة وبالضبط بحي المسيد وقد شيد بعد فترة وجيزة من تأسيس مسجد سيدي عقبة وهي فترة حكم الأغالة بتونس وقد عرف الضريح عملية الإصلاح والترميم في فترة الحكم العثماني والتي تشير إليها اللوحة الرخامية الموجودة بالجدار الخارجي للجامع من ناحيته الشمالية والتي جاء فيها بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وسلم هذا الولي الصالح سيدي موسى الأخضر أسس بنيانه في عهد الأتراك في القرن العاشر من الهجرة النبوية 1550

(1) الدرعي المصدر السابق ورقة 4.

(2) العياشي، الرحلة ص 104.

قصر الدوسن:

من المصادر الإسلامية التي تناولت القصر ابن خلدون في كتابه العبر حيث قال: هذه البلد بسكرة وهي قاعدة وطن الزاب لهذا العهد وحده من لدن قصر الدوسن في الغرب ويقول عنه الوزان: (الدوسن مدينة أزلية من بناء الرومان في النقطة التي تتأخم مملكة بجاية صحراء نوميديا ولقد خربت لما دخل الجنود المسلمين إلى أفريقيا لأنها كان بداخلها كونت روماني وقد أضمرت النيران فيها فأحرقت المنازل وتظهر قرب الدوسن آثار كأنها مقابر وعندما ينزل المطر يعثر فيها الصيادون على قطع غليظة من الذهب وقد هدم هذا القصر إثر زلزال أو طوفان ضرب المدينة ولم يبق منه سوى أسوار القصر)⁽¹⁾.

أن المصادر الإسلامية التي تناولت الفتوحات الإسلامية في بلاد المغرب الإسلامي ومنها حملة عقبة بن نافع لنواحي بسكرة لم تشر إلى تدمير هذا القصر وحتى حملة حسان بن النعمان لم تشر المصادر أيضا إلى التدمير الذي حدث لقصر الدوسن ويبدو لي أن التدمير سبق وصول لمسلمين للمنطقة وكان نتيجة للثورات التي قام بها البربر ضد الوجود البيزنطي في المنطقة

ويقول مرمول يطوف حول قصر الدوسن أعراب بني سالم وجدت في بعض بقايا القصر قطع فخارية ترجع إلى عهد الحماديين مما يؤكد أنه لم يخرب من قبل المسلمين كما يعتقد الوزان

(1) الدرعي ورقة 296.

الأحوال السياسية:

عهد الأغلبية:

ومن بين الثورات التي قامت ضد الأغلبية وامتدت إلى بسكرة ثورة هوار⁽¹⁾ بالأوراس سنة 899هـ / في عهد إبراهيم الثاني.

الدولة الفاطمية:

هذا فيما يتعلق بالدولة الأغلبية أما في عهد الدولة الفاطمية فإن مدينة بسكرة لم تكن تحتل مكانة تذكر لأنها لم تشارك في الأحداث السياسية التي تعرض لها كل المغرب الإسلامي خاصة ما يتعلق بالصراع بين الأمويين والفاطميين⁽²⁾ واستغلال قبائل المنطقة لخدمة أهداف الدولتين فاشتدت المنافسة بين تلك القبائل المتمثلة في زناتة وصنهاجة وكتامة، ولم تمتد تلك الحروب إلى مدينة بسكرة على الرغم من أن ثورة أبي يزيد⁽³⁾ مغلد بن كيداد انطلقت من جبل أوراس القريب من بسكرة وفي تلك المدة يبدو أنها كانت تابعة لإمارة بني حمدون بالمسيلة

الدولة الحمادية:

أما في عهد الحماديين فقد أصبحت تشكل ولاية تابعة لتلك الدولة تحت إشراف إحدى العائلات الزناتية وهم بنو رمان لكن يظهر بأن هؤلاء لم يطمثوا للصنهاجيين بالقلعة فثاروا ضد الناصر بن علناس الذي أرسل إليهم قوة عسكرية تمكنت من السيطرة على المدينة و أسر حكامها ثم نقلهم إلى القلعة و إحلال مكانهم عائلة أخرى وهم بنو سندي الذين حكموا بسكرة مدة من الزمن⁽⁴⁾.

(1) عن هوار وانتشار مضاربا بالمغرب الإسلامي، انظر ابن خلدون العبر، الجزء الأول ص 176
لقبال دور كتامة في تاريخ الدولة الفاطمية الصفحة 75 - 78

(2) عن ثورة أبي يزيد مغلد بن كيداد، انظر ابن عذارى: البيان، الجزء الأول، الصفحة 273.

(3) ابن الأثير: الكامل، الجزء الثامن، الصفحة 67

(4) ابن حماد: ملوك بني عبيد، الصفحة 18.

بعد مدة استعادها بنو رمان و شاركهم في تسيير شؤونها مجلس من أعيان المدينة ووجهائها.

ويظهر لي أن زيادة نفوذ هذه العائلة يرجع بالدرجة الأولى إلى كثرة عددهم وإملاكهم لمعظم الأراضي المجاورة لبسكرة خلال الأحداث التي عرفتها الدولة الحمادية في نهاية حكم بلكين وبداية عهد الناصر بن علناس عاد بنو رمان في السيطرة على بسكرة من جديد حسب ما أورده ابن خلدون وكان أهل بسكرة لما قتل بلكين تعاونوا مع مقدمهم جعفر بن أبي رمان وخلعوا طاعة آل حماد واستبدلوا بأمر بلدهم وعليهم بنو جعفر فسرّح لهم الناصر خلف بن أبي حيدرة وزيره ووزير بلكين قبله فنازلها واقتحمها عنوة واحتمل بني جعفر في جماعة من رؤسائهم إلى القلعة فقاتلهم الناصر وصلبهم في عهد الناصر بن علناس توجه خزرون الزناقي إلى بسكرة فدبرت ضده مؤامرة كان وراءها الناصر الذي أوعز إلى عروس بن سندي رئيس بكرة بأن يمكر به فوصل المنتصر إلى بسكرة خرج إليه وأشار على حشمه عند أمسكائه بالمنتصر وذويه على الطعام فبادروا ملبين لطعنه وفر أتباعه وأخذوا رأسه وبعث به إلى الناصر فتصبه على بجاية 369هـ.

كان لجعفر بن رمان صيت وشهرة وربما نقضوا الطاعة لعهد بلكين بن محمد بن حماد صاحب القلعة في سني خمسين وأربعمئة، وضبطوا البلد وامتنعوا وتولى ذلك جعفر بن أبي رمانة، ونازلتهم جيوش صنهاجة إلى نظر الوزير خلف بن أبي حيدرة من صنائع الدولة فاقتحمها عليهم، واحتملهم إلى القلعة فقتلهم بلكين جميعا، وجعلهم عضة لمن بعدهم وصار أمر الشورى لبني سندي من أهلها وكان لعروس منهم بعد ذلك خلوص في الطاعة وانحياش إلى الدولة، على حين تقلص ضلها وفشل ريجها وألوى الهرم بشبابها وهو الذي فتك بالمنتصر بن خزرون عند وصوله من المشرق واجتلابه على السلطان بقومه من مغراوة وعرب الأثبج وبني عدي من بني هلال

فمكر به السلطان وأقطعه ضواحي الزاب وريغة طعمة، ودس إلى عروس بالفتك به وانقرضت رئاسة بني سندي بانقراض ملوك صنهاجة وجاءت دولة الموحدين، والكثرة والبيت لبني رمان ثم نهض إلى بسكرة واستولى عليها وقطع أيدي أهلها وتقبض على حافضها أبي الحسن بن أبي يعلى⁽¹⁾

وبعد استقراره بتونس بلغه أن ابن غانية دخل بجاية عنوة ثم تخطى كذلك إلى تدلس وأنه عاث في تلك الجبهات فوصل إلى بجاية وسكن أحوالها ثم إلى متبجة ومليانة فأدرك الخبر أن ابن غانية قصد سجلماسة

الدولة الحفصية:

يعلق ابن خلدون على وضعية بسكرة في عهد الحفصيين فيقول: بسكرة قاعدة وطن الزاب لهذا العهد وحده من لدن قصر الداوسن بالغرب إلى قصور تنومة وبادس في الشرق، يفصل بينه وبين البسيط الذي يسمونه الحضنة جبل جاثم⁽²⁾.

وهذا الزاب وطن كبير يشتمل على قرى متعددة متجاورة جمعا جمعا، يعرف كل واحد منها بالزاب وأولها زاب الدوسن، ثم زاب طولقة ثم زاب مليلة وزاب بسكرة، وزاب تهودة، وزاب بادس وبسكرة أم هذه القرى كلها كانت مشيختها في القديم بعد الأغالبة والشيعية لعهد صنهاجة ملوك القلعة في بني رومان من أهلها بما كثروا ساكنها، وملكوا عامة ضياعها⁽³⁾.

نستنتج من نص ابن خلدون أن كلمة الزاب أو الزيبان تطلق على القرى والقصور التي تمتد من بسكرة إلى وادي ريغ.

(1) ابن خلدون العبرج 6 ص 231.

(2) نفسه، ص 232.

(3) ابن قنفذ: الفارسية، الصفحة 188.

كما حكمت المدينة في عهد الدولة الحفصية عائلة بنو مزني، الذين استقروا في البداية بضواحي المدينة عند قرية بحناس إحدى قرى مدينة بسكرة ولعل ذلك تم قبل هجوم بني غانية على المدينة، ذلك الهجوم الذي أدى إلى إتلاف بساتين النخيل المحيطة بها قبل السيطرة عليها، إلا أن الدولة الموحدية أسرع لتنجدها فاستعادت المدينة من بني غانية وبقيت خالصة لها.

أما بنو مزني⁽¹⁾ فإن نفوذهم قد ازداد بالناحية حيث تناسلوا وكثروا وشاركوا أهل الناحية في مراعيهم، ثم بعدها انتقلوا إلى داخل المدينة وسكنوا إلى جانب سكانها القدماء من بني رمان، ولم يكتفوا بهذا بل انضموا إلى مجلس الشورى بالمدينة مما أدى إلى الدخول في صراع مع بني رمان الذين كانوا حكاما لها فاشتد الصراع بين الطرفين⁽²⁾ حيث عمل كل واحد منهما على طرد الآخر منها، وقد وجد بنو مزني الفرصة السانحة عندما ثار أبو إسحاق على أخيه المستنصر فتقربوا منه وبعد وصوله إلى الحكم أقطعهم بسكرة فانتقل حكمها من بني رمان إلى بني مزني⁽³⁾، وكان بنو مزني لفق من الفائق الأعراب وصلوا إلى إفريقية أحلافا لطوالع بني هلال بني عامر في المائة الخامسة، ونسابهم بزغمهم في مازن من فزارة والصحيح أنهم في لطيف من الأثبج.

(1) ابن أبي دينار القيرواني: المؤنس ن الصفحة 136.

(2) ابن قنفذ المصدر السابق 87.

(3) نفسه 88.

يعطينا ابن خلدون كعاداته معلومات قيمة تتعلق ببني هلال في منطقة بسكرة أو بواديا ويجعل أغلب هؤلاء من رياح والأثبيج وأن استقرارهم في المنطقة كان على حساب قبائل الفتح الذين استقروا بها في بداية القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي بعد إتمام الفتح الإسلامي لبلاد المغرب وفي هذا الصدد يقول: (وأن أهل الزاب كلهم من فريق الأثبيج عجزوا عن الضمهم ونزلوا قراه علة من كان بها قبلهم من زناتة وطوال الفتح)⁽¹⁾.

كما يوضح أيضا كيف وصول بني مزني إلى بسكرة والطريقة التي سلكوها في السيطرة على المنطقة المجاورة للمدينة ثم دخولهم للمدينة وابعادهم لبني رمان الذين كان لهم نفوذ كبير في المدينة وفي مجلس شورتها الذي يسير شؤونها وهو ما يؤكد بقوله: (وكان أول نزولهم من قرى بسكرة قرية كانت تعرف بقرية حياس ثم عافوا وتأثلوا وأخذوا مع أهل بسكرة بحظ وافر في تملك العقار والمياه ثم انتقلوا إلى البلد واستمتعوا منها بالمنزل والظلال، وقاسموا أهلها في الحلو والمر، وانتظم كبارهم في أرباب الشورى من المشيخة ثم استنكف بنو رمان من انتظامهم معهم وحسدوهم ما أتاهم الله من فضله، وحذروهم على أنفسهم فاضطربت بينهم نار العداوة والإحن، كان أولها الكلام والترافع إلى سدة السلطان بتونس على حين استقلال أبي حفص بإفريقية، ولعهد الأمير)⁽²⁾ فانتقلوا نحو الجنوب، ولعل من أبرز هؤلاء بني خزر الذين كانوا حلفاء للدولة الأموية.

ثانيا: فشل الصنهاجيين والزناتيين في وقف حركة تقدم الزحف الهلالي فاستولوا على النواحي المجاورة لبسكرة وبقيّة المدن المجاورة لها

(1) ابن خلدون المصدر السابق 88.

(2) ابن خلدون العبرج 6 ص 51.

عهد الدولة الحفصية:

إمارة بني مزني:

حدود الإمارة:

في عهد الدولة الحفصية كانت مدينة بسكرة مقرا لإمارة الزاب المترامية الأطراف، وقد حدد ابن خلدون موقعها فقال أنها تقع من لدن قصر الدوسن بالغرب إلى قصور وهوسة بالمشرق ويفصل بينه وبين البسيط الذي يسمونه بالحضنة جبل حاتم من المغرب إلى إفريقية

وفي الغرب محاذة الزاب من غربه متصلا بعمران (جبل عمور) من زناتة وفي الشرق جبل الأوراس ليصل إلى بسكرة.

هذه هي حدود إمارة الزاب في نظر ابن خلدون خلال القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر ميلادي.

أما كلمة الزاب فيقصد به مجموعة من القرى بالناحية تتميز بعددها ومجاورتها وتعرف كل قرية من هذه القرى باسم الزاب، أولها زاب الدوسن، ثم زاب طولقة، ثم زاب مليان، وزاب تهودة، وزاب بادس، وزاب بسكرة.

قبل سيطرة بنو مزني على بسكرة كان يحكمها بنو رمان ثم امتد حكمهم إلى وادي ريغ، أما بنو رمان فقد استندوا بالشورى في بسكرة

أما فيما يتعلق بتأسيس هذه الإمارة فإن السلطان الحفصي حاول حل المشاكل التي تعاني منها مدينة بسكرة نتيجة للصراعات داخل المدينة بين الأسر التي لها مكانة مثل بني رمان والقبائل العربية المحيطة بالمدينة فرأى الاعتماد بالأحوال فضل المزني الذي كان بتونس فعقد له على الزاب وأخيه عبد الواحد على بلاد الجريد.

وكان يهدف من وراء ذلك وقوف القبائل العربية الموالية لبني مزني إلى جانب الدولة الحفصية، ووضع حد للغارات العربية على بعض مدن الزاب وبقية أملاك الدولة الحفصية لأن إمارة الزاب والجريد ستكونان جداران أمام هذه القبائل البدوية.

أما الفضل ابن مزني فإنه تقدم إلى بسكرة وعند وصوله إليها وجد صعوبة في السيطرة عليها لأن بسكرة كانت تحت إشراف بنو رمان الذين كانت مضاربهم بتلك الناحية، دخلوا في صراع معهم ثم انتهى إلى أبعادهم من بسكرة

وعندما تولى السلطة الحفصية السلطان أبو حفص اتصل أبي زكرياء وابنه السلطان المستنصر ثم تناجزوا الحرب وتواقعوا سكك المدينة، وكانت صاغية الدولة مع بني رمان لقديمهم في البلد.

نلاحظ أيضا من نصوص لابن خلدون أن الدولة الحفصية في سياستها نحو بسكرة لم تكن تعتمد على مجموعة معينة بل كانت تقف إلى جانب الأقوى وهو ما يؤكد ابن خلدون بقوله: (ولما خرج الأمير أبو إسحاق على أخيه محمد المستنصر لأول بيعته ولحق بالدواودة من العرب وباع له موسى بن محمد بن مسعود البلط أمير البدو يومئذ واعتمل به بسكرة وبلاد الزاب وأناخ عليها بكلكله)⁽¹⁾.

فاعتماد أبو إسحاق على قبيلة الدواودة وهي من القبائل القوية في تلك المنطقة ووقوفهم إلى جانبه أثناء ثورته على أخيه محمد المستنصر جعل لهم السلطة على بسكرة وبقية مناطق الزاب وأبعد بني مزني لكن هؤلاء لم يعارضوا ذلك لأنهم لم تكن لهم الإمكانيات الكافية بل أيدوا هذا الموقف وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون: (قام يومئذ فضل بن علي بن أحمد بن مزني بدعوته، وأعلن بين أهل البلد بطاعته واتبعوه على كره ثم عاجلتهم عساكر السلطان وأجهضتهم عن الزاب فأعتقل فضل بن علي به

(1) ابن خلدون العبرج 6 ص 52.

واستمسك بديله وصاحبه إلى الأندلس وبادار غربته بها إلى أن هلك المستنصر أخوه وهياً له من أمر الخلافة عقد الفضل بن علي على الزاب ودخل بسكرة واستكان بنو رمان لصولته وانقادوا في مرضاة الدولة⁽¹⁾.

لكن نفوذ بني مزني رجع من جديد لحكم مدينة بسكرة بعد مقتل أبو إسحاق الحفصي وتولى السلطة محمد المستنصر أعاد الفضل ابن مزني لبسكرة وانقاد له المعارضين له وفي مقدمة هؤلاء بني رمان وهو ما يؤكد ابن خلدون بقوله: (وسبم أعداؤه بنو رمان أيام ولايته فدخلوا أولاد حريز من لطيف أحد بطون الأبيج، كانوا نزلوا بقرية ماشاش شرق المدينة حين عجزوا عن الطعن وخالطوا أهل البلدة أخوالهم وامتزجا معهم بالنسب والصهر فأغروهم بفضل بن علي أن يكون التقدم لهم بالفتك به، وتناول الأمر من يده، وأن يخيروا بيوتهم من قرية ماشاش بأيديهم ليسكنوا لديهم ويطمئنوا إلى ولايتهم حلفا عقدوه على المكر بهم)⁽²⁾.

ما نستنتجه من خلال نص ابن خلدون كثرة التحالفات بين القبائل العربية التي استقرت بالبادية المحيطة ببسكرة والتدخل في شؤون المدينة بالتحالف مع فئة معينة داخل المدينة هدفها تغيير ميزان القوة داخل المدينة وبذلك إزالة حكام هذه المدينة من بني مزني عن طريق التصفية الجسدية حين تحينت الفرصة وهو ما ينص عليه ابن خلدون فيقول: (ولما وقعوا به بظاهر البلد في بعض أيام ركوبه سنة 683 ونزلوا من أمير الزاب ما كان يتولاه تنكر لهم بنو رمان لحولين من ذلك الحلف، وناذبوهم العهد فخرجوا عن البلد وفقدوا المأوى، للتمرس بها من قريب ففترقوا في بلد ريغة واستبد بنوا رمان بشورة بسكرة والزاب منتقذين عليهم وعلى السلطان، والدواودة تغلبوا عليه وعلى بلاد الحضنة، من ورائه نقاوس ومقرة والمسيلة).

(1) ابن خلدون العبر ج 6 ص 53.

(2) نفسه، ج 6 ص 54.

لكن الحلف الذي كان بين هذه القبائل كان المقصود به المصلحة بالدرجة الأولى أو هو عبارة عن دهاء سياسي كانت القبائل أو الأسر الحاكمة تهدف من ورائه السلطة وعندما تتمكن من ذلك تلغى الحلف وهذا ما حدث بين بني رمان وأولاد حريز الدين وقفوا معهم ومكنهم من استعادة سلطتهم على بسكرة ثم بعد ذلك تخلوا عنهم فتخلوا عن مضاربهم وتفرقوا في المناطق التي تمتد ما بين بسكرة ووادي ريغ

وكان المنصور بن الفضل بن مزني موجود في تونس فألقي عليه القبض وسجن ولم يطلق سراحه إلا بعد تغلب الأمير أبو زكرياء على بجاية وقسنطينة وبونة واستقل بأمرها واستقل بملكه هذا عن الدولة الحفصية تمسك أهل الزاب بدعوة أبي حفص في تونس وفر المنصور بن مزني من سجنه وتوجه إلى بجاية لازم خدمة كاتب بجاية أبو القاسم بن أبي يحيى سنة 691هـ، فلأزم خدمته وضمن له تحويل الدعوة بالزاب لسلطانه، وتسريب أمواله وجبايته إليه واستماله بذلك⁽¹⁾ من بين الذين وقفوا إلى جانب الفضل ابن مزني من أمراء بني حفص السلطان أبو إسحاق الذي عقد له على بسكرة وما جاورها لكن يبدو أنه لم يجد القبول من سكانها لهذا فبمجرد وفاة السلطان قام ضده المعارضين له وتمكنوا من القضاء عليه سنة 683هـ وبعد مقتله حاولوا الدخول لبسكرة والسيطرة عليها لكنهم وجدوا معارضة من طرف بني رمان وهذا يؤكد ابن خلدون فيقول "كان السلطان أبو إسحاق قد عقد على الزاب لفضل بن علي بن مزني من مشيخة من مشيخة بسكرة كما قدمناه فقام بأمره ولما هلك السلطان غدا عليه بعض أقاريق العرب المواطنين قرى بسكرة يمد أهلة قوم من أعدائه وقتلوه سنة 683هـ وأملوا الاستبداد بالبلد فدفعهم عنها المشيخة من بني رمان"⁽²⁾.

حاول بني رمان أن يحكموا بسكرة كعادتهم ولضمان استمرارهم في السيطرة عليها أعلنوا ولاءهم للدولة الحفصية فبايعوا السلطان أبو حفص لكنهم كانوا يخشون

(1) ابن خلدون العبرج 6 ص 55.

(2) نفسه، ج 6 ص 397.

من عودة بني مزني بسكرة فاتصلوا بالسلطان وبينوا لهم خوفهم من انتقال المنصور ابن مزني إلى بسكرة لاستعادة الإمارة فوافق السلطان طلبهم وسجن المنصور بتونس وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون: (واستقلوا بأمر بلدهم وبايعوا للأمير أبي حفص صاحب الحضرة ودانوا بطاغته على السنن وتوقعوا عادية منصور بن فضل بن مزني فخطبوا فيه السلطان أبي حفص فأمر باعتقاله وأودع السجن سبع سنين إلا أن فر منه ولحق بكرفة من أحياء هلال بن عامر، وعم العرب المتولون جبال أوراس ونزل على الشبه من أفاريقهم فأركبوه وكسبوه ولحق ببجاية سنة 692هـ).

كانت الشخصيات التي لها نفوذ في هذه الفترة التاريخية تستغل الصراع بين أفراد الأسرة الحاكمة وقد حدث هذا في دولة بني زيان وبني مرين وبني حفص ومن بين تلك الشخصيات المنصور بن فضل بن مزني الذي فر من سجنه ثم توجه مباشرة إلى بجاية فتقرب من أميرها الذي ضمن له العودة لبسكرة وهو ما يؤكد ابن خلدون بقوله: (فتزل بباب السلطان ورغبه في ملك الزاب، وصانع الحاجب بن أبي جبي بأنواع التحف وضمن له تحويل الدعوة بالزاب لسلطانه الأمير أبي زكرياء وتسريب جبايته إليه، فاستماله بذلك وعقد له على الزاب وأمده بالعسكر ونزل بسكرة فامتنت عليه ورأى مشيختها بنو رمان بعدهم عن صريخ تونس وإلحاح عدوهم منصور بن فضل عليهم فأعلنوا بطاعة الأمير أبي زكرياء وبعثوا له ببيعتهم ووفدهم ورفع عادية ابن مزني عنهم، فرجعهم بيا أملوه من القبول، وأن تكون أحكامه إلى قائده المهسكري ونظر ابن مزني مصروفا لجباية فقط ولما وصل الوفد إلى بسكرة خرجوا إلى القائد ومنصور بن مزني، فأدخلوها البلد ودنوا الطاعة)⁽¹⁾.

لكن يبدو من خلال نص ابن خلدون أن بني رمان لم تستمر سيطرتهم على منطقة بسكرة وما جاورها لأن بني مزني كانوا يفكرون في إستعادة نفوذهم بالمدينة ويمثلهم المنصور ابن الفضل الذي استغل إطلاق سراحه من السجن فتوجه لبجاية وقدم خدماته لحاجبها أبو القاسم بن يحيى ثم اتفق معه على العودة لحكم بسكرة مقابل

(1) ابن خلدون، العبرج 6 ص 398.

تقديم الجباية التي سيجمعها من القبائل له وعندما علم بني رمان بهذا الاتفاق توجهوا لביجاية راغبين في تنفيذ ما يطلب منهم لصالح أمير بجاية لكنه لم يستجب لهم وهو ما يؤكد ابن خلدون فيقول: (فعمد له على الزاب وأمدّه بعسكر فنازل بسكرة ووفد أهلها بنو رمان على السلطان ببيجاية لبيعتهم فرجعهم على الأعقاب إلى عاملهم منصور بن مزني، وكتب إليه بقبول فتحهم فدخل البلد سنة 693هـ، وكادهم في بناء قصر لشيعة، وتحصن العسكر بسوره ثم نابذهم العهد وثار بهم وأجلاهم عن البلد، واستمكن فيه ورسخت قدم إمارته، واستدار بجاية السلطان، واتسع له نطاق العمالة فاستضاف إلى عمل الزاب جبل أوراس وقرى ريغة وبلاد وركلي، وقرى الحصنة مقرة ونقاوس والمسيلة فعقد له السلطان على جميعها، ودفعه إلى مزاحمة العرب في جبايتها، حتى كاد يغلبهم عليها ووفر أموال للدولة وأنمى الخراج وصانع رجال السلطان فألقوا عليه بالمحبة، وجدبوا بصنيعه إلى أقصى مراتب الاصطناع فأثرى واحتجن الأموال، ووشحت عروق رئاسته بسكرة، ورسخت منابت عزه)⁽¹⁾.

نستنتج من نص ابن خلدون أن المنصور بن مزني عندما تولى إمارة بني مزني في بسكرة استطاع أن يخرج منها أعدائه من بني رمان الذين كانوا ينافسونه السلطة كما استطاع أن يضمن سيطرته على القبائل المحيطة بالمدينة والتي تمتد إلى ورجلان ووادي ريغ وهذه السيطرة جعلته يتحكم في الضرائب التي تدفع من قبل هذه القبائل والتجار القادمين لورجلان وبسكرة من السودان الغربي وغيرها من المناطق التي لها علاقة تجارية مع بسكرة وجزء من هذه الضرائب كان يدفع للسلطان الحفصي مما دفع بهذا الأخير إلى الموافقة على توسيع إمارته فامتدت إلى جبل أوراس وقرى ريغة وورجلان ومنطقة الحصنة المتمثلة في مقرة والمسيلة ونقاوس.

لم يعارض السلطان الحفصي هذا التوسع بالنسبة لإمارة بني مزني لأن النواحي التي يشرف عليها لم تعرف الاستقرار وأن وجود بني مزني جعلهم يؤدون إلى مزاحمة تلك القبائل في جبايتها.

(1) ابن خلدون، العبر، ج6/516.

فأصبح المنصور يجبي الناحية ويكثر الأموال بها ويدخل على حياته الرفاهية، وأصبح بلاطه مقصد الوفود التي تأتيه من مختلف الأرجاء ومن بين هؤلاء عبد الرحمان ويحيى بن خلدون.

بيعة ابن مزني ليحيى بن خالد:

كان المنصور بن مزني قد استوحش من ابن عمر فدعاه إلى القيام بأمره فأجاب وعقد له على حجابته، وجمع له العرب وأجلب على قسنطينة أياما وبها يومئذ ابن طفيل، وكان قد اجتمعت ليحيى بن خالد زعنفه من الأوغاد، واشتملوا عليه واشتمل عليهم وأغروه بآبن مزني على سوء دخلتهم ودخلته فقبض يده من طاعته، ومعه العرب من سليم فأجفل بالزباب ونزل أوماش من قراه وكان به حصن وفرت العرب من الدواودة وسائر رياح أمامه ودفعه يوسف بن مزني بهديته دفعها إليه وهو بمكانه من أماش العبر عودة ابن مزني طاعة السلطان أبي البقاء.

رجع ابن مزني طاعة السلطان أبي البقاء ومخالصة بطانته وحاجبه فتقبلوه، ولحق يحيى بن خالد بتلمسان مستجيشا، ونزل على أميرها أبي زيان فهلك لأيام من مقدمه وولي بعده أخوه أبو حمو موسى بن عثمان فأمدّه بالعسكر وزحف إلى محاربة قسنطينة فامتنعت عليه ثم استدعاه ابن مزني إلى بسكرة فأقام عنده وأسنى له الجراية، ورتب عليه الحرس وكان السلطان أبو اللحياني يبعث إليه من تونس بالجائزة مصانعة له في شأنه حتى لقد أقطع له في تونس من قرى الضاحية، فلم يزل في اسهام بنيه من بعده إلى أن هلك يحيى بن خالد سنة 721هـ.

يبدو أن المنصور بعد أن فرض سيطرته على مدينة بسكرة ومد نفوذ إمارته أصبح يساهم في الصراعات التي عرفتھا الدولة الحفصية سواء تعلق الأمر بإمارة بجاية أو قسنطينة وكان هؤلاء الأمراء يحاولون الاستفادة من هذه الشخصيات أمثال المنصور بن مزني لوجود قبائل متحالفة معهم وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون وهو معاصر لتلك

الأحداث: (كان المنصور بن مزني قد استوحش من ابن غمر فدعاه إلى القيام بأمره فأجاب وعقد له على حجابته، وجمع له العرب وأجلب على قسنطينة أياما وبها يومئذ ابن طفيل، وكان قد اجتمعت ليحيى بن خالد زعنفه من الأوغاد، واشتملوا عليه واشتمل عليهم وأغروه بابن مزني على سوء دخلتهم ودخلته فقيض يده من طاعته⁽¹⁾).

وهنا يلاحظ الباحث تذبذب سياسة السلاطين في ذلك العصر فأحيانا يقفون إلى جانب من يقدم لهم الخدمات وعندما يظهر طرف آخر يقدم لهم الخدمة يتخلون عن الأول لأن الدول لم تكن لها القوة الكافية فكانت تعتمد بالدرجة على قوة شيوخ القبائل كانت هذه القبائل يتشكل منهم الجيش لهذه الدول وفي بسكرة نجد قبائل المنطقة هي التي تحدد سياسة الدولة الحفصية في تلك النواحي لذا كانت سياستها مع القوة الغالبة وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون: (وانصرف عنه إلى بلده وانقضت جموعه وراجع ابن ورحل بن أحمد من بسكرة وصار مع ابن مزني إلى الاتفاق والمهادنة أعوام الأربعين من المائة الثامنة ثم ارتحل إلى الزاب)⁽²⁾ مزني طاعة السلطان أبي البقاء.

كما زاد من أهمية بسكرة في عصره أنها تقع على الطريق التجاري الذي يربط الواحات بتونس ومصر فكانت القوافل التجارية تجتازها فتساعد على تنشيط الحركة التجارية بها وبعد وفاة أبو زكرياء تولى شؤون الدولة أبو البقاء فعقد لمنصور ابن مزني على الإمارة من جديد، كما سمح له بزيادة نفوذ تلك الإمارة حتى تشمل مناطق أخرى تمثل مضارب بني سدويكش وعياض ونواحي القلعة حيث ربطها بإمارته الصراع بينه وبين المرابطين.

عرفت الواحات خلال هذه المدة ظهور حركة معارضة للدولة الحفصية وعلى الخصوص ما يتعلق بسياساتها المالية حيث كان المنصور بن مزني يرهق الناس بالضرائب المفروضة عليهم فناروا عليه وأبدوا هذه الحركة التي كانت تدعوا إلى الأمر

(1) ابن خلدون، ج 6 ص 413.

(2) نفسه، ج 6 ص 413.

بالمعروف والنهي عن المنكر، لأن تلك الضرائب تتنافى مع مبادئ الشريعة الإسلامية وقائد هذه الحركة هو سعادة الذي اتصل بالمنصور ابن مزني وطلب منه التخلي عن المغارم والمكوس تخفيفا على الرعية والعمل بسنة الرسول ﷺ

وعندما رفض الإستجابة على أمره أعلن الحرب ضده فوصل إلى بسكرة مرارا حيث تعرضت المدينة إلى حصار مما دفع بالمنصور أن يرسل جيشا لمواجهةهم فانتصروا عليه وقتلوا ابنه علي ثم دخلوا بسكرة وقطعوا نخيلها.

هذه السياسة التي سلكها ابن منصور وجدت تأييد من قبل الدولة الحفصية التي كان يهيمها بالدرجة الأولى وصول الأموال إلى خزائنها ولا تهمها مصلحة السكان الذين كانوا يعانون من كثرة هذه الضرائب التي تتعارض مع مبادئ الشريعة الإسلامية ومما يؤكد موافقة الدولة أنه في عهد السلطان أبي البقاء امتد نفوذ هذه الدولة فشمّل مناطق جديدة وهو ما يؤكد ابن خلدون فيقول: (وعندما تولى السلطان أبو البقاء عقد له على بلاد التل من أرض سدويكش وعياض فاستضافها إلى عمله، وجرد عن ساعد جده في جبايتها، فلقح عقيمها وتفجرت ينابيعها)⁽¹⁾.

لكن هذا النفوذ لم يطل كثيرا لأن التغيير الذي حدث للدولة الحفصية بعودة السلطان الحفصي يحيى بن خالد من تلمسان ووصوله لقسنطينة جعله يتخلى عن ابن مزني ويعقد تحالف مع الداوودة على حساب المنصور بن فضل ابن مزني وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون: (ثم حدثت بينه وبين الدولة منافرة فأجلب على قسنطينة يحيى بن خالد بن السلطان الذي كان بتلمسان وباع له، واستألف الداوودة لمشايعته ونازل به قسنطينة ثم اطلع على كامن صدره فيه وما طوى عليه من التربص به فحل عقده ولحق ببسكرة، وراجع الطاعة ولحق به يحيى بن خالد فاعتقله إلى أن هلك سنة 720هـ)⁽²⁾.

(1) ابن خلدون العبرج 516/6.

(2) نفسه، ج 516/6.

عرفت بسكرة في هذه المرحلة اضطرابات السبب فيها الثورة التي قادها سعادة أحد رجال الطرق الصوفية في المنطقة وكان من بين أسبابها رفض سياسة الجباية التي سلكتها إمارة بني مزني لذلك وجدت تأييد من طرف القبائل التي تأثرت بهذه السياسة حيث كانت تدفع لإمارة بني مزني أموالا طائلة وهو ما يؤكد ابن خلدون حيث يقول: (وكانت بينه وبين المرابطين أهل السنة من العرب أتباع سعادة المشهور الذكر علي وعلى المرابطين يحيى بن أحمد أخوه حروب، طالبوه بترك المغارم والمكوس⁽¹⁾ تخفيفا على الرعية وعملا بالسنة التي كانوا ملتزمين بطريقها، ونازلوه من أجل ذلك ببسكرة مرارا ثم هلك سعادة في بعض حروبه على مليلي سنة 750هـ⁽²⁾).

لم يتخلى ابن مزني عن سياسته الجبائية بل واجه الثوار بالسلاح فأرسل لهم جيشا بقيادة أحد أبنائه وحلفائه من الدواودة ولم يتمكن هذا الجيش من تحقيق الانتصار لأن هؤلاء المرابطين انضم إليهم بعض شيوخ القبائل المعارضين لابن مزني وللدواودة وهو ما ينص عليه ابن خلدون بقوله: (وجمع منصور بن مزني للمرابطين، وبعث عسكره يقوده ابنه بن منصور مع علي بن أحمد شيخ الدواودة وعلى المرابطين يحيى بن أحمد أخوه ومعه رجالات المرابطين مثل عيسى بن يحيى بن إدريس شيخ أولاد عسكر، وعطية بن سليمان بن سباع وحسن بن سلامة شيخ أولاد طلحة فهزموا عسكر ابن مزني وقتلوا ابنه وتقيضوا على علي بن أحمد، ثم منوا عليه وأطلقوه ورجعوا إلى بسكرة فنازلوها وقاطعوا نخيلها ثم عاودوه ثانية وثالثة⁽³⁾).

يبدو أن بسكرة أصابها الخراب في هذه الثورة كما حدث خلال ثورة ابن غانية فقد قام هؤلاء الثوار بقطع نخيلها خلال الهجوم عليها.

(1) ابن خلدون العبر، ج 6 ص 516.

(2) نفسه، العبر ج 6 ص 513.

(3) نفسه ج 6 ص 514.

أما مصير المنصور بن فضل فكان على يد حلفائه من الدواودة الذين اغتتموا زيارته لمدينة بجاية فقبضوا عليه ولم يتمكن من إطلاق سراحه إلا بعد دفعه فدية لهم قدرت بخمسة قناطر من الذهب وهذه القيمة تؤكد ما كان يقوم هذا الأمير بجمعه من الأموال وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون: (كانت له علاقة بالحاجب بن غمر وقد شاركه في مؤامراته ضد السلطان الحفصي لهذا عندما رجع الحاجب إلى قسنطينة صرفه إلى عمله بيسكرة وكان يتردد إليه في بجاية للمطالعة والزيارة إلى أن غادر به العرب في بعض طرقه إليها وتقبض عليه من أمراء الدواودة علي بن أحمد بن عمر وأوثقوه وهموا بقتله فاقتردى منهم بخمسة قناطر من الذهب، وارتشوا بمكسوبهم وصرفوا في وجوه رئاستهم انتقاما وقبض منصور بن علي العنان في السفر)⁽¹⁾.

مساعدة الدولة الزيانية للثوار:

اغتنم السلطان الزياني هذه الوضعية فاتصل بالمنصور بن مزني وطلب منه المبايعة مقابل تقديم له المساعدة من قبل الزيانيين في تلمسان فوافق على ذلك و أعلن بيعته للدولة الزيانية، وأصبح معارضا للدولة الحفصية، مما جعلها ترسل مرارا قواتها العسكرية انطلاقا من بجاية للقضاء عليه إلا أنه بقي ممتنعا عليها إلى أن توفي سنة 725هـ ثم بايع ابن مزني أبو تاشفين الأول سلطان بني زيان وبقي ممتنعا عن الدولة الحفصية والعساكر من بجاية تتردد لمنازلته إلا أن هلك سنة 725هـ وقام من بعده ابنه عبد الواحد فعقد له السلطان على عمل الزاب، واستضاف إليهما وراءه من البلاد الصحراوية قرى ريغة ووركلي.

ثم تخلى عن الدعوة الحفصية وأعلن الولاء لبني زيان إلا أنه قتل نتيجة لمؤامرة قام بها أخوه يوسف وتولى بعده سنة 729هـ.

(1) ابن خلدون العبرج 6 ص 335.

بعد حملة السلطان أبو الحسن على تلمسان ومقتل أبو تاشفين تحلى بنو مزني عن الولاء واستمرت الصراعات بينهم وبين القبائل العربية في منطقة الزاب وعلى الخصوص بينه وبين أحمد كبير الدواودة دعا إليها علي في استشارة بأموال الجباية دونه فوضعه الحرب ودعا العرب إلى مناوئته مموها بالدعاء إلى السنة وحاشد أهل ريغ لذلك ونازله، وانحرف عنه ابنه يعقوب ودخل إلى بسكرة فأصهر له ابن مزني في أخته بنت منصور بن الفضل وعقد له عليها فحسن دفاعه عنه، وبعث ابن مزني عن سليمان بن علي كبير أولاد سباع، وقرع علي بن أحمد في شوله، فكان عنده ببسكرة بغاياه القتال ويراوحه إلى أن امتنع ابن مزني ورحل علي بن أحمد من بسكرة، وصار مع بني مزني من الاتفاق والمهادنة أعوام الأربعين من المائة الثامنة 740هـ⁽¹⁾، واستقل يوسف بعده بإمارة الزاب، ثم وصله السلطان الحفصي بالتقليد والخلع حسب العادة الجارية مما جعل يوسف يدعو للدولة الحفصية بالمساجد التابعة لإمارته وضرب السكة باسمها

لكن الأمور تغيرت بعد استدعاء محمد بن سيد الناس من بجاية وتولى الحجابة وقد سبق أن وقع بينه وبين يوسف بن منصور.

وفي تلك الفترة حدث صراع بين يوسف ويعقوب شيخ الدواودة لأنه استشار بالجباية ولكي يتمكن من مد نفوذه على حساب هذه القبيلة وصهر له فزوجه من أخته ابنة منصور بن فضل، ثم بعث ابن مزني إلى إسحاق بن علي كبير أولاد سباع وقرب علي بن أحمد في شؤونه ببسكرة وبذلك تمكن من قمع، شمل الشيوخ الذين ربما يستغلون الوضعية ضده وهو ما جعل الدولة الحفصية تسلك نحوه طريقتين:

الأولى: التقرب منه وتمثل ذلك في وصول علي بن محمد إلى بسكرة حيث اتفق مع ابن مزني على مهادنة الدولة الحفصية وكان ذلك سنة 740هـ/1340م.

هذا من ناحية ومن الناحية الأخرى أرسل السلطان الحفصي أحد قواده لمهاجمة الزاب، الذي هو تحت إمارة ابن مزني فلم يحاول التصدي له بل اكتفى بتقديم هدية له مما جعله يرتحل إلى وادي ريغ فافتتح معاقل تلك الجهة ثم تعرضت بسكرة إلى حملة عسكرية قادها القائد الحفصي ابن الحكين الذي نهض إليها ونازل بلد أوماش من قرى الزاب وفرت العرب من الدواودة وسائر رياح أمامه، ودافعه يوسف بن مزني بهدية فرحل عنه إلى بلاد ريغ فافتتح توقرت معقلهم واستباحها ودوخ سائر أعماله ثم رجع إلى تونس وعندما تولى السلطان أبو حفص عمر وفد عليه يوسف بن منصور فعقد له على الزاب وما وراءه من قرى ريغة ووركلي، وصرفه إلى عمالته وأمره برفع الجباية إليه.

عندما تولى شؤون الدولة المرينية، أبو الحسن المريني قام بحركة تشمل توحيد المغرب الإسلامي تحت ظل الخلافة المرينية، فاستولى في البداية على أملاك الدولة الزيانية بعد مقتل السلطان أبو تاشفين الأول بتلمسان، فتقدم نحو الغرب فاستولى على إقليم مغراوة وبني توجين، وتقدم نحو بجاية فاتصل به يوسف بن مزني سنة 748هـ/1351م، فعقد له على الزاب وما وراءه من قرى ورجلان وريغة وبذلك أصبحت إمارة بني مزني تابعة للدولة المرينية بفاس

واستمر هذا الولاء في عهد السلطان أبي عنان الذي تولى الإمارة بعد أبيه الحسن المريني فاتصل به يوسف بن مزني وأعلن الطاعة له وأوصله بكتاب بيعته ثم وفد عليه سنة 754هـ/1357م

وعندما افتتح أبو عنان سنة 758هـ/1359م، تلقاه يوسف بن مزني على قسنطينة فنظمه في طبقات ووازنه وجعله من جلسائه مما جعل سياسة يعقوب شيخ الدواودة تتغير نحو ابن مزني فانتفض على الإمارة وحياتهم بلاد الزاب ومن ورائها الواحات الصحراوية.

فارتحل السلطان المريني لمواجهة، فوصل الزاب وخرب بلاد يعقوب بن علي فقطع أشجارها وغور مياهها وهدم بنائها⁽¹⁾.

(1) ابن خلدون، العبر، ج6 ص 516.

يتجلى للباحث من خلال هذه النصوص التي أوردها ابن خلدون المعاصر لتلك الأحداث أن بلاد الجزائر قد عرفت تدمير شامل خلال هذه الحروب التي كانت تقوم بها دول المغرب الإسلامي ودفعت بالقبائل التي لا تستطيع المواجهة إلى ترك مناطق التل والواحات والاتجاه نحو أعماق الصحراء الجزائرية.

أما البعض فكانوا يعلنون ولائهم لتلك الدولة ويقبلون ما يفرض عليهم من ضرائب ومن تموين الجيش المحارب وهذا ما حدث لابن مزني فعندما استولى أبو عنان على ملك الدولة الحفصية على الخصوص بجاية وقسنطينة بادر يوسف بن منصور بطاعته فأثاها طواعية: لم يتوقف عن هذا الحد بل كان يقوم بزيارته مرارا وعمد أيضا على جلب حلفائه له مثل يعقوب بن علي أمير الدواودة وهذا ما جعله يكلفه بأمانة بسكرة وما جاورها وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون: "وأوفد وفدا على السلطان رسله بكتاب بيعته ثم وفد عليه ثانية مع يعقوب بن علي أمير الدواودة وعقد ليوسف بن مزني على الزاب وما وراء إلى من بلاد ريغة ووركلي على عادته، فغري يوسف بن منصور في قرى عسكره أيام مقامه شملهم فيها من العلوفة والخنطة واللهمان والأدم بما أرغد عيشهم وكفاهم مهامهم وتحذقت بها الناس دهرا ورفع إليه جباية الزاب لعامة قناطر من الذهب دفعه ببيت المال فقيضه القهارمة من ثقاته وأجزل السلطان مئوبته وأسنى عطيته، واختصه بكسوة ثيابه وعياله من كسى حرمه وثساب قصره وأنكفا راجعا إلى حضرته ثم أوفد يوسف بن منصور ابنه إلى فاس سنة 759هـ / 1360 فاستقبله السلطان وأصبحه هدية".

نستنتج من نص ابن خلدون أن مقابل هذا التعيين من قبل السلطان المريني وفر ابن مزني كل ما يحتاج له الجيش المرافق للسلطان كما قدم له أموال الجباية التي جمعها من القبائل الخاضعة لسلطته هذه المساعدة التي قدمها للدولة المرينية جعلت هذه الدولة تتحالف معه وتستدعيه إلى فاس فتقدم لزيارتها واستقبل من قبل أبي عنان وأغدق عليه الأموال والهدايا التي تليق بمقامه لكن ابن مزني لم يبارح فاس إلا بعد وفاة أبي عنان

وبعد الوفاة سرحه خليفته وأمر القبائل التي على الطريق بين فاس وتلمسان أن تضمن أمن مروره وعندما وصل إلى تلمسان فاتصل بأحد شيوخ بني عامر الذي ضمن له المرور خشية من سجنه من طرف بني زيان لتحالفه مع المرينين⁽¹⁾.

ويعلق ابن خلدون على الهدية التي قدمت له بقوله: (عتاق الخيل وفاره الرقيق، وأقام أياما في نزل كريم ومحل من المجلس رفيع إلى أن هلك السلطان سنة 759 / 1360 فصرفه القائن بعد ذلك بدولته وصرفه مع هديته واستوصى به أمراء النواحي والثغور وعندما وصل إلى قليم تلمسان استقبله شيخ لبني عامر صغير بن عامر فأوصله إلى يسكرة ولم يتمكن بنو زيان من القبض عليه)⁽²⁾.

بعد وصوله إلى يسكرة اتصل بالسلطان الحفصي وأعلن ولاءه للدولة واستمر على هذا الولاء حتى وفاته سنة 767 / 1368⁽³⁾.

لكن يبدو من خلال النصوص التاريخية أن الدولة الحفصية لم تعتمد على عائلة ابن مزني فقط لضمان الأمن في منطقة الزاب ووصول الجباية للدولة بل كانت تكلف بعض قادتها للقيام بالهجوم على القبائل المستعصية على الدولة وفي هذا الصدد يشير ابن خلدون إلى أحد هؤلاء القادة فيقول: (ونازل بسكرة غير مرة يدافعه يوسف بن منصور بن مزني يذمه عليه يدعيها من السلطان أبو بكر وسلفه ويعطيه من الجباية عن يد ما كان يعطيه من الاعتلاق لخدمة السلطان أبي الحسن فيتجافى عنه ابن الحكيم لذلك بعد استيفاء مغارمه⁽⁴⁾ وزحف إلى بلاد ريغة فافتتح قاعدتها توقرت، واستولى على أموالها ودخيرتها، وسار إلى جبل أوراس فافتتح الكثير من معاقله)⁽⁵⁾.

(1) عن هوارا وانتشار مضاربها بالمغرب الإسلامي، انظر ابن خلدون العبر، الجزء الأول، ص 176.
لقبال دور كتابة في تاريخ الدولة الفاطمية ص 75 - 78

(2) هذا الموضوع، انظر رسالتنا الصراع بين الأمويين والفاطميين على السيادة بالمغرب الإسلامي ورقة 149.

(3) عن ثورة أبي يزيد خلد بن كيداد، انظر ابن عذارى: البيان، الجزء الأول، الصفحة 273.

(4) نفسه، ج 1 ص 273.

(5) نفسه، ج 1 ص 519.

بعد هجرة ابن خلدون إلى المشرق لم يتوقف عن متابعة أحوال بلاد المغرب الإسلامي فكان يتصل بالمهاجرين المغاربة القادمين إلى مصر ويستفسرهم عن أحوال البلاد ومنها مدينة بسكرة وأميرها ابن مزني: يقول أن حركة السلطان الحفصي كانت سنة 1387/786.

يبدو أنه من بين العوامل التي دفعت السلطان الحفصي إلى القيام بهذه الحركة أن ابن مزني الذي كان قد أعلن الولاء للدولة الحفصية بعد نهاية الهجوم المريني في عهد السلطان أبي عنان وبالتحديد بعد وفاة هذا السلطان وعودته من فاس حاول أن يستقل بمنطقة الزاب على الدولة الحفصية حيث تخلى عن تقديم الجباية التي كان يدفعها لها ووجد التأييد من طرف بعض شيوخ القبائل العربية الذين لهم نفوذ في المنطقة نذكر من بينهم يعقوب بن علي شيخ الدواودة وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون: (وسببها أن أحمد بن مزني صاحب بسكرة والزاب كان مضطرب الطاعة يجير على السلطان ويمنع في كل السنين المغارم معولا على مدافعة العرب الذين ملكوا ضواحي الزاب والتلول دونه وأكثر وثوقه في ذلك يعقوب ابن علي وقومه الدواودة ثم نهض السلطان سنة 1387/786 بعد أن جمع الجموع وحشد الجنود واستألف العرب من بني سليم فصاروا معه وأوعبوا ومر على فحص تبسة ثم خرج من طرف جبل أوراس إلى بلد تهودة من أعمال الزاب وأعصوب الدواودة ومن تبعهم من قبائل رياح على المدافعة دون يسكرة والزاب غيرة من بني سليم أن يترقوا أوطانهم أو يردوا مراعيهم ابني سباع بن سبل من الدواودة فإنهم تحيزوا إلى السلطان واستنفر ابن مزني حماة بلده ورجاله قومه من الأثبج فعصت بسكرة بجموعهم وتوافت الفريقان وناوشهم السلطان القتال أياما وهو يرأس يعقوب بن علي ويستحثه لما كان يطعمه به من المظاهرة على ابن مزني ويعقوب يخادعه

بانحراف قومه عنه وإستلافهم على ابن مزني ويرغبه في قبول طاعته ووضع أوزار الحرب مع رياح حتى تتمكن له فرصة أخرى فتقبل السلطان نصيحته وأغضى لابن مزني ورياح عنها، وقبل طاعته وضريبته المعلومة وامكفا راجها ومر على جبل أوراس إلى قسنطينة ومنها عاد إلى تونس.

بسكرة في العصور الحديثة:

دخول الأتراك:

فلما وقع ما وقع ببلد بسكرة، وخرجوا أهلها ودخلوا الترك بها فأتوا إليه ببائة وثمان تركي وخمسمائة فارس فغاروا عليه وقتل بعض ممن معه فلما سمع بذلك أمر أهل البلاد أن يخرجوا للقتال معه، وإلا نقتلكم قبل التركي، فبعث التركي إليهم: أخرجوا قاتلوا معنا وإلا نولوا عليكم فصاروا في أمرهم، فقال بعضهم: إياكم، أتبعو التركي لأن هذا الرجل وحده وسيخرجوه لا بد، ثم خرجوا أهل البلد مع التركي.

كان أول اتصال العثمانيين ببسكرة سنة 1534م في عهد حسن آغا ويذكر العدوانى القريب من الحدث أن الترك دخلوا بها فأتوا ببائة وثمانين تركي وخمسمائة فارس فأغاروا على حاكمها الذي عاث في البلاد فسادا فالحقت بسكرة ببيايلىك الشرق وضمت الواحة الجنوبية حتى توقرت سنة 1552 خلال العهد العثماني زارها مجموعة من الرحالة منهم الدرعي الذي يقول عنها "دخلتها وزرنا مسجدها وقد علق عن المسجد بقول مثذنته غاية الاتقان والمثذنة واسعة تستطيع الدابة الصعود إليها وإدراجها مائة أربعة وعشرين درجة والمسجد في غاية السعة والاتقان"⁽¹⁾ إلا أنه قل عامره وضعف شيوخها حسب تعبير صاحب الرحلة ولم يرى بينهم المدرس والقارئ على الرغم من المدينة في عصره تعتبر عاصمة الزيبان وعوامل تطورها حسب الرحالة ترجع بالدرجة الأولى إلا أنها جمعت بين

التل والصحراء فهي بوابة الصحراء ذات نخيل وزرع كثير لكن المشاكل التي واجهتها المدينة ترجع في رأيه إلى العنصر التركي الذي أثر على سكانها وفي هذا الصدد يقول "إلا أنها أبتليت بالأتراك والعرب فأحيانا يستولي عليها هؤلاء وأحيانا أولئك لم تستطع لدولة السيطرة عليها إلى بعد إقامة حصن على رأس العين الذي يأتي منه الماء إلى بسكرة فتمكنوا من البلد كما اجتمعت عليها غارات لعرب من الخارج وضم الأتراك من الداخل وقد أشرفت على الخراب"⁽¹⁾.

كما تعرضت إلى الوباء الذي أصاب المدينة خلال رحلة الدرعي وعلق عليه بقوله بأنه وباء مفرط مات فيه ببسكرة نحو سبعين ألف لأن هذا الرقم يبدو لي أنه مبالغ فيه إذ كان عد المتى سبعين ألف فكم يكون عدد من تبقى من سكان المدينة.

وعندما زار الدرعي المدينة وجد آثار الوباء ماثلة للعيان علق على ذلك بقوله "وجدنا أكثر حوما ومساجدها خالية من السكان".

(1) الدرعي، الرحلة، ورقة 122.

الحياة الفكرية بسكرة:

تعتبر بسكرة من بين المراكز الفكرية في العصور الوسطى فقد نسب إليها مجموعة من العلماء نذكر منهم على الخصوص أحمد بن يوسف بن منصور بن الفضل بن علي بن أحمد بن حسن الفزازي البسكري المغربي ن والد ناصر بن مزني وهذا الأخير ينتسب إلى أسرة ابن مزني العربية التي حكمت بسكرة فترة من الزمن

وإن انتقال هذا العالم الجليل إلى المشرق يرجع بالدرجة الأولى إلى سوء الأحوال السياسية بسكرة حيث قام سلطان الدولة الحفصية بتصفية أملاك هذه الإمارة وهو ما جعل صاحب كتاب الضوء اللامع يقول عنه أنه كان من أمراء العرب صاحب ثروة ومعرفة فغضب السلطان منه فأوقع به فانتقل هو وأهل بيته إلى القاهرة حيث كان والده بها وذلك بعد سنة 803هـ ولم يفكر في العودة إلى بسكرة بل فضل الاستقرار بها حتى توفي بها

ومن العلماء الذين نسبوا إلى مدينة بسكرة (عبد الله بن إبراهيم البسكري المغربي) نزيل بيت المقدس لا نعرف تاريخ مولده وهجرته إلى بلاد الشام لأن السخاوي كعاداته يكتفي بذكر أحوال هؤلاء العلماء بالمشرق ويسكت عن حياتهم بالمغرب قبل انتقالهم إلى المشرق.

ومن بين العلماء الذين نسبوا إلى مدينة بسكرة (أبو إسحاق بن عبد الملك الملوحي)⁽¹⁾ وملوشن هي قرية من بين قرى الزاب الكبيرة المطلة على جبل أوراس.

قال عنه أبو العرب كان أبو القاسم الفقيه رحمه الله ذكر عنه ابن شلبون أنه كان يروي أن الإمام سحنون بن سعد دخل على الأمير محمد بن الأغلب أول يوم من شهر رمضان، فوجده جالسا فقال له أراك أيها الأمير خال البال فقال نعم انفردنا في هذا الشهر المعظم وخلقونا فيه وتركنا ما كان لغير الله عز وجل، فقال سحنون فأين أنت

(1) كان من بين رواة أحداث فتح بلاد المغرب لم يصل كتابه إلينا وهو يعتبر أقدم مصدر مغربي.

أيها الأمير من إسحاق الملقب بـ"إسحاق" يحدثك بأخبار الأمم السالفة والأعوام الغابرة فقام محمد بن الأغلب بإحضاره، فكان يحضر عند محمد بن الأغلب في كل يوم يحدثه بذلك حتى انقضى شهر رمضان⁽¹⁾.

قال أبو العرب وسمعت بعض المشايخ ممن يرون من الأخبار يحدث عن إسحاق بن عبد الملك الملقب بـ"إسحاق" أنه قال لم يدخل إفريقيا قط، وأول من دخلها بالإيمان بعض حواربي عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام وهذه منه فائدة جليلة تيسر لنا الطريق في البحث حول خالد بن سنان.

لكنها في العهد العثماني يبدو لي أنها فقدت مكانتها العلمية وهو ما يؤكدده الدرعي بقوله "مساجدها خالية من العلماء"⁽²⁾ إلا أنه يذكر بعضهم ومنهم محمد الصالح الذي قال في شأنه هو رجل من أهل الخير له مسجد بزاء داره يلزم فيه الصلوات الخمس ويجمع حوله أناس من أصحابه يذكرهم ويعلمهم ومن هؤلاء العلماء أيضا عبد الواحد الرماني وهو أيضا رجلا من أهل الخير درس صحيح البخاري ببسكرة.

مدينة طولقة:

تقع مدينة طولقة بالقرب من بنظليوس تتشكل من ثلاث قرى كانت غرب وشرق ضاحية المدينة الحالية وهي التي تعرف اليوم باسم برج طولقة، ويرى ستيفان غزال، أنها توجد بالقرب من المدينة الحالية مجموعة من الصخور الرومانية شمال منارة طولقة ولعلها هي المدينة الرومانية

يبدو أن المسلمين لم يشيدوا مدينة جديدة بل حافظوا على المدينة الرومانية القديمة، لأن المصادر التاريخية التي تمكنا من الاطلاع عليها لم تشر لنا بأن المسلمين

(1) عبد الرحمن الجيلالي شخصية لامعة من الأوراس رواية شفهية 1989.

(2) الدرعي، المصدر السابق ورقة 123.

هدموا مدن الناحية سواء قبل معركة تهودة أو بعدها ولم يتعرض الرحالة لطولقة قبل البكري⁽¹⁾ ولعل السبب في ذلك، أن الواحات في تلك المدة لم تكن لها أهمية تذكر لأن دولة الأغالبة ثم الفاطميين فيما بعد ركزوا على مدن الهضاب العليا

أما مظهرها العمراني فقد ذكر البكري بأنها تتألف من ثلاث مدن عليها سور من الطوب ولعل استعمال تلك المادة يرجع إلى الظروف الطبيعية للمنطقة حيث لا يزال سكان طولقة يشيدون منازلهم بالطوب بدل الحجارة إلى يومنا هذا وذلك لقلة الصخور بالناحية لقد كانت الخنادق المحيطة بكل المدينة كما ذكرها البكري بقوله: (طولقة من بلاد الجريد وهي ثلاث مدن كلها عليها أسوار وخنادق)⁽²⁾.

عناصر السكان:

كان سكان طولقة في القرون الأولى للهجرة يتشكلون من القبائل العربية ولعل أغلبهم ينحدرون من الجند الذين رافقوا الفتوحات الإسلامية للمغرب، ففضل البعض منهم الاستقرار بها.

كانوا من القبائل البربرية أو من المولدين كما هو الحال في مدينة بسكرة، ولعل عدم تمركز هؤلاء في مدينة واحدة يرجع بالدرجة الأولى إلى الصراع الذي اشتد بين اليمانيين والقيسيين⁽³⁾ في عهد الأمويين والذي امتد من المشرق إلى المغرب والأندلس وكان من العوامل التي أدت إلى سقوط هذه الدولة، وبعد القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر ميلادي، نجد طولقة من بين المدن التي تعرضت إلى الهجرة الهلالية فقد انتقل إلى ضواحيها يعقوب بن علي من شيوخ رباح فاخبط بها قرية فرفار قرب طولقة ومن الذين قصدوها ابن خلدون عبد الرحمان خلال زيارته للمنطقة سنة

(1) البكري، المغرب ص 53.

(2) نفسه، ص 53

(3) عن القيسيين واليمانيين ودورهم في أحداث المغرب الإسلامي، انظر حسن محمود: قضايا في التاريخ الإسلامي الصفحة 167 المغرب، ص 53.

780هـ/1378م، كما استقر بها أولاد سباع بن يحيى وقد كان للهجرة الهلالية تأثير سلبي على سكان المدينة فقال عنهم بأنهم فقراء مرهقون بالضرائب التي فرضت عليهم من قبل القبائل العربية والدولة الحفصية⁽¹⁾.

الزراعة:

أما النشاط الزراعي لطولقة فيقتصر على إنتاج التمور ويبدو لي أنها نفس التمور التي كانت تنتجها الناحية خلال هذه الفترة بالذات

وتتميز بقلّة المياه لذلك استعمل سكانها نظام المداومة في ري بساتينهم وفي هذا الصدد كان كل مزارع يجلب إلى حقله الماء خلال ساعة أو ساعتين حسب مساحة أرضه، ولا تزال ظاهرة المداومة في ري بساتين النخيل لحد الآن في أغلب الواحات

قصر بنطيوس:

يقع في بلدية بنطيوس بالقرب من ليوة ويبعد عن بسكرة بـ 45 كلم

لقد أغفلت المصادر التاريخية ذكر تاريخ تأسيس القصر الأمر الذي نميل إلى الاعتقاد أنه بني خلال القرن الحادي عشر الميلادي ونؤكد على ذلك من إشارة البكري الذي يقول ومدينة بنطيوس وهي من بنيان الأول وتشرب بسكرة من نهر كبير يجري في جوفاً منحدر من جبل أوراس⁽²⁾.

وقد أكد في نص آخر أن بنطيوس وهي ثلاثة مدن كلها عليها السور وخنادق وحولها أنهار وهي كثيرة البساتين والأعناب والنخيل وجميع الثمار تنقل من بنطيوس إلى بسكرة.

قصر تنومة:

يقع القصر في زريبة الوادي شرقي بسكرة ويبعد عنها بحوالي 115 كلم وقد أشار إليه ابن خلدون عندما تعرض إلى التواجد الهلالي بإقليم الزاب فقال: "وغلبه

(1) البكري، المغرب، ص 51.

(2) ابن خلدون، العبرج 6 ص 30.

رياح والدواودة فنزلوا بلاد الزاب واتخذوا فيها الأطم والمدن مثل الدوسن وغريبوا وتهودة وتنومة وهم لهذا العهد من جملة الرعايا الغارمة لأمير الزاب وبينهم وبين قصورهم بالزاب فتن متصلة بين المتجاورين منهم وحروب وقتل وعامل الزاب يدرأ بعضها ببعض⁽¹⁾.

رباط سعادة:

يقع في قرية فرفار بأنحاء مدينة طولقة وقد أشار إليه ابن خلدون فقال: "وأعز إلى أهل طولقة بالقبض على سعادة فخرج منها وابتنى بأنحائها زاوية ونزل بها هو وأصحابه ثم جمع بها أصحابه المرباطون وكان يسميهم السنية".

وقال في نص آخر "وأقام المرباط سعادة بزاويته بزاب طولقة وجمع من كان إليه من المرباطين المتخلفين عن الناجعة وغزا مليلي وحاصرها أياما".

حصن أوماش:

يقع جنوب غرب بسكرة على مسافة 22 كلم وقد ورد ذكره عند ابن خلدون فقال "كانت مدينة الدوسن نقطة إستراتيجية عثر الأثريون فيها على بقايا مطاحن داخل القصر الشيء الذي يؤكد أن مدينة الدوسن عبارة عن مخازن للمؤونة الرئيسية لمنطقة الزاب والمتمثلة أساسا في القمح والشعير".

مدينة بادس:

مدينة بادس وهي مدينة زراعية هامة استمدت شهرتها من مواردها الزراعية ومن كونها من المراكز العسكرية الهامة على الطريق الروماني الجنوبي ولا تزال بقايا السدود وخزانات المياه ماثلة للعين شمال المدينة وبالتحديد عند خنقة سيدي ناجي.

مدينة بادس أو باديس كانت معروفة منذ العهد الروماني حيث تقع في جنوب الأوراس وتمثل هي ومدينة تهودة جدارا يحجز جنوب المدن التي تجتاز أوراس⁽²⁾ بين

(1) ابن خلدون، العبر، ج 6 ص 30.

(2) ابن الأثير: الكامل، الجزء الثامن 210.

وادي العرب وسهول الصحراء انطلاقاً من طبنة وبسكرة وتهودة التي توجد على بعد يوم واحد من باديس في اتجاه الشرق على الطريق المتوجه إلى تبسة وحسب ابن خلدون فإن المسافة بينها وبين تهودة يوم واحد والإدريسي⁽¹⁾ يحدد تلك المسافة التي تربطها بالمسيلة بأربعة أيام

وبادس على الطريق التجاري الذي يربط وهران بالقيروان أما عن اعتناق سكانها للدين الإسلامي فيظهر أنه تم قبل الحملة الثانية التي قادها عقبة ابن نافع في اتجاه السوس وعاد إليها عقبة بعد أن وصل إلى طبنة ثم توجه إلى تهودة وبادس لتفقدتهم، وهو ما تؤكدته النصوص التاريخية التي تناولت معركة تهودة، وفي تلك المدينة تحتوي على قوة عسكرية بيزنطية تشرف على مراقبة الطريق التجاري الذي يربط تهودة بالقيروان وقبائل الأوراس التي تشكل خطراً على الحصون البيزنطية المتواجدة بجنوب أوراس

أصبحت مدينة بادس تحتل أهمية إستراتيجية في عهد الأغالة والفاطميين وقد قصدها أبو يزيد مخلد بن كيداد⁽²⁾ عند إعلانه للثورة ضد الدولة الفاطمية ولعل ذلك يرجع إلى أن السكان المجاورين لها كانوا من الإباضيين.

الزراعة:

أما الأراضي المحيطة بمدينة بادس فكانت تتميز بخصوبتها، حيث ذكر البكري أن الإنتاج بها مرتفع حيث أن السكان يزرعون مرتين في العام ومن بين المحاصيل الزراعية نجد الشعير، والقمح، كما تتميز بإزدهار النشاط التجاري، لأنها تقع على الطريق الذي تعبره القوافل التجارية، مما أدى إلى ازدهار المبادلات التجارية بين سكانها وتلك القوافل التي تمر بها، فقد ذكر البكري من بين مرافقها الأسواق.

كما أنه يعتقد أن سكانها كانوا يتعاملون مع المدن المجاورة لها، كبسكرة وتهودة وطولقة.

(1) طالبي، المرجع السابق، الصفحة 126.

(2) صفة المغرب، الصفحة 86.

مدينة وادي سوف:

وادي سوف:

يقول العدواني عن مدينة سوف، "سوف أول من ملكها لؤي بن لونان من ذرية بني هلال وقاموا بها مدة حتى ظنوا أنه من أهلها، نحو أربعون سنة، ثم أخرجهم بني مرداس وقاموا فيها أربعين سنة وظنوا أنهم أهلها ثم أخرجهم منها ابن مرين بن زال من ذرية بني عافية، ثم نزل عليهم عدوان، هذا الذي تحدثكما عنه وأخرجوهم منها وعندنا في الكتب القديمة أن عدوان يملكوهم طائفة من العرب يسمى أميرهم بطرد وتسمى القبيلة بطرود، وهم أهل سوف، ولا يكون لهم غالب فيها، ولا يخرجهم أحد إلا الله إلا أن تقوم الساعة"⁽¹⁾

وفاة طرود ووصايته:

قال أوصيكم إذا مات أحدكم فلا تضجعوه كالنائم، فإذا فعلتم كذلك نقصت حرمتكم، وإذا حكمتهم هذه البقعة فانزلوا سوف فهي داركم⁽²⁾.

هناك رواية أخرى يذكرها العدواني عن وادي سوف فيقول: أن سوف كانت خالية من لدن آدم عليه السلام إلى زمن إبراهيم الخليل، ثم عمرت وقت العمالة أربعين عاما ثم خربت إلى زمن داود عليه السلام ثم أعمرت أربعين عاما ولها حظ كامل وعمارة قوية، ولليل يجري عليها ثم خربت إلى زمن لؤي فأعمرها أربعين عاما، ثم أتوا إليهم بني مرين فأخرجوهم منها وعمرها أربعين عاما، ثم أتوا إليها زناتة وعمرها أربعين عاما، ثم أتوا إليهم عدوان فأخرجوهم منها وعمرها أربعين عاما والبعض يرى أنها سميت بمسوفة نسبة إلى قبيلة مسوفة الصنهاجية ووادي سوف تعني مدينة الوادي وتعني أيضا الإقليم بكامله رغم وجود مدن مستقلة عن وادي سوف مثل قمار وحاسي خليفة.

(1) العدواني ص 92.

(2) نفسه، ص 92.

الموقع تقع سوف في الجنوب الشرقي من القطر الجزائري ما بين خط عرض 31؛ 34 وبين خطي 6 و 8 شرق تقريبا⁽¹⁾ يحدها من الشمال جبال أوراس ومن الشرق الحدود الجزائرية ومن الجنوب الجماهيرية ومن الغرب واحات وادي ريغ⁽²⁾.

سوف في عهد الرومان قال الشيخ العروسي في كناشه أتى الرومان إلى هذه الأرض أرض سوف منذ دهر طويل لا نعلم أوله وقاتلوا من فيها وأخرجوهم منها فتفرقوا في افريقيا وسكنوا الجردانية البليدة ولم يكتفوا بالمدينتين بل بنوا قرى عديدة في أرض سوف وقد عثر على عدد من القطع النقدي الرومانية والنوميديية بوادي سوف وادي سوف من بين الذين تناولوا الاسم الكامل الحاج الأغواطي في حدود 1829 بينما ذكرت كلمة سوف في بعض المؤلفات منها طبقات المشائخ للدرجيني ت 670 وذكر بالألف في كتاب السبر لأبي زكرياء يحيى بن أبي بكر ت 471⁽³⁾.

يعتقد أن كلمة سوف هي أمازيغية تعني بها الوادي حيث يعتقد وجود نهر شمال المدينة وقد ورد ذلك في كتاب هيرودوت بوجود نهر سماه تيرتون في هذه المنطقة كما يربط البعض بين التسمية واسم قبيلة أمازيغية وهي مسوفة وهي قبيلة بربرية من صنهاجة الجنوب كانت من بين الذين أسسوا دولة المرابطين والبعض الآخر قال أنها جاءت من السيوف وهذا ارتبط بأشكال الكثبان الرملية المحيطة بها بينما لبسها آخرون إلى بياس الصوف.

يقع الإقليم جنوب شرق الجزائر تحده من الشمال منطقة الزيبان ويمتد حتى جبال أوراس النمامشة ومن الشرق الحدود التونسية ومن الجنوب الحدود الليبية وفي الغرب وادي رسغ وورجلان، وادي سوف محاط بثلاثة شطوط شط وادي ريغ غربا مروانة وملغي من الشمال وسط الجريد من الشرق⁽⁴⁾.

السكان تعتبر زناتة أهم القبائل التي سكنت المنطقة في هذه الفترة حسين مؤنس.

(1) العدواني، ص 109.

(2) نفسه ص 109.

(3) نفسه ص 134.

(4) نفسه، ص 134.

وادي سوف في العصر الاسلامي:

يبدو للباحث أن وادي سوف عرفت الإسلام في عهد عقبة بن نافع الفهري ويقال أنه عين حسان على رأس الجيش الإسلامي فتوغل هذا الأخير بين بسكرة وورجلان بما فيها إقليم وادي سوف وكان ضمن سرايا المسلمين التي تلقى تعاليم الإسلام بالمنطقة البعض من بني عدوان فكون هؤلاء النواة الأولى لوجود قبيلة عدوان بأراضي سوف.

في عهد حسان بن النعمان تجدد عمران الزاب والجريد وقسيلة وبقيت أغلب⁽¹⁾ أماكن سوف على حالتها من الخراب وفي عهد الدولة الرستمية كانت مدينة وادي سوف هي الحدود الجنوبية لهذه الدولة.

ورد ذكر وادي سوف عند أبي زكرياء عندما تناول مسيرة أبي نوح بعد معركة باغاي قال وسار حتى وصل أسوف (وادي سوف) فخرج إليهما الناس يلتقونهم فارحين مسرورين بمقدمهما وهم يعلمون ما نزل به فصاروا يناولون له وكل بمقدرته ويدفعون إليه الأموال من الحيوان والصامت وما تيسر لهم فجاءه رجل بدينار فدفعه له فقيل له تعرفه قال لا فقيل له نكاري فقال ردوه فردوه فقال له خذ دينارك⁽²⁾.

النص الذي أورده أبو زكرياء جاء بعد اللقاء الذي تم بين المنصور بن بلكين الزيري وأبو نوح حيث استقبل هذا الأخير من قبل المنصور استقبالا حارا مما يؤكد على أن الدولة الزيرية في هذه المرحلة لم تحاول أن تفتح جبهة أخرى مع الإباضية جبهات بل اقتربت من شيوخهم وأن توجه أبو نوح إلى وادي سوف واستقبال أهلها له يؤكد أيضا تواجد الإباضية بها ولم يقتصر الأمر على هؤلاء بل أورد النص أحد الأفراد من الذين استقبلوه وحاولوا تقديم الدعم له كان من النكارية لكن هذا الأخير رفض أخذ الأموال منه عندما علم أنه نكاري.

(1) العدواني، المصدر السابق، ص 41.

(2) نفسه، ص 29.

وفي نص آخر وهو ترجمة للشيخ أبي الربيع سليمان بن يخلف المزاتي قال وسار الشيخ ومن معه حتى وصلوا إلى أسوف فأراد أهل أسوف أن يلزموا المشائخ عندهم فقال الشيخ خليفة بن عمارة خفت أن يقطعوا بنا وأن يجبسونا ولا يصيبوا هنا إلا ما يكرهون.

وقال الشيخ اصبروا حتى يأتي أقوام مرادكم على مرادهم فمكثوا في سوف ما شاء الله ثم خارجوا منه فساروا حتى وصلوا تماسين⁽¹⁾.

يتجلى من هذا النص أن مدينة سوف خلال عهد الدولة الزييرية كانت من بين المحطات التي يتوقف بها شيوخ الإباضية خلال انتقالهم بين ورجلان وبقية المراكز الإباضية الأخرى في تونس وليبيا وأن سكان وادي سوف كانوا يحسنون لهؤلاء الشيوخ ولم يصبهم أي أداء من هؤلاء

عناصر السكان:

يتشكل عناصر سكان وادي سوف من القبائل البربرية وعلى الخصوص الزناتيين الذين تواجدوا بمناطق الجنوب قبل الإسلام ثم توافدوا على تلك النواحي عندما يشعرون بضغط من قبل دول المغرب والأمثلة على ذلك كثيرة منها انتقال الزناتيين إلى نواحي وادي سوف بعد سقوط الدولة المرابطية وربما إثراء قيامها لأنها نشأت في المغرب الأقصى على أنقاض الإمارات الزناتية

ولقد كثر هؤلاء الوافدين على أرض وادي سوف من قسيطة الجريد والزاب ووادي ريغ وورجلان فاجتمع رأي هؤلاء على بناء قرية الجردانية عند رأس الماء فأكثروا فيها الزرع والضرع والأشجار وشاع أمرها في تلك الجيهاة وتسابقت لها الناس من كل فج لحسن مائها هوائها وكثرة خيراتها وأمنها من المخاوف السائدة في تلك الجيهاة والأوقات.

(1) العدواني، ص 29.

ومن تلك القبائل العربية التي استقرت بالإقليم نذكر على وجه الخصوص العدوان وهؤلاء وصلوا إلى المنطقة مع بني هلال وبني سليم وقال عنهم الشيخ العدواني أنهم أتوا إلى الوادي فحاربوا الزناتية وأخرجوهم من الجردانية ونزلوا منزلهم.

كما تنتقلت قبيلة طرود أيضا إلى وادي سوف من الأراضي الليبية ونزلوا ما بين نفطة والجريدية وهو ما يؤكد العدواني بقوله كان لطرود سطوة عظيمة حاسم فاعد عمارة بن سالم والأسود بن ساوي يرحلون في الأوطان حتى لقوا قصور عدوان فلم يجدوا فيها أحدا إلا أمة اسمها شحمة وعبد اسمها شاكرا وشيخا كبيرا قد علم ما يأتيهم بالأخبار الغربية قد كان له من العمر مائة وعشرين سنة الراوي وكان بين يدي الأمة طبل من نحاس فإذا رأيت خيلا ضربته للضيافة وإن رأت ما تكره ضربته ضربتين وكان من عادة عدوان يرفعون مواشيهم في أيام الربيع والرواية طويلة نزل قبيلة طرود بالناحية الجنوبية الشرقية لمدينة الوادي واستقرت قبيلة عدوان بالناحية الشمالية منها وبعد ذلك لحق بهم بنو مراس لكنهم خرجوا من سوف حين بلغهم أن بجاية أخذت من بني مرين متأسفين للود الذي كان بينهم وكان أخذ بجاية 1360/761⁽¹⁾.

وتشير المصادر التاريخية أن طرود حين نزلوا على وادي سوف قد تنازعوا مع زناتة بسبب قلة ماء وأن بعض طرود وهم أولاد أحمد أتوا إلى الوادي ونزلوا قرب سيدي مسطور وهذا الأخير كان نازلا بالقرب من تكسبت بعد وصوله من القيروان وهو من أولياء الله الصالحين وانقطع للعبادة بمحل زاويته الآن بالوادي ثم استقر الناس حوله وكان صاحب ماشية كبيرة قل من كان له مثلها في ذلك الحين وكان وقت دخولهم الوادي سنة 1398/797⁽²⁾.

(1) العدواني المصدر السابق ص 30.

(2) نفسه، ص 21.

أوصى شيخ القبيلة الذي توفي سنة 1460م أهل طرو بما يلي إذا أصابتكم نائبة فاستشيروا الكبار العقلاء منكم وإذا أشاروا عليكم فلا تخالفوهم فإن خلفتهم بعد ذلك تهلكوا لا تختلفوا في شيء فإن العدو يدخلكم من جهة الاختلاف ويضركم وأحسنوا لبني عدوان ليكونوا لكم عوناً من تعادونه وإذ أنزلت بالغدران بل تكون كل قبيلة منكم حول غدير ولا تضيقوا على بعضكم في المنازل والماء⁽¹⁾.

والجدير بالذكر أن هذه التوصية لم تحترم والدليل على ذلك كثرة الصراع بين القبيلتين فالسكان الحضري من العدوان قد تكاثروا بسوف على الخصوص خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين مما جعلهم يتعرضون إلى صراعات مع قبيلة طرود⁽²⁾

وبني عدوان يقال لهم بنو مسعود نسبة إلى شيخهم المسعود بن محمد بن الشليبي بن عبد اللطيف الذي نزل إلى اللجة ليعلم أهلها من الزقم والبهيمة وما يليها من المداشر في الناحية الشرقية الشمالية ثم ارتحل ونزل على الوادي بموضع تكسبت واستضافه العش بن عمر بن سليمان بن محمد اليربوعي ومكث مدة يعلم الناس ودعاهم إلى بناء مسجد فبنوا المسجد الجامع بوسط سوق الوادي وهو من أجمل مساجد سوف المعروف الآن بجامع سيدي المسعود وكان نواة لنشر العلم والتعليم بالوادي ثم انتقل إلى قرية غنام بن فارح فدعاهم أيضا

لهذا العالم تواليف مشهورة منها شرح على ابن مالك وعنوانه هبة المالك على خلاصة ابن مالك جمع فيه ما شئت من غير من الشروح وتلقاه الناس بالقبول وحصل فيه النفع كان حيا سنة 1111هـ.

(1) العدواني، المصدر السابق، ص 21.

(2) نفسه، ص 23.

الأحوال الاقتصادية:

مدينة الوادي هي عاصمة منطقة وادي سوف لا نعرف تاريخ تأسيسها بالتفصيل لأن مصادر العصور الوسطى سكنت عنها ولم تذكرها بشيء من التفصيل مثل ورجلان لكن يبدو للباحث أنها كانت من بين المحطات التجارية سواء في عهد الدولة الرستمية أو العهود الموالية لها لكن هذه المدينة زاد نشاطها خلال العصور الحديثة⁽¹⁾.

وادي سوف في العصور الحديثة:

في هذه المرحلة اعتبرت من أهم الأسواق يأتيها التجار من مختلف الواحات وتشتمل على أكثر من ثلاثمائة حانوتا ومن مواردها التمور حيث تنتج منها ما يكفيها للاستهلاك والتصدير وبها التبّع من النوع الجيد الذي كثر الإقبال عليه خلال تلك الفترة التاريخية وصناعة المظلات من سعف النخيل والأقمشة الصوفية⁽²⁾.

هذا الإنتاج جعل سكان وادي سوف يتحول الجزء الأكبر لمزاولة الأنشطة التجارية لكثرة إنتاج الناحية من السلع الأنفة الذكر والموقع الإستراتيجي لأنها تشكل همزة وصل بين الشمال والجنوب لكن تجارها يفضلون الذهاب إلى الواحات الصحراوية مثل ورجلان وتوقرت وإقليم توات والجنوب التونسي وغدامس بليبيا

ومن بين البضائع التي تنقل إلى تلك الأسواق الأقمشة الصوفية والتمور والمظلات⁽³⁾ والتبّع ويأتون بالمصنوعات المحلية كالمواد العطرية والأقمشة الحريرية والأسلحة والكبريت.

(1) مياي إبراهيم، تاريخ وادي سوف، ص 66.

(2) نفسه، ص 67.

(3) نفسه، ص 68.

ومن غات يأتون بالعبيد والعاج وريش النعام والبخور.

لم يتوقف نشاط وادي سوف على الجنوب التونسي وليبيا بل كان تجارهم يتوجهون هم الآخرون إلى السودان الغربي مثلهم مثل تجار ورجلان وتوقرت والسلع التي يأتون بها هي نفس السلع التي سبقنا التعرض لها عند استعراضنا للحركة التجارية لورجلان وتوقرت.

كانت وادي سوف خلال هذه المرحلة ترتبط بالجزائر بواسطة الطريق القطري الغربي الذي يربطها بالعاصمة ويمر بمديتي بسكرة وبوسعادة وفيما يتعلق بالسودان الغربي فكان الطريق الذي تسلكه قوافل وادي سوف هو طريق سوف غدامس ومن هذه الأخيرة يكون الانتقال إلى السودان الغربي والأوسط⁽¹⁾.

(1) مياي إبراهيم، تاريخ وادي سوف، ص 68.

توات (1):

اسم توات جاء في بعض التعاريف أنه اسم بربري معناه الواحات وهو تعبير على الجمع مفردة توات مثل تواتن عبوا ومعناه واحة الماء أما موقعها الفلكي تقع بين خط 1 درجة شرقا و 3 درجات غربا غريتش وبين دائرتي عرض عشرين 20 إلى 30 شمالا.

حدود الولاية الجغرافية تحدها خمس ولايات في الشمال ولاية بشار والبيض وغرداية وفي الغرب ولاية تندوف والجنوب الشرقي ولاية تمنراست ومالي وموريتانية بالجنوب أيضا

التضاريس:

تتميز البنية الصخرية لهذه المنطقة بوجود تضاريس متنوعة منها الأودية القديمة والكثبان الرملية الكبيرة والرق والسبخات.

بالنسبة للتكوين الجيولوجي نجد بها أراضي من الزمن الأول والثاني والثالث والرابع الجيولوجي.

ومن أهم التضاريس نلاحظ الهضاب كهضبة تادميت والرق وهي مساحة تكون مكسية بالحصى مثل صحراء تزرزوف وكذلك السبخات مثل سبخة تميمون وتمنطيت والعروق تغطي مساحات شاسعة (2).

الأهمية التاريخية:

تعاقبت على المنطقة مختلف الأطوار التاريخية فتوجد بها آثار تعود إلى ما قبل التاريخ العصر الحجري القديم الأسفل العصر الحجري القديم الأوسط العصر الحجري القديم المتأخر والعصر الحجري الحديث الذي انتشر في كامل ربوع المنطقة

(1) وردت الكلمة في مجموعة من المصادر منها عبد الرحمان السعدي تاريخ السودان مطبعة باردن 1898 ص 7 ابن بطوطة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب المكتبة لتجارية مصر ج 2 ص 210 عبد الحميد البكري النبرة في تاريخ توات وأعلامها.

(2) حوتية توات والأزواد طدار الكتاب العربي ج 1 ص 44.

بالإضافة إلى النقوش الحجرية وكتابات التيقناخ وهو ما يؤكد لنا أن هذه المنطقة عرفت تواجد سكاني منذ العصور القديمة لوجود مناخ بها يختلف عن ما هو عليه الآن وهذا سمح بالاستقرار.

الاختلاف بين المؤرخين فيما يتعلق بتعمير المنطقة بعد عصر ما قبل التاريخ حيث بدأنا نلاحظ تغير في المناخ.

هناك مجموعة من الروايات الشفوية المتداولة بين السكان عن تعمير المنطقة وتحتاج تلك الروايات إلى توثيق ويمكن الوصول إلى ذلك بعد الاطلاع على التراث المخطوط بخزائن توات.

الرواية الأولى تشير إلى أن: (تمنطيت قديمة جدا وأنها كانت عامرة في عهد الفراعنة ومن سكانها القبط وهم المهندسون لبنائها حيث حفروا بها الفقاقير وشيدوا القصور بها)⁽¹⁾

لكن هذا النص يحتاج إلى التوثيق إذا كانت فعلا ترجع إلى عهد الحضارة الفرعونية كما يعتقد صاحب هذا النص لماذا لا نجد بها آثار لهؤلاء سواء تعلق الأمر بالكتابات الهيروغليفية أو آثار للمقدسات الدينية والكتابات التي تنتشر بالمنطقة هي كتابات التيفناغ⁽²⁾.

الاسم:

يطلق اسم توات على جزء من ولاية أدرار الحالية وبالتحديد بين شمال الهوقار وجنوب القطاع الوهراني.

(1) وهذا اللفظ مستند في العربية قال في المصباح التوت هو الفواكه الفاكهة والجمع أتوات فعرفت هذه البلاد

بأهل الأتوات 12 ص 38

(2) نفسه ص 38

وذكر الشيخ محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق التمنيطي أصلاً آخر للتسمية قال:
 حكي بعض القدماء أن أهل الصحراء لما طلبهم المهدي مالك الموحد بالمكنوس والمغارم
 أستضعفوا وقالوا لم يكن بأرضنا ذهب ولا فضة وكان ذلك شهر لخريف فأمر عامله أن
 يقبض في المغارم الرطب والعنب وسائر الثمار والكروم ففعل ثم باعه السلطان للبدو
 النازلين قرب تلمسان فحملوه وعظمت بذلك المصلحة فصدر الأمر منه في العام الثاني
 بتخريص الأشجار وقبض الأتوات كيلا ووزنا على حسب التخريص فعرف أهل هذا
 الأرض بأهل توات لأن السلطان قابلهما منها في المغارم⁽¹⁾.

وهذا اللفظ مستند في العربية قال في المصباح التوت هو الفواكه الفاكهة والجمع
 أتوات فعرفت هذه البلاد بأهل الأتوات

اسم توات جاء في بعض التعاريف أنه اسم بربري معناه الواحات وهو تعبير على
 الجمع مفردة توات مثل تواتن عبوا ومعناه واحة الماء

أول الروايات التي تناولت أصل كلمة توات ما كتبه السعدي الذي ذكر في
 كتابه تاريخ السودان أن سلطان مالي كتيكان موسى كان ذاهبا إلى الحج برفقة
 جماعة كبيرة من أهل بلده فلما وصلوا هاته الديار أصيب البعض منهم بمرض
 معروف عندهم باسم توات فانتظرهم السلطان ومن معه عليهم يشفون بسرعة
 من مرضهم لكن أبطأ بهم المرض وصار الحال إلى ما لا يرضون فتركهم السلطان
 في هذه الأرض وسار بمن معه

هؤلاء الذين بقوا وجدوا هاته الأرض مخضرة وذات بساتين وواحات فمكثوا بها
 واستقروا وصاروا يسمونها بالمرض الذي أصيبوا به وهو توات⁽²⁾.

(1) البكري درة الأقاليم في أخبار المغرب بعد الإسلام مخطوط بخزانة البكرين تامنطيت.

(2) عبد الرحمان السعدي تاريخ السودان. 1904 ص 7.

لا يمكن الأخذ بهذه الرواية للأسباب التالية:

أولاً: أن أغلب المصادر التي تناولت توات أشارت إلى إنها قديمة النشئ وربما ترجع إلى العصور القديمة لأنها كانت من بين المحطات التجارية التي تربط ما يعرف الآن بغرب إفريقيا وشمال إفريقيا ولعل من بين المستقرين بها الأوائل القبائل البربرية الذين هاجروا من المناطق التلية نتيجة للضغط الروماني ثم البيزنطي بعد ذلك فهي قديمة وليست حديثة.

ثانياً: أن الرواية لم توضح لنا من هؤلاء قد وجدوا بتوات سكان قبل استقرارهم بها وإذا وجدوا هؤلاء السكان ما هو موقفهم من هؤلاء الجدد القادمين على المنطقة
ثالثاً: أن كلمة توات أمازيغية وبذلك فهي قديمة العهد مرتبطة بالوجود الأمازيغي بتلك المنطقة.

الرواية الثانية وهي رواية محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق البكري (فهو يرى في كتابه درة الأقاليم في أخبار المغرب بعد الإسلام أن سبب تسميتها بهذا الاسم يعود لعهد الدولة الموحدية فملوك هذه الدولة ما عرفوا هذه الأرض إلا بكونها منطقة مليئة بالخبرات فدأبوا على أخذ ما فيه من أتوات ومن يومها غلب عليها الوصف فصار أهلها يعرفون بأهل الأتوات⁽¹⁾.

هذه الرواية هي الأخرى تحتاج أيضاً إلى تدقيق تاريخي فالمصار التي ترجع إلى عهد الدولة الموحدية المتداولة بيننا لم تتعرض إلى الموضوع وحتى إحصاء الأراضي التي قام بها عبد المؤمن من أجل فرض الضرائب على المناطق التابعة للخلافة الموحدية لم نجد ذكر لتوات مما يجعلنا نقبل بهذه الرواية.

من جهة أخرى يلاحظ الباحث أن أهمية توات ربما ترجع بالدرجة الأولى إلى عهد الدولة المرابطية عندما قامت هذه الأخيرة بتمديد النفوذ الإسلامي في غرب إفريقيا

(1) عبد الرحمان السعدي تاريخ السودان 1904 ص 7

والسيطرة على مراكز التجارة بها فأصبحت توات من بين مراكزها التجارية وأحد المسالك التجارية التي تربط بلدان المغرب الإسلامي بما كان يعرف بالسودان الغربي وأن الموحدين حافظوا على هذا المركز التجاري وإن الذين كانوا يشرفون على تلك الضرائب هم شيوخ القبائل بتوات ويتجلى ذلك من مجموعة من المخطوطات وسيرة الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي الذي أشار إلى عدم وجود نظام سياسي بتوات.

الرواية الثالثة هي للسيد مولاي أحمد الإدريسي الطاهري⁽¹⁾ الذي رأى أن هذه التسمية مرتبطة بمؤونتها وصلاحيّة أرضها للعبادة لكن هذه الرواية تحتاج هي الأخرى للتأكيد لأنه لا يمكن الأخذ به.

من بين المصادر التي تناولت القطاع كتب الرحالة الذين زاروا المنطقة أو اطلعوا عليه من خلال ما وصلهم من أخبار ولعل من بين هؤلاء الرحالة ابن بطوطة الذي قال في رحلته (وقصدت السفر إلى توات ورفعت زاد سبعين ليلة إذ لا يوجد طعام بين تكدا وتوات)⁽²⁾.

يلاحظ على النص أن ابن بطوطة تناول توات في عودته من رحلته للسودان الغربي وذكر بأنها من بين المحطات التجارية التي كانت تربط توات بالسودان الغربي تكدا ولم يشر إلى غواو تمبكتوا وهي من بين المحطات التي كانت تربط توات بالسودان الغربي ولعل السبب في ذلك يعود إلى قلة أهميتها خلال عصره وعدم توفر المواد الغذائية في المناطق الأخرى التي كانت تسلكها القوافل المتجهة أو العائدة من السودان الغربي وابن خلدون الذي عاش في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي تناول هو الآخر توات وذكر بأنها من بين المناطق التي كانت تأتي منها الفواكه ولعله كان يقصد التمور التي اشتهرت بها خلال عصره والعصور الموالية⁽³⁾.

(1) مولاي أحمد إدريس الطاهري النفحات مخطوط بخزانة كوسام ورقة 15.

(2) ابن بطوطة المصدر السابق ص 230.

(3) ابن خلدون العبرج 6 ص 321.

وهو ما تؤكدُه النصوص التاريخية لعلماء توات من بين هؤلاء مولاي أحمد الإدريسي الطاهري من خلال كتابه نسيم النفحات (توات ذات سباخ كثيرة الرمال والرياح لا يحيط بها جبال والأشجار شديدة الحرارة المفرطة لا يكاد ينبت فيها إلا النخيل وبعض الأشجار القليلة لفراط حرارتها فالنص يؤكد أن مناخ توات لا يختلف عن ما هو عليه الحال من شدة الحرارة).

وهو ما يؤكدُه أيضا المؤرخ الكبير محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق الذي قال عنها توات هي صحراء في أعلى المغرب ذات نخيل وأشجار وعيون بينها وبين سجلماة ثلاثة عشر يوما قصورها في القرن الحادي عشر أوسطهما بودة وتيمي وتمنيط.

إن نص محمد بن عبد الكريم أوسع وأوضح لأنه لم يكتفي باعطائنا الأنشطة الزراعية بل حدد لنا هذا الإقليم بالتفصيل وكذلك المسافة بينه وبين سجلماة التي تعتبر من أهم مناطق الجنوب المغربي التي لها علاقة مباشرة بتوات.

عبد العزيز الفشتالي⁽¹⁾ في كتابه مناهل الصفاء حيث ذكر لنا بان (إقليم توات أوسع وطنا أفسح مجالا وأقرب للسودان اتصالا وجوارا).

يلاحظ على هذا النص أنه لم يحدد لنا بالتفصيل واكتفى بالعموميات فالتحديد لم يكن دقيقا حسب ما أورده الرحالة أمثال الحسن الوزان وحتى المؤرخين المحليين أمثال ابن بابا حيدة صاحب كتاب البسيط في أخبار تمنيط فإنه قال عنه (فيه العلم والديانة والرياسة وانتصبت به الأسواق والصنائع وكاد لا يستغني عنه غني ولا زاهد لما فيه من الدين والبركات والمنافع والحاجات فهي مورد الركبان ومحشر العربان).

(1) الفشتالي، مناهل الصفاء، ص 136.

يستنتج من هذا الجزء من نصه أنه تعرض لمميزات الإقليم من الناحية الاقتصادية والاجتماعية والدينية والثقافية لكنه في الجزء الثاني من النص حدد الإقليم وقال أنه ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

* منطقة جراحة من تلبكورة إلى تاسييت.

* منطقة توات الوسطى من تاسييت إلى رقان.

* منطقة تدكالت من رقان إلى فقارة الزاوي

وهناك من يضيف إليها منطقة أخرى ويعتبرها جزء من الإقليم وهي منطقة تنزورفت التي تمتد من ودان إلى عين صالح على الحدود الجزائرية المالية.

القصور:

من بين الذين تناولوا قصور توات المؤرخ المغربي عد الرحمان ابن خلدون في كتابه العبر حيث قال: (فمنها على ثلاثة مراحل من قبلة سجلماسة وتسمى وطن توات وفيها قصور متعددة تناهز المائتين أحده من الغرب إلى وهو ركاب التجار المترددين من المغرب إلى بلد مالي إليه وبينه وبين ثغر بلد مالي المفازة المجهلة لا يهتدي فيها للسبل ولا بمر الوارد إلا بالدليل من المثلثين الطواعن لذلك القفر يستأجره التجار على البدرفة بهم بأوفر الشروط)⁽¹⁾.

نستنتج من نص ابن خلدون أن تحديد موقع تلك القصور هو قبالة سجلماسة في الجنوب المغربي وهي المعروفة اليوم بتافيلالت وقد كان لها ارتباط بمنطقة توات عن

(1) القصور في مناطق الجنوب الجزائري هي عبارة عن تجمع سكاني يرتبط سكانه فيما بينهم من ناحية القرابة مثل أي يتسبون لجد واحد مثل قصر أولاد يعقوب أو لعقيدة دينية مثل قصر أولاد داود في تمنطيت الذي كان خاص بالجالية اليهودية.

طريق وادي الساورة الذي ينبع من ولاية بشار ويصب في منطقة رقان حاليا وأغلب تلك القصور أقيمت على ضفافه في كل من ولاية بشار وأدرار فاستغل السكان مياهه لإقامة القصور وغرس أشجار النخيل.

كما كانت هذه المنطقة مسلك للنشاط التجاري الذي يربط السودان الغربي بكل من مراكز التجارة في الدولة المرينية والزيانية.

ومن حدود ولاية أدرار حاليا يتم الانتقال إلى مالي وأول مراكزها التجارية مدينة تمبكتو التي استقبلت مجموعة من تجار توات في عصر ابن خلدون.

كما يحدد ابن خلدون بداية قصور توات بقصور بودة عكس الحسن الوزان الذي يعتبر منطقة جراحة وبالتحديد تاسبيت هي أول قصور توات فابن خلدون يقول: (قد كانت بلد بودي وهي أعلى تلك القصور من ناحية المغرب من ناحية السوس هي الركاب إلى ولاتن الثغر الأخير من أعمال المثلثين أهملت لما صارت الأعراب من بادية السوس يغيرون على سابليتها ويعترضون رفاقها فتركوا تلك وانتهجوا الطريق لبلد السودان من أعلى تمنطيت⁽¹⁾).

نستنتج من النص أن هجرة القبائل العربية إلى منطقة جنوب المغرب كان له تأثير على النشاط التجاري وعلى الخصوص الطريق الذي يربط مدينة تمبكتو بسجلماسة بواسطة تندوف قد توقف في عصر ابن خلدون وأصبح التوجه من سجلماسة إلى وادي الساورة ومنه إلى توات.

وفي نص آخر لابن خلدون جاء فيه: (ومن هذه القصور قبلة تلمسان وعلى عشر مراحل منها قصور تيموارين وهي كثيرة تقارب المائة في بسيط واد منحدر من الغرب إلى الشرق واستبحرت بالعمران⁽²⁾).

(1) ابن خلدون العبرج 6 ص 395.

(2) نفسه، ج 6 ص 395.

يلاحظ على نص ابن خلدون أن كثرة هذه القصور يرجع بالدرجة الأولى إلى الاهتمام بالمياه لأن أغلبها شيدت على ضفاف وادي الساورة ومن بين الذين أحصوا هذه القصور الباحث الجزائري حوتية الذي استطاع جرد هذه القصور اعتمادا على الكتابات الغربية وكذلك التراث المخطوط أي مؤلفات التواتين زيادة على الزيارة الميدانية للمنطقة لأنه من سكانها ومن المهتمين بتاريخها⁽¹⁾.

إن منطقة أدرار كغيرها من مناطق البلاد تعرضت لتغيير خريطتها السكانية بعد الهجرة الهلالية بتنقل تلك القبائل إلى أسواقها التجارية بمرافقة القوافل أو قضاء فصل الشتاء بقصبة توات وهو ما علق عليه ابن خلدون بقوله: (منطقة تينجورارين: تقع شمال توات يحيط بها العرق الغربي من جهة الشمال والشمال الشرقي ومن الجنوب هضبة تادميت ومن الشرق الحوض الشرقي لوادي الساورة)⁽²⁾.

قصور تاسبيت من قصور الصحراء وفي شرقي تاسبيت مما يلي الجوف فقصور تيكراين تنتهي إلى ثلاثمائة قصر أو أكثر على وادي واحد وهم من صنهاجة ووراءهم توات التي بها قبر الوالي الصالح سيدي محمد بن عبد الكريم المغيلي معاصر الإمام السيوطي ومعارضيه في علم المنطق.

قصور دائرة أوقروت تقع في منخفض وادي أمقيدن على خط واحد يمتد من الشمال إلى الجنوب وتضم أربعة عشر قصرا وفي رواية الشيخ باي 28 وهي كما يلي: (بوقمة، الشارف، الشيخ عمر، أقبور، أعبود، بن عباد، تبراغمين، قصر الحاج، تالة، زاوية سيدي عبد الله، أولاد عبد الصمد، لدول نتوكي، البركة، الحربان، المنصور، أولاد عبوا، أورير أقبور أود محمود: كابرتين، أولاد راشد، أولاد علي: لكراشة الساهلة، لمطارفة)⁽³⁾

(1) ابن خلدون العبرج 6 ص 396.

(2) نفسه، ج 6 ص 398.

(3) نفسه، ج 6 ص 397.

القصور الشرقية هي مجموعة قصور تقع على طريق الجزائر ووهران فالشرقية تتألف من عشرة قصور أهمها قصر تيلكوزة أما القصور الغربية فهي تشمل خمسة عشر قصرا أهمها قصر سيدي منصور، قصور تيلكوزة لا يوجد به نظام الفقرات لأن مياهه قريبة من السطح فتوجد به الآبار.

قصور أجريفت تقع في سبخة تينجرارين وتضم خمسة عشر قصرا ويمثل قصر الحاج قلمان أهم قصورها⁽¹⁾.

قصور دائرة تميمون، تميمون تظهر في الضفة الجنوبية لسبخة تميمون تضم سبعة وعشرون قصرا تنطلق منها مجموعة من المسالك التجارية في اتجاه المناطق المحيطة بها هي كما يلي حسب إحصاء الشيخ باي: (تيلوين الحاج، بايدة، صموطة، أمرد، مغمورة، فرعون، بن عيسى، بدریان، يغزر، الكاف، أولاد سعيد، بدارة، كالي، الحاج قلمان، لازورة، أولاد عبد اللي، قمنتزرت، أولاد هارون، صفحاح، كنتور، أنملاند، أتلات، زقوبر، تاروية، ماسين، أولاد الحاج تازقاغت، تميمون، الكبرى، تادمايت، أولاد المهدي، قصبة القائد أولاد إبراهيم، تلازحم، أعلا ملال، أو أغمني، أولاد نوح، أبني مهلة، اغنات أبني ملوك أولاد ملال، تاورسيت، الواجدة)⁽²⁾ حسب الشيخ تضم 44 قصرا وحتوية.

قصور أولاد سعيد تضم ثلاثة قصور أهمها القصر الكبير⁽³⁾.

قصور تاقنت تقع في الضفة الشمالية لسبخة تينجرارين وتضم سبعة قصور أهمها طلمين وهي فقيرة من ناحية النخيل.

قصور حيحة تقع على الضفة الشمالية للسبخة وتضم خمسة قصور وسط الكثبان الرملية.

(1) حوتية المرجع السابق ج 1 ص 23 الشيخ باي المرجع السابق ج 1 ص 27.

(2) نفسه، ج 1 ص 27.

(3) نفسه ج 1 ص 24.

قصور شروين تقع على الضفة الغربية لسبخة الإقليم وتضم أربعة قصور أهمها قصر شروين وتضم قصر شروين، قصر تاويريت، قصر تنكرام، قصر تاكلزي قصر بني يسلم، قصر تاسفاوت، قصر ياكوا، قصر تبوا، قصر أوماح، قصر أجدير الغربي، قصر أجدير الشرقي، طلمين الكبيرة تاغوزي النعمة، تاعرضيق، إيسنانون، قطوف تاكليالت، يحيى وإدريس، قلوا، باهو زعيت، سيدي المختار، بوكزين، طلمين القصر⁽¹⁾.

قصر الزاوي دلدول تقع إلى الجنوب الشرقي من السبخة وتتألف من سبعة قصور أهمها قصر دلدول.

قصور الدرامشة تقع غرب دلدول وتتألف من أربعة قصور أهمها قصر المطارفة. قصور تسايت تشتمل على إحدى عشر قصرا أهمها برينكان وهي كما يلي: (عريان الرأس بريكان، عمور، العياد، وجلان، لمعيز، الهبله، أسبع لكرارة والمجموع عشر قصور⁽²⁾). قصور السبع وتضم قصرين هما السبع والقرارة⁽³⁾.

منطقة توات:

تقع ما بين نهايات الهضبة العليا للقرارة والحافة المقابلة لها المسماة العرق الغربي من قصورها.

قصور بودة تتركز القصور في وادي موازي لوادي مسعود تنقسم إلى مقاطعتين بودة الفوقانية العليا وبودة التحتانية السفلى وتضم اثنا عشر قصرا في الفوقانية وخمسة في التحتانية وهي قصيبة لغمارة، أولاد أعيش، أبار، الغماريين أولاد أنجل، بن أدرعوا، زاوية بن يلي، ودران، بني وزان، أغرم علي، زاوية سيدي حيدة المنصور.

(1) الشيخ باي المرجع السابق ج 1 ص 17.

(2) نفسه، ج 1 ص 31.

(3) حوتية المرجع السابق ج 1 ص 25.

قصور تيمي تقع جنوب مقاطعة بودة تتألف من تسعة وثلاثين قصرا أهمها قصر تيمي.

قصور تمنطيت تقع جنوب قصور تيمي تضم خمسة قصور ثلاثة منها عبار عن حصون متصلة فيما بينها وهي كما يلي أولاد الحاج مأمون، أنكير، بالحاج، بوفادي، توكي، بنكور، نومناس والمجموع سبعة قصور

قصور بوفادي أو أولاد بلحاج تقع جنوب تمنطيت وتبعد عنها بحوالي اثنا عشر كلم وهي منخفض موازي لوادي مسعود تضم أربعة قصور أهمها القصر الكبير.

قصور تاصفاوت تقع غرب بوفادي تضم سبعة عشر قصرا أهمها قصر تاسفاوت⁽¹⁾.

قصور أنزجيرير تلقب بتوات الحنة وتتواجد في المنخفض الأيسر لوادي مسعود وتضم ثلاثة عشر قصرا أهمها قصر أنزجيرير قصور سالي تقع جنوب أنزجيرير في المنخفض الأيسر لوادي مسعود تضم ثلاثة عشر قصرا أهمها قصر المحارزة وهي كمايلي: (بونجي، أنزجيرير، المحفوظ، زاوية بلال، تيدماين، الخلفي، أوغزير، تيطاوين، الشرفاء تيطاوين لخراس، تيلولين)⁽²⁾

قصور بلدية سالي وهي: (المنصور، برماة، قصبه الجنة، قصبه القائد "أبابة" قصبه النجار، قصبه أولاد مولاي علي، لمحارزة، القصر الجديد، العلوشية، قصبه سيدي الشريف، قصبه أولاد مولاي عبد الواحد، أولاد مولاي العربي أتزيرية، تينور، بريس، أولاد باحوا، المستور، زاوية لحشف)⁽³⁾.

قصور زاوية كتنة أو أولاد سيدي حموا تقع جنوب قصر تامست الحافة اليسرى لوادي مسعود تضم سبعة عشر قصرا لأهمها زاوية كتنة وقصر بوعلي وهي كما يلي:

(1) الشيخ باي المرجع السابق ج 1 ص 16.

(2) حوتية المرجع السابق ج 1 ص 34.

(3) الشيخ باي المرجع السابق ج 1 ص 14

قصور بلدية تمقطن هي: (أولف الكبير، أخنوس، أولاد الحاج، قصر لحسين، زاوية مولاي الهيبة، قصبة السيد، إينر، تمقطن، قصبة الجنات، المنصور، أولاد مولاي الرشيد، قصر المهدي، بلاد المرتاجي الزاوية، المرقب، الميمون "قوقو" وهي 26 قصر⁽¹⁾)

قصور أينغر توجد في منحدرات هضبة تادميت وتضم سبعة قصور أهمها قصر لخال وهي كما يلي: (تورفين، الشويطر، أقبور، لكحل، مليانة، السبخة)⁽²⁾.

قصور عين صالح تقع في منحدرات هضبة تادميت شرق أينغر تضم اثنا عشر قصرا أهمها قصر العرب الذي يقطنه أولا باحو وهي كما يلي: قصر العرب (أولاد المختار أولاد أباجودة، أولاد بن قاسم، قصر المرابطين، أولاد الحاج، الدغامشة، البركة، حاسي لحجار، إيكسطن، الساهلة فقارة العرب، فقارة الزاوي، لقصر الفوقاني، جواليل الزاوية والمجموع 21 قصر⁽³⁾)

(1) الشيخ باي، المرجع السابق ج 1 ص 18.

(2) نفسه ج 1 ص 18.

(3) نفسه ص 18.

أصول السكان:

لا بد أن نرجع لنصوص أخرى منها ما كتبه الشيخ محمد بن عبد الكريم الذي يقول أن البربر دخلوا توات قبل دخول الإسلام بسنوات طويلة واستقروا بها والحجة في ذلك أن أغلب القصور التواتية جاءت بلغتهم الأصلية⁽¹⁾.

هذه تعتبر المرحلة الأولى لدخول البربر إلى إقليم توات أما المرحلة الثانية فيمكن تقسيمها إلى مرحلتين:

الأولى: كانت خلال الصراع بين الزناتيين والصنهاجيين وعلى الخصوص في عهد بلكين بن زيري الذي شرد الزناتيون فانتقل البعض منهم إلى الأندلس والبعض الآخر يبدو لي أنه شد الرحال إلى توات ومناطق الواحات الصحراوية⁽²⁾.

الثانية: كانت بعد قبل قيام الدولة المرابطية التي كانت سببا في القضاء على إمارات الزناتية بالمغرب الأوسط والأقصى مما أدى إلى انتقال البعض منهم إلى توات وهو ما يؤكد العياشي⁽³⁾.

يرى هذا الأخير أنه لما انكسرت زناتة بالمغرب الأوسط في القرن الرابع الهجري فروا هارين وقد أنهكتهم الحروب فسقوا الماء من سجلماسة وأوكوا الأوعية وسعوا لجهة القبلة شاردين لا يستهدون لمنهل ماء ولا يقيمون لرعي كلاء فلما كان لهم ثلاثة عشرة رحلة من سجلماسة نزلوا بأرض بودة ووجدوا مجرى وادي قهر قد جف استراحوا ثم اختبروا الوادي فوجدوه قد اتخذ طريقا أخرى وأمنوا من عودة المجرى الأول فاستأنسوا بالموضع ووجدوا موضعه

(1) محمد بن عبد الكريم البكري المصدر السابق ورقة 4

(2) عن الصراع بين الزناتيين والصنهاجيين انظر رسالتنا الصراع بين الأمويين والفاطميين على المغرب

الإسلامي القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي ص 123

(3) العياشي ماء الموائد ص 66 انظر مولاي بلخمي ص 69.

يصلح للنبات والحرث غاية ثم حفروا بيرا وجعلوا ثانية وزرعوا بعض الفواكه والخضر واتخذوا وادي المسعود مرعى لمواشيهم وجالوا في صحراء توات شرقا وغربا فظهر لهم سكنى الأرض فبنوا وغرسوا وصفت قصورهم على شفير مجرى الوادي ذاهبين قلة إلى تمنطيت واتخذوا مجرى الوادي بساتين وجنات ونحتوا الفقاير فابتدأوا ببناء القصور.

نستنتج من النص ما يلي:

أن حركة تعمير إقليم توات بدأت مع القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي انطلقت من سجلماسة حسب ما أورده العياشي هذا الطرح يحتاج إلى دراسة معمقة للتأكيد منه.

حسب المصادر المتوفرة لدينا أن الزناتيين الذين دخلوا في صراع مع الخلافة الفاطمية منذ بداية تأسيسها هم من قبيلة مغراوة وبني يفرن وهذه القبائل كانت مضاربا موجودة بالأرض الجزائرية حاليا وبالتحديد أغلب المنطقة الغربية وجزء من وسط الجزائر وبالتدقيق ما كان يعرف بالمغرب الأوسط الذي علق عليه ابن خلدون بقوله (أنه وطن زناتة) والذي يمتد من دلس إلى وادي ملوية⁽¹⁾.

هذه القبائل دخلت إلى جانب الأمويين في الأندلس لمواجهة الخلافة الفاطمية والقبائل الأمازيغية المتحالفة معها من كتامين في البداية ثم الصنهاجيين بعد ذلك وتمكنت الخلافة الفاطمية من السيطرة على أغلب مضارب تلك القبائل مما دفع هؤلاء إلى التوجه نحو المناطق الغربية والجنوبية من الوطن ابتعاد عن الخطر الفاطمي الذي استطاع أن يقضي على تلك القبائل كما توجه البعض إلى المغرب الأقصى وجنوبه

(1) ابن خلدون العبرج 6 ص 452.

فأقاموا بتلك المناطق إمارات استمرت إلى قيام الدولة المرابطية ويبدو لنا أن الزناتيين التحقوا بإخوانهم الذين كانوا بتوات وبهذا يكون التواجد الأمازيغي سبق القرن الخامس الهجري الحادي عاشر الميلادي⁽¹⁾

يذكر المؤلف القصور التي أنشأها هؤلاء وهي قصر وج وودرارودب وبن موسى وثرز ووزرم وابقر ويوسف ولمغر وبنور وسعد اله ويحيى ومحمد وطائفة والملح والسبخة ويزان ومسف وانكرس ولودى وقصر الجير وأما أصباح وأنكد وكرة وغرميانوا وتورير وأقبور واصرافات وقصر مبارك بن موسى وعلوش وجايش ووززان وقصر الشيخ بوحفص وازقور وتمقغ وغالبية هذه القصور اندثرت.

نلاحظ من قائمة القصور التي أوردها مولاي الهية أن بعضها يحمل أسماء أمازيغية والبعض الآخر يحمل أسماء عربية مما يؤكد لنا أن المؤسسين لتلك القصور ليس كلهم أمازيغ لأن ما هو معروف في تاريخ المغرب الإسلامي أن الأمازيغ خلال الفترة الإسلامية كانوا يسمون منشئتهم العمرانية بأسماء أمازيغية ولنا أمثلة على ذلك أن زيري بن مناد عندما شيد أشير في سنة 323هـ أطلق عليه الاسم الأمازيغي وكذلك يعلى اليفريني وهو زناقي اسم عاصمته باسم أمازيغي وهو إيفكان وهو ما يجعلنا نستنتج أن بعض هذه القصور أسست من قبل القبائل العربية التي أستوطنت توات مع القبائل الأمازيغية.

يضاف إلى ذلك أن الهجرة الزناتية التي عرفها المغرب الأقصى والأوسط خلال عهد بلكين بن زيري امتد الجزء الأكبر منها إلى الأندلس خاصة في عهد الحاكم المستنصر الأموي والمنصور العامري حيث أدخلوا ضمن المؤسسة العسكرية⁽²⁾

(1) حساني مختار الأحوال الاقتصادية والاجتماعية للدولة الزيانية 9.

(2) حساني الصراع بين الأمويين والفاطميين ص 230.

والمرحلة الثانية المتعلقة بالهجرة الزناتية نحو توات فكانت بعد القضاء على إمارة مسعود بن وتد المغراوي ففر أتباعه إلى الصحراء وهذا لم يتأكد من النصوص المrapبية المعاصرة للحدث لكن يبدو لي أن الهجرة قد تمت بالفعل لقرب سجلهاسة من توات.

ثم تستعرض النصوص المخطوطة توافد بعض القبائل أو الأسر على توات دون ذكر السند التاريخي لأن المصادر التي أرخت للمغرب الإسلامي خلال العصور الوسطى سكت عن تلك الهجرة لكن نحن لا يمكن لنا نفي ذلك لأن الأحداث أكدت أن المناطق الجنوبية من الوطن كانت تشكل قواعد خلفية وهذا منذ سقوط الدولة الرستمية حيث نجد آخر أمرها انتقل إلى ورجلان وتأسست بعد ذلك المراكز الإباضية على ضفاف وادي ميزاب وحتى صاحب الحمار خلال تأكده من فشل ثورته حاول التوجه نحو ورجلان⁽¹⁾.

فاتباع مسعود المغراوي نزّلوا بجرارة ووادي الجنة وملثوا أرض توات 19⁽²⁾.

وهنا يتساءل الباحث أن سكان جرارة الآن الذين لا يزالون يتكلمون الأمازيغية من هؤلاء المغراويين وهنا نحتاج إلى دراسة ميدانية تتعلق بمعرفة تاريخ تشييد القصور الذين يقيمون فيها حاليا لأن النصوص المكتوبة عن الموضوع قليلة وما وجد منها فهو عبارة عن رواية شفوية وهناك هجرة أخرى حدثت خلال عهد الدولة الموحدية وتعلق بالهجرة العربية لأن الذين ورد ذكرهم يحملون أسماء عربية منهم على وجه الخصوص قبيلة دكوان 536هـ أولاد حسين 528هـ أولاد بن سليمان 531هـ أولاد خير الله 516هـ أولاد بن عبد الجليل 501هـ أولاد عياش 502هـ وجاء واعلي البلبالي 518هـ وأولاد بن يدير 520هـ وجاء الشرفاء الحموديون 550هـ⁽³⁾.

(1) يعطينا مخطوط أنساب تيممي مجموعة من المعلومات تتعلق بالأسر التي استقرت في توات خلال فترات مختلفة لكن ما يعاب عليه أنه لم ينسبها لقبائلها ونفس الشيء ورد في كتاب الشيخ باي الذي نقل عن مخطوطات توات وغيرها انظر الرحلة العلية ج 1 ص 65، 66.

(2) هذه الإمارة كانت بجنوب المغرب الأقصى قضت عليها الدولة المrapبية خلال توسعها في المغرب الأقصى.

(3) عن التواجد العربي في توات انظر محمد الطيب القول البسيط في أخبار تمنطيط ص 24.

يلاحظ على هـ النص أن الهجرة الواردة فيه كانت بعد تأسيس الخلافة الموحدية التي أعلنت الحرب ضد القبائل الهلالية وأوقفت ما يسمى بالتغريبة الهلالية خلال معركة سطيف ولعل انهزام هؤلاء أمام الموحدين دفع البعض منهم إلى التوجه نحو الجنوب والاستقرار بإقليم توات الذي كان يعتبر من المراكز التجارية والقبائل العربية خلال العهد الموحي كانت تقوم بمرافقة القوافل التجارية وتقديم الحماية لها ولعل بعض تلك القبائل فضلت الاستقرار واستغلال الأرض بغرس النخيل لوفرة الماء وهناك هجرة أخرى تمت بعد سقوط الدولة الموحدية وتأسيس الدولة الزيانية والمرينية والحفصية ومن تلك القبائل والأسر⁽¹⁾.

قبيلة أخروم 668هـ وأولاد علي 673هـ والمحاجيب 675هـ وأولاد الصابون 640هـ والبرامكة 650هـ.

لم تعطينا النصوص المتوفرة لدينا أصول هذه القبائل التي هاجرت بعد سقوط الموحدين هل كانوا من بقايا هذه الدولة أو من المناصرين لها لأن التواريخ تشير إلى أن الهجرة تمت بعد مقتل الخليفة السعيد سنة 641هـ بتميزدكت بعد انتصار يغمراسن عليه.

من بين الذين تعرضوا لأصول السكان في إقليم توات المؤرخ عبد الرحمان بن خلدون الذي قال: (ومن بطون بني ومانوا هؤلاء قبائل بني يلدس وقد يزعم زاعمون أنهم من مغراوة ومواطنهم متصلة بقلعة المغرب الأقصى والأوسط وراء العرق المحيط بعمراهم المذكور).

لم يحدد ابن خلدون تاريخ هذه الهجرة بل اكتفى بتحديد مكان الاستقرار وأصول تلك القبائل التي كان أغلبها في الأراضي الجزائرية حاليا وهم بنوا ومانوا وبنو يلمومي بمنطقة وادي الشلف وما جاورها وكذلك مغراوة.

(1) الشيخ باي المرجع السابق ج 1 ص 66.

فالدارس لتاريخ بني ومانوا وبنو يلومي يلاحظ أنها ساهما في الأحداث السياسية التي عرفتھا الجزائر خلال عهد الدولة الحمادية فكانا حلفاء لها وقد حدث التصاهر بين شيوخ قبيلة بني ومانوا والدولة الموحدية حيث كانت إحدى نساء المنصور بن الناصر بن على الناس من بني يلومي وعندما ثارت القبيلة ضد المنصور قام بقتلھا.

كما كانا للقبيلتين دورا سياسيا أيضا في عهد الدولة المرابطية وكانوا من المعارضين للموحدين ولعل هذا هو الذي جعلهم ينتقلون إلى منطقة توات خشية من اضطهاد الموحدین لهم.

أما المغراويين فيبدو من خلال دراستي أن هناك هجرتين لتوات الأولى كانت بعد قيام الدولة المرابطية على حساب المغراويين الذين سبق لهم إقامة مجموعة من الإمارات في كل من المغرب الأوسط والأقصى وأما الثانية فكانت بعد إضعافهم نتيجة لصراعهم مع الدولة الزيانية فهاجر بعضهم إلى ضواحي قسنطينة والبعض الآخر إلى منطقة تاغيت حيث نجد بها إحدى القصور المهدامة تعرف بقصر بني واروا وهي إحدى بطون مغراوة وفي نص آخر لابن خلدون يذكر قبائل بربرية أخرى فيقول: (وغصت بالسكن وأكثر هذه القصور الغربية في الصحراء بنو يلداس فيهم الرجالة والخيالة وأكثر معاشهم من فلاح النخل وفيهم التجار إلى بلاد السودان كلها مشتاة للعرب ومختصة بعبيد الله من المعقل وربما شاركوهم بنو عامر من رغبة في تكررارين فتصل إليها ناجعتهم بعض السنين)⁽¹⁾.

نستنتج من النص ما يلي:

أن ابن خلدون يذكر بني يلدسن الذين قدموا إلى المناطق الغربية من إقليم توات حيث أقاموا القصور وغرسوا الأشجار المثمرة أي أن تواجدهم في تلك المنطقة كان لغرض الاستقرار.

(1) ابن خلدون العبرج 6 ص 412.

كما يشير ابن خلدون في هذا النص إلى بني هلال الذين قدموا من تونس خلال القرن الخامس الهجري فاستقروا بمنطقة الواحات والحصنة ثم انتقلوا إلى الهضاب العليا الشرقية والغربية وكذلك إلى الجنوب المغربي.

ساهم هؤلاء في الأحداث السياسية التي عرفتها بلاد المغرب الإسلامي في عهد الزيانيين والمرينيين والحفصيين فكانوا يقدمون خدماتهم لهذه الدولة في حروبها ضد بعضها البعض وفي بعض الأحيان كانوا يعلنون الثورة ضدها مما جعل تلك الدول تقوم بحروب ضدهم وعندما يعجزون عن المقاومة كانوا يفرون إلى هذه المناطق الصحراوية التي تعتبر قواعد خلفية لهم كما كانوا يشاركون في حراسة القوافل التجارية المتجهة نحو السودان الغربي ومن بين تلك القبائل المعقل وهم ذوي عبيد الله وذوي منصور وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون: (وأما عبيد الله فلا بد لهم في كل سنة من رحلة الشتاء إلى قصور توات وبلد تامنطيت ومع ناجعتهم تخرج قفول التجار من الأمصار والتلول حتى تمنطيت ثم يتوجهون لبلد السودان)⁽¹⁾.

أما المؤلفين التواتيين فيقسمون السكان إلى أربعة أقسام الشرفاء والمرابطون والموالي ولغتهم العربية والدارجة ودينهم الإسلام وعقيدتهم الأشعرية ومذهبهم مالكي وطريقتهم جنيدية ويغلب على سكان توات سمرة البشرة.

فذكر الطيب بن عبد الله بن سالم البلبالي أنساب أهل تيمي وبين عوامهم ينسبون لأهل برينكان وشرفائهم من الهبلّة ويرجع نسبهم لتافيلالت، ميمون ينسبون لمولاي يعقوب بن منصور بفاس، ملوكة ينتسبون لبلبالّة وأبناء عمهم بكوسام بريع عوامهم ينسبون لأولاد باحم إخوانهم بعين صالح وشرفائهم بتافيلالت أولاد مولاي محمد، أوقديم هم شرفاء من تافيلالت بلغيتين، أدغا عوامهم من أبناء الحاج العباس ذوي منيع

(1) ابن خلدون العبرج 6 ص 416.

والعبريين⁽¹⁾34 من تونس وأولاد سيدي حم من غات أولاد أونقال أعراب ينسبون إلى الهوقار، أولاد أوشن وأن أعوامهم ينسب بعضهم لسيد الحاج محمد الوهراني وبعضهم ينسب إلى غنوم وشرافهم أحفاد لمولاي سليمان بن علي، أولاد علي وهم ينسبون لمولاي سليمان الخوت بتلمسان إخوانهم أهل تالة وقتنور وكالي تينجورين، أولاد أحمد هم عرب باكدال الآن، تاريخهم هم شرفاء من تافيلالت بلفتين نزلوا على الشيخ علي كتور ثم اندثروا، أولاد إبراهيم يتمون إلى أولاد دليم إخوانهم أولاد يحفص وأولاد بن أب من الساحل، أولاد عروسة ينسبون لسيدي أحمد العروسي مع سكان أولاد عيسى، أولاد عيسى بعضهم شرفاء ينحدرون من سيدي سليمان بن عمر من فاس وبعضهم أولاد سيدي أحمد العروسي من الساقية الحمراء من الساحل، بني تامرت ينسبون للشيخ موسى الأقبوري والبعض لبني محمد ولأولاد باحم، زاوية سيدي محمد بن البكري ينسبون لبني أمر وإخوانهم بتوقرت من عمالة الجريد وولادة من أرض التكرور وهم شرفاء مرنين، المنصورية ينسبون للشيخ موسى الذي عمر أقبور وهم من الساحل⁽²⁾.

ويذكر صاحب نسيم النفحات بعض أنساب أهل توات السفلى وملخصه مايلي:

تيلولين ينحدرون من ذرية عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ﷺ وجدهم محمد بن أبي زيان وكل أهل هذه القرية من أصل واحد إلا جماعة قليلة من شرفاء سالي يقال لهم الذهبيون نسبة إلى جدتهم مولاي محمد الذهبي، تيطاوين العرب أهلها من العرب الكرماء وتيطاوين الشرفاء المنتمين إلى شرفاء زاوية كتنة، زاوية بلال وهم مرابطون، وعزيرين وهم جعفريون، أنز جير قصر يسكنه العرب وقصر يسكنه المرابطون من ذرية سيدي أبي أيوب الأنصاري البخاري، بوزلمجي سكانها مرابطون من ذرية سيدي محمد بن الحنفية بن سيدنا علي -كرم الله وجهه- أطوا سكانها الأولون من عرب بلال

(1) الطيب بن عبد الله بن سالم البلبالي أنساب أهل تيمي مخطوط بخزانة كوسام ورقة 1-2.

(2) نفسه، ورقة 2.

وسكانها اليوم من شرفاء المحمديون من زاوية كتنة، بو علي ينتمي سكانها للبرامكة، زاوية كتنة مرابطون يرجع نسبهم لبني فهر، أولاد الحاج من سكانه من أجواد العرب، زاوية الشيخ سيدي علي بن حنيني ينتسب سكانها إلى أبي أيوب الأنصاري، أبو حامد سكانها من أولاد عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، تيورين سكانها شرفاء محمديون علويون، أكييس ينتمون إلى العباس بن عبد المطلب، باعمور وهم من قبيلة أولاد دليمن، سيدي يوسف وأهلها مرابطون، زاوية سيدي عبد القادر يرجع نسبهم إلى بني قهر، المنصور سكانه من الشرفاء، ودغا يسكنها أبناء الشريف الصالح سيدي مولاي الزوين، عزي سكانها الأولون ينسبون لسيدي بن الحنفية، تمنطيط وبها أولاد سيدي البكري وأولاد بن موسى قيل أن نسبهم يرجع إلى سيدنا إدريس، الهيلة سكانها شرفاء علويون وجدهم يقال له مولاي علي بن بو بكر، تسابيت يسكنها عرب أفاضل كرماء ومرابطون وبها الشرفاء والموالي، أوقروت عبارة عن مجموعة من القصور يسكنها مزيج من الناس من عائلات وجماعات من شرفاء ومرابطين وعرب وموالي.

وهناك نص آخر لسلكة عبد الرحمان صاحب كتاب ملاحظات حول توات أنساب سكان القصور التالية:

تينيلان سكانها من سلالة الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، مهدية سكانها من أبناء سيدي محمد بن يوسف الملياني، مراقن ينسب سكانها إلى عبد الله بن جعفر، بوفادي توكي وابنكور ينحدرون من أولاد الحاج أجدادهم قاموا بأولف ومقيدن ثم استقروا ببوفادي، بنهمي شرفاء علويون، العلوشية وعباني من أصول عربية، نومناس من أصول عربية وينحدرون من أولاد الحاج.

يعطينا الشيخ باي قائمة لسكان توات وتيدكالت وجرارة فيقول سكان توات يتكونون من شتى القبائل التي نزحت إليه بعد الفتح الإسلامي فنذكر على سبيل المثال

البرامك وأولاد سيدي عقبة بن نافع وهم الكنتيون الموجودين الآن بزاوية كنتة وفي أقبلي وتمادين وفي الجديد وغيرهم من قصور توات وكذلك أولاد عزي وهم من سلالة محمد بن الحنفية في عين صالح وتيط وأعراب وعزي⁽¹⁾.

ومن القبيلة الموجودة بتوات الأنصار أولاد الحاج علي الموجودون الآن في زاجلوا والمنصور باقبلي وفي عدد من قرى تميمون والشرفاء أولاد السيد عبد الله بنهية وأولاد أحمد بن الحاج والبلغيتيون وشرفاء وزان وأولاد مولاي عبد الله الشريف وقبيلة الزوي البكريون بفقارة الزوي بعين صالح والساهلة وأولف وأوقرت وزاوية الدباغ بتميمون.

أن الشيخ باي اكتفي بتقديم قائمة بأسماء أصول السكان وتبدو لنا صحيحة في بعضها لأن له اطلاع واسع على المخطوطات بإقليم توات وبخارجها.

بعدها يتعرض إلى الأنشطة الاقتصادية التي لا تزال لحد الآن كما وصفها ابن خلدون وهو الاهتمام بزراعة الأشجار ومنها النخيل وفي هذا الصدد يقول: (قبل اختطوا في تلك المواطن القصور والأطم واتخذوا بها الجنات من النخل والعنب والفواكه)⁽²⁾.

لكن أغلب القائمة خالية من أسماء القبائل البربرية التي وجدت من قبل والتي لا تزال لحد الآن.

وفي ما يتعلق بأمر البرامكة وهي أسرة فارسية كان لها دور كبير في عهد الخلافة العباسية وعلى الخصوص في عهد هارون الرشيد وقد نكبت على يده لم تتعرض المصادر إلى هجرتها للمغرب لإسلامي خلال ذلك العصر والعصور الموالية له.

(1) حوتية المرجع السابق ج 1 ص 63.

(2) الشيخ باي المرجع السابق ج 1 ص 68.

بعدها يستعرض الكاتب تنافس القبائل الزناتية على شؤون الحكم في توات مما أدى إلى حروب متواصلة هذه لم تؤكد لها النصوص المتوفرة لدينا وربما سكت عنها وأنها كانت تركز على النواحي الشمالية لأن أغلب المؤرخين أرخوا للدول ولم يؤرخوا للقبائل ما عدا ابن خلدون الذي ركز على قبائل الناحية الغربية لكن كل ذلك لا ينفي إقامة تلك الحروب بين القبائل وبطونها ويبدو أنها أضعفت الزناتيين مثلما حدث في الشمال حيث استغل هذا الضعف من قبل الهلاليين الذين توافدوا على إقليم توات وكل الجنوب الغربي وعلى الخصوص المعقل.

وفي هذا الصدد يقول الكاتب نزل عليهم العرب أفواجا في أزمان متباعدة منهم أولاد محمد والخنفسة والمحارزة وأولاد ملوك وأولاد غانم وأولاد ريم وأولاد أحرز وأولاد منصور وكافة أكدوع وأولاد زنان وغيرهم من عرب المعقل⁽¹⁾.

لكن ما يعاب على هذا النص أنه لم يحدد لنا تاريخ انتقال هؤلاء للإقليم توات. وهناك معلومات وردت في مخطوط يتعلق بأنساب أهل تيمي.

يتميز المخطوط بعدم وجود منهجية في تقديم المعلومات الواردة فيه لكننا نستفيد منه ما دامت المصادر شحيحة بالنسبة للموضوع يقول (أن أعوامهم ينسبون لأهل برنكان وشرفاؤهم من الهبلية من أهل تافيلالت).

يلاحظ على النص أنه يقسم بين السكان حسب النسب فالبعض من الأشراف وهؤلاء في أعلى درجة السلم الاجتماعي بتوات إلى الآن ثم العامة ويمكن أن يدخل في هذا المصطلح العرب والخراطين والعبيد.

(1) الشيخ باي المرجع السابق ص 68 والمعقل هي إحدى بطون بني هلال توافدوا على بلاد المغرب الإسلامي خلال القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي من أهم بطونهم ذوي عبيد الله وذوي منصور وذوي حسان والثعالبة لمزيد من المعلومات عنهم انظر ابن خلدون العبرج 6.

ومن القبائل التي استقرت بتوات قبيلة فلان الإفريقية يتواجدون بقرية الساهل أقبلي دائرة أولف وهم فخدان هم أولاد محمد بن ملك وأولاد بلعالم وكل من الفخذين يوجد في البلاد التالية في أولف وتمادين وانغر وعين صالح والهوقار والمنيعه وورجلان وقد وقع تبادل المصاهرة بينهم وبين قبائل توات عربها وأشرافها⁽¹⁾

ملوكة من المراكز العلمية بإقليم توات وعلى الخصوص بعد استقرار البلباليين بها قال عنهم عوامهم ينسبون لأولاد باحموا وشرفاؤهم من تافيلالت وهم أولاد مولاي محمد الذي تنحدر منه الأسرة العلمية البلبلية أدغاغ عوامهم من أبناء الحاج العباس من ذوي منيع والعبوبيين من تونس وأولاد بلنك من العراق وأولاد سيدي حموا من غات.

يستنتج من النص أن توات خلال مراحل تعميرها استقبلت سكان مسلمين من أرجاء مختلفة من العالم الإسلامي شرقه وغربه وجنوبه فنجد العراقيين والتونسيين وأهل السودان الغربي وجنوب المغرب الأقصى والجنوب الغربي الجزائري. أولاد أنقال أنهم أعراب ينسبون للهوقار.

لم يحدد الكاتب أصولهم القبلية فلهوقاريين حسب النصوص التاريخية من قبائل صنهاجة الجنوب لكن الكاتب اكتفى بالقول بأنهم أعراب أي بدو.

أولاد أوشن ينسب بعضهم لسيدي الحاج الوهراني وبعضهم لغنوم وشرفائهم أحفاد لمولاي سليمان بن علي بن عומר.

(1) قدم الشيخ باي رحمه الله دراسة قيمة عن قبيلة الفلان التي انتقلت من إفريقيا ثم استقرت في الجنوب الغربي الجزائري وعلى الخصوص منطقة أولف من خلال النصوص المخطوط وما كتب حديثا من قبل الباحثين في أصول القبائل الإفريقية انظر النبذة ص 166.

بالنسبة لأولاد أوشن نجد ثلاثة مجموعات الأولى تنسب إلى مدينة وهران ولا نعرف تاريخيا متى قدموا من وهران إلى إقليم توات لأن النص اكتفى بنسبهم للحاج محمد الوهراني ولا نعرف أصل غنوم هذا الذي ورد في النص.

وسيدي سليمان من بين الأشراف الذين قدموا لتوات وتوزع أبناؤه تلك الأقاليم.

أولاد علي ينسبون لمولانا سليمان الذين كانوا متواجدين بعين الحوت القريبة من تلمسان حاليا⁽¹⁾.

وهنا يلاحظ الباحث أن جزء هام من سكان هذا الإقليم انتقلوا إليه انطلاقا من شمال الوطن للعلاقة التي كانت تربط الشمال بجنوبه والتي لا تزال مستمرة لحد الآن والأشراف التلمسانيين لم يكن تواجدهم بأولاد علي فقط بل نجدهم أيضا حسب النص في تال وقتور وقالي وتيجرارين.

أولاد أحمد أعراب أي بدو من عمالة الساورة أي ولاية بشار حاليا.

أولاد إبراهيم من أولاد الديلم وهي قبائل هلالية لا تزال مضاربها بالشمال خاصة بالجزائر وقد تعرض لها ابن خلدون والكاتب يقول عنهم أنهم من قبائل الساحل أي المناطق البحرية.

أولاد عيسى بعضهم شرفاء ينتسبون إلى سليمان بن علي بن عمر من فاس وبعضهم من الساقية الحمراء بالساحل والمقصود به ساحل الصحراء الغربية⁽²⁾.

بني تامرت البعض منهم ينسب للشيخ موسى الأقبور والآخرين لمحمد وما تبقى لأولاد باحموا وإخوانهم موجودين بعين صالح⁽³⁾.

(1) لا يوجد أي اسم لهذه القبيلة بالنسبة للقبائل التي استقرت بضواحي وهران خلال العصور الوسطى والحديثة ولعلها إحدى بطون بني يسقن غيرت اسمها بعد انتقالها لأدرار وعن تواجده انظر حوتية المرجع السابق ج 1 ص 58.

(2) عين الحوت من المناطق التي استقبلت مجموعة من الأشراف وهي مزار للتلمسانيين وما جاورهم.

(3) حوتية المرجع السابق ج 1 ص 58.

يستنتج الباحث من النص توزع القبائل والأسر الواحدة على مجموعة من القصور وأغلبهم ينسبون إلى الجد الأكبر للعائلة.

زاوية سيدي محمد البكري بتمنطيت⁽¹⁾ ينسب سكانها لبني مرين ولهم إخوان في توقرت وتكرور بالسودان الغربي وهنا نتساءل متى انتقل هؤلاء إلى إقليم توات وغيره من الأقاليم التي ورد ذكرها في النص لأن صاحب النص لم يحدد ذلك هل كان قبل سقوط دولة بني مرين وأن الذين انتقلوا لتوات وغيرها كانوا من معارضي الأسرة الحاكمة أو أن انتقلهم كان بعد سقوط الدولة على يد الوطاسيين وأن تواجههم بهذه المراكز التجارية يؤكد اشتغالهم بالنشاط التجاري⁽²⁾.

يلاحظ الباحث على هذا الجزء من المخطوط أن الكاتب لم يشر لكل قصور توات بل اكتفى بالبعض منها وفي الجزء الثاني سيحدد الأسر التي نزلت بتلك القصور وتوارىخها في بعض الأحيان وأنه اعتمد على ما وجدته مقيد.

قصر أهل سعد الله المعروف الآن بويته (كان أول من نزل بها وأجرى فقارتها الشيخ علي الذي ترك توريرت التي كان بها أولاد الشيخ أمبارك سنة 763 هـ ونزل عليه مولاي أحمد بن هاشم سنة 800 هـ وقام فقارة تعجمت وأخذ منها ثمانية عشر مائة ثمن والتمن الآن هو ثلاثة قراريط وجاء الشريف من سجلماصة وجاء الشيخ يوسف من تلمسان)⁽³⁾.

يستنتج من النص أن تعمير هذا القصر مر بمراحل وأن أول من استقر بها الشيخ علي لا نعرف أصل هذا الشيخ هل هو شيخ لقبيلة أو عالم من العلماء وحتى الأسباب التي جعلته يترك توريرت ويلتجئ لهذا القصر لأن النص لم يوضح هذا وربما كان السبب الاختلاف بينه وبين أولاد الشيخ مبارك مما أدى به إلى ترك القصر والإقامة في هذا القصر الذي كان هو الآخر معروف إلا أنه قام باستصلاح الأرض وحفر

(1) حوتية المرجع السابق ج 1 ص 58.

(2) عن أصل هذا الشيخ انظر أنساب تيمي ورقة 2.

(3) نفسه ورقة 2.

الفقارات وهنا يلاحظ الباحث أن الفقارات في إقليم توات نشأت في مراحل مختلفة كما نلاحظ على النص الميزان الذي كان يستعمل في تقسيم المياه وهو الثمن الذي لا يزال متداول لحد الآن بقصور المنطقة.

كما تعرض النص الى توافد الاشراف على القصر من جنوب المغرب الاقصى ومن مدينة تلمسان لارتباط المنطقة بحوض المغرب الاسلامي الشمالية

زاوية الغريب⁽¹⁾ المشهورة الآن بتميمون كان من بين الذين نزلوا بها عبد الرحمان وكان بها عمه من تدلست (دلس) سنة 956هـ وأنها من مدينة فاد مولاي يعقوب بن منصور.

نجد هنا تعارض في النص لأنه ذكر بأن هؤلاء من تدلست وتدلست في الجزائر وهناك تدلست غرب مستغانم وبذلك يكون أصل هؤلاء من المغرب الأوسط ثم بعد ذلك يشير أنهم من شرفاء فاس.

زاوية ملوكة⁽²⁾ كانت قبل ملكها لمولاتنا حدية وتملكها الإخوان وهم سيدي الحاج أبي القاسم وإخوانه وهم خمسة وهو معدود من الخمسة وأصلهم من تافيلالت وينسبون لأبيهم أحمد بن أبي زيد الأنصاري ويلقبون بالبلباليين لأنهم نزلوا بتبليلة قبل انتقلهم للملوكة سنة 1010هـ.

أهل بوزان أن أول من نزلها أولاد بن عباد وأولاد سيدي عيسى وأهل الغربة أحفاد الشيخ السنوسي.

(1) تدلست (دلس) مدينة جزائرية توجد غرب مدينة الجزائر وكانت من المدن التي استقرت بها الجالية الأندلسية حيث أقطعها الحمادين لأمرأى المرية بعد سقوطها بيد النصاري.

(2) ملوكة توجد على بعد حوالي 12 كلم عن مدينة أدرار انظر مؤلف مجهول معجزات الأولياء وكرامتهم ورقة 10.

زاوية سيدي عيسى⁽¹⁾ وقفت على زاوية أولاد سيدي عيسى بأنها كانت موجودة سنة 833هـ وأن أهلها أصلهم من قبيلة لوداي نزلوا على أولاد فارس في سنة 856هـ وأنهم هم الذين أجروا قارة طزوة.

أهل أولاد عيسى لم نعر لهم على تاريخ إلا أن زمام فقارة أدغاغ التي هي الآن بادغاغ تاريخه فاستدلت على معاصرتها مع أهل أقبور الذي تاريخه 126هـ وأنه معاصر تمنطيت التي تأسست قبل الهجرة بسنوات حسب نص ابن خلدون.

أولاد الشيخ بحفص إخوان أهل أقبوا وأن أصلهم من بلد الساحل.

أهل المهديّة كانت ملكا لأولاد الشيخ بحفص وأن الشيخ بلقاسم هو الذي أهداها لسيد عومر بن سيدي الحاج بن عبد الرحمان سنة 1093هـ وشرع في تجديد بنائها وحفر فقارة علي بن الحسن من التراب فقط أهل المنصورة من أهل أقبور.

بني تامرت تحول الشيخ موسى من أقبور ونزل بني تامرت على الحاج محمد بن أحمد من تافيلالت⁽²⁾.

أولاد عيسى نزل عليهم الشيخ مهدي على الشيخ أبو هدي سنة 836هـ من الساقية الحمراء وبني قصره الآن المعروف بالحذب ونزل أحد أولاده على الولي الصالح سيدي عبد الرحمان بأولاد عروسة وأصل الشيخ من شرفاء تلمسان أولاد الحمديون⁽³⁾.

(1) عن زاوية سيدي عيسى انظر لمؤلف مجهول مخطوط بقصر كوسام ورقة 1 تافاللت مدينة بالجنوب المغربي عرفت في العصور الوسطى بمدينة سجلماسة وكانت عاصمة للدولة المدراية انظر لحسن تاوشيت عمران سجلماسة منشورات وزارة الأوقاف المملكة المغربية 2008.

(2) تافاللت مدينة بالجنوب المغربي عرفت في العصور الوسطى بمدينة سجلماسة وكانت عاصمة للدولة المدراية انظر لحسن تاوشيت عمران سجلماسة منشورات وزارة الأوقاف المملكة المغربية 2008.

(3) أغلب كتب الأنساب التي أرخت للأولياء الذين استقروا بالجزائر ذكرت أن أصول هؤلاء الساقية الحمراء ولذا لا بد من التأكيد من صحة تلك الروايات.

أولاد عمور فرقة منهم الآن بولاد إبراهيم وأنهم إخوانهم وأن نسبهم يصل إلى أدليم وأن نزولهم على الشيخ أبو الهدى كان سنة 721هـ⁽¹⁾.

أهل ترودانت منهم أولاد الشيخ علي كروا وأنهم طغوا وتجبروا وقويت شوكتهم وأنهم ينسبون لأهل تارودانت بالسوس الأقصى وأن نزولهم بتوات كان سنة 616هـ⁽²⁾.

أولاد حسين التي هي الآن مشهورة بأولاد أحمد فإن أولاد أحمد كان نزولهم في البداية بتسفاوت عند أولاد الحاج بن علي لكن أولاد حسين تعصبوا عليهم وغلبوهم وقهروهم وطغوا وتجبروا وصاروا لهم سطوة على قصور أهل تيمي وجعلوا بتوات وحوزتها المغارم على القصور وكانوا يقطعون الطريق.

ولم نقف على تاريخ نزولهم إلا أنني وقفت على تاريخ فقارتهم سنة 912هـ.

أولاد علي كان أول من نزل منهم مولانا علي حفيد مولانا سليمان الذي بناها في حياة الشيخ مولانا سليمان بن علي وهو الذي أجرى فقارة أجرنج الكبير وتسميته باجرنج لقائد وأنه خدمه القائد الصفار في تولية مولانا إسماعيل بن علي لما وجهه لتوات وهو الذي أجرى ماؤه

أولاد أنقال كان بها أولاد سيدي يوسف مع إخوانه أولاد بن داود وأن أصلهم من أقبور وكانوا أهل شوكة شديدة قوية مديدة نزلوا بأولاد أنقال سنة 821هـ

تتلان تحول إليها الشيخ يوسف سنة 1045هـ⁽³⁾.

(1) لعل المقصود بها جبل عمور وأولاد إبراهيم هي إحدى بطون قبيلة بني عامر في الغرب الجزائري لعبوا دورا هاما في أحداث المنطقة خلال المراحل التاريخية.

(2) تارت من أهم المراكز العلمية في جنوب المغرب الأقصى تحتوي خزائنها على أغلب مخطوطات علماء المغرب الإسلامي لمزيد من المعلومات انظر أنساب تيمي ورقة 1 ودان.

(3) عن تينلان انظر الشيخ باي المرجع السابق ج 1 ص 34.

أهل بربغ أعراب طغات يزعمون أن أصلهم من بني أجناسن وأنهم قدموا لتوات سنة 926هـ واهابتهم جميع القصور لشدة بأسهم وقوتهم وأن مولانا قاسم نزل على ضعفاء بقيتهم سنة 1016هـ.

إحصاء الأشراف العلويين بتوات:

في عام 1797/1211 وجه السلطان إلى ابن عمه قاضي تيمي المدعو سيدي باهية والمتصرف في الصحراء مبلغ 2500 لتوزيعها على العلويين بتوات فاضطر إلى القيام بإحصاء في الموضوع أدى إلى التعريف على أعدادهم في كل واحة تواتية وكاغاغ نزل بها الشيخ حاجوا بعدما تحول لها من أولاد عيسى على مولانا أحمد بن علي حفيد مولانا سليمان بن علي ووجد بها مرابطي لم تكن لهم محارث وأنهم يشتررون الماء من فقارة أدغاغ من أولاد عيسى ونزول الشيخ حاجوا كان سنة 933هـ أن عددهم ألف وثمانية وثمانين قام القاضي المذكور والقاضي عبد الحق والطالب عمور بتوزيع الهدية على هؤلاء الأشراف 41.

وعند ذلك توصل السلطان بشكوى من الشرفاء الأدارسة لعدم إشراكهم في العطاء السلطاني فأصدر المولى سليمان أوامره عام 1799/1213 بارجاع الزكاة والأعشار المستخلصة إلى أصحابها لتوزع على الأشراف الأدارسة دون نسيان العجزة والمعوزين 42، 56.

من بين الرحالة الذين تعرضوا لتوات الرحالة العياشي⁽¹⁾ الذي زار توات خلال سنة 1663/1074 اتخذ طريق الساورة ودخل الواحات التواتية عن طريق القصابي مزود بخطاب توصية من الأمير مولاي محمد بن الشريف إلى ولاته في توات وقد وصف لنا كيف وصل إلى عمالة توات بعد المرور بهضاب الحمادة القاحلة والتخيم في الدميرنة وقد زار إحدى القرى التواتية وضريح الشيخ محمد بن صالح المدعو عريان الراس وكانت

(1) العياشي المصدر السابق ص 12

توات خلال ذلك الوقت خلوا من العلماء والأدباء عدا رجال التجارة وكان أساس التغذية التمر ومقياس الصرف المثقال الفضي الذي كان يساوي أربعين موزونة واسمه مشتق من اسم الأمير مولاي الشريف ملك سجلماسة التي تخضع لها توات⁽¹⁾.

أوقروت تقع بجرارة حول السبخات التي تكون المياه المنحدرة من هضبة تادميت وأهم قصوره تبرغمين والحاج وتلا وبوكمة تاخفيف قصر يعتبر أقدم مركز يهودي في إقليم توات وبجانبه تازولت وهي أنقاض مركز يهودي بربري عتيق تامزيغت قصر في روضة بوتدراة ذكر الشريف مولاي أحمد بن هاشم العلوي في رحلته لتوات عام 1705/1113 أنه زار هذا القصر الذي كان قديم قرية يهودية ترتبط بيهود تامنطيت وتاسفاوت ثم نقل أسطورة تذكر أن السكان الأولين لتوات كانوا من هؤلاء اليهود منذ 260هـ/905هـ وكانت بيعتهم لا تزال قائمة خلال زيارته للقصر.

تيمون قصر كبير قليل السكان هو حاضرة ملحقة بجرارة وتوات توجد في واحته قرى كبيرة على أنقاض تهاتيت التي يقال بأنها كانت تشكل قرية يهودية بربرية قبل تيمون نفسها تليها واحة بني ملوك وتورسييت والوجدجدة وعبوا عيدان وبلغازي ثم خط آخر من الواحات غربها منها ايق وسمجن وقتتور وسيدي عابد وتاسفاوت وبني يسلم، بنو شبل الذين بالبحر وبعضهم بتوات ويقال أن منهم بني غيلان وكانوا رؤساء والبرابش بأدرار وكان كبيرهم يقال له ابن حواء ومن أبناء حموا عمران وهو جد أولاد عمران واسعيد وهو جد أولاد سعيد.

اليهود⁽²⁾ يرجع وجود اليهود إلى قرون بعيدة فنزلوا تمنطيت حيث اتخذوها دارا لهم وتأثقوا في بنائها وتنافسوا في ذلك وهو على قلتهم كانت لهم قصور خاصة بهم كقصر أولاد سلام واغلاد وأولاد يحيى

(1) مولاي بلخميسي الجزائر من خلال الرحلات المغاربة في العهد العثماني ص 69.

(2) عن التواجد اليهودي انظر عبد الحميد البكري المرجع السابق ص 27.

ثم لما طالبهم البربر بالإسلام أسلمت هاته القبائل وبقيت قبائل أولاد يعقوب وأولاد اهمالي وتاهقة ثم لما انكسرت دولة اللمتون بالمغرب جاءت شردمة منهم بتاريخ 530هـ قد أنهكتهم حروب الموحدين فبنوا قصر تليوات⁽¹⁾.

هذا النص الذي أورده صاحب القول الأوسط يحتاج إلى دراسة علمية دقيقة فهو لم يحدد لنا بالتفصيل متى استقر هؤلاء في إقليم توات واكتفى بالقول أن ذلك كان قبل الإسلام وهنا لا بد أن نربط التواجد اليهودي في توات بالهجرة اليهودية من بلاد المشرق وعلى الخصوص فلسطين نتيجة لاضطهاد الرومان لهم فخرج بعضهم إلى شمال إفريقيا.

ولم يحدد لنا أصول هؤلاء لأننا نجد بعض القبائل الأمازيغية اعتنقت اليهودية قبل الإسلام كقبيلة جراوة بالأوراس وقبيلة مديونة غرب تلمسان ثم تخلت عن اليهودية بعد الفتح الإسلامي.

والهجرة الثانية تبدو لي مؤكدة لأن عبد المؤمن عندما أسس الدولة الموحدية عمد إلى توحيد المغرب الإسلامي عقائديا فاضطهد اليهود مما جعل البعض منهم ربما يتوجه إلى إقليم توات.

لكن الشيخ عبد الكريم البكراوي يرى عكس ذلك فيقول (لما انكسرت زناتة بالمغرب فروا هاربين ونزلوا توات ثم لما اشتد عضدهم طالبوا اليهود بالإسلام أو الجزية أو الجلاء فأسلم أولاد نسلام وأولاد داوود وأولاد يحيى).

فالنص يؤكد لنا تواجد اليهود في إقليم توات قبل الهجرة الأخيرة للزناتيين.

(1) عن اليهود عبد الحميد البكراوي المرجع السابق ص 28.

وفي القرن التاسع الهجري زادت مكانة اليهود على ما كانوا عليه من قبل نتيجة لضعف الدول الإسلامية في بلاد المغرب إعطائهم الحرية الكاملة في التصرف في اقتصاد الدول الإسلامية وتحكمه في التجارة الصحراوية.

قال الشيخ عثمان في الفتح قال الشيخ المغيلي دخلنا توات فوجدناها ديار علم ومقر أكابر وأعلام فانفقوا بنا وانتفعنا بهم لولا ما أبتلينا به من محنة أخبات اليهود لعنهم الله وقد حمدنا الله جل جلاله أن أهلكهم على أيدينا. فالمغيلي لما استقر بتوات وانتشر صيته بها⁽¹⁾.

الكتبيين⁽²⁾:

أصل قبيلة كتنة حسب الروايات الشفهية المتداولة يرجع إلى عقبة ابن نافع فخلف ابنا يسمى العاقب ومنه تفرق نسله في المغرب الإسلامي حسب ما ذهب إليه محمد بن الشيخ سيدي المختار الكتبي

وتقول الرواية أنه بعد وفاة السلطان المريني أبو عنان 1358/749 توجه من أحفاد أحفاد عقبة إلى مستغانم ومنها بدأت الهجرة نحو الجنوب فحسب هذه الروايات الشفوية والأقوال المتناقلة أن القبيلة الكتبية استقرت بالصحراء بعد أن أصبحت الأوضاع غير ملائمة في المناطق الشمالية ببلاد المغرب الإسلامي خلال القرنين 7 و8 الهجريين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين فارتبط تاريخ الكتبيين بإقليم توات.

ومن الروايات المتداولة أنهم استقروا عند قدومهم إلى توات بموطن يعرف بعزي إلى جانب قصر تمنطيط الذي كان مركزا لليهود يتحكمون منه في التجارة

(1) عن الشيخ المغيلي وتواجهه في توات انظر الشيخ باي المرجع السابق ج 1 ص 80، 83

(2) عن الكتبيين انظر الشيخ محمد بن الشيخ سيدي المختار الكبير الرسالة الغلاوية مخطوطة في خزانة العقابوية ورقة 3 انظر أيضا حوتية المرجع السابق ج 1 ص 66.

الصحراوية وأثناء ذلك عرف من هؤلاء كل من عثمان بن دومان وسيدي يحيى بتحفيظ القرآن الكريم للصبيان ونشر الطريقة القادرية بين الناس ثم خلفهم سيدي علي الذي كان يخرج للمرابطين ليأخذوا عنه الأوراد بعد ذلك انتشرت كتته في مختلف قصور توات.

أشتهرت كتته في القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي عندما ظهر سيدي علي بن أحمد الذي عاصر الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي فوافقه في أفكاره ونشأت بينهما روابط وصلات واثقة حيث رافقه للبقاع المقدسة لأداء مناسك الحج ولازمه في كل المحطات وقد أفقه في الفتوى التي أصدرها المغيلي بإعلان الجهاد ضد الجماعة اليهودية في توات.

الكتتيون وصلوا إلى إفريقية في مرحلة متأخرة عن المغيلي الذي سمح لهم بتعميق حركة المغيلي وقد كان لهم تأثير في البوادي وهذا ما ساعدهم على الهجرة نحو الجنوب والاتصال المباشر بمراكز السودان الغربي لا سيما بعدما أصبح سيدي علي بن أحمد الرئيس الأعلى للطريقة القادرية في ما وراء الصحراء بعد وفاة المغيلي 915/1509.

زناتة يسكنون منطقة تينجرارين منذ أقدم العصور فكانوا ينتقلون بين جبال الزاب ومنطقة بسكرة ووادي ريغ وعند سقوط الدولة العبيدية في القرن الرابع عشر الميلادي العاشر الميلادي استقروا نهائيا بها وأسسوا قصور نذكر منها بني ملوك بن هلال وأولاد راشد⁽¹⁾.

المحارزة هذه القبيلة تنسب إلى علي بن مسعود الذي قدم من الجزائر رفقة الشيخ معمر بن سليمان المعراج الذي استقر بأريا خلال القرن السابع والثامن الهجريين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين.

(1) عن استقرار زناتة بالمنطقة انظر ابن خلدون المصدر السابق ج6 ص 166.

أما علي بن مسعود المحرزي استقر بمنطقة تينركوك بعدما أمره شيخه بذلك وكلفه بنشر التعليم في المنطقة وقد تزامن ذلك مع وجود الشيخ أحمد المرفوع الذي التقى به في منطقة تينركوك وتعتبر المنطقة تركز لهذه القبيلة بالإضافة إلى قصر حوا وتزليزة وزاوية الدباغ وفاتيس وقد أسسوا هذه القصور سنة 1012هـ

كما تنتشر هذه القبيلة بقصور أخرى بسالي وتساييت وقد تفرعت هذه القبيلة إلى أولاد بدوية وزاراري ومعزوزي وأولاد الطالب وأولاد حمادي وابن كادي وجبار وعوماري ولزرق.

الخنافسة⁽¹⁾:

ينتشرون في المنطقة الممتدة ما بين أوقروت وكبرتن منذ القرن الثاني عشر الميلادي ويتواجدون بالضبط بقصر تيلكوزة وتعنطاس وزاوية الدباغ واغيات والحاج قلمان وأولاد عايش.

الزوي:

ارتبط الزوي بمنطقة تينجرارين بسيدي سليمان بن أبي سماحة وذلك سنة 1477/897 وهي السنة التي توفي فيها سيدي سليمان.

ومنذ هذا التاريخ ارتبط أبناؤه بالمنطقة سيدي عبد القادر بن محمد ارتبط بمنطقة أولاد سعيد وتيلكوزة وزاوية الدباغ ثم تابعه الحاج أبي حفص الذي درس عند الشيخ الحاج أبي محمد وتنقل بين أوقروت وعين صالح حيث أنشأ زاوية له وتوجه إلى البقاع المقدسة وبعد رجوعه من الحج سنة 1720/1133 أنهى مهمته ابنه محمد بن بحوص الذي استقر بالمنطقة وأسس قصر الزاوي وانتشر أبناؤه الأربعة بحوص وزيان ودحمان والطالب بالقصور المجاورة وأعادوا بناء قصر مولاي هية بأولف وفي أثناء ثورة أولاد سيدي الشيخ تردد إلى تينجرارين فتلوا بفاتيس وزاوية الدباغ ثم بعدها نزلوا بإقليم توات.

(1) قصور الخنافسة تبعد عن مدينة أدرار بحوالي 300 كلم أنظر حوتية المرجع السابق ج 1 ص 71

الشعانية:

نزلوا بإقليم متليلي سنة 1350/751 ويتمون إلى ثامر بن تلال ولقد انقسموا إلى ثلاثة أقسام قسم توجه إلى ورجلان والقسم الثاني توجه إلى المنية واستقر بها تحت قيادة الحمادة وأولاد يش.

أما الذين استقروا بمتليلي يطلق عليهم اسم البرازقة وقد جاءوا إلى إقليم تينجارين وتيدكالت عن طريق القوافل التجارية التي كانوا يقدمونها إليه في هذه المناطق.

وتذكر الروايات أن الشعانية ارتبطوا بتنو جارين عن طريق أحد أعيانهم الملقب بحروز الذي أعان سيدي عثمان إما بحفر فقارته المغير أو أنه ساعده في إعادة مياهها ويتركز الشعانية في تنو جارين بزاوية الدباغ وتيمون والعرق والمطارفة وبإقليم توات فيتركزون بتسايت وبوعلي ونفيس برقان وإما بتيدكالت فيتواجدون بأولف⁽¹⁾.

من بين الذين تناولوا موضوع استغلال الماء في إقليم توات ابن خلدون وبين الطرق المستعملة في الري في كل من أدرار وورجلان ما يعرف اليوم بالفقارات التي تستعمل مياهها في ري البساتين وهناك طريقة تتعلق بتوزيع مياه الفقارات على البساتين حيث توجد مقاييس لتوزيع لتلك المياه مستعملة لحد الآن وفي هذا الصدد يقول: (وفي هذه البلاد الصحراوية إلى وراء العرق غربية في أستنباط المياه الجارية لا توجد في تلول المغرب وذلك أن البئر تحفر عميقة بعيدة الهوى وتطوي جوانبها إلى أن يوصل بالحفر إلى حجارة صلدة فتحت بالمعاول والفؤوس إلى أن برق جرعا ثم تصعد الفعلة ويقذفون عليها زبرلة من الحديد تكسر طبقها عن الماء فينبعث صاعدا فيفعم البئر ثم يجري على وجه الأرض واديا ويزعمون أن الماء ربما أعجل بسرعه عن كل شيء وهذه الغريبة موجودة في قصور توات وواركلا وريغ الهبر).

(1) حوتية المرجع السابق ج 1 ص 72

يمكن تحديد استغلال المياه حسب بقية المصادر التي أشارت لذلك أن الفلاحة تقوم في إقليم توات على استغلال المياه الجوفية وفق نظام سقي يعرف بالفقارة.

وكان إقليم توات يتوفر على ثلاثة أودية وادي مقيدن وهو عبارة عن امتداد لوادي سقور الذي ينبع من المنيع، وادي مسعود وهو عبارة عن تلاقي لوادي قير مع وادي زوزسفانة بمنطقة فقيق ويتوجه جنوبا ليطلق عليه وادي الساورة ويتوجه غربا ثم جنوبا ليسمى وادي مسعود ويكون سبحة بمنطقة تسفاوت ويتجه بعد ذلك لرقان لتغور مياهه في الصحراء وادي قارية يأتي من الشمال الشرقي لمنطقة تيدكالت ويتجه نحو الجهة الجنوبية الغربية ليكون رافدا لواد مسعود.

الحروب بإقليم توات:

هذه المنطقة تعرضت لحروب متواصلة تمثلت بالدرجة الأولى في الغارات التي كانت تقوم بها القبائل ضد بعضها البعض وقد ذكر المؤرخين التواتيين بعضها نذكر منها حسب ما أورده الشيخ باي الذي اعتمد على المصادر المخطوطة بولاية أدرار ففي سنة 630هـ نزل أهل أقبور على تامنطيت وألحقوا أضرارا بالقصور الآتية: أقور، الشارف، تيط، إينغر

وفي سنة 675هـ جاء غزو من أرض أن شيت اجتاحت أهل واد الجنة وإياد وقصر المنصور وتامست وقصر مكيدا.

وفي سنة 690هـ أغار على توات جيش من عبد وفعلوا مناكر عظيمة.

وفي سنة 705هـ جاء من وادي ريغ أولاد الطالب وتقاتلوا مع أهل تاويرير فكانت الدائرة عليهم لكنهم رغم انهزامهم لم يرتدعوا فكروا راجعين لوادي ريغ.

وفي سنة 708هـ عادوا بألف مقاتل فانتقوا من أهل تاويرير وأوقعوا بقصور أخرى نذكر منها: قصر عيسى، أمبارك بن موسى، الشارف، تيط.

وفي سنة 720هـ استعان أهل تاويرير وتيط بأولاد سعد من أرض أرقن فأمدهم بألفي رجل فشنوا الغارة على قصر أجرية بلغت القتل مائتي رجل.

وفي سنة 1001هـ جاءت قبيلة من أرض الساحل ففرضت الوظائف على توات وقطنوا بها سنة يقيمون زمن الخريف ببور سيدي يوسف وفي زمن الصيف الصفاني.

وفي سنة 1010هـ جاء جيش من أعريب الساحل واستهدف قصور منهم: مكرة ودغا نغزي ولم يسجل التاريخ خسائرهم المادية والبشرية⁽¹⁾.

(1) حوتية المرجع السابق ج 1 ص 83 الشيخ باي المرجع السابق ج 1 ص 71

في سنة 1018هـ جاء خمسة وعشرون رجلا تجارا من أعاريب ونزلوا بتامنطيت فوق شنتان عظيم بين أهل تامنطيت وأهل تيمي يحاولون هتك بعض القصور فمنعهم أهل تامنطيت فوق شنتان بينهما.

في سنة 1028هـ جاءت حركة لحسين ونزلت ببوزان من قصور تيمي ووقعت بينهم وبين أهل تيمي معركة كانت خسائرها البشرية ستين قتيلًا ثم رحلت الحركة إلى بودة فالتحق بهم أهل تيمي ولم يتدخل أهل بودة.

وفي نفس السنة وقع تحالف بين أهل تيمي وأهل بودة ولم يحضر هذا الحلف الشيخ آجي ولا ابن عمه الشيخ باخده.

في سنة 1034هـ نزل أولاد باحوا في بودة وأخذوا منها قافلة ثم نزلوا بتامنطيت فأخرجهم منها أهلها فنزلوا بغابة نوم الناس ورجعوا بكرة لتامنطيت فأخذوا أربعة وثلاثين حمارا واثنى عشر طفلا وساروا إلى تيطاف فتبعهم أهل تامنطيت ووقعت بينهم معركة خارج تكوزة فخرج أهل تيطاف وأصلحو بين الطائفتين واشتروا منهم الحمير باثني عشر ميثقالا لكل حمارا والأطفال بعشرين ميثقالا فرجع أهل تامنطيت بدوابهم وأطفالهم وافترق الجمعان ثم بعد ثلاثة أيام جاء أهل تيطاف لتامنطيت وطلبوا منهم ما دفعوا لأولاد باحوا فامتنعوا ورفع الأمر لقاضي الجماعة سيدي عبد الكريم بن سيدي محمد فأننى على أهل تيطاف خيرا وحمد سياستهم وأمر أهل تامنطيت بدفع ذلك العدد ففعلوا⁽¹⁾.

وفي نفس السنة وقعت معركة في أولاد عى الحراشة اجتمع فيها 600 رجل وأربعمائة فارس ووقعت فتنة كبيرة بقرارة وشنوا الغارة على الشيخ غانم الذي جاء من المغرب وقاتلوا أصحابه وستين رجلا وقبضوا والد الشيخ غانم وبعثوه لأمير تلمسان⁽²⁾.

(1) الشيخ باي المرجع السابق ج1 ص 68

(2) تلمسان خلال سنة 600 كانت إحدى ولايات الدولة الموحدية وأن منطقة أدرار كانت أكثر ارتباطا بتلمسان وحتى علماء تلمسان عندما رحلوا للجنوب استقروا بها وتشير فتاوى الشيخ المغيلي إلى =

وفي سنة 1089 جاءت حركة الصباح لتوات وهتكت قصر بندراع وعزي ومكرة ومات من الصباح في تلك المعركة ماتي رجل

الفقارة:

الفقارة هي عبارة عن سلسلة من الآبار بين كل بئر وبئر مثل درجات السلم نفق يبدأ العمل فيها من مكان عالي ولا يزال ينحدر من أعلى إلى أسفل وقد يوجد في بعض الآبار ما يزيد على أربعين مترا ثم ينخفض العمق إلى أن تخرج على وجه الأرض⁽¹⁾.

أما اشتقاقها فبعضهم يقول من الفقر والبعض الآخر يرى من التفجير لأن الماء يتفجر منها ومنهم من يقول أن اسمها مأخوذ من الفقار أي فقاقير الظهر لأن آبارها تشبه فقاقير الظهر بينما يرى البعض أنها مشتقة من الفقر الذي هو الحفر

هذه الطريقة المعروفة بالفقارة وجدت اهتمام من قبل الباحثين في الماضي والحاضر ومن بين تلك الدراسات رسالة الدكتورة موساوي حول الفقارة من خلال نوازل التواتين لأن هذه النوازل وعلى الخصوص الغنية أعطت أهمية للفقارة لأنها كانت شريان الحياة بإقليم توات ولا تزال لحد الآن.

والفقارة هو الاسم المستعمل من قبل السكان لهذا النظام مصادر الفقارة تقول بعض الدراسات أنها ترجع إلى بداية الألف الأولى الميلادية والسبب في ذلك انحصار المياه الجوفية وبالتحديد في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي حدث انخفاض الكتلة الجوفية واستمر الماء في الانخفاض فاتجه السكان إلى حفر الفقاقير وهذا هو التفسير الذي أعطاه فالي حول مصدر الفقارة وتاريخها.

= العلاقات بين تلمسان ومنطقة أدرار في عصره وسبق لنا التعرض لذلك في دراستنا عن الدولة الزيانية لمزيد من المعلومات انظر حساني مختار الدولة الزيانية ط دار الحصار 2009 ج3.

(1) الشيخ باي المرجع السابق ص 72

لكن هذا النص يحتاج إلى دراسة جيولوجية من قبل المختصين لتأكيد هذا الرأي وفي القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي لم تكن الوسائل متوفرة مثل ما هي عليه اليوم لدراسة الموضوع ولكن ما قدمه هذا الباحث هو استنتاج وليس دراسة علمية يمكن الأخذ بها وحتى مصادر تلك الفترة وأغلبها مصادر إسلامية لم تشر لذلك.

لكن دراسة النقيب لو منها رأي يعود إلى ما أورده السيوطي في النوازل العشر إلى أنصاف الميسور لمولاي حسن القيلاوي والتي مفادها أن أحد الأشخاص كان مطاردا من طرف أحد ملوك المغرب في نهاية القرن الأول الهجري فنزل بقصر تمنطيت وحفر بها أول فقارة والمسماة حاليا بهانوا⁽¹⁾.

هذا النص أيضا يحتاج إلى توضيح أكثر لأن دراسة النوازل الفقهية تحتاج إلى تحديد المدة الزمنية للنازلة إذا كان السائل من المعاصرين للسيوطي فيؤكد عدم صحة الرواية لأن السيوطي عاصر المغيلي القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي فالرواية غير صحيحة لأن ابن خلدون تعرض للفقارة في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي وكانت توات في تلك المدة الزمنية تتميز بكثرة سكانها.

وحتى تاريخ الهجرة وارتباطه بطرد أحد الأشخاص من قبل ملوك المغرب في القرن الأول للهجرة.

نحن نعرف من خلال النصوص التاريخية أن القرن الأول الهجري لم تكن بالمغرب الأقصى دولة وما كان موجود قبل الفتح الإسلامي هي إمارة طانجة أو سبتة كانت تابعة للقوطيين وحتى عند نهاية الفتح كان المغرب تابعا لولاية إفريقية وعاصمتها القيروان ولم تأسس دولة بالمغرب إلا في القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي من طرف الأدارسة.

(1) الشيخ باي، المرجع السابق، ص 72.

ومنها رأي أج ب مارتن الذي يذهب إلى القول بأنه بعد سقوط دولة العبيديين هاجر عدد من العبيديين إلى إقليم توات وتمبكتوا وأقاموا قصورا ونظموا السقي بأسلوب حفر الترع تحت الأرض فأخرجوا المياه من باطن الأرض إلى سطحها فسموا هذه الطريقة بالفقارة

هذه الهجرة غير صحيحة لأن ما عرف من خلال المصادر التاريخية التي أرخت لتلك المرحلة لم تشر إلى بقاء بعض أفراد الأسرة العبيدية الحاكمة في بلاد المغرب الإسلامي فقد انتقلوا مع المعز لدين الله وحتى وفاة الخلفاء نقلت ودفنت بالقاهرة.

ورأي آخر يرى بأن تاريخ الفقارة يرجع إلى فرار البرامكة من بغداد بعد نكبتهم على يد الرشيد قدم بعضهم إلى قصور توت السفلى وواحة سالي فنقلوا طريقة حفر الفقاقير التي كانت مشابهة لما هو موجود في إيران⁽¹⁾.

فرار البرامكة لإقليم توات لم تؤكد المصادر المشرقية التي أعطت أهمية كبرى لنكبة البرامكة ويبدو للباحث إذا كانت هناك هجرة للبرامكة فإنها كانت نحو بلاد فارس.

وذكر محمد باي بالعالم نقلا عن مخطوط المهداوي أن الجالية اليهودية التي نزحت إلى توات في وقت بعيد هم الذين اختطوا الفقارة ويستدل على ذلك بأن اليهود الذين أبعدوا من المدينة المنورة قاموا بحفر فقاقير بإقليم توات مشابهة لما يعرف بالشرج في المدينة المنورة.

وحتى هذا النص غير مؤكد لأننا لم نجد في الدراسات اليهودية إشارة نحو الهجرة الهلالية من الحجاز إلى إقليم توات.

وما هو مؤكد النص الأخير الذي يجعل نشوء الفقارة إلى القبائل البربرية.

(1) الشيخ باي، المرجع السابق، ص 87.

وهناك رأي آخر يقول أن البربر من قبيلة زناتة الذين استوطنوا المنطقة في وقت مبكر قد يكونون هم من اختطوا وحفروا لفقارة وبنوا القصور بمعظم نواحي توات وخاصة أن أعظم أسماء تلك القصور هي بربرية.

وهذا بعد نزوح زناتة إلى المنطقة خلال القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي عندما سقطت دولتهم فنزلوا بأرض بودة فوجدوا مياه وادي قير قد جفت فبدأوا بالحفر والبحث عن الماء حتى تمكنوا من استخراج الماء واتخذوا من مجرى الوادي بساتين وجنات وحفروا الفقاقير وبنوا القصور.

وحتى الفقارات لم يتأكد لحد الآن بأنها ظهرت أول مرة في مصر فالبعض يرى بأنها ظهرت ببلاد فارس ومنها انتقلت إلى مصر.

نجد أن الفقارة وردت كثيرا في كتب النوازل الفقهية لمنطقة أدرار ومنها نوازل الغنية حيث وردت مجموعة من النوازل تتعلق بالموضوع فمنهم من قال بجواز إعطاء الفقارة بجزء مما يخرج منها قياسا على دفع المعدن بجزء مما يخرج منه على قول ممن يبيزه وهو الإمام ابن القاسم والمقصود هنا هو العناية بالفقارة وتنظيفها والمحافظة على جريان الماء بها⁽¹⁾.

وحتى لا تحدث مشاكل بين أصحاب الفقارات أصدر قانون يتعلق بها ويحتوي على مجموعة من المواد أوردها الشيخ باي كما يلي:

المادة الأولى: تتعلق بكيفية المحافظة على الفقارة وحمايتها وترقيتها.

المادة الثانية: يلزم احترام المسافة بين كل فقارة وأخرى وحددت تلك المسافة بـ 200م بين فقارة وأخرى في حالة الإنجاز والمقصود بهذه المادة عدم استغلال الفقارة الأولى.

(1) الشيخ باي المرجع السابق ج 1 ص 72.

المادة الثالثة: يكون عمق الفقارة المنجزة يوازي عمق أقرب فقارة لها.

المادة الرابعة: لا يتم التنقيب على الماء إلا بعد موافقة ممثلي الفقارات.

المادة الخامسة: يجب تخصيص الجزء من المنشآت التي تغير مجرى الفقارة سطحيا وجوفيا.

المادة السادسة: لا يجوز أي بناء لا يبعد عن عشرة أمتار من مجرى الفقارة.

المادة الثامنة: لا يرخص لأي بناء عند منبع الفقارة.

المادة التاسعة: تمنع إقامة المساحات الخضراء على ظهر الفقارة.

المادة العاشرة: يمنع رمي القاذورات بجانب الفقارة أو داخل فواهاة الفقارة وأن استصدار هذا الأمر من قبل السلطات المحلية يرجع بالدرجة الأولى إلى المحافظة عن الأثر الحضاري وهناك جمعية عالمية تهتم بالفقارة وتاريخها وأماكن تواجدها.

المادة الحادي عشر: يلزم تجسيد مهابات فواهاة الفقاقير على شكل دائري داخل النسيج العمراني.

المادة الثانية عشر: يمكن للدولة المساهمة في تدعيم الفقارة.

وهناك نص آخر يرى بأن عمارة تمنطيت ترجع إلى حوالي سبع مائة سنة قبل الهجرة إلى أنها معاصرة لظهور المسيح.

وهذا النص يحتاج هو الآخر إلى توثيق لأن المصادر اللاتينية المتوفرة لدينا لم تتعرض لإقليم توات عكس المناطق الشمالية التي عرفت الاحتلال الروماني.

كذلك يرى الرحالة العياشي الذي يعتبر من الرحالة المتأخرين أن السكان الأوائل استقروا إلى ضفاف الأنهار التي كانت جارية في العصور القديمة.

ومن تلك الوديان التي كانت تجتاز هذا الإقليم وادي الساوره قال عنه العيني (أطول الأودية مسافة وأقلها فائدة تجمع إليه السيول من المسافات البعيدة ولا تنقطع إلا بعد أيام عديدة وهذا الوادي ابتداءه من الغر ثم يمر على قرى وادي الساوره يقطع من بلاد توات أرض بودة وتيمي وتمنطت ووادي الحنة إلى بلاد رقان ويمر غالبا إلى أن يصب في أرض السودان فلما أراد الله عمارة توات انكسر الوادي في مواضع يقال له الخنق فشق الجبل وانعطف يمينا في رمال كثيرة واتخذ مجرى تحت الجبل وتحت قصور توات إلى تمدنين من بلاد رقان حيث دخل في مجراه الأول وسار إلى أرض السودان فتارة يبعد هذا المجرى الجديد من قصور توات وتارة يقرب بحيث يرى في بعض القصور كتسفاوت وزجيات ونحو ذلك)⁽¹⁾

فالرواية التي أوردها العياشي تحتاج منا إلى دراسة جيولوجية للمنطقة خاصة التي يمر بها نهر الساوره حتى نتأكد من عملية الانكسار التي حدثت في تلك المنطقة والتي أدت إلى تغيير مجرى النهر.

لكن ما هو شبه مؤكد لدينا أن أغلب القصور التواتية نشأت على ضفاف مجرى الأنهار أو في المناطق التي تقترب منها المياه الباطنية مما سمح للسكان بحفر الفناجر وغرس بساتين النخيل وبهذا بدأت حركة تعمير المنطقة من قبل القبائل البربرية قديم الزمان.

ويبدو أن هؤلاء في البداية كانوا يعيشون حياة البداوة لم يشيدوا قصور بل كانوا يقيمون بيوت من الشعر أو الوبر تسهل عليهم عملية نقلها إلى أماكن أخرى وكانوا يمارسون تربية المواشي فكانوا ينتقلون مع مواشيهم في المناطق التي يتوفر بها الكلأ ثم بعد مدة من الزمن فضلوا بعض الأماكن عن غيرها وبدأوا في تشييد قصورهم.

(1) العياشي المصدر السابق ص 22 انظر أيضا مولاي بلخميبي المرجع السابق ص 69.

من بين الذين تناولوا تاريخ توات العالم الجليل محمد بن عبد الكريم التمنيطي البكري فقد ذكر في كتاباته أنها كانت تحت حكم سبيلة وإفريقيا البطريك جريجوريس الذي أعلن انفصاله عن مالك روما وجعل المنطقة تابعة له وكانت توات في عهده تدين بالنصرانية.

يلاحظ الباحث أن هذا النص بعيد عن الحقيقة التاريخية المتعارفة عليها من خلال المصادر المتوفرة لدينا التي عاجلت الوجود الروماني في شمال إفريقيا لم تشر هذه المصادر إلى توسع الرومان جنوب الأطلس الصحراوي واكتفوا ببعض سفوحه ما بالك الوصول إلى توات التي تبعد عن تلك المراكز بأكثر من ثمانمائة كلم.

إن وجود مملكة سبيلة التي كانت معاصرة للفتوحات الإسلامية هي معروفة لدى الباحثين المختصين في هذا العصر ولم يشر هؤلاء أنها كانت تصل توات ولا أعرف من أين أتى هذا الشيخ بهذه المعلومات وكذلك انتشار المسيحية بتوات لم تشر لها المصادر التي أرخت للمسيحية في شمال إفريقيا ولو وصلت المسيحية لتوات لوجدنا أثرها مثل بقايا الكنائس مثل ما هو الحال بشمال الجزائر.

إن ربط انتشار الإسلام في توات في عهد عقبة بن نافع وحسان بن نعمان غير مؤكد وبعيد عن الحقيقة التاريخية وربما في رأي أن الإسلام وصل إلى المنطقة في عهد موسى بن نصير لأن أبناء هذا الأخير فتحوا منطقة السوس في المغرب الأقصى وهي غير بعيدة عن سجلماسة التي كانت لها علاقة بإقليم توات فانتقل بعض السجلماسين ونشروا الإسلام لكن هذا أيضا غير مؤكد لعدم وجود النصوص وما هو موجود في أدرار يحتاج إلى دراسة علمية معمقة.

وهناك نص أورده الشيخ باي يتعلق بكتابة جدارية وجدت بإحدى المساجد في أولف ترجع إلى سنة 164هـ وربما هذا التاريخ مقبول جدا لأن الإسلام دخل إلى توات في القرن الثاني الهجري وهناك نص آخر يقول أيضا أن أقدم مسجد بتوات هو المسجد الموجود بقصر تيلوت بتمنطيت يحمل محرابه 725/106.

الحياة الروحية:

من بين الطرق التي انتشرت في إقليم توات الطريقة القادرية⁽¹⁾.

انتقلت قبائل كتنة في القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي إلى واحة توات وحملوا معهم الطريقة القادرية وفي هذه الواحة انتشرت الطريقة القادرية في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي.

الطريقة الموساوية⁽²⁾:

تنسب الطريقة الموساوية إلى الشيخ أحمد بن موسى بن خليفة ولد بفاس سنة 1475/895 بقرية سيدي موسى بفاس.

وأهم ما يميز هذه الزاوية أنها احتفظت بالحياد في ظل الصراع الذي كان قائما بين فرنسا والمقاومة.

الطريقة الشيعية⁽³⁾:

ترجع الطريقة إلى عبد القادر بن محمد بن سليمان المولود سنة 1533/940 بضواحي الشلالة درس على يد والده الشيخ محمد بن سليمان وعلى يد عمه الشيخ أحمد المجدوب حافظ القرآن واتجه إلى تيجرايين ثم فقيق وقد ارتبط بعدد من علماء عصره نذكر من بينهم أبي محمد دفين تبلكوزة والشيخ عثمان دفين زاوية تميمون والشيخ سيدي أحمد بن موسى دفين كرزاز وقد انتشرت هذه الطريقة في

(1) الطريقة القادرية ظهرت في بغداد وتنسب للشيخ محمد محي الدين عبد القادر بن أبي صالح جيلان لمزيد من المعلومات عنه انظر عبد القادر الجيلاني سر الأسرار ومظاهر الأنوار تحقيق خالد محمد عدنان دمشق دار السنابل 1994 وعن الطريقة القادرية في توات انظر مولاي الهيبة نفس المرجع ص 37 حوتية المرجع السابق ج 1 ص 178 وما بعدها.

(2) الطريقة الموساوية تنسب إلى الشيخ أحمد بن موسى الكرزازي لمزيد من المعلومات انظر بوح سون بوفلجة شخصية الشيخ سيدي أحمد بن موسى 1995 ص 1 وما بعدها.

(3) نفسه، ص 1 وما بعدها.

الجنوب الغربي وهذا يعود إلى تلاميذه المنتشرين في هذا الإقليم فبإقليم توات نذكر منهم الحاج أبو حفص الذي نشر الطريقة بإقليم تنجورارين ومحمد عبد الله الجزوي دفين أولاد سعيد.

ومن أهم نشاط شيوخ الطريقة الإصلاحية بين الناس وكذلك بين القبائل والقصور المتنازعة والتي كان ينتهي الأمر بها إلى القتال وإفساد الممتلكات وقطع المياه على الخصم ومن وجوه سعي هؤلاء التنقل إلى القصور لرد ما غصب من الأموال والمنقولات والحظ على صيانة أموال أيتامى ورد الديون والرهون التي لم يتمكن مستحقيها من استفائها لوقوعها في يد المتنفذين الزوايا وبقصور توات زوايا أما للعلم أولاد طعام ابن السبيل.

من بين هذه الزوايا زاوية بدريان للشيخ أبو محمد الجزوي وهو من أبناء الشيخ محمد بن سليمان الجزوي ولد في أواخر القرن التاسع الهجري بأولاد سعيد تعلم على يد والده ثم على الشيخ الحاج بلقاسم الحسين وأخذ علم التصوف على الشيخ موسى بن المسعود.

انتقل إلى تركوك وأنشأ بها زاوية جزولا وبعدها أسس مجموعة من الزوايا كبدریان وزاوية بن عيسى وتوارينخت وفاتيس وتامصلوحت وبعد وفاة الشيخ ورث أبنائه تسيير الزوايا التي أسسها وكانت لهذه الزاوية عدة اتصالات مع شيوخ المنطقة وخارجها.

زاوية أبي الأنوار بتدكالت 1754/1163:

يعود نسب هذا الرجل إلى بني أمية وقد ولد بقصر تينلان ودرس على يد الشيخ محمد التيطافي وعلي بن حنيني.

اهتم بقراءة العلوم الشرعية ثم اشتغل بعدها في طلب المعيشة فاشتغل بتجارة التمور حيث أصبح يمّون القوافل بما تحتاج إليه من هذه المادة ثم قام مدة بالقصر الجديد ثم انتقل إلى حوض نهر النيجر حيث التقى بشيوخ زاوية كتنة بالأزوات منهم الحاج أحمد بن أبي بكر والسيد المحجوبي وأسسوا حاضرة المبروك بشمال الأزواد 1713/1125.

عندما عاد من السودان الغربي إلى تيدكالت وبالتحديد لأولف الشرفاء اشترى بساتين من ماله الذي تحصل عليه من النشاط التجاري في السودان واشتغل بالتعليم وكان من أنجب طلابه سيدي محمد بن مولاي هيبة فزوجه ابنته فاطمة وجعله واصيا على ماله.

ثم عاد إلى تينلان فاشترى بها بساتين ومياه أوقفها على عدد من الزوايا كزاوية الشيخ عبد القادر الجيلاني والشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي ليستفيد منها الفقراء والمساكين وكان له العديد من الفتاوى توفي سنة 1168.

الأحوال السياسية:

إقليم توات:

لعل أهمية الإقليم تكمن على الخصوص في وقوعه على طرق القوافل التجارية المتجهة من الشمال نحو السودان الغربي ومن هذا الإقليم نحو الشمال إلى الجزائر والمغرب وتونس وحتى إلى طرابلس هو ملتقى للقوافل التجارية ومحط رحاله ومنطلقها في الاتجاهين المذكورين، ولكن أيضا في كونه مركزا كثيرا للتبادل التجاري في بضائع الشمال وسلع الجنوب.

وعن أهمية هذا الإقليم في القرن السادس عشر بالذات يقول عبد العزيز الفشتالي في كتابه منهل الصفا: (لهذا الإقليم المفرع إلى قطر توات هو أوسع وطننا وأفسح مجالا وأقرب للسودان اتصالا وجارا وإلى قطر تيكراين وهو أعظم استشهارة وأعرف نقيا وأشد شوكة وأخشن جانبا وأعظم أقاليم المغرب: كذا وأكثرها أمما وأفخمها خطة انتظم عمرانه وارتصت نخيله وترامت قصوره على مسافة ثلاثين مرحلة أو أكثر)⁽¹⁾

لكن أدعاء الفشتالي في تبعية الإقليم للمغرب الأقصى لا أساس له من الصحة لأنه كان مرتبط بالوحدات الجزائرية مثل ورجلان أكثر من المغرب الأقصى وأن الارتباط يتمثل في رحلة علماء توات لكل من سجلماسة وفاس وأن رحلة هؤلاء لم تقتصر على المغرب الأقصى بل شملت الجزائر فتوافد بعضهم على الجزائر وتعلمدوا على شيوخها كما كان لعلماء تلمسان والجزائر تأثير كبير على علماء توات نذكر من بين هؤلاء الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي والشيخ العصوني والشيخ بن إيدير الدلسي وغيرهم كثيرون.

أما محمد بن الحاج عبد الرحيم المشهور بأبأبا حيدة صاحب كتاب القول البسيط وأخبار تامنيط قال: اجتمع فيه العلم والإمارة والديانة والرياسة وانتصب بها

(1) عبد العزيز الفشتالي مناهل الصفا ص 73.

الأسواق والصنائع والتجارات والبضائع كانت لا يستغنى عنها غني ولا زاهد لما فيها من الدين والبركات والمنافع والحاجات فيها تورد البركات ومحشر العربان ورئيسة البلدان ينتصب لسعرها الجيران ويرد بها لظمان وترتس بها التجار في الحلول ولا يقنع ذو سلعة عرضها إلا بسعرها⁽¹⁾

أهمية إقليم توات من الناحية التجارية جعلت الدولة السعدية تلجأ إلى محاولة السيطرة عليه وهذا بدوره يؤكد بأنه لم يكن تابعا للمغرب الأقصى في عهد الدولتين المرينية والوطاسية وفي هذا الصدد يتجلى أن السعديين بعد أن تمكنوا من توحيد بلاد المغرب الأقصى بدأوا يعملون من أجل مد نفوذهم إلى إقليم توات إدراكا بأهمية الإقليم في المجال الاقتصادي على الخصوص العلاقات التجارية بين بلاد المغرب الإسلامي والسودان الغربي تلك المحاور التي مالت نحو الشرق أكثر أي نحو الجزائر وتونس خاصة بعد اضطرابات المغرب الأقصى في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر وضعف السلطة المركزية في فاس خلال عهد الدولة الوطاسية.

علاقة الإقليم بالدول المجاورة له:

ساهم إقليم توات في مد السودان الغربي بالثقافة والحضارة العربية وكانت مدينة تمبكتو خلال زيارة الرحالة الألماني لها جير هارد رولف مقصدا لعلماء توات ويقول السعدي في تاريخه أن مائتين عالما من توت كانوا بتبكتو.

ورغم بُعد الإقليم من الحواضر الإسلامية في بلاد المغرب والمشرق الإسلاميين فإن أهله ساهموا في إزدهار الثقافة العربية الإسلامية فقد انتقل طلابه إلى كل من تلمسان وفاس وتونس وطرابلس وبلاد المشرق للأخذ عن علماء هذه المناطق وبعد الدراسة عادوا إلى توات فنشروا المعارف بالمراكز الثقافية لهذا الإقليم.

(1) عبد العزيز الفشتالي مناهل الصفا ص 74.

وبما أن توات كانت على الطريق التجاري التي تسلكه القوافل التجارية وركب الحج جعل علمائها يستفيدون من العلماء الذين يقطعون الطريق للتجارة أو لزيارة الأماكن المقدسة في الحج فكانوا يعمدون إلى نسخ كتبهم التي يحملونها معهم.

أن المصادر المتعلقة بهذا الموضوع قليلة جدا والكتب التي تناولت تاريخ بلدان المغرب الإسلامي لم تشر إلى هذه المنطقة وإذا كانت هناك إشارة فهي قليلة جدا لا تسمن ولا تغني من جوع وحتى كتب علماء توات تحتاج إلى السند التاريخي وأغلبها كان في الفترة المتأخرة أي بعد القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي.

استقلال الإقليم:

نقلا عن تاريخ بن امبارك يقول: واستمر مشائخ إقليم توات يتمتعون بكامل الحرية في تسيير أمورهم الداخلية والخارجية دون تدخل خارجي حتى مطلع القرن السادس الهجري حين امتد إلى إقليمهم نفوذ الدولة الموحدية ثم أمراء بني مرين ثم أمراء الدولتين أرغموا مشائخ الإقليم بدفع الضرائب مع تركهم حكم الإقليم.

يقول فرج محمود نقلا من تاريخ محمد بن عبد الكريم البكراوي قال: ولنرجع لخبر زناتة أنهم لما أتوا وتكبروا وتنافسوا في الرئاسة وأهرقوا الدماء ذهب ربحهم وفشلوا.

وفي سنة 518هـ حيث غلب المهدي الشيعي سلطان الموحدين في المغرب بعث قائده علي بن الطيب والطاهر بن عبد المؤمن لأهل الصحراء وصحبتها أمره بقبض الأتوات من أهل الصحراء والأتوات من زناتة وجميع أهل الخراء إلى 565هـ ببيع أبو العناء إدريس آخر ملوك الموحدين فوجه عامله المسعود بن ناصر لأهل الصحراء يقبض الأتوات.

حكى في بعض التواريخ القدماء أن أهل الصحراء لما طلبهم المهدي ملك الموحدين بالكوس والمغارم والرطب والعنب وسار أثمار الكروم ففعل ثم باعه السلطان للبدو

التزئين قرب تلمسان فحملوا وعظمت بذلك المصلحة فصد الأمر عنه في العام التالي بترخيص الأشجار وقبض الأتوات كيلا ووزنا على حسب الترخيص فعرف أهل هذا القطر بأهل الأتوات.

ويبدو لي أن أول من حاول تنظيم هذه الناحية الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي ولذا قام بالأصلاح لكنه لم يصل إلى النتيجة المرجوة لوجود قوة لها مصلحة في بقاء القوضى منها الجالية اليهودية وبعض العلماء الذين كانوا مستفيدين من تلك الوضعية وكذلك شيوخ القبائل الذين كانوا مستفيدين ماديا وبعض العلماء الذين أيدوهم.

فالمغيلي رأى في توات أشياء لم ترق له فحاول القيام بتغييرها مما جعله يختلف مع القوة المؤثرة في ذلك المجتمع فكان ما يسمى بمشكلة الجالية اليهودية في توات وقد تعرضنا لهذا الموضوع بالتفصيل عند تحقيقنا لرسالته المتعلقة بأهل الذمة وفي مقدمتهم الجالية اليهودية.

أولا: أن اهتمام اليهود بالنشاط التجاري الحرفي بوهران وعلاقتهم بإخوانهم في أراضي الدولة الزيانية؛ والدولة الجزائرية الحديثة؛ قدم خدمات جليلة للإسبان وعلى الخصوص في ميدان الجوسسة؛ التي نستعرض لها فيما بعد لكن انهيار الدولة الزيانية 964هـ/1554م وتغلب باشوات الدولة الجزائرية على المناطق التي كانت موالية للإسبان؛ وبعد النجاح الذي حقق في استبعاد بجاية سنة 963هـ/1555م؛ والضربة القاضية التي وجهت للإسبان في مزغران؛ سنة 966هـ/1558م فقتل فيها الكوديتي (Comte Al Caudete) وفقد أعظم قوته؛ وكادت وهران والمرسى الكبيران تسقط بيد الدولة الجزائرية لولا تحصيناتها ووصول الإمدادات من إسبانيا؛ لم تسمح للإسبان فيما بعد بالمغامرة خارج مراكزهم؛ عكس ما كان من قبل وعلى الخصوص خلال حكم الكوديتي لوهران؛ فأضعف ربما نشاط الجالية اليهودية بأراضي بني زيان؛ التي كانت تتعامل مع الإسبان لأن نهاية هذه الدولة واشتداد الحصار البحري على وهران

والمرسى الكبير جعل السلطة الإسبانية ترى في تواجد ألف من أفراد الجالية اليهودية في وهران يخلف لها أزمة اقتصادية من جهة وأمنية من جهة أخرى خوفا من تحالفهم مع المسلمين.

ثانيا: أن موقف حاكم مدينة وهران الذي يتجلى من خلال التقرير المرافق للوثيقة؛ والذي دفع فيه عن اليهود؛ و ذكر بأن الأزمة التي تعاني منها وهران ستكون ظرفية؛ تزول مع الأيام، لكن هذا لا يتماشى مع الواقع؛ ولعل دفاعه يرجع بالدرجة الأولى إلى العلاقة التي تربطه بهؤلاء؛ ومن عاداتهم استغلال العلاقة مع السلطات الحاكمة لصالحهم؛ وقد حدث هذا بالنسبة لأمرأء الدولة الزيانية؛ فالعلاقة الحسنة بينهم وبين أبي عبد الله الثاني؛ هي التي سمحت لهم بالدخول إلى المدينة؛ والاستقرار في المنطقة الفاصلة بين القيصرية والمنشور:

ثالثا: أن اليهود قدموا خدمات جليلة للإسبان؛ فهم الذين كانوا يخرجون إلى الدواوير المجاورة لمدينة وهران لجمع الضرائب من الفلاحين المزارعين؛ ومربي المواشي. كما كانت لهم الحرية الكاملة في الحركة خارج المدينة يرافقون القوافل بين تلمسان ووهران؛ وهذا يتجلى لنا من الوثائق الإسبانية؛ فنقتصر على البعض منها خلال سيطرة خير الدين على حصن البنيون بعث أحد اليهود من مدينة الجزائر؛ مع أفراد جاليته؛ تقرير مفصل لحاكم وهران عن مصير الحصن؛ وما حدث للإسبان به؛ تذكر بأن عدد القتلى بلغ خمسة وستين جنديا؛ والأسرى مائة وخمسة عشر؛ منهم خمسة وعشرين امرأة مع أطفالهن؛ حول أغلبهم إلى عبيد؛ وهو ما توضحه أيضا الرسالة التي بعث بها الكوديتي إلى الإمبرطور شارل الخامس؛ والمؤرخة في خمس وثلاثين؛ وخمسمائة وألف؛ عالج فيها صاحبها دور الجالية اليهودية في نقل المعلومات عن أمرأء بنى زيان؛ الحاكم وهران ولم يقتصر الأمر على هؤلاء فقط؛ بل حتى القبائل المعادية للإسبان؛ لأن اليهود كانوا يخرجون من وهران حاملين السلع لبيعها في الأرياف؛ وتبادلها بما يحتاج إليه الإسبان من حبوب؛ ومواشي؛ وبعض الصناعات التقليدية.

وفي ظل هذا يبدو بوضوح ما لليهود من نفوذ في المجال الاقتصادي وموزارة الإحتلال وتدعيمه.

رابعا: عمد اليهود إلى اضطهاد السكان عندما يخرجون إلى الدواوير لاستخلاص الضرائب؛ ناشرين الظلم؛ والاضطهاد يتصرفون في السكان بكامل الحرية؛ وفي هذا الصدد يقول المشرفي: كانت لهم حولة عظيمة على بنى عامر؛ لكون الجباية بمحلته على يد اليهود؛ الضريبة فيضرب خباؤه بواسطة دواوير بنى عامر من أولاد عبد الله؛ وغيرهم يتصرف بهم لكونه الملك في رعيته؛ كما شاء أمر؛ ولهذا يضع على رجله هذا الحبال ويجلد هذا؛ ويتخلى سبيل هذا؛ إلى غير ذلك دون معترض.

أثر علاقة اليهود مع السودان الغربي وأثرها:

لعبت الجالية اليهودية دورا هاما في المبادلات التجارية بين السودان الغربي؛ وبلدان العالم الاسلامي؛ وقد اتخذوا من مفترق الطرق التجارية ومراكزها للإشراف على حركة القوافل التجارية؛ تعرضت كتب الرحالة لدور هؤلاء اليهود؛ وكذلك أصحاب النوازل الفقهية؛ ووجهت أسئلة في شأن اليهود إلى علماء تلمسان؛ ومن بين هؤلاء عائلة العقباني؛ وفي هذا الصدد وردت النازلة التالية: وكتبت قاسم سعيد العقباني لمحمد بن موسى الحسني؛ جوابكم في شراء اليهود الذين بالبلاد الصحراوية القريبة من ظاهرة السودان؛ العبيد؛ والإماء؛ الواردين عليهم ابتغاء التجور؛ والإستفادة؛ وطلب الفضل في بيعهم؛ لا يعود ذلك من القصور التي تحمل على شرائهم كدوام الملك؛ أو الاستخدام؛ أو الاستيلاء بالفائدة في الربح؛ خاصة على أن الرقيق في أول انفصالهم عن بلادهم يأتون على مجدهم؛ وناقصون عليه والإسلام؛ إنما يخالف قلوبهم ويتزينون به بعد الاستقرار في عامة البلاد؛ فهل يصح شراء اليهود باسم التجار فيهم؛ وهم بالحال المعهودة، الذي يستخلص من هذه النازلة يتمثل فيما يلي:

أولا: أن توات من أهم الواحات الصحراوية في أراضي الدولة الزيانية؛ التي يتوافد عليها العبيد من السودان الغربي؛ ولا تزال لحد الآن بعد مظاهر تلك التجارة؛ فهؤلاء

الرقيق ما زالوا يعاملون معاملة تختلف عن بقية المسلمين، وتوجد أخباء خاصة بهم في القصور منفصلة عن أسيادهم؛ ويمنع التصاهر معهم؛ وحتى المقابر منفصلة في بعض القصور؛ لأنه لا يمكن للعبد أن يدفن إلى جانب السيد، لكن هؤلاء الزوج اعتنقوا الإسلام بعد وصولهم إلى تلك الواحات؛ والبعض منهم كانوا على الإسلام.

ثانيا: إن النازلة توضح لنا بأن الذين كانوا يحتكرون هذا النوع من التجار هم اليهود الذين كانوا يرافقون القوافل التجارية وعلى الخصوص في المسالك التي بين سلجاسة؛ وتوات؛ وتمبكتوا؛ وجوجو؛ وغيرها من المراكز التجارية، كما توضح لنا سيرة المغيلي عبد الكريم أن هناك جالية يهودية كانت متمركزة في إمارة السودان؛ كدولة سنغاي؛ ولهم علاقة مع إخوانهم الذين كانوا بتوات؛ ولذا حاول عبد الكريم المغيلي أن ينتقم منهم عندما علم بمقتل ابنه في أحد قصور توات، طلب من السلطان سنغاي معاقبتهم.

ثالثا: إن هذا النوع من التجارة يهدف من ورائها الربح الكثير حيث كان هؤلاء يعمدون إلى نقل العبيد نحو الموانئ الشمالية المطلة على البحر الأبيض المتوسط ومنها موانئ، الدولة الزيامية حيث يوجد إخوة لهم يحتكرون هذا النوع من التجار فيصدرن العبيد إلى الدول الأوروبية فيباعون من طرف اليهود الذين يتواجدون في أغلب المراكز التجارية وعلى الخصوص الموانئ وتؤكد الوثائق الإسبانية أن اليهود في كل من الدول الأوروبية والدولة الزيانية والواحات الصحراوية والمراكز التجارية في كل من السودان الغربي متصلون ببعضهم في بعض الأحيان هم أفراد من أسر موزعة على تلك المراكز فهم الذين يحددون أسعار العبيد.

رابعا: أن النازلة توضح لنا ما توصل إليه الحسن الوزان بأن هؤلاء العبيد كانوا ينقلون من أقرامهم بالقوة بعد الحروب التي كانت تتخبط فيها منطقة السودان الغربي، وبعض هؤلاء يأتون من النواحي التي اعتنق سكانها الإسلام، وبعض هؤلاء يعتنقون الإسلام بعد أن يتم شراؤهم من أسر إسلامية للعمل في الدور أو في البساتين.

ففيما يتعلق بالرقيق المسلمين نجد نازلة وردت في هذه المجموعة ورد فيها قول صاحبها "من اشترى من اليهود رقيقا حقق إسلامهم هل شراؤهم صحيح، وإنما يحرم بيعه: فأجاب محمد بن موسى الحسنى بقوله: الحمد لله بيع السودان الكفار الأول ورودهم من بلادهم، وهم بصفة المتجسسين من اليهود، والنصارى، ليس بحراس، وإن كان ترك الرفيع منهم أولى وأما صغار السودان فلا سبيل لبيعهم" أما أبو القاسم العقباني فقال وأما شراء اليهود من حقق إسلامهم من الرقيق، فلا يجوز، ولا يكاد يصدر من مسلم والله الموفى، فلا يجوز، ولا يكاد يصدر من مسلم، والله الموفق.

أولا: هذه النازلة وردت الإجابة عليها من عالين يعتبران من أبرز علماء تلمسان في عصرهما وهما السنوسي وابن زكري وقد وقع اختلاف في إجابتهما عن النازلة.

أولا: يركزون على الرقيق الذين نقلوا من السودان الغربي وهم على وثنيته، فإن بيع من قبل اليهود ليس بحرام، وفرق بينهم حسب السن، والمكافحة الاجتماعية، فترك الرفيع منهم أولى وأما صغار السودان أي الأطفال فلا سبيل لبيعهم، لأنه أحيانا وربما في أغلب الحالات يفضل بين أفراد الأسرة الواحدة، فيباع بعضهم في مركز والآخرين في مراكز أخرى.

ثانيا: أن العقباني يمنع الاتجار بالمسلمين من قبل اليهود سواء كانوا أطفالا أو نساء ونطلب من المسلمين منع هؤلاء اليهود من النوازل أوردها المازوني يتعلق بمنع هذا النوع من التجارة، لكن عندما ضعفت الدول المغربية، ومن بينها الدولة الزيانية، أصبحت الجالية اليهودية تتجر بموانئ هذه الدولة، فهذه المراكز محتلة من قبل الإسبان. ومما يؤكد على ازدهار المبادلات التجارية بين تلمسان وتوات، وردت هذه النازلة

دور اليهود في المبادلات التجارية بين تلمسان وتوات:

من بين السلع يتم تبادلها بين توات وتلمسان العبيد، كما أسلفنا حيث كان مجموعة هؤلاء يملكون المخازن التجارية، في القيصرية، تلمسان، وقد أشارت إلى ذلك الوثائق

الإسبانية حيث حدد هؤلاء موقع الحي اليهودي، بأنه مجاور للمشور، والنازلة توضح هذه العلاقة، فأهم ما ورد فيها: سل عبيد الله احمد بن محمد بن زكريا التلمساني جوابكم الكريم في أمه مملوكة، يبلدنا تزوجت عبدا، لأهل تمنطيت، في زمن العافية وبما أن حدث الحرب ذهبت العبدة إلى سي، وبقيت الأمه عند سيدها، ولما طال الأمر أرادت تطبيق نفسها الاتفاق توضح هذه النازلة بالإضافة إلى العلاقة بين توات وتلمسان الاضطرابات التي عرفتها الدولة الزيانية، وخاصة العاصمة، وكان الناس يتركون المدينة كلما كثرت الحروب بها، ومن بين المهاجرين أفراد من الرقيق.

وهناك نازلة أخرى تؤكد دور اليهود، في المبادلات التجارية وأهم ما جاء فيها، سؤال للإمام سيدي قاسم العقباني: جوابكم المبارك في مسألة يهودي من تجار الصحراء أتباع من تجار المسلمين تحقق سلعا كثيرة بثمن معلوم، إلى أجل مما يقرب الثمانية ألف دينار ذهباً، ونحوها، فلما وصل إلى قصر من قصور الموضع المذكور، وتمنع بأهله، إلى أن سافر أرباب الديون، عاد إلى موضعه وصار يبيع ويشترى، كما كان أولا ويده مال كثير فعندما يطلبه أحد من أرباب الديون الذين كان اشترى منهم السلع المذكورة، يقول هو عديم وهل يضاف اليهودي المذكور بالأسواق وينادي عليه بالعدم والسلام.

فأجاب العقباني يجب في الحاكم أن يضرب على يديه، ويحال بينه وبين ما يؤخذ بيده، ويهجم على منزله، فيجمع جميع أمواله، ويصال حبسه، ويحمل عليه بالسوط ثم يمنع من السوق، ويشهر أمره بإقامة الناس عند المساجد، ومحل الاجتماعات.

وما يمكن استخلاصه من النص يتمثل في أن موقف المسلمين من اليهود لم يكن الدافع إليه الجانب العقائدي كما ذكر بعض الباحثين، واليهود، عندما عاجلوا موقف عبد الكريم المغيلي من الجالية اليهودية في تمنطيت.

أولا: أن التجار الذين كانوا يتوافدون على توات من المراكز التجارية، كانوا يعمدون إلى بيع سلعهم لكبار تجار الجالية اليهودية، بتوات، ويتظنون بيع السلع

ولأخذ أموالهم لذلك يجدون وقت أخذ تلك الأموال، ثم يعودون لقبض أموالهم لكن هؤلاء يعمدون إلى تباع طرق ملتوية حتى لا يسددوا ديونهم ومنها الدخول إلى قصرهم والتحصن به وبذلك نجد الصراع الذي حدث بين هؤلاء وأولئك.

ثانيا: أن اليهود كانوا يعودون إلى عملهم في السوق بعد مبارحة صاحب الدين بتوات، وهو ما جعل العقباني يطالب بمصادرة أموال هؤلاء التجار وحسبهم.

ثالثا: أن كل تاجر سواء أكان يهوديا أو مسلما يقوم برفع الأسعار أو احتكار السلع أو عدم تقديم الديون لأصحابها يطرد من السوق ويشهر به في الأماكن التي يتوافد عليها الناس كالساحات والمساجد حتى لا يتعامل الناس معه في المستقبل وهذه العملية مجدية للغاية لأنها تقضي على تلاعب التجار بأموال الناس^(*).

موقف المغيلي من اليهود في توات:

كما تعرض عبد الكريم إلى وضعية الجالية في توات وغيرها من القصور الصحراوية في نهاية القرن 9هـ/ 15م وبداية القرن 10هـ/ 16م. ومن بين ما أورده قوله: قبائل في أطراف الصحراء، حيث لاسا لهم حكم الأمراء، يتخذهم اليهود أجلاء ويلقبونهم بالغلائف، ويجعلون الموازين والسكة بأيديهم، دون أمير يكون عليهم، فيعيشون للمسلمين خاصموه حتى لا يتوصل إلى أخذ الحق منهم، نستخلص من هذا النص:

أولا: أن اليهود في الواحات الصحراوية وبالأخص إقليم توات كانوا يعتبرون سادة القوم، لتعاونهم مع أعيان تلك القصور، فكانوا لا يعترفون بها تقره الشريعة الإسلامية في حقهم.

ثانيا: أن اليهود كانوا متواجدين في أغلب قصور توات وبالأخص قصر أولاد داود تمنطيت، لأن هذه الأخيرة تعتبر المركز الأساسي للمبادلات التجارية بين

(*) مثل ما عليه الحال في عصرنا هذا.

السودان الغربى وبلدان العالم الإسلامى فى مشرقه ومغربه لأنها تقع على الطريق التجارى الذى يربط هذه البلدان لذلك توافد عليها عدد من اليهود من الدول الإسلامية والمسيحية لاحتكار النشاط التجارى بها، فالمكائيل و الموازين بايديهم، و بذلك يتحكمون فى السلع وأسعارها كما كانوا يقومون بضرب النقود المتداولة بين التجار سواء فى توات أو غيرها من الواحات الصحراوية ولم تكن هناك سلطة تراقب النوعية فى تلك الأماكن وهو ما جعل هؤلاء المسلمين يردون على المغيلي بقولهم: على هذا أدركنا آباءنا وعليه أدركت آباؤنا آباءهم، ولم نسمع من أنكر ذلك تطبيق الأحكام الإسلامية على هؤلاء لم يتم منذ نزولهم بتلك البقاع الصحراوية، وحتى الفقهاء أنفسهم لم يفرضوا على هؤلاء اليهود الجزية.

ثانيا: أن هؤلاء هم المشرفون على الأسواق التجارية، ولذلك فإن خروجهم من قصورهم سيؤدي إلى تعطيل هذه الأسواق، ويشير كذلك المغيلي إلى خطر هؤلاء اليهود، على أمن السكان فى توات وغيرها من الواحات التى كان يقيم بها المسلمون، فتسببوا فى الفتن بين القصور حتى لا يكون هناك اتحاد يهدد مصالحهم الاقتصادية، فى المنطقة وهى نفس السياسة التى كان عليها اليهود فى أغلب أمصار الدول الإسلامية، كالأندلس، والمغرب، وحتى بلدان المشرق، وعلى الخصوص عندما يكون هناك تعاون بينهم، وبين أعيان تلك القصور لأن القصور التواتية كان يشرف عليها الأعيان وعليهم الذى من رجال فى الزوايا لتأثرهم على المجتمع هناك يذكر المغلى نفوذهم جعلهم لا يتقيدون بها جاءت به الشريعة الإسلامية، فهم ينكرون ارتداء الزنانير و يتزينون بالزى الرفيع و يتخذون الرقيق، و يظهرون ما شاءوا من يتعاضم أولا وأمورهم، ويرفعون أصواتهم، بذلك فى أعيادهم وأفراحهم و يحدثون المعابد، حيث شافوا بين دور المسلمين ويرفعون أصواتهم بالقراءة وغيرها، وأحدثوا كنيسة، واتخذوا النقود وعلى الخصوص جودة الذهب المستعمل.

كما كانوا يقومون بتقديم القروض للتجار وهو ما جعل هؤلاء في رأي المغيلي يغشون المسلمين ويخونهم ويخدعونهم.

ثالثا: نجد هناك تعاونا بينهم وبين ذوي الجاه، والمكانة في تلك القصور، فيتقدمون هؤلاء اليهود عندما يحددون معارض لهم وأحسن مثال على ذلك، ما وقع لعبد الكريم المغيلي الذي لم يستطع أن يحقق ما كان يصبو إليه، في توات مما جعله يفضل الانتقال إلى السودان الغربي، وقد تعاون هؤلاء اليهود وحلفاؤهم على ابنه فقتلوه.

وكان هؤلاء اليهود لا يدفعون الجزية لأن المسلمين الذين كانوا بتلك القصور لما طلبوها منهم ادّعوا أنهم كانوا معفين منها في العصور التي سبقت وصول المغيلي إلى توات، وهو ما جعل المغيلي هذا الأخير على ذلك بقوله: "فإذا قيل لهم أنكم أعتم اليهودي، على التمرد، ومنع الجزية، وإذاية المسلمين بقوله على هذا أدركنا آباءنا عليه أدركت آبأؤنا آباءهم، ولم نسمع قط من أنكر ذلك، وحتى الفقهاء ونحن إن قهرنا اليهود يرحلون عنا إلى من يمنعهم فتدركنا المعرة وتعطل أسواقنا" ومن الملاحظ:

أولا: أن وجود اليهود في توات، وغيرها من الواحات يعود إلى فترة زمنية قديمة ولعله لعهد الدولة الرستمية التي اهتمت بالمبادلات التجارية مع السودان، حيث كان الانتقال من تيهرت إلى ورجلان ومنها إلى توات ومن هذه الأخيرة إلى السودان الغربي والرستميين من بين الدول الإسلامية التي وجد اليهود خلال حكمهم تسامحا فكان لهم حي بداخل المدينة واستمر تزايد اليهود في المحطات التجارية خلال المراحل التي تعاقبت على بلاد المغرب دول أخرى كالدولة الفاطمية التي أعطت أهمية كبيرة للنشاط التجاري وأغلب المعارك التي وقعت بينها وبين أعدائها في المغرب الإسلامي كانت في المناطق التي تحتازها القوافل التجارية كسجلماسة وتيهرت وفس والمحمدية مسيلة وغيرها ثم بعد ذلك عندما نشأت الدولة المرابطية التي تحكمت في الأنشطة التجارية خاصة التي تربط السودان الغربي ببلاد المغرب الإسلامي بعد توسعها في تلك المنطقة على حساب الدول

الوثنية كإمبراطورية مالي وغيرها يبدو لي زيادة مكانة الجالية اليهودية وبعد انهيارها قامت الخلافة الموحدية التي قامت بتصفية اليهود إلى نفوذ هؤلاء قد زاد في أواخر عهد هذه الدولة والدول التي نشأت على أنقاضها ومنها الدولة الزيانية التي كان بداخل عاصمتها تلمسان حي يهودي استقروا فيه منذ عهد انكاوة أو إبراهيم بن الأشقر كما عرفته المصادر الإسلامية حيث كان من أهم أطباء الدولة فزاد نفوذهم وأصبحوا يتطاولون على المسلمين من جملة ما عرفوا به يقولون العرب بنو أمة منا ونحن خير منهم في الدين لأنهم يقتلون النفوس، ونحن لا نقتلها، إلى غير ذلك من العظائم التي ارتكبوها⁽¹⁾

ثم يوجه نقدا للعصنوني الذي أفتى اليهود برفع الأصوات عند القراءة واستعمال الآلات وأنواع الظلالات.

ومما يؤكد احتكار هؤلاء اليهود للنشاط التجاري يقول المغيلي تصرفات البيع والشراء وقضاء الحوائج في بعض بلاد الصحراء على أيدي اليهود فلا يكاد المسلم يتوصل لحاجة من حوائجه، ولا يدفع شيئا من سلعته، في غالب الأمر إلا على أيديهم حتى أن أهل البلد المذكور إذا جاء عليهم يوم السبت سبتوا في كثير من تصرفاتهم وظهر أثر السبت على أسواقهم وجرى ذكره على ألسنتهم، يوم السبت لا يجد قبولا فترى التاجر إذا أقدم للبلد نزل في منازل اليهود يأكل من أطعمتهم ويصبح ويمشي في جماعتهم، ويخالطهم كما يخالط المسلمين أحبابه المسلمين خوفا على تجارته من الكساد واختيار منازلهم على سائر منازل البلاد⁽²⁾.

ومن أهل البلد المذكورين من يتخذ من اليهود خادما يتصرف في قضاء حوائجه ويؤمله على البيع والشراء وغيره. فهذا النص الذي أورده المغيلي نستخلص منه ما يلي:

(1) المؤلف مجهول المصدر السابق ورقة 45 ب.

(2) نفسه ورقة 45 ب.

أولاً: أن اليهود كانوا من ذوي النفوذ في توات لعلاقاتهم بأعيان القصور، الذين كانوا يقبلون الهدايا التي تقدم لهم من قبل هؤلاء وهو ما جعل السكان الذين يواجهون مشاكل يتوافد على دكاكين اليهود، الذين كانوا يتدخلون لصالحهم لدى أعيان هذه القصور، للعلاقة الحسنة بينهم وبين أفراد الجالية اليهودية، وإحتكارهم للنشاط التجاري، لأنه لا يمكن لأي تاجر أن يعارض اليهود تسويق في سلعته، وشراء أخرى من أسواق توات، والقصور التابعة لها، وقد أدرك ذلك حتى التجار القادمون إليها من السودان الغربي، أو بلدان المغرب، فكانوا يخاطبون هؤلاء اليهود لكي يتمكنوا من التصرف في سلعهم وشراء سلع جديدة وهو ما دفع إلى القول فلا يكاد المسلم يتوصل لحاجة من حوائجه أو أن يبيع شيئاً من سلعته في أغلب الأمر إلا بأيديهم⁽¹⁾.

ثانياً: أن قصور توات أصبحت تحمل طابعا يهوديا لسيطرة هؤلاء على شريانها الاقتصادي، فالأسواق والدكاكين تغلق يوم السبت بدل يوم الجمعة، ولا تقضى حوائج الناس في ذلك اليوم، وكذلك أعياد اليهود التي يحتفلون بها في أغلب تلك القصور التواتية.

ثالثاً: أن القوافل التي تأتي من السودان الإسلامي، كانت لا تنزل إلا بإحياء الجالية اليهودية، لكي يتمكنوا من بيع سلعهم، وشراء السلع التي يحتاجون إليها، وإذا نزلوا بخارج منازل اليهود تبقى السلعة مكدسة في الأسواق لضغط اليهود على التجار⁽²⁾.

اثر اليهود على الأحوال الاجتماعية:

هذا فيما يتعلق بدور الجالية اليهودية، في الميدان الاقتصادي أما في الجانب الاجتماعي فإن لليهود دورا كبيرا أيضا.

(1) المؤلف مجهول، نفس المصدر السابق ورقة 46.

(2) نفسه، ورقة 46 ب.

وفي هذا الصدد يقول: صاحب هذه النوازل: سئل محمد بن أحمد بن قاسم العقباني جوابكم، في أهل الذمة، هل تلزمهم الضيافة في البادية، والحاضرة، أو لا تلزمهم إلا في الحاضرة وعلى اللزوم فهل يلزمهم منها إلا مقدار، ما يقوم بالضيف غداؤه وعشاؤه: فأجاب الجزية المفروضة على أهل الذمة، مع الأرزاق، والضيافة لازم أن ذلك غير أن الضيافة على حال المضيف وراء الإمام يمكن سقوط الأرزاق، والضيافة مع ما أحدث عليهم من الظلم فإن لم يكن ظلم⁽¹⁾.

يستفاد من هذا النص ما يلي:

أولاً: أن هناك ضريبة تدفع من قبل أفراد أهل الذمة، ومن بينهم الجالية اليهودية، والتي تعرف هذه الضريبة، والمقصود بها دفع جزء من أموالهم لصالح بيت مال الدولة، ترجع عائدتها على الغرباء الذين يتوافدون على أراضيها، لكن يبدو أن فترة الضعف التي عرفتها الدولة دفع بقباض هذه الضريبة إلى التعسف في أخذها لذا قال تسقط الأرزاق، والضيافة، مع ما حدث عليهم من المظالم⁽²⁾.

ثانياً: أن القرآن وأحاديث الرسول ﷺ لا تقر هذه الضرائب بل تذكر الجزية التي حددت من الفقهاء بالنسبة للوضع الاجتماعية، الأهل الذمة وكذلك سن الذي يدفعها، ومن بين المواضيع التي تعرضت لها كتب النوازل الفقهية قضية الملابس التي حددتها الفقهاء.

وردت مجموعة من النوازل تتعلق بهذا الموضوع منها هذه النازلة قال فيها: كتب محمد بن العباس جوابكم في لباس اليهودي هل يمنعون من الترفه في اللباس، وإنما يكلفون بشد الزنار ويتركون ما يشتهون من اللباس وهل يسوغ رفع أبنيتهم عن أبنية المسلمين وإلا فإنه لا يسوغ ذلك فكيف إذا كان فعلهم ذلك على وجه التحصن،

(1) المؤلف مجهول، نفس المصدر، ورقة 46.

(2) نفسه، ورقة 46 ب.

لرقابهم، وأمواهم، لأنهم بموضع لا سلطان فيه ولا والي من جهته، فإذا كانت فتنة بين القبائل في الموضع ركب أهل القصور المجاورين لقصور اليهود قصورهم مما يجعل هؤلاء لا يخشون على أنفسهم⁽¹⁾.

أن الجالية اليهودية بعد احتكارها للمبادلات التجارية بين المراكز المختلفة وتحكمها في السلع القادمة من السودان الغربي، والدول الأوروبية، وتقريرها للأسعار التي تراها مناسبة لها، جعلتها تستفيد من ثروات مالية كبيرة وبالأخص في المرحلة الأخيرة من حياة الدولة الزيانية، أثرت تلك الأموال على وضعيتها الاجتماعية، فأصبح أفرادها يعيشون حياة الترف، يملكهم للعبيد، والجواري، وبنائهم للقصور وارثائهم ملابس فاخرة، وامتطائهم، أجود الجياد فتحلوا عما كان يربطهم بالدولة الإسلامية التي كان حدد لهم فيها نوع الملابس حتى يفرق بين أهل الذمة والمسلمين.

ثانيا: أن بعض الفقهاء عارضوا هذه الوضعية في مقدمة هؤلاء عبد الكريم المغيلي الذي شن حربا على هؤلاء.

وهناك فريق يرى بأنه لا يمنع عليهم اللباس الفاخر بل يطالبون بشد الزنار فقط، لكن البعض لا يفرض على هؤلاء لباسا معينا لأن الوضعية السياسية التي أصبحت عليها بلدان المغرب الإسلامي وعلى الخصوص الدولة الزيانية حيث انعدم الأمن سيؤثر على أفراد الجالية اليهودية الذين كانوا يزاولون الأنشطة الاقتصادية لذلك لا يطالبون بلباس معين حتي لا يكتشف أمرهم خوفا على أرواحهم ونهب أموالهم نتيجة للفوضى التي عرفتها منطقة توات في نهاية القرن 9هـ/ 15 وبداية القرن 10هـ/ 16م، حيث اشتد الصراع بين قبائل الناحية والاغارة على القصور منها وقصر بني داود الذي تقطن به الجالية اليهودية في تمنطيط. الواقع أن اليهود حينما أحسوا بضعف دولة

(1) المؤلف مجهول، نفس المصدر، ورقة 46 ب.

بنى عبد الوادي لهذا حاولوا التخلي عن دفع الجزية التي فرضت عليهم شرعا وفي هذا الصدد يقول العقباني عن ذلك ومثله ما عهدناه في مغربنا بقصد القرن 9هـ/15م.

مواطاة العمال لبعض يهود الكبوس على اعتزازهم بوضع الجزية استقباحا عندهم تمساواتهم للذين يؤدنها واستكبار في مخادعة للخروج عن دائرة من رسم الله فيهم أداءها ماذلة وسمحوا في ذلك لولا خدمتهم للعامل.

يستخلص⁽¹⁾ من هذا النص أن هناك تواطؤ بين السلطة الحاكمة واليهود التحايل على الشريعة⁽²⁾ التي لها موقف واضح من أهل الذمة والجزية مصدر من مصادر بيت مال المسلمين⁽³⁾ وفي توات نال اليهود منزلة سامية جعلتهم يعمدون إلى بناء البيع فبنوا عدة بيع لهم في قصور توات حيث كان يقيم أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم التلمساني⁽⁴⁾ وعدد من صحبته، فقام عليهم بمساعدة أهالي توات في هدم البيع التي وتطبيق الجزية عليهم وقد تعرض المغيلي إلى مخالفة قاضي توات، وهو أبو محمد عبد الله بن أبي بكر العضوني، فكتب المغيلي إلى علماء فاس وتلمسان في شأن هذا الموضوع فانقسم هؤلاء بين مؤيد ومعارض، فمن المؤيد له الإمام محمد بن يوسف السنوسي المشهور بتأليفه في علم التوحيد والمتوفي سنة 895هـ/1484⁽⁵⁾ ولقد استفدنا مما دل به السنوسي على فتواه الفقهية الصبغة السياسية التي اكتشفها هذه القضية، وعرفنا مدى الهوة العميقة التي أحدثتها اليهود، وبعد وصول جواب السنوسي⁽⁶⁾ لتوات ثار التواتيون، وهدموا معابد اليهود. ويعلق المغيلي على تعامل اليهود مع السلطة فيقول من "التعدي"⁽⁷⁾ والطغيان والتمرد على ما في الأحكام بتولية

(1) المؤلف مجهول: مجموعة من النوازل ورقة 17 ب.

(2) نفسه، ورقة 47 ب.

(3) المازوني الدرر المكنونة، ج 1، ورقة 276.

(4) الونشريسي المعيار ج 1، 256.

(5) ابن مريم البستان، ص 237.

(6) نفسه، ص 236.

(7) المغيلي مجموعة وسائل المغيلي.

أرباب الشوكة أو خدمة السلطان وأنه تسهلا من المسلمين مع هؤلاء اليهود حتي كان الواحد منهم بقربه إلى اليهود من نفسه وعياله أو يستعمله في أعماله ويجعل بيده ما شاء من ماله مع أنه لا دين له ولا مروءة" يوضح هذا النص.

فالمغيلي نجح في البداية بعد حصوله على تأييد من قبل علماء تلمسان وفي مقدمتهم الشيخ السنوسي وعبد الجليل التنسي وغيرهم من الذين وقفوا إلى جانبه وأيدوه معنويا.

وفي خضم هذا النزاع تولد ما يعرف بالإمارة المغيلية التواتية لكن لا نعرف كيف تم تنظيم هذه الإمارة قبل انتقال المغيلي إلى السودان الغربي لكن ما هو معروف أنه أنقل السلطة من تمنطيت التي كانت من أم مراكز الجالية اليهودية وهو ما جعل أعدائه يزدادون لأن يهود توات كانوا يتحكمون في شيان الاقتصاد التواتي بعد الضعف الذي عرفته الدولة الزيانية وتسخير الجالية اليهودية للإشراف على الحركة الاقتصادية مع أوروبا أو إفريقيا أو العلم الإسلامي فكان اليهود هم الذين يتحكمون في الضرائب في المدن الساحلية والداخلية وكانوا يشرفون على القوافل التجارية حيث أصبحوا يرافقونها وأقاموا شركات لها وكالات تجارية عديدة في كل من المدن المغاربية في الجنوب والمدن الأوروبية التي كانت لها علاقات تجارية مع بلدان المغرب الإسلامي كجمهورية إيطاليا وإسبانيا والبرتغال وإسبانيا وحتى مدن وسط أوروبا وبذلك سيطروا على النشاط التجاري وفي توات كان هؤلاء اليهود يسيطرون على ميادين التجارة فاشتد نفوذهم في توات وطاغوا وتجاوزوا الحدود الشرعية وكانوا يشتغلون بأغلب الصناعات الأولية كصياغة الذهب والفضة وضايقوا المسلمين في تجارتهم واختلف العلماء في هدم كنائسهم وإجلالهم عن توات وهذا هو هدف الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي لما رأى أن تواجدهم في توات خطرا على الإسلام والمسلمين فقد قال ﷺ: أن يهود توات وتكورارين قد حلت دماؤهم وأموالهم ونساؤهم لأنه الذمة التي ترفع السيف عنهم هي الذمة الشرعية لا الذمة الجاهلية وإنما يكون لهم الذمة الشرعية مع إعطاء الجزية عن يد وهم صاغرون ويجب أن يلتزموا بجميع أحكام أهل الذمة لأن الخلاف بين الفقهاء في نقض

عهدهم كان في الذمي الذي أخل ببعض الأحكام من غير تصميم واستمرار قال المغيلي: (وأما من ترك شيئا من ذلك واستمر على تركه وصمم عليه فلا خلاف في نقض عهده وجوب قتله وسببه لأن ذلك هو التمرد على الأحكام الشرعية).

فالتمرد على تلك الأحكام هو الذي مكنهم من التأثير على ولاية الأمر بتوات فكانوا يبعثون بالهدايا لشيوخ القبائل قصد حمايتهم ولذا عندما وقف المغيلي ضدهم هرع هؤلاء إلى الشيوخ الذين كانوا يقدمون لهم الهدايا ويهادنونهم ويلزمونهم المغارم ويتصرفون في أموالهم بما شاءوا ورفع هؤلاء الشيوخ أمرهم لسيدي عبد الله العصنوني فعارض المغيلي وحمى اليهود من سطوته.

يتساءل الباحث لماذا وقف العصنوني هذا الموقف من الجالية اليهودية.

فالعصنوني حسب ما هو معروف لدينا من بين العلماء الذين عرفتهم تلمسان خلال القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي وهو من بين العلماء الذين تركوا تلمسان واستقروا بتوات وله علاقة بالشيخ محمد بن عبد الكريم لأنهم كلهم يتتسبون إلى مدينة مازونة حسب ما ذكره أبو زكرياء يحيى المغيلي المازوني في كتابه الدرر المكنونة في نوازل مازونة.

لكن يبدو لي أن العصنوني نظر إلى الموضوع من الناحية الاقتصادية لأن اليهود في توات كانوا يسيطرون على التجارة والحرف السائدة بقصورها وخروجهم من توات سيكون له تأثير سلبي على المنطقة عكس المغيلي الذي نظر إلى الموضوع من الناحية الدينية فقال يجب على هؤلاء تطبيق القوانين التي تربطهم بالدولة الإسلامية اعتمد في ذلك على رسالة عمر بن الخطاب المتعلقة بأهل الذمة والتي تحدد هذه العلاقة وهنا يوجه نقدا للذين تعاونوا مع اليهود فيقول في قصيدة له:

لكن البعض من المغيليين الذين يسكنون تلمسان صرحوا لي خلال الملتقى المغيلي في تلمسان سنة 2004 أن المغيلي من قبيلة مغيلة التلمسانية وليست مغيلة مازونة:

برئت للرب لودود من قرب أنصار اليهود
 قوما هانوا دينهم وأكرموا دين اليهود
 يكفي الفتى من شينهم وخبث أصل صنعهم
 أن قطعوا من دينهم ورفعوا دين اليهود
 باليتهم لودبروا واسترجعوا واستغفروا
 وستروا ما ظهروا من نصرهم دين اليهود
 ألم ترى كيف قضى رب الورى فيما مضى
 أن يفوز بالرضى من رضيت عنه اليهود
 فيا الهى بالنبيء المصطفى الهادي التقي
 وكل قطب وولي شمت بأنصار اليهود
 صب البلايا فوقهم وأحق بقايا رزقهم
 وافتح لهم من تحتهم نار إلى نار الخلود
 إلا الذين استغفروا وجبروا ما كسروا
 وبينوا ما استروا حتى استأقمت الحدود
 فاغفر لهم ما قد مضى واكتب لهم منك الرضى
 وعجل لمن مضى منهم في جنة الخلود

يذكر علماء توات الحرب بين المغيلي واليهود ومن وقف معهم باختصار وهنا يتساءل الباحث لماذا لم يعطي علماء توات هذا الموضوع حقه ولم يسجلوا لنا الأحداث بالتفصيل لأهميتها فإنهم حافظوا على الرواية الشفاهية⁽¹⁾ التي لم تجمع لحد الآن ولم يسجلوها وربما أنها سجلت لكنها تعرضت للإتلاف بعد عودة النفوذ اليهودي بخروج المغيلي من توات.

(1) وروي ابن عباس ؓ أنه ﷺ قال لا خصاء في الإسلام ولا بنيان كنيسة.

الرواية الشفاهية المتداولة الآن لدى سكان أدرار وعلى الخصوص تمنطيت يغلب عليها في بعض الأحيان الجانب الأسطوري وتحتاج للتدوين لكن بالنسبة لتلمسان نجد العالمان التلمسيان وقفا لجانبه وهما الحافظ الجليل أبي عبد الله التنسي الذي راسله في شأن بناء الكنائس في توات من طرف اليهود فقال في رسالته: (الحمد لله الذي لا يستحق الحمد المطلق سواء والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد مختاره من الخلق ومصطفاه وعلى آله وأصحابه الذين سلكوا منهاجه القويم واهتدوا بهداه ومن تابعهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحفظ لحدود الله من عبد الله تعالى المعترف بذنبه الراجي غفران ربه محمد بن عبد الله بن عبد الجليل التنسي لا لطف الله به إلى جماعة أهل تامنطيط توفقههم الله وسددهم وهداهم لقبول الحق وأرشدتهم سلام عليكم ورحمة الله وبركاته)⁽¹⁾.

أما بعد فقد ورد علينا من ناحيتكم سؤال نصه بعد الافتتاح: ما تقولون وفقكم الله في مسألة تامنطيت مدينة توات أحيا المسلمون أرضها باخراج مياهها وغرس نخلها وبناء قصورها مدة ثم قدم عليهم اليهود ونزلوا عليهم في المدينة المذكورة وأحدثوا فيها كنيسة لإقامة دينهم وأقاموا على ذلك مدة إلى الآن فهل تهدم تلك الكنيسة وإن كانوا ملكوا أرضها قبل بائها بشراء المسلمين أو غيره أو لا تهدم.

أفتونا في ذلك بجواب صحيح ولكم الأجر فإن المسلمين في حيرة من هذا المسألة فإن كان الحق في هدمها هدموها قبلا فتنه ولا أختلاف وإن كان الحق إبقاؤها أبقوها بلا فتنه والله الموفق والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

(1) الونشريسي المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب حاجي دار الغرب الإسلامي بيروت 1981 ج2 ص 235، 237.

جواب التنسي:

فاعلموا نَوَّرَ الله بصائرهم وطهر من أتباع الهوى سرائرهم أن الشريعة المحمدية نسخت كل ملة وشفّت القلوب السقيمة من كل علة إذ برزت شمسها ساطعة وبدت براهنها قاطعة وقام بحفظها العلماء الأعلام مكلفين بحراستها على مر الأيام واعتنوا ببيان حكم مسألة السؤال عصرا فعصرا من زمن الصحابة إلى هلم جرى وسنورد لكم من كلامهم ما لا يبقى معه لبس ولا تتشوف إلى غيره نفس وأصل ذلك أحاديث مروية عن خير المرسلين وآثار وردت على وفقها على الصحابة والتابعين اعتمد عليها قديما وحديثا علماء المسلمين.

فقد روي أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال أهدموا الصوامع وأهدموا البيع وروي عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه ﷺ قال لا تحدث كنيسة في الإسلام ولا يجدد ما هدم منها.

ذكر هذه الأحاديث ابن حبان في كتابه الذي ألفه في شروط أهل الذمة وأبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب الموالي وكان من هذين الإمامين في طبقة أئمة الخمسة المشهورين

وروي ابن عباس أيضا أن رسول الله ﷺ قال لا تكون قبلتان في بلدة واحدة.

وأخرج البغوي نحوه بلفظ: لا تصلح قبلتان في أرض واحدة وساقه ابن المناصف في كتابه الأنجاد في أدب الجهاد محتجا به على مسألة السؤال وروي ابن الحبيب عن ابن الماجشون قال سمعت مالكا يقول قال رسول الله ﷺ: (لا ترفع فيكم يهودية ولا نصرانية) وقال يعني الكنائس والبيع.

أما الآثار فقد روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا كنيسة لم تكن قبل الإسلام ومنع أن تحدث كنيسة ذكره ابن بدران وهو من أقران الباقي ومنها رسالة الشيخ السيد محمد بن يوسف السنوسي جاء فيها:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين ومن ملته الشريعة السمحاء باقية ظاهرة على جميع الملل إلى يوم الدين من عبيد الله تعالى محمد بن يوسف السنوسي غفر الله تعالى له ولوالديه بلا محنة إلى الأخ في الله الحبيب في الله تعالى القائم بما اندرس في فاسد الزمان من فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي يجب القيام بها لا سيما في هذا الوقت علم على الاتساع بالذكورة العلمية والغيرة الإسلامية وعمارة القلب بشريف الأيمان.

السيد أبي عبد الله محمد بن عبد الكريم المغيلي حفظ الله تعالى حياته وبارك في دينه ودنياه وختم لنا وله ولسائر المسلمين بالسعادة والمغفرة بلا محنة يوم نلقاه.

بعد السلام عليكم والرحمة والبركة قد بلغنا أيها السيد ما حملتكم عليه الغيرة الإيمانية والشجاعة العلمية من تغيير أحداث اليهود أدلهم تعالى وأخذ كفرهم للكنيسة في بلاد المسلمين وأنكم حرصتم أهل تامنطيطت على هدم الكنائس التي لليهود ببلادهم فتوقفوا من جهة من عارضكم في ذلك من أهل الأهواء فبعثتم لأجل ذلك لبلدنا أسئلة ومكتوبات تستنهضون بها همم أهل العلم لينظروا في المسألة نظر أهل العلم والإنصاف ويبينوا الحق فيها بيانا شافيا قاطعا لكل تخليط وتشغيب يرد أهل الفتوى والانحراف.

فاعلم يا أخي أني لم أرى من وافق الإجابة هذا المقصد وبذل وسعه في تحقيق الحق وشفي غليل أهل الإيثار في هذه المسألة ولم يلتفت لأجل قوة إيمانه ونصوع إلى ما يشير به الوهم الشيطاني من مداينة بعض من تتقي شوكته ويخشى أن يقع على يديه إضرارا أو حط في منزلة سوى الشيخ الإمام القدوة على الإعلام الحافظ المحقق أبي عبد الله محمد بن عبد الجليل التنسي بارك الله تعالى له ومتع لمسلمين ببقائه وأمده بطول الصحة والعافية وزاد دنيا وأخرى في علوه وارتقائه فإنه جزاء الله خيرا قد مد في إبانة الحق ونشر أعلامه النفس وحقق نقلا وفهما وبلغ في ذلك حتى أبدى من نور إيمانه الماحي لظلمات

الكفر وآثاره أعظم قبس على ما تقفون عليه في جوابه المكتوب هذا باخره فليعمل أهل تامنطيت وغيرهم من أهل الإسلام على ما أبداه من الحق في ذلك الجواب ولينبذوا ما خالفه إن أرادوا الفوز بشرف الإسلام وإعرازه وإصابة وجه الصواب والله سبحانه المسؤول أن يوفقنا وسائر المسلمين للتمسك بالحق وإخماد الباطل وإعزاز دين الإسلام وأن يمحوا الكفر وآثاره من جميع بلاد محمد ﷺ والسلام عليكم⁽¹⁾.

كان لهذا الجواب من الشيخ السنوسي أثره الكبير على الشيخ المغيلي وهو ما يؤكدّه الشيخ سيدي محمد بن عبد الكريم البكراوي ذكر لنا أن المغيلي عندما وصلته رسالة السنوسي أمر أصحابه بلبس آلة الحرب وهدم كنائس اليهود وقتل من عارضوه في تهديم الكنائس ثم نادى من قتل يهوديا فله علي سبع مئاقيل من الذهب فانزعج اليهود لذلك وتفرقوا حتى قيل أنه أجلى منهم 363 البعض قصد طرابلس وجلهم قصد أرض سجلماسة وكانت بأيديهم الضوابط والقوانين التي هي قواع البلاد ففروا بها.

لم يوضح لنا النص كيف تغلب المغيلي على الذين عارضوه في توات ويبدو لي أن السكان في قصور توات وقفوا جماعيا إلى جانب المغيلي لأن المعارضة لليهود وجدت قبل وصول المغيلي فالشيخ المسعود وهو أحد علماء جراحة أنشأ سوقا خاصا به لمواجهة اليهود ومقاطعة تجارتهم.

فبعد وقوف السكان في رأي تحلى المعارضين عن اليهود وهو ما دفع بهم إلى مبارحة إقليم توات نحو المناطق المجاورة له وعلى الخصوص سجلماسة لأنها تعتبر من بين المحطات التجارية⁽²⁾.

(1) الوثنريسي المصدر السابق ج 2 ص 253.

(2) نفسه ج 2 ص 253.

حاول المغيلي بعد خروج الجالية اليهودية فرض الأمن على سكان توات بتكوين جيش يسهر على المحافظة على الأمن بأغلب قصور توات وجعل على رأسه ابنه عبد الجبار الذي أشتهر بالصلح والخير وهو ما جعل المعارضين لأبيه ينضمون إليه ومن هؤلاء العصنوني الذي أصبح ينادي بسيدي عبد الجبار.

لكن الأمور تغيرت بمجرد خروج الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي من توات إلى بلاد التكرور داعيا الله تعالى ورسوله ومعلما للشريعة الإسلامية.

لكن اليهود الذين فروا من توات وقصدوا طرابلس شكوا الباي وادعوا أنهم أهل الذمة وظلموا بعث ولده في جملة عسكر وعشرة من العلماء وذلك سنة 890 فلما طاف الترك بتوات وأظهر لهم والد الشيخ بن عبد الكريم المغيلي بشرية الرئاسة قاتلوه⁽¹⁾.

الدارس لتاريخ المغرب الإسلامي خلال هذه المرحلة لا يمكنه الأخذ بهذا النص لأنه يتعارض مع الأحداث التاريخية لأن الوجود العثماني في هذه المرحلة لم يصل لطرابلس فطرابلس كانت تابعة للدولة الحفصية والدولة الحفصية لم تسقط بل استمرت حتى سنة 1573⁽²⁾

كما أن علاقة توات بالمغرب الأوسط وخاصة تلمسان كانت أهم من علاقتها بطرابلس ونفس الشيء بالنسبة للمغرب الأقصى ولذا أنا أشك في هذه الرواية وأرى بأن الذين وقفوا مع الشيخ المغيلي وأيدوه في محاربة اليهود تخلوا عن ابنه بعد توجه المغيلي مباشرة إلى أراضي تكرور.

والذين تحالفوا مع اليهود في الماضي هم الذين سهلوا لهم مهمة العودة بدعوة أن توات تأثرت اقتصاديا من خروج اليهود منها.

(1) الشيخ باي المرجع السابق ج 1 ص 89.

(2) المقصود بها طرابلس الغرب أي طرابلس الجماهيرية الليبية.

عندما رجع الشيخ من السودان الغربي وجد اليهود رجعوا لأماكنهم فاستعذر له شيوخ توات من قتل والده هم الأتراك ولا قدرة لهم على ردهم وفي الباطن أنهم تلقوا الترك بمسرة وسرور واشتكوا لهم من فعل الشيخ المغيلي وادعوا عليه أنه يريد العلو والفساد في الأرض وأحضره القاضي وأخبر الترك بمعارضة المغيلي له ولمن معه.

فالذي يلاحظ على هذا النص أن اليهود تمكنوا نتيجة لمؤامرة دبروها مع إحدى القوى الخارجية عن توات بتجنيد مجموعة من الجند والأتين يشبه علماء يؤكدون من خلاهم أنهم كانوا مظلومين وأنهم أهل ذمة يجب حمايتهم من المسلمين فاستعادوا مكانتهم وتحالفوا مع القوة التي كانت تأيدهم من قبل وعندما حاول محمد بن عبد الكريم الكرة من جديد بعد رجوعه لتوات وجد معارضيهم تمكنوا من تقوية أنفسهم وكانوا بقيادة الشيخ عمر بن عبد الرحمان الذي قاد جيش ضد المغيلي بعد وصوله لتمنطيت فالتقى الجمعان حذو قصر أولاد إسماعيل في الجهة الغربية من تمنطيت لم يتمكن المغيلي من تحقيق النصر على أعدائه فرجع إلى وادي البرامكة وبالتحديد دائرة زاوية كتته حاليا محتما بالبرامكة فأقام بين حجرهم حتى وفاته 909هـ/ 1503⁽¹⁾

بعد وفاة المغيلي استتب الأمن في البلاد بوقف الحرب بين الطرفين وتحولت السلطة في البلاد للشيخ عمر بن عبد الرحمان الذي يبدو لنا أنه لم ينتقم من أتباع المغيلي بل أمنهم وبذلك توقفت الاضطرابات مما جعل توات تعيش حياة آمنة مطمئنة.

تولى الأمر بعده ابنه محمد بن عומר ثم بعد ذلك الشيخ عمر الميموني عام 1580، 988.

ثم كان بعده الشيخ عمر بن محمد بن عمر وظل الأمر في توات على هذه الحالة شيخا يخلفه شيخ إلى أن صار الأمر للقضاة سنة 1022.

(1) هو تاريخ سقوط الدولة الحفصية وتأسيس أيلة تونس وطرابلس التابعتان للخلافة العثمانية وكانت تونس في البداية تابعة للأيلة الجزائرية ثم انفصلت عنها.

المرحلة الثانية كان الحكم فيها للقضاة لا يعرف الباحث الأسباب التي أدت إلى تحول الإشراف على الأمور السياسية من قبل شيوخ القبائل إلى سلك القضاة وهل كان كل قصر مستقل عن غيره من القصور وأن ما يتعلق بالجوانب الدينية والاختلاف بين العشائر كان الرجوع فيه إلى القضاة وأغلب هؤلاء من العلماء المتواجدين بتوات ومن بين الذين تولوا هذه الوظيفة عالم جليل أصله من بطيوة القرية من وهران لا نعرف متى انتقل إلى توات هل هو أو عائلته لأن الذين ترجعوا له اكتفوا بالقول أنه نزل توات سنة 714هـ بحي أولاد محمد وهي بلدية الآن تابعة لدائرة أوقروت فنشأ بين الناس كانت سيرته محمودة وأخلاقه مشهودة ونتيجة ذلك ذاع صيته بين الناس فولته الجماعة التواتية قاضي الجماعة⁽¹⁾.

هنا يتساءل الباحث هل كان هناك قضاة آخرين موجودين في القصور التواتية لأن قاضي الجماعة هو أعلى منصب قضائي في بلدان المغرب بعده نجد قضاة الأمصار والمخطوطات التواتية التي تمكنا من الاطلاع عليها لم تمدنا بمعلومات أخرى بل اكتفت بالقول ولته الجماعة التواتية قاضي الجماعة ومنهم هؤلاء الجماعة هل هم العلماء أو الشيوخ أو الأعيان.

يقولون عن شخصيته أنه سلك في الناس مسلك العدل والإنصاف وحاول أن يخلق اتحاد بين الناس في الأمور الدينية والدنيوية فأسس مسجد بأولاد محمود وحاول من خلاله أن لا تكون صلاة الجمعة إلا به وأقام له صومعة عالية يمكن الناس من خلالها سماع الأذان لكن هذا العمل وجد معارضة من قبل القصور الذين كانوا يقيمون صلاة الجمعة بقصورهم وأن إقامة الجمعة بأولاد محمود سيكون له أثر سلبي عليهم لذا وقف أهل تاويلت وأولاد يعقوب ومنعوه لكنه لم يخضع لهم وهو ما يؤكد عدم وجود وحدة بين هذه القصور⁽²⁾.

(1) لا تزال لحد الآن آثار الشيخ محمد بن عبد الكريم وعلى الخصوص الدار التي غسله فيها بعد وفاته بقصر البرامكة القريب من ضريحه في زاويته بقصر بوعلي.

(2) الشيخ باي المرجع السابق ص 66.

تدخل السعديين في إقليم توات:

وتدخل السعديين في إقليم توات بدأ في النصف الأول من القرن السادس عشر وأول الحملات كانت سنة 1552 وكانت بقيادة والي سجلماسة عبد الله محمد بن عبد الله وكان مصير الحملة هو القشل مثل ما فشلت حملته المهمة إلى تمكن في الاحتفاظ بالمدين المذكورة بعد حولها فعاد قائد حملته إتوات خائبا دون أن يحصل على طائل منها لأن أهالي الإقليم رفضوا الخضوع والاستسلام له واستعدوا للمقاومة واضطروه للانسحاب خاصة بعد مقتل محمد الشيخ في أكتوبر 1557

وبعد معركة وادي المخازن⁽¹⁾ وجهت حملة سنة 1558 شاركت فيها قبائل تافيلالت إلى بلاد توات تمكنت من إلحاق الضرر بالإقليم حيث قتلت ما يزيد على 1300 من أهالي الإقليم وأسرت وسبيت الأطفال والنساء ثم عادت أدراجها بعد أن اتجهت حملة جزائرية إلى الإقليم لصد عدوانها على الإقليم بطلب أهل الإقليم الاتصال بالجزائر من قبل شيوخ أعيان المنطقة يؤكد ما توصلنا إليه من قبل أن المنطقة كانت مرتبطة بالجزائر أكثر وأن إرسال حملة من الجزائر لانقاذ توات من الخطر السعدي يؤكد الارتباط لكن محاولات السعديين لم تتوقف لأن طموحاتهم كانت كبيرة في السيطرة على مراكز التجارة سواء في الجزائر أو السودان الغربي ففي عهد المنصور الذهبي⁽²⁾ وجهت حملة للسيطرة على إقليم توات بقيادة القائد عمران بن محمد لكن هذا الأخير لم يتمكن من التوغل في الإقليم مما جعل المنصور يقوم بمعاقبته وإجباره على تعويض نفقات تجهيز الحملة ثم وجه حملة أخرى بقيادة أبو عبد الله محمد بن البركة وأحمد بن الحداد سنة 991هـ، 1583م⁽³⁾.

(1) الشيخ باي المرجع السابق ص 84.

(2) نفسه ج 1 ص 84.

(3) نفسه ج 1 ص 84.

بدأ القائدان بالهجوم على منطقة تيكورارين قبل توات فتوجه مباشرة إلى تميمون وكان رد أهل المدينة عن عروض الاستسلام لها بدل المقاومة والرفض بل إنهم حسب القشتالي المؤرخ الرسمي للدولة السعدية أساءوا الرد ولاذوا بالمنع واستعدوا للحصار وسولت لهم نفوسهم القدرة على الدفاع وبالفعل نفذ تجمع أهالي تيكورارين القرييين من تميمون في هذه لمدينة لرد هجوم المعتدين وأصر القائدان على إخضاعهم بالقوة وقد علق على ذلك القشتالي بقوله: السعديون جاءوا إليهم وأخذوا بهم في معتصمهم ونصبوا عليه مدافع وزجروهم السماوي منها وألحوا بالحرب على أسوارهم لفت إليها الأجناد وتادوا.

معركة وادي المخازن من أهم المعارك التي خاضها الجيش المغربي في عهد الدولة السعدية ضد المحتل الأجنبي المتمثل في البرتغاليين والإسبان وقد شارك فيها ثلاثة ملوك المنصور الذهبي يعتبر من كبار سلاطين الدولة السعدية حيث مد نفوذها إلى السودان الغربي بالقضاء على مملكة سنغاي وبذلك سيطر على تجارة الذهب فلقب بالذهبي.

قال القشتالي في النص "شعار النصر تهافتوا على البلد المحروم تهافت الفرائش وأوقدت رعودا لنار من كل جهة فأرسلوا عليها مشابيت الرصاص وأطبق عليها ليل دي جوري من البارود وتبوأ الرجال مقاعدهم للتال لصوق الأسوار والفرسان تحوم حولها حوم العقبان على الفريسة وحمي الوطيس وضجت الأرض من صواعق النار الموقودة وارسال الصواعق عليها عامة يومهم حتى توارت الشمس بالحجاب فوصلوا بالليل ولم تمضي منهم طائفة حتى اقتحموا عليهم البلد غلبا وتناولتهم السيوف"⁽¹⁾.

يوضح النص بأن الهجوم على تميمون كان كبيرا استعمل فيه المغاربة وسائل التدمير على الرغم من الامكانيات المتوفرة للمدينة لم تكن كافية لمواجهة الجيش المغربي لكنهم رفضوا الاستسلام.

(1) القشتالي مناهل الصفا ص 77.

وعندما تم السيطرة عليها لجأ الجيش المغربي إلى نهبها وفي هذا الصدد يقول الفشتالي: "انطلقت أيدي العساكر بالنهب والعبث في المنازل حتى ارتفع النداء بالأمان على من تحطاه الأجل فسكت لهيمة وقبض على رؤساء البلاد وأعيان القصور الملتجئين إليهم عند الحصار فنقلوا إلى محبسهم لكن الشط الظهراني الذي أبى أهله وامتنعوا عن الخضوع رغم ما حدث لتميمون مما جعل القائدان يخران الهجوم عليها إلا بعد إخضاع تمنطيت لكن هاته الأخيرة دخلت في مفاوضات مع الجيش السعودي انتهت بتسليم المنطقة دون مقاومة خوفاً أن يحدث لهم ما حدث لتميمون"⁽¹⁾.

لكن القائدان السعديين فرضوا على أعيان تمنطيت قديم الرهائن لضمان الولاء وتقدي الضريبة للدولة لعل تسليم منطقة توات دون مقاومة تذكر أن أغلب سكان هذه المنطقة كانوا من التجار كانت خشيتهم على أموالهم كبيرة لأن ما حدث لتميمون سيصيبهم لو رفضوا الاستسلام⁽²⁾.

ثم توجهت القوة السعدية إلى شط الظهر لإخضاعه بالقوة وقد تجمع السكان في قصبة أولاد عبد الله للدفاع عن أنفسهم وقد وصف لها الفشتالي ما حدث في هذه القصبة بقوله: أقتجم القصبة على أهل الثقافة هم بروعهم إلى أشياهم عليهم من الضرج المتمثلة من الصور بالحاج بالمراجع عليهم انشبال السبل قتلوهم القتل وحكموا سبق في الرجال منهم والنساء والولدان حقدا عليهم حتى كَلَّت سواعدهم فتنادوا بهدم القصبة عليهم واستتصال شأنتهم الردم فلم يكن إلا كلمح البصر أو أقرب حتى أصرعوا جدرانها إلى الأرض وألصقوها بالرمل وهويت ردفا على الخوارج فلم تبعدهم ولا من صفوائهم وسر من بيت على الأرض من نعمهم ودوابهم⁽³⁾ فأصبحوا مثلاً في الغابرين وعادت منازلهم بلا قاع كأنها لم تكن بالأمس

(1) الفشتالي مناهل الصفا ص 78.

(2) نفسه، ص 77.

(3) نفسه، ص 77.

أن ما حدث لهذه المنطقة يشبه ما حدث لواحة الزعاطشة خلال الإحتلال الفرنسي للجزائر وهنا لا نفرق بين الحملات السعدية والفرنسية لأن كلاهما كانت نتيجة لأطماع استعمارية هدفها الأساسي السيطرة على خيرات المنطقة ولا يهمها الإبادة الجماعية للسكان وأعتبرت المعركة من أهم انتصارات الجش السعدي وهو ما يعلق عليه الفشتالي بقوله: (قد كان الشط خاتمة الفتح وغاية الغزو والظهور في تدويخ القطرين وتمهيد حياتها الدانية والقاصية) لكن الحلم السعدي تلاشى في أواخر حكم السعديين.

الباحث لا بد له أن يتساءل عن موقف الدولة الجزائرية من الحملات السعدية على إقليم توات فالنصوص التاريخية المتوفرة لدينا تشير أن الدولة الجزائرية لم تقف مكتوفة الأيدي اتجاه هذا الهجوم على الجنوب الجزائري ففي نفس السنة التي تحرك فيها ابن الأعرج نحو توات تحركت من الجزائر حملة بقيادة صالح رايس في اتجاه الجنوب فوصل إلى توفرت وورجلان ولتثبيت تابعة إقليم توات للدولة الجزائرية علاقة ورجلان بهذا الإقليم بأقاليمه الثلاثة تيدكالت وتيكورارين وتوات وتتحرك هي الأخرى في الحركة التجارية المتجهة من الشمال وتنس نحو بلاد السودان الغربي وكانت هناك قرابة بين حكام ورجلان وتوات منهم الشيخ الذي ذكره في المفاوضات التي انتهت بدخول السعديين لتوات بدون مقاومة عكس ما حدث في تيميمون.

ومما يؤكد اهتمام للدول الجزائرية بما يجري في إقليم توات وغيرها من الأقاليم التي يعتبرونها من مشمولات أنظارهم بالعناية وأكسابه وقد قال مارتن أن حكام الجزائر أسرعوا إلى صد عدوان حملة مغربية أخرى تعرض لها إقليم توات في سنة 1578 وإرسالهم فور إتصاهاهم الاستغاثة من أعيان الإقليم لفرقة من الجيش إلى الإقليم لتصد العدوان عنه وتعيد له الهدوء والإطمئنان فلم تعد تلك الفرقة إلا بعد أن أكملت مهمتها وتعدت المعتدين وأرسلت إليهم إنذارا كتابيا.

الأسرة العلمية في توات:

الأسرة العلمية التنيلانية:

توجد هذه الأسرة بقصر تنلان يقع القصر في الشمال الشرقي من مدينة أدرار وقد تأسس في أواسط القرن الحادي عشر والتي أسسها العالم الجليل أحمد بن يوسف هو الشيخ الناسك أحمد بن يوسف بن محمد بن علي ابن الحسين⁽¹⁾

ولد أحمد بن يوسف سنة 1594/1002 فقد نشأ بأولاد أنقال ومنها رحل إلى تنلان يوم الأربعاء الحادي عشر من رمضان سنة 1647/1058 بعد ما تم بناء المسجد في تنلان في منتصف شعبان من تلك السنة ثم شرع في بناء زاويته التي سماها رزق الله الواسع لعباده النافع وهذا الاسم المسماة به الآن إنما سرى لها من قر قديم كان بقربها يسمى تنلان اندثر وتفرق أهله ثم نحت الفقاقير وعمر البساتين وجعل كل ذلك لوجه الله العلي العظيم حبسه على نحو حبس عمرو بن الخطاب المذكور في صحيح البخاري أشتهرت زاويته بتوات وقصدها طلبة العلم الضيوف من النواحي البعيدة جزاه الله على المسلمين أحسن جزاء.

كان شيخا عالما عاملا ماهرا في علم الحديث وغيره له تأليف عديدة وأشعار جيدة كما روي عن السادات الخيرية ألف كتابا في تاريخ المنطقة سماه التودد ولم يتم العثور عليه وكان رضي الله من أوسع الناس خلقا وأكثرهم صبرا أخذ عن الشيخ عبد الكريم بن محمد التمنيطي توفي بتنلان عام 1667/1078⁽²⁾..

من بين الذين ترجهوا له محمد بن عبد القادر التنلاني الذي قال عنه: (جدنا سيدي أحمد بن يوسف كان أحد الأئمة العلماء وكان صالحا وارعا زاهدا نشأ بأولاد أنقال).

(1) الشيخ باي الرحلة ج 1 ص 37.

(2) نفسه، ج 1 ص 52.

مولده عام 1002 ورحل لبلده رزق الله الواسع تنلان يوم الأربعاء الحادي عشر من رمضان سنة 1052 وألف بعد أن كمل بناء المسجد أواسط شعبان من العام المذكور وكانت وفاته بعد عشرين سنة من نقلته ووقع بينه وبين أخواله عجائب من البغض وأرخ كتب عديدة في ذكر ما صار له كان والده ساكنا ببو صلاح بني تومرت ورحل الأولاد أنقال وحج خمس البعض منهم مع الشيخ عبد القادر بن عمر.

علمه كان ماهرا في علم الحديث ولو شرعت في محاسنه وتتبع مناقبه أخذ عن العلامة الحافظ سيدي عبد الكريم بن محمد التمنيطي وكان يقرأ الحديث في بلاد المنصور الحاج بن الحاج وكان يقول في كلامه أن أولاد أحمد أولهم دلاع حلوا وآخرهم حنظلا مرا وكان من أصبر الناس وكان يأخذ بمكارم الأخلاق وكان من زوار المشائخ لا سيما الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي وعمر بن صالح في أوقروت.

تحولت تنلان في عهد من جاء بعده إلى مركز إشعاع علمي تخرج من مدرستها العلماء الأعلام والفقهاء والقضاة والأدباء والشعراء وحفظة القرآن وحملة الشريعة للبلدان فاشتدت لها الرجال واشتدت منها وارتبطت بغيره من قصور توات أخذا وعطاء ومن أعلام تنلان نذكر:

- عمر الأكبر⁽¹⁾ ولد سنة 1098هـ كان رحمه الله أحد الأعلام إماما في المذهب وفقهيا ونحويا ولغويا وعروضا من حفاظ المذهب المقتدى بهم كبير القدر وافر الهمة تولى التدريس بمدينة فاس وكان يحفظ أربعة عشر ورقة الخطاب أحد فقهاء المالكية القدماء وكان يملئها على طلابه كل يوم من ذاكرته ودرس بجامعة القرويين انتقل من فاس سنة 1129هـ واستقر بزاوية تنلان من بلاد تيممي وفي آخر عمره رحمه الله تولى مجلس القضاء فأظهر العدل وأحس السبر ولم يخشى في الله لومة لائم.

(1) الشيخ باي المرجع السابق ج 1 ص 52.

شيوخه: أخذ عن الشيخ محمد بن أحمد المسناوي والشيخ سيدي أمبارك السجلهاسي ومحمد بن زكري الفاسي والشيخ سيدي محمد حفيد الشيخ ميارة وأخذ أيضا عن الشيخ أبو زيد الجنتوري والشيخ أبو زيد التلاني وغيرهم زمن ولايتهم ومال في آخر حياته إلى التصوف واحتجب عن الناس.

إنتاجه العلمي: له تقييدات على المختصر، توفي عشية الأربعاء سنة 1152 بتينلان.

- عبد الرحمان التلاني التواتي هو شيخ الشيوخ ومنبع الفيض والرسوخ عالم الأعلام ومرشد الإسلام أبو زيد عبد الرحمان التلاني التواتي⁽¹⁾.

شيوخه: قرأ القرآن على الشيخ الفاضل الأديب النبل السيد أحمد الحبيب السجلهاسي اللمطي وأجازه إجازة مطلقة مسندة إلى الرسول ﷺ.

أخذ أيضا على العالم الأكبر القاضي أبو الأنوار محي العلو بتوات الشيخ عمر بن عبد القادر بن أحمد بن يوسف التلاني ثم السيد عبد الرحمان الجنتوري ومحمد بن أب المزمرى وعمر بن مصطفى الرقادي ثم السيد أحمد بن عبد العزيز الهلالي.

تلاميذته: من أشهر هؤلاء التلاميذ محمد بن عبد الرحمان البلبالي وعبد الحق بن عبد الكريم البكري وعبد الكريم بن محمد وعلي البكري ومحمد بن العالم الزجلاوي ونجله الشيخ سيدي محمد والشيخ سيدي عبد الله والشيخ سيدي محمد بن المبروك البداوي إلى غيرهم من الفحول العظام.

توفي رحمه الله ليلة الأحد الأخير من صفر عام 1189 ودفن بالقرقة الصغرى من مصر لأنه توفي بعد عودته من الحج⁽²⁾.

(1) الشيخ باي المرجع السابق ج 1 ص 53.

(2) الشيخ باي المرجع السابق ج 1 ص 53 حوتية المرجع السابق ج 1 ص 238.

رثاه تلميذه محمد بن المبروك بقصيدة من الوافر نصها فيما يلي:

ألا يا مصر قد ازددت فخرا بحبر حل بمقبرة المنوفي
بعبد زيادة الهدى المنبا من حج البيت حقا بالوقوف
تضلع بالعلوم وكان دهرنا يثها القريب مع الضيوف
ويقصد بالنوازل كل يوم فبكشف ما عليه من رضيف
ويصرف للطريقة من أباهنا وأبغضها على رغم الأنوف
فكم من معضلة قد توارت عن العلماء في السطور الحروف
فأوضحها وبينها فصارت دكاء دون مزن أو كسوف
وكم من سنة غيرت وظلت أزال قناعها بعد الخسوف
فسميته السباحة والحياة وضيء الوجه ذو جسد نحيق
فما من حاجب ينيك عنه ولا عون يروع لدى العطوف
إذا ما قال قال الحق جهرا ومهما عاهد الأنام يوفى
فيوم السين منه إذ دهانا وفوضنا الأمور إلى اللطيف
وصرنا نرتجي الإياب منه لدى فصل الشتاء والخريف
فأفجنا نعيه والموت حق فقدنا عالما حبرا ومتصوف
أبا زيد رفيع القدر بهي

- الشيخ أبو الأنوار عبد الكريم⁽¹⁾ ولد سنة 1077هـ بتينلان يعتبر من بين العلماء الذين نسبوا لهذه العائلة العلمية وصف من قبل الذين ترجموا له (بأنه كان يضرب به المثل في التصلب في الحق مع دنيا واسعة أخذ فيها بطريق السلف الصالح ما زاغ فيها بصره وما ضعن).

(1) الشيخ باي المرجع السابق ج 1 ص 53 عبد الله الرقاني المرجع السابق ص 5.

وقال عنه صاحب الذرة الفاخرة⁽¹⁾ (هو الشيخ سيدي أبو الأنوار بن عبد الكريم التتلاني دفين زاويته بتيدكالت المشهورة بزاوية ولد ابنته سيدي هية عالمه ومفتيها وكان ممن يضرب به الأمثال في التصلب في الحق مع دنيا واسعة أخذ فيها بطريق السلف ما زاغ بصره فيها وما طغى وكان مولده بزاوية تينلان).

توافق الترجمة بقية التراجم التي اعتمدناها أن مولده كان بزاوية تينلان وبها تلقى أول الدروس على علمائها وفي مقدمتهم محمد بن دين الله التيطافي وأنه لم يتوقف عن الأخذ على هؤلاء بل توجه إلى بلاد السودان وبالتحديد بلاد التكرور التي مكث فيها مدة من الزمن قام خلالها بالإفتاء والتدريس.

وهنا يلاحظ الباحث أن مساهمة التواتيين في الحركة العلمية بتلقين المعارف لأهل سكان السودان الغربي لم يتوقف بعودة الشيخ محمد بن عبد الكريم لمغربي إلى توات بل استمر بعد ذلك بفضل هؤلاء الشيوخ الذين خدموا الإسلام بتوات وخارجها وبعد العودة من تكرور استقر بتيدكالت وبنا بها زاويته وأقام بها إلى أن توفي عام 1168هـ.

- الشيخ الشادلي عمر⁽²⁾ هو ابن العلامة البارز سيدي عمر بن عبد القادر التتلاني عرف من قبل الذين ترجموا له بأنه كان إماما صالحا ماهرا في الفقه.

يوضح النص أن أهم العلوم التي أشتهر بها هي العلوم الفقهية وهي العلوم السائدة في توات دراسة وتأليفا وتعليقا وشرحا توفي بفاس سنة⁽³⁾

عمر بن عبد الرحمان الأصغر صاحب الزاوية المهدية فهو الشيخ أبو حفص عمر بن عبد الرحمان بن عبد القادر بن أحمد بن يوسف لتتلاني ولد بتينلان سنة 1152 من بين الذين ترجموا له صاحب الذرة الفاخرة⁽⁴⁾ الذي قال عنه (كان إماما عالما عاملا أخذ عن شيخه سيدي محمد بن أحمد المطارفي وكان مجتهدا في البحث والنظر والتدريس).

(1) الذرة الفاخرة، ورقة 20.

(2) نفسه، ورقة 20.

(3) الشيخ باي، المرجع السابق، ص 210.

(4) نفسه، ص 211.

شيوخه درس على سيدي محمد بن عبد الله لادغاغي الونقالي ومحمد بن عبد الله وكان من أجل تلاميذته ومن أعظمهم نفعا ثم من بعد موت شيخه علت همته كأسلافه ولم يكتفي بعمارة زاوية أجداده فارتحل من تنلان وبنى زاوية لمهدية وفجر المياه وعمر البساتين وأجاد وأفاد وشاد وساد ظهرت عليه الفتوحات ونفع الله له المخلوقات وفي المهدية أسس مدرسة كانت قبلة للطلبة وهو ما جعل صاحب الزهارات يقول عنه (لا زال مواظبا على درس العلم وفعل الخيرات وتجبير الأوراق بالفتاوى النفسيات وزيارة حرم الله وحرم رسول الله أكمل الصلاة والتحيات)⁽¹⁾.

توفي رحمه الله يوم 15 جمادى الأولى عام 1221 في الفلات التي بين بلد تيطاف وأولف وكان بصحبته الفقيه عبد الله بن أبي زيد عبد الرحمان بن عمر فنقل إلى المهدية ودفن بها

- أبو زيان ابن عبد الرحمان توفي بالمهدية في 1181

- عبد القادر بن عمر بن عبد الرحمان توفي بتينلان 1265 من أهم إنتاجه الدرة الفاخرة في ذكر المشائخ التواتية.

- عبد الرحمان بن إدريس⁽²⁾ توفي 1233 وأكثروا الاعتراض عليه في رده على الزخشري وانتصر له وجمع فيه بين الإعراب واللغة والتصريف والبيان فجاء تأليفا حافلا في أربعة أسفار زهاء ثلاثين كراسة بالقلب الكبير وهناك فهرسة ذكر فيها مشائخه والفنون العلمية التي درسها عليهم وتلقاها بالإجازة منهم وهي تشمل على مائة صفحة من هؤلاء نذكر على وجه الخصوص:

(1) الدرة الفاخرة ص 66.

(2) الشيخ باي المرجع السابق ج 1 ص 88 وما بعدها الشيخ محمد باي الغصن الداني في ترجمة وحياة الشيخ عبد الرحمان بن عمر التينلاني ط 2004 ص عبد الرحمان بن إدريس قام برحلة للجزائر سنة 1816/1232 وشاهد الهجوم الإنجليزي على المدينة قمنا بتحقيق الرحلة ونشرناها سنة 2007 في مجلة حوليات الجزائر.

عبد الرحمان بن إدريس التتلاي قال عنه صاحب الدرّة الفاخرة (كان عالما ماهرا في أصول الفقه والتفسير أخذ عن الشيخ سيدي محمد وعن سيدي محمد بن أحمد سافر إلى فاس وأخذ عن علمائها كان حافظا في المسائل توفي في شهر جمادى الثانية بمدينة سوى سنة 1233 قافلا من الحرمين الشريفين⁽¹⁾).

- إدريس بن عمر بن عبد القادر توفي سنة 1182

- عبد الله بن عمر بن عبد الرحمان التتلاي توفي سنة 1240

- عبد القادر بن التاقي بن عبد الرحمان توفي سنة 1252

- عبد الله بن محمد بن البركة توفي سنة 1260 بأولاد أونقال.

- عمر الشيخ بن عبد القادر التتلاي كان من بين العلماء الذين نسبوا لهذه العائلة التي ساهمت في ازدهار الحركة الفكرية بإقليم توات خلال العصور الحديثة وصف من طرف الذين ترجموا له بأنه أحد الأعلام وأحد الأئمة المجتهدين في المذاهب.

يستنتج من النص أن عالمنا الجليل له اطلاع كبير على المذاهب التي كانت سائدة في عصره ولعلها تتعلق بالمذاهب السنية يضاف أيضا إلى العلوم اللغوية فكان عالما نحويا.

وصوله إلى هذا القدر من المعرفة خول له أن يتولى شؤون القضاء في توات وخاصة قضاء الجماعة أو القضاء الأكبر حسب بعض كتب التراجم توفي سنة 1152.

- محمد بن عبد الله بن عبد الرحمان.

- عبد الرحمان بن عمر بن أحمد بن يوسف⁽²⁾ هو الشيخ محمد عبد الرحمان بن

عمر التتلاي.

(1) الدرّة الفاخرة، ص 67.

(2) نفسه، ص 68.

- عبد الرحمان بن عمر التينلاني هو الشيخ عبد الرحمان بن عمر التينلاني كان عالما عاملا حافظا ثاقب الذهن فصيح اللسان نشأ بتنلان وقرأ بها القرآن وشيئا من الفقه تتلمذ على الشيخ سيدي عمر بن عبد القادر والعلامة عبد الرحمان بن سيد إبراهيم الجنتوري والشيخ عمر بن محمد المصطفى الرقادي الكنتي والشيخ محمد بن أب والشيخ السيد الحاج بن عبد الرحمان بن محمد التواقي التماوي رحل إلى جنتور مرتين للقراءة على الشيخ سيدي عبد الرحمان الجنتوري.

يستنتج من النص أن علماء توات كانوا في بداية حياتهم يتلقون المعرفة الأولى في مسقط رأسهم على علمائهم وفي أغلب الأحيان يكونون من عائلتهم إذا كانت العائلة من الأسر العلمية ثم بعدها يتنقلون في إقليم توات للأخذ عن علماء المنطقة وبعدها يقومون بالرحلة إلى خارج الإقليم وعلى الخصوص المغرب الأقصى فيتوجهون إلى فاس التي كانت من أهم المراكز العلمية حيث يأخذون عن شيوخها جميع المعارف التي تدرس بها وهذا ما يؤكد بقول ثم رحل إلى المغرب وتتللمذ على يد الشيخ:

أحمد بن عبد العزيز الهيلالي حضر الشيخ عبد الرحمان مجالسه واستفاد منه وأجازه.

ومنهم الشيخ صالح الغماري السجلماسي والشيخ سيدي محمد المكي والشيخ أبو عبد الله الدرعي.

لعل من أبرز العلماء الذين تتلمذ عليهم علماء سجلماسة ودرعة اللتان كانتا من المراكز العلمية فكان علماءها من بين المدرسين في فاس لم يتوقف هذا العالم الجليل عن الأخذ عن علماء فاس فقط بل توجه إلى السودان الغربي الذي أصبح هو الآخر من المراكز العلمية منذ عهد محمد بن عبد الكريم المغيلي القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي ومن أبرز العلماء في ذلك الإقليم علماء تمبكتوا وفي مقدمتهم الشيخ أحمد بابا التمبكتي الذي كانت له علاقة بعلماء توات وفي هذا الصدد يقول الشيخ باي: كما رحل إلى تكرور فاستفاد وأفاد فمن شيوخه باروان لشيخ طالبين بن القاضي سيدي

الافي والشيخ أبو العباس سيدي أحمد بن صالح السوفي التكروري ومن بين تلاميذته نذكر على وجه الخصوص الشيخ محمد كان خليفته ووارث سره ونوه عبد الله والعلامة محمد بن عبد الرحمان البلبالي مؤلف غنية الشورى والشيخ عمر التينلاني المعروف بعمر الأصغر والشيخ محمد العالم الزجلاني وصنوه عبد الرحمان الزجلاني وعمر بن محمد المصطفى فقد ذكر عبد الرحمان في فهرست أن شيخه سيدي عمر قرأ عليه السلم في علم المنطق وأن والد الشيخ سيد عمر قرأ عليه أيضا مختصر خليل وردة المديح في تينلان ومن تلاميذته الشيخ محمد بن مالك القبلي أنه ابتدأ عليه الدراسة قبل رحيله إلى الديار المقدسة ألف الشيخ رحمه الله مؤلفات عديدة نذكر منها: المصون للسمين في أعراب الكتاب المبين، ومختصر النوادر، وفتوى مختلفة، وفهرسة مروياته جمع فيها مراحل حياته وذكر فيها شيوخه والإجازات التي تلقاها منهم.

كما خلف قصائد شعرية متنوعة وله الرحلة الحجازية التي كانت آخر مؤلفاته توفي رحمه الله يوم الأحد 29 من صفر 1189.

- بن أب كان من بين علماء أدرار ولد في قرية أولاد الحاج بلدية تيمقطن دائرة أولف في العقد الأخير من القرن الحادي عشر⁽¹⁾ كان رحمه الله من العلماء الذين ربطوا تواتا بغيرها من البلدان فلقد جال في المغرب الأقصى وفي مالي تمبكتوا وأروان خلف أشعارا كثيرة⁽²⁾ كان هذا العالم معاصرا لكثير من علماء توات نذكر منهم الشيخ عمر الأكبر في تينلان والشيخ عبد الرحمان الجنتوري وابن أب كان أحد شيوخ عبد الرحمان التينلاني الذي ترجم له وقال عنه شيخنا الفقيه الديب النحوي اللغوي أبو عبد الله محمد بن أب المزمري كان رحمه الله فقيها نحويا لغويا تصريفا عروضا فائقا كل من لقيه في الفنون الثلاثة الأخيرة رائق الخط شاعرا مجدا مقلقا لا يباري فيه ولا يجاري من صغره إلى الآن.

(1) الدرة الفاخرة، ص 69.

(2) الشيخ باي المرجع السابق ج 1 ص 176.

لقيته في صغري وأنا في المكتب بزاوية عم والدي تينلان⁽¹⁾ مر بها متوجها لبلاد تاجورارين فحضرت إقرائه للمرشد المعين فأعجبني تدرسه فواعده إن رجع لبلاده أن أرحل إليه للأخذ عنه فلم يقدر لي ذلك ثم لقيته مرارا بعد ذلك واستفدت منه فوائد في النحو واللغة وغيرهما ثم بدأت قراءتي عليه كتاب الخزرجية في بلده لما ذهب بي إليه شياخي سيدي عمر أنفا لأنه بلده ذلك في المرة الثانية حتى بلغت المعاقبة والمراقبة وحضرت دروسه في الفقه والنحو واللغة والتفسير وكان متفنا مُجِدًّا فاطنا أرفا يباحث الشراح في مجلسه بأحسن بحث إلا أنه كان قليل الإقراء ضجورا على الطلبة وكان رحمه الله وارعا في الفتوى لا يكاد يجيب في نازلة ويحيل على غيره ولو كان أدنى منه لأنه غلب عليه علم الأدب وأكثر نظره وإقرائه فيه وكان كثير المطالعة أخذ ببلده عن الشيخ محمد الصالح بن المقداد وعن الفقيه سيدي عمر الرقادي وكان دائما يستفتي الشيخ أبو الأنوار دفين زاوية مولاي الهيبة وكانت أسئلته نثرا ونظما توفي 1202.

- العلامة عبد الرحمان بن إبراهيم بن عبد الرحمان المعروف بلجنتوري⁽²⁾ وهو من بلد تيطاف انتقل أهله إلى عين صالح وقد خصص له في فهرسته حوالي عشرين صفحة تعرض فيها لرحلاته نحو الحجاز ومصر وغيرهما من المؤلفات التي درسها عليه الصغرى للسنوسي والمرشد المعين والقراطية والدور اللوامع والأجرومية وبعض من الألفية في المرحلة الأولى ثم رجع للقراءة عليه فابتدأ القراءة بألفية ابن مالك من أولها وصل فيها إلى أعراب الفعل ظهر للشيخ الجنتوري أن يعود لبلده فازداد تأسف الشيخ عبد الرحمان على فراقه فاستأذن والديه وشيخه سيدي عبد الرحمان في الرحلة مع الجنتوري للقراءة عليه فأذنوا له فرحل معه وقرأ عليه بعض من المختصر وما بقي من ألفية ابن مالك والحديثين الأولين من الأربعين النووية والجزأين الأولين من مختصر القلصادي في علم الحساب

(1) الشيخ باي المرجع السابق ج 1 ص 176.

(2) نفسه، ج 1 ص 176.

وحضر دروسه في الرسالة القيروانية ودامت الرحلة نحو سنة وأربعة أشهر⁽¹⁾ رجع الشيخ إلى تينلان وأقام بها أربعة أشهر ثم أعاد الرحلة لجتور مرة ثانية فقرا على شيخه ما بقي من مختصر خليل إلى آخره ثم أسند إليه مهمة التدريس بمدرسته وسمع منه أيضا صحيح البخاري والشفاء للقاضي عياض وبعدها رجع لتينلان.

- الشيخ عمر بن الشيخ محمد بن المصطفى الرقادي الكنتي⁽²⁾ كان أول اتصال بين الرجلين في تينلان حيث ذكر عبد الرحمان التلاني أنه لقيه في تينلان في زاوية عمر والدي قدمنا على شيخنا أبي حفص لخصومة بينه وبين رجل وكنت قد رأيته قبل ذلك إلا أنني لم أجالسه ولم آخذ عنه ثم جالسته وكنت مشتاقا لعلم اللغة وقد سبق لي أن نسخت نسخة من مقصورة ابن دريد وطورتها من شرح ابن هشام اللخمي عليها وكنت أكررها فدخل على المدرسة وهي في يدي فأخذها وجعل يقرأها وكان فصيحاً دارته حاسية فازدهاني بفصاحته واستفزاني بحسن صوته ثم بدأ يستشهد على لغتها من مقامة الحريري لأنه كان يحفظها فزادني تعجيباً فأقام عندنا يومين لا أفارقه إلا في وقت الضرورة وعند رجوعه لبلده أحزنني فراقه.

يلاحظ هنا أن العالم الجليل اغتنم فرصة وجود الكنتي بزاوية تينلان للأخذ عنه وربما أيضا إعادة تصحيح الكتاب الخاص باللغة وهو مقصورة ابن دريد وعندما رجع الكنتي لزاوية كتته أراد عبد الرحمان التلاني الالتحاق به للأخذ عليه فاستأذن شيخه أبا حفص بزيارة الشيخ ابن عبد الكريم ولم يقل له زيارة الرقاني ولعل السبب في ذلك التنافس الذي كان بين هذين العالمان الجليلين⁽³⁾

(1) الشيخ باي، الغصن الداني، ص 22.

(2) البكري، النبدة، ص 79.

(3) الشيخ باي، الغصن الداني، ص 23.

قدم على الرقائب الذي فرح لقدمه ولم يتوقف على الترحيب به بل كلفه بالتدريس في مدرسته وفي هذا الصدد يقول وأبتدأوا على قراءة المختصر القلصادي في علم الحساب فلولا ما أخاف من مودة شيخنا أبي حفص علي لأطلت الإقامة بزاوية كتته ولما خرجت راجعا شيعني الطلبة فلما وصلت بلدنا وجدت الشيخ يدرس في صحيح البخاري وولى قراءة غيري مع أبي كنت أنا أقراه قبل فأزدت حزنا إلى حزنه وقد ضاقت بي الأرض بما رحبت وقد كان عمر الرقادي واعدني لما رأى من حبي الإقامة عندهم أن يقدم علي الشيخ أبي حفص فيستأذنه في ذلك فكنت أترقبه رغبة أهلة الأعياد ثم قدم علينا واستأذن الشيخ وكلمه في ذلك فرد إلي في الظاهر وأخفى علم الرضى⁽¹⁾.

وأما والدي فرضي فذهب بي فلما وصلنا أسلم إلي التدريس وولاني جميع ما كان يدرس فيه وابتدأ كان بتدريس السلم في علم المنطق وذلك لإنصافه وتواضعه فأقمت هنا لمدة ثم مرضت وأخذتني الحمى فلما نقهت من مرضي بعثوا لوالدي ليرسل لي من يذهب بي إلى البلد لأنني استوخمت بلدهم ولم أعلم بذلك أحد فجاء أخي وذهب إلى البلد فأقمت مدة في البلد ثم بعث والده للقراءة علي فابتدأ على المختصر وبردت المديح وظهرت نجابته ثم قدم علينا وكلم الشيخ وولدي فأجابوه في المرة الأولى فذهبت وأقمت هناك نحو الشهر ثم بدا له السفر لبلاد التكرور فطلب مني صحبتته فصاحبته فرأيت منه من حسن الصحبة واللفظ وحسن الخلق والأثرة الأضعف وما كنت أعهد منه في الحضر وسيأتي الحديث عن ذلك في رحلتي⁽²⁾.

من بين الشيوخ اللذين تتلمذ عليهم العلامة الحفظ أحمد بن صالح السوفي التكروري⁽³⁾ التقى به في أزوان في رحلته مع الشيخ عمر الرقادي فقرأ عليه الخرزجية وعلم العروض لكنه لم يكملها وصل فيها إلى البحور ثم رجع إلى تينلان وأتمها بعد رجوعه إلى أزوان في رحلته وابتدأ ألفية العراقي فقرأ عليه نصفها

(1) الشيخ باي، الغصن الداني ص 23.

(2) نفسه ص 24.

(3) الشيخ باي المرجع السابق ج 1 ص 24.

ومن الشيوخ اللذين أخذ عنهم الشيخ طالين بن القاضي السيد الوافي بن طالين لقيه الشيخ في أزوان وجالسه واستفاد منه واستجازه في العلوم فأجازه فيها ومن هؤلاء أيضا الشيخ الحاج عبد الرحمان بن محمد التواتي التماوي كان هذا الشيخ رحمه الله آية في حفظ القرآن الحفظ المتقن ويحفظ قراءة القراءة السبعة على طريق الشاطبية التقى به الشيخ في بلدته بتوات فأخذ عليه مقرأ الإمام نافع على طريق الشاطبية والدرر اللوامع، وحرز الأمان، وقراءة المورد الضمان⁽¹⁾.

ومن هؤلاء أيضا أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن إبراهيم الدرعي كان رحمه الله عالما منصفًا متواضعا حليما لقيه ببلاده راحل لما قفل من الحج فأجلسه واستفاد منه وقرأ عليه السلم، وورقات أمام الحرمين، وأوائل الصحيحين، والشفاء، والجامع الصغير، والشئال، وغيرها واستجزته فأجازني⁽²⁾.

ومنهم أيضا الشيخ محمد المكي بن السجلماسي اللمطي كان أستاذا حافظا لكتاب الله بقراءة السبع استفاد منه في علم الأداء⁽³⁾.

وكذلك الشيخ صالح بن محمد الغماري الذي استفاد منه قراءة القرآن كله وطلب منه الإجازة والشيخ أحمد بن عبد العزيز الهلالي حضر الشيخ مجلسه واستفاد منه استجازة فأجازه ومنهم أيضا عبد الرحمان بن أب المزمري كان من العلماء الأعلام والعباقرة العظام ولد بأولف في قرية تعرف بأولاد الحاج في العقد الأخير من القرن الحادي عشر قضى حياته في طلب العلم فهو العالم الذي ربط بين أقاليم توات الثلاث وكان شاعرا بالغا لغويا أخذ عنه الشيخ وقرأ عليه مؤلفاته وشرح صغرى الصغرى، وأجازه في جميع مؤلفاته⁽⁴⁾.

(1) الشيخ باي، المرجع السابق، ص 25.

(2) نفسه، ص 25.

(3) نفسه، ص 25.

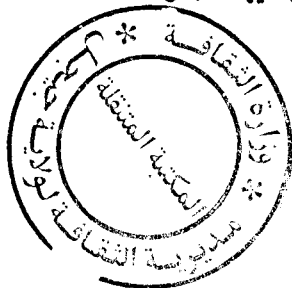
(4) الشيخ باي، الغصن الداني، ص 58.

تلامذته: تخرج على يديه مجموعة من التلاميذ نذكر منهم على وجه الخصوص محمد بن عبد الرحمان وأخوه عبد الله تتلمذا على والديهما محمد بن عبد الرحمان البلبالي مؤلف غنية الشورى وعمر التلاني المعروف بعمر الأصغر ومحمد بن الشيخ بن العالم الزجلاني وعبد الرحمان بن محمد لزجلاني وعمر بن محمد بن المصطفى ومحمد بن مالك القبلاوي والمحفوظ بن محمد بن الحاج محمد التياوي.

رحلاته: قام الشيخ عبد الرحمان بن عمر بعدة رحلات في طلب العلم خارج الوطن، الرحلة الأولى كانت إلى تكرر رفقة الشيخ الإمام عمر بن محمد بن المصطفى الكنتي⁽¹⁾.

الرحلة الثانية كانت لمدينة أزوان فأقام بها مدة ودرس فيها على شيخه الرقادي وعلق عليها بقوله رجعت ثانيا لمدينة أزوان فأقمت معه فيها مدة على الحالة الأولى ثم رجعت وتركته هناك ثم قدم لبلده وأقام بها مدة يزورني وأزوره حتى كان آخر العهد به أن صاحبه لبلاد تيدكالت لملاقاة ركب الحجاج فدعه أمير الحج سيدي محمد بن أبي نعامة لصحبته للحج فحج معه حتى وصل معه لبلاد فزان وهناك أتاه أجله بقرية زلالية الثالث والعشرين من ربيع الثاني 1157⁽²⁾.

الرحلة الثالثة كانت لسجلماسة لملاقاة الشيخ صالح بن محمد الغماري وقد ابتدأها من تينلان يوم الاثنين التاسع عشر من جمادى الأولى سنة 1168 ووصلها يوم الجمعة السابع من جمادى الثانية فبالغ في إكرامه وأن سبب الرحلة هو أن يأخذ عنه القرآن برواية نافع ورواية ورش وقارون عن طريق الأزرق وأبي نشيط فأقام عنده ثم لما ختم الشيخ عبد الرحمان السلركة على شيخه التمس منه الإجازة فيها فأجازه.



(1) الشيخ باي، الغصن الداني ص 59.

(2) نفسه ص 59.

الرحلة الرابعة لأداء فريضة الحج ألف الشيخ مذكرة رحلته للحج ابتدأها من تينلان وحدد فيها جميع المراحل والأماكن التي نزل بها والرجال الذين التقى بهم وذكر فيها أنه خرج من تينلان يوم الجمعة العاشر من جمادى الأخيرة سنة 1188 ووصله لمكة يوم الأربعاء السابع من ذي الحجة 1188⁽¹⁾.

مؤلفاته: ومنها مختصر النوادر وهو كتاب في الفقه والمعاملات⁽²⁾ لأن أبي زيد اختصره الشيخ في مجلد متوسط الحجم وجد بخط تلميذه الشيخ محمد بن مالك القبلوي لكنه مبتور والموجود منه الأبواب التالية آخره باب الصلاة، باب الخيار، الصيام، البيع، القراض، المغارسة، القضاء، الشهادات، الاقرار، التفليس، الرهن، الحماله الحوالة، الرهون، الإكراه، الغضب، الشفعة، الوصايا، الحبس، الهبة الجعل على الخصومة، العتق، الوديعة، العارية، اللقطة، إحياء الموات، رفع الضرر، وفي آخره كتاب الشيخ محمد بن مالك انتهى ما وجد بخط عبد الرحمان بن عمر مما انتخبه من النوادر. وله أيضا أرجوزة في علم الفلك نورد أبيات منها:

الحمد لله الذي علمنا من النجوم ما به أهتدأونا
في ظلمات البحر ثم البر سبحانه من قادر وبر
وخصنا بأفضل البرايا محمد ذي الفضل والمرايا
وله رحمه الله أبيات يمدح فيها تأليف إمام الحرمين المسمى بالورقات وشرجه
للخطاب وهذه أبيات منها:

عليك إذا رمت الوصول بسرعة لعلم أصول الفقه خير العلوم
تأليف بحر العلم أو حد وقته إمام حرام الله محصى الرسوم

(1) الشيخ باي، المرجع السابق، ص 59.

(2) نفسه، ص 60.

وطالع عليه شرح خطاب نفعه محمد الخطاب بحر الفهوم
وما سمى الخطابا لا لخطبه فوائدا لا تلقى لأهل الحلوم
وله تقریضة لمحمد بن أب نذكر منها:

إذا رمت نظما يزري بالدري في سلك فلازم در الشيخ بن أب أخ النسك
بدافية فردا بين أعلام عصره وجار به سبقا وفضلا بلا شك

وله تقریض لشيخه بن أب لنظم الأجرومية الذي سماه نزهة الحلوم في نظم منشور
ابن أجروم وله مقيدات وفتاوى كثيرة نذكر منها نمودجا، فمن مقيداته ما ذكره محمد
بن محمد بن أحمد الحبيب بن محمد المبروك في كتابه نقل الرواة عمن أبدع قصور توات
لما تكلم على حفر الفقارات بتوات فقال وقد رأيت تقييدا منقولا بخط العلامة الشيخ
سيدي عبد الرحمان بن عمر ناقلا له من كتاب عم والده الشيخ سيدي أحمد بن يوسف
التيلاي حين تكلم على من سبق بعمارة توات من زناتة قال وهم اللذين اتخذوا خدمة
الفقاير وابتدعوها بحرفة لم يسبقهم غيرهم إليها وحين بلغوا من ذلك مقصودهم
اصطلحوا على تسميتهم بالفقاير على ضرب من الشبه لأن الشيء فشبها صفة
الفقارة بصفة فقارة الظهر من كل حيوان له فقارة فأخذها عنهم من بعدهم وصارت
حرفة شائعة معروفة عند ذويها إلى الآن وله كتاب غنية الشورى يشتمل على الكثير من
فتاويه وخصوصا في أمر الفقارة واعطائهم بجزء مما يخرج منها وكبقية تقسيم مائها.

الإجازات⁽¹⁾: الإجازات التي تلقاها هذا العالم تعطي لنا دورا مهما يتعلق بالعلوم التي
درسها وبرع فيها وكذلك الشيوخ الذين عاصروه وقدموا كل معرفتهم لطلاب العلم في
ذلك العصر وكذلك المناهج العلمية التي كانت متبعة خلال تلك المدة وأهم المعارف التي
كانت تدرس في مدارس توات وأهم المصادر التي كثر الإقبال عليها إجازة عبد الرحمان
الجتوري⁽²⁾ وهو من أبرز علماء في توات في عصره يبين لنا الجتوري الأسباب التي دفعته

(1) الشيخ باي، المرجع السابق، ص 60.

(2) نفسه، ص 32.

لهذه الإجازة وكذلك العلوم التي تلقاها عالمنا عنه والتخول له هذه الإجازة تدريسها من قبله منحه الجتتوري إجازتين الأولى عند سفره إلى الحج والتي جاء فيها مايلى (وقد طلب مني أن أجيزه فيما أخذه عني فحملني من ذلك أمرا وأرهقني فيما نبذني إليه عسرا إلى أن قال فأسعفته في ذلك وإجازته إجازة مطلقة في كل ما أخذه عني إلى أن قال من تفسير وحديث وأصول فقه وفقه وفرائض ونحو وتصريف وبيان ومطلق وكلام وحساب⁽¹⁾)، والإجازة الثانية عندما عاد من الحج وهذه الإجازة كانت تختلف عن الأولى التي اكتفى فيه بالكتب بينما في الثانية ذكر الكتب والأسانيد.

يلاحظ على الإجازة الأولى أنها تعلق بالكتب التي كانت تدرس في المدارس والزوايا بإقليم توات ولا تزال تلك الكتب تدرس لحد الآن خاصة في مدرسة الشيخ بن عبد الكبير.

إجازة الفقيه طالب بن سيدي الوافي بن طالب⁽²⁾، يعتبر هذا العالم الجليل من بين العلماء الذين تتلمذ عليهم عبد الرحمان بن عمر التلاني وبعد الدراسة طلب منه الإجازة وفي هذا الصدد يقول الكاتب قد أجزت لأخي عبد الرحمان بن عمر التلاني بأن يروي عني جميع مروياتي عن شيوخي من الحديث والفقه وغيرهما.

نستنتج من هذه الإجازة أن التلاني يحق له أن يروي كل الكتب التي درسها عن شيخه هذا وأغلبها يتعلق بالعلوم الشرعية من تفسير وفقه وعلم وحديث وغيرها.

إجازة الشيخ أحمد بن صالح⁽³⁾ هو أيضا من بين الشيوخ الذين تتلمذ عليهم مدة من الزمن وبعد نهاية الدراسة طلب منه الإجازة كما طلبها من غيره وهو ما يتأكد من قوله قد أجزت الاخ الحبيب عبد الرحمان بن عومر أن يروي عني جميع مروياتي من حديث وفقه ونحو ومعقول ومنقول.

(1) الشيخ باي، المرجع السابق، ص 34.

(2) نفسه، 35.

(3) نفسه، ص 35.

إجازة العلامة سيدي أحمد بن المختار المغلاوي⁽¹⁾، إن إجازة هذا العالم الجليل بدأها باسم الله الرحمان الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما الحمد لله وحده وأن أحمد بن الأمين بن المختار الغلاوي أجاز السيد عبد الرحمان بن عمر في كل ما أجاز به عبد الرحمان بن إبراهيم الجوارى.

يلاحظ على النص أن هذا العالم الجليل لم يذكر لنا في إجازته الكتب التي أجاز فيها التتلافي بل اكتفى بالقول أنه أجاز في الكتب التي أجازها عليها الجوارى ويبدو أن ذلك تم بعد اطلاعه على إجازة هذا الأخير وأن نفس الكتب التي درسها عليه هي نفسها التي درسها عن الآخر.

إجازة ابن أب، يعتبر هذا الشخص من أبرز علماء عصره حيث علق عليه الذين ترجوا له بأنه عالما عاملا

شيوخه تتلمذ على الشيخ عمر التتلافي وهذا أول العلماء الذين أخذ عنهم العلم في مسقط رأسه بتينلان وأبيه الذي كان من بين العلماء الأجلاء بتينلان ثم بعده صالح الدين اللمطي السجلماسي والشيخ الجنتوري وتلقيه العلم عن هؤلاء العلماء البارزين جعله يصبح من أهم الشخصيات البارزة خلال عصره مما جعل العلماء يبالغون في الثناء عليه ويتقدمون للأخذ عليه لأنه تولى التدريس بزواوية تنلان بعد وفاة أبيه أقام مقامه في التدريس والفتوى وكان يسكن بأولاد علي من قصور تيمي عمى في آخر عمره وكانت الفتوى لا تزال ترد عليه ولم يكن ذلك عائقا بالنسبة إليه حيث كلف أحد تلاميذته للرد على تلك الفتاوى بعد إملائها عليه وهذا التلميذ هو الشيخ سيدي المحفوظ من قصر أولاد أوشن وفي آخر الفتوى يقول وكتب وراق الشيخ محمد عبيد ربه تعالى محمد المحفوظ مع نوازل مفيدة لا يكاد يستغني عنها من تصدر للفتوى في إقليم توات.

(1) الشيخ باي، المرجع السابق، ص 36.

إجازة الشيخ عبد العزيز الهلالي⁽¹⁾، يعتبر هذا الشيخ من الشيوخ الذين تتلمذ عليهم التنلاني وقد ورد في نفس الإجازة أما بعد فيقول كاتبه غفر الله ذنبه وستر بفضلله عيه أن من منن الله علي ومواهبه لدي أن أكرمني بلقاه العلامة اللبيب المحب عبد الرحمان بن عومر التواتي أجزته ووالده المذكور توفي رحمه الله يوم الثلاثاء عند الزوال الليلتين الأخيرتين من صفر سنة 1233

- عبد الرحمان بن محمد، توفي عام 1224

- العربي بن إدريس ابن عمر، توفي عام 1230

- الحاج عبد الحفيظ بن عبد الوهاب، توفي عام 1280

- محمد بن عبد الله الوليد، توفي عام 1358 المدفون بأولاد أونقال.

- محمد عبد الكريم بن محمد عبد الحق بن عبد الرحمان المدفون بتتلان.

- يوسف بن عبد الحفيظ بن يوسف.

- الصديق بن الحاج محمد المقبور بأولف.

- سالم بن عبد الرحمان، توفي 1228

- عبد الرحمان بن محمد بن عبد الرحمان، توفي 1202

- عبد الرحمان بن إدريس⁽²⁾، توفي 1233.

الشيخ أبو حفص بن عبد القادر هو الشيخ الفقيه العالم العلامة النزيه شيخ الشيوخ ومعدن الفيض والرسوخ القاضي الأكبر القمر الأنور أبو حفص سيدي عمر بن عبد القادر بن سيدي أحمد بن يوسف التنلاني وصف من قبل الذين ترجوا له بأنه (محي علوم الدين بتوات أعجوبة زمانه جاهد في الله فهداه السبيل المستقيم وصار علما

(1) الشيخ باي، المرجع السابق ص 37.

(2) نفسه، ص 10.

يهتدى به في ظلمات الليل البهيم)، فهو من أبرز علماء توات لكثرة من تتلمذد عليه فقد جاء في فهرسة تلميذه وابن عمه عبد الرحمان التتلاي عن قول الشيخ الجتتوري قال لي لما رجع من حجته وقد سألته عن حال من لقي من العلماء فقال لي اختبرت علماء القاهرة والحرمين فلم ألقى منهم من يصل أصبع رجل شيخنا أبي حفص إلا وأخذ في علم الحديث لقيه بمكة وهنا يذكر مقتطفات من رحلة الشيخ أبي حفص عمر بن عبد القادر مشتملة على أربع وعشرين صفحة بقلم عبد الرحمان بن عمر.

شيوخه: العلماء الذين أخذ عنهم حسب ما ورد في فهرسة عبد الرحمان التتلاي الذي قال عنه كانت رحلته لفاس ومراكش طلبا للعلم ومن العلماء الذين أخذ عنهم محمد بن عبد السلام البناني الففاسي⁽¹⁾ قرأ عليه ألفية ابن مالك وعلم المعاني والبيان وتلخيص المفتاح وقرأ عليه شيئا من توضيح ابن هشام على ألفية ابن مالك وشبائل الترمذي.

أحمد السقاط⁽²⁾ قرأ عليه لامية الأفعال وجل المجراد ومقدمة ابن أجروم وألفية ابن مالك.

أبي عبد الله أب زكري الففاسي قرأ عليه مغنى اللبيب لابن هشام والمقدمة الصغرى للشيخ السنوسي والرسالة لأبي زيد القيرواني في الفقه وسمع عنه بعضا من البخاري وبعضا من حكم ابن عطاء.

محمد بن حمدون البناني الففاسي⁽³⁾ أخذ عنه خطبة الألفية والفوائد المسجلة في شرح البسمة والحمد لله وشرح الأنصارية في علم الكلام.

الزاهد محمد الطيب بن عبد الرحمان بن القاضي الففاسي⁽⁴⁾ قرأ عليه الخرجية في علم العروض.

(1) الشيخ باي، الغصن الداني، ص 10.

(2) نفسه، ص 10.

(3) نفسه، ص 10.

(4) نفسه، ص 10.

الأديب سيدي محمد العربي بن أبي عبد الله محمد بن مقلب الفاسي قرأ عليه مقدمة ابن جروم.

أبي بن عبد الله سيدي سالم بن محمد البرباقي⁽¹⁾ شيخ المدرسة المصباحية بفاس قرأ عليه القرآن والتجويد.

أبي عبد الله سيدي مهدي بن عبد السلام الحلوي الفاسي⁽²⁾ قرأ عليه ألفية ابن مالك. العالم أبي عبد الله محمد السجلماي قرأ عليه ألفية ابن مالك ومختصر السنوسي في المنطق والعقيدة الكبرى وشمائل الترمذي.

العالم النحوي سيدي عبد السلام الميروشي⁽³⁾ قرأ عليه ألفية ابن مالك.

الفقيه إدريس بن المنشاط الفاسي⁽⁴⁾ قرأ عليه ألفية ابن مالك وأرجوزة السلم.

أبو العباس أحمد بن مبارك السجلماي⁽⁵⁾ قرأ عليه علم الأصول وجمع الجوامع لابن السبكي والمقدمة الصغرى للشيخ السنوسي والنصف الثاني من مختصر خليل وبعضها من البخاري.

محمد بن محمد بن ميارة الفاسي أخذ عنه علم الأصول وقرأ عليه جمع الجوامع لابن السبكي مع شرح المحلى.

أبو عبد الله المسناوي الدلائي قرأ عليه كثيرا من لب الأصول للشيخ زكرياء وأخذ عنه علم المنطق قرأ عليه مختصر الشيخ السنوسي في المنطق والرسالة في الفقه ومختصر خليل وأرجوزة ابن عاصم وتحفة الحكام وشيئا من مختصر ابن الحاجب الفقهي والمرشد المعين ومنظومة ابن عاشر.

(1) الشيخ باي، الغصن الداني، ص 10.

(2) نفسه، ص 11.

(3) نفسه، ص 11.

(4) نفسه، ص 11.

(5) نفسه، ص 11.

وفي الحديث صحيح البخاري وبعضا من الأربعين النووية وكثيرا من ألفية العراقي في اصطلاح المحدثين وكثيرا من التفسير.

وقد حصل الشيخ أبو حفص على يد شيخه من المسائل الفقهية والفوائد العلمية والتحقيقات البديهة في الفقه وغيره لم يحصل عليها من غيره لملازمته له.

أبو عبد الله الحسن بن رحال المعدني حافظ مذهب الإمام مالك في زمانه بالمغرب قرأ عليه مختصر الشيخ خليل وأرجوزة ابن عاصم وتحفة الحكام ولامية الزقاق وسمع عنه مواضيع من التفسير والباقي إجازة منه.

أبو عبد الله محمد العربي بن أحمد بردالة قرأ عليه بعضا من مختصر خليل.

الفقيه محمد المنشاط الفاسي قرأ عليه البعض من مختصر خليل.

أبي عبد الله الحسن بن رحال أخذ عنه الكثير من صحيح البخاري قراءة والباقي إجازة وصحيح مسلم بعضه قراءة والباقي إجازة.

الفقيه المحدث علي الخرشبي الفاسي سمع منه بعضا من صحيح البخاري.

الفقيه الأستاذ محمد بن عيسى قرأ عليه المقنع مختصر أبي مقرع في علم التوقيت.

الفقيه أحمد بن شنتوف قرأ عليه قليل من روضة الأزهار في علم الليل والنهار.

الفقيه سعيد العميري لقيه بمدينة مكناسة الزينون فسمع منه البعض من شفاء

عياض وبعض من التفسير.

العلامة أبو مدين محمد بن الحسن السوسي والفقيه ذو التآليف الشهيرة أحمد بن يعقوب فقد لقيهما ولم يتمكن من الأخذ عنها شيئا وكان ذلك بمدينة مكناسة الزيتون.

كان من أخباره رحمه الله أنه لما بعثه والده لمدينة فاس للقراءة واصل الليل والنهار ولازم الدرس والتكرار سلم للعلم كليته ولم يضيع بغيره أوقاته حيث أنه لم يفتح رسالة واردة

عليه من تواتر لكىلا تتكدر عليه اللذات إلى أن بلغ المنى ونال الشهادات العليا فحينئذ رجع القهقري وصار يفتح الرسائل رسالة بعد أخرى فأول رسالة فتحها وجد فيها أخبار موت والدته والثانية موت والده ثم باقى الرسائل ما كان يأتيه من قبلها.

نشاطه العلمى: يقول عن نفسه رحمه الله كنت مع أخذى للعلم فى أثناء المدة التى قمت بها فى مدينة فاس أقرأ الطلبة وأدرس لهم الفقه وغيره فكنت أقرئهم ألفية ابن مالك مرارا زمرة بالمدرسة المصباحية لأنى كنت ساكنا فيها فى أكثر المدة التى أقمت بمدينة فاس ومرة فى جامع القرويين قراءة بحث وتحقيق وأقرأهم الأجرومية مرارا وأيضا أرجوزة فى السلم فى المنطق مرارا قراءة بحث لتحقيق مع التعرض الكثير عما وقع لشارحه سيدي سعيد قدورة حتى قيدوا على تقييدات نفيسة فى ذلك وأقرائهم أيضا مختصر السنوسى فى المنطق وأقرائهم تخلص المفتاح فى علم المعاني والبيان وأقرائهم جمع الجوامع فى علم الأصول لابن السبكي وأقرائهم رسالة الشيخ أبى عبد الله محمد بن أبى زيد القيروانى مرة فى المدرسة الصباحية ومرة فى القيرويين ولما كر على الطلبة جدا وعجزت أن أسمع آخرهم ومن كان فى الطرف منهم لكثرتهم اتخذوا لى كرسيًا أجلس عليه لأسمع الجميع وكان ذلك الكرسي فى الموضع المرتفع من جامع القرويين.

وهو ما يؤكد من نص آخر لمحمد الوليد بن أبى بكر بن عبد القادر الذى ذكر أن الطلبة لما كبرت الحلقة وضعف عن إبلاغ أقصاها نصبوا له كرسيًا ليجلس عليه فلما جاء على العادة وجده فأبى أن يجلس عليه وجلس بجانبه فلما قضى المجلس ألح عليه الطلبة فى الجلوس عليه وشكون عذرهم فلم يسعفهم بمرادهم وأبى ذلك كل الأبايا فلما رأوا ذلك منه طلبوا حيلة يتوصلون بها لمرادهم فاتفق رأيهم على أنهم لا يتركون له موضعا يجلس فيه إلا الكرسي فجلس عليه فأخبرني بعض أهل المجلس أنه لما جلس عليه لم يزل لونه يحمر ويصفر حتى أنقذ المجلس حياء منه وتواضعا رحمة الله وتكاثرت الطلبة واتسعت حلقاته حتى أنه لم تبقى فى الجامع حلقة أعظم منها.

وكان الطلبة يكلفونه بحفظ عبارات الشروح التي يحضرونها في المجلس ويباحثونه فيها فاحتمل تلك المشقة فكان لا ينام من الليل إلا قليلا

ويقول وبقيت في تدريس خطبة الرسالة في هذه المرة الثانية أكثر من شهرين لأنني كنت أطول في نقل كلام الأئمة وما يرد عليه من الأبحاث لكون الطلبة طلبوا مني ذلك وكان الطلبة يزدحجون على مجلسي في التدريس ويرغبون فيه لكوني أفقه من غيري بل غيري أفقه مني وأحسن ولكن لكوني كنت أوضح لهم المسائل وأفهمها وأبينها لهم فانتفعوا بسبب ذلك علي انتفاعا كثيرا.

ثم إن أخاه وشقيقه السيد الحاج عبد الرحمان سافر إليه ورحله بعد الامتناع عن ذلك فقدم إلى تلمسان مسقط رأسه وبلدة والده وجده وتصدر للتدريس والقضاء فكان لديه من العلم الظاهر والباطن ما لا يحصى، انتفع من نفائس علومه فهو الأب الأعلى لبقايا العلوم التواتية، أخذ السر الرباني عن الشيخ سيدي محمد دفين أولاد أنقال توفي الشيخ أبو حفص عمر بن عبد القادر عشية الأربعاء لثلاث خلوان من ربيع الأول سنة 1152

محمد بن أب، الشيخ محمد بن أب المزمري نسبا التواتي مولدا ودارا ولد بقرية أولاد الحاج بضواحي مدينة أولف، نشأ محمد بن أب المزمري في مسقط رأسه بقصر أولاد الحاج وبها تلقى مبادئ العلوم الأولى.

شيوخه: اتصل أولا بالولي الصالح المقداد وبعدها انتقل إلى قصر زاوية كتته واتصل بالشيخ الفقيه سيدي أعمر بن موسى بن المصطفى بن سيدي عمر الرقاني ومكث بالزاوية طويلا دارسا ومدرسا وبعدها انتقل إلى مدينة تمنطيت التي درس بها طويلا ثم رحل إلى خارج الوطن فزار أقطارا عربية وإسلامية وبعدها انتقل إلى مدينة تميمون شمال الولاية⁽¹⁾.

(1) الشيخ باي، المصدر السابق، ص. 107.

يعتبر ابن أب من الشخصيات العلمية البارزة في إقليم توات ألف في مجموعة من المعارف العلمية ويعتبر من بين الشيوخ الذين تتلمذ عليهم فأجازه كل مؤلفاته.

الشيخ محمد بن أب ولد بأولف في قرية أولاد الحاج بلدية تمقطن دائرة أولف في العقد الأخير من القرن الحادي عشروتوفي بتيميمون من بين الذين ترجهوا له الشيخ باي بلعالم فقال عنه يعتبر شاعرا مفلحا بليغا لغويا تصريفيًا عروضيا رائق الخط وعن رحلاته العلمية قال في شأنها: جال في المغرب الأقصى وفي مالي حيث انتقل إلى تمبكتوا فأفاد وله عدة مؤلفات في فنون كثيرة، له مميزات في الشعر لم يظفر بها غيره من الشعراء ولذلك علق على نفسه بقوله وهو في عنفان شبابه مخبرا عن حاله:

إذا ساد بالأقدام عمرو أو بالدكاء	تفرد أياس وبالجود حاتم
فإن شعاري صنعة الشعر فالذي	ينازعني فيه فذلك ظالم
وما كان بأروان قرب تمبكتوا	من أرض مالي قال مسليا نفسه
وقائلة لي يا ابن أب محمدا	أرى الناس طرى هاهنا فيك زاهدا
فلا مذهباً من أنسة لك وحشة	ولا سامعاً من ذا يقول من الهدا
وبعض يكاد إن ذهب لتبتغي	مصافحة أن لا يمد لك اليدا
فوالله ما أدري أذك لك منهم	تجاهل أم جهل بقدرتك قد بدا
فقلت قد جهلت الأمر لو جئت تاجرا	أسوق حمالة وأبرزع سجدا
لكنك ذا أبناء جنسي وغيرهم	حبيبا إليهم بل أمير وسيدا
يسيرن نحوي بكرة وعشبة	سراعا إلى مثوي مثنى وموحدا
فمن قاتل مهمى بذلك حاجة	فقل يا فلان أت عبدا معبدا
ومن قاتل من شئت فأخطب فإننا	جعلنا لك التفويض فأحلل وأعقدا
ومن قاتل حاكيت في الفقه مالكا	ومثلي غبي جاهل غير مقتدا

فهذه الأشعار تؤكد لنا بأن هذا العالم الجليل كان يفتخر بالمرتبة التي وصل لها في عصره وهذا يتأكد من التراث الذي تركه لنا وأغلبه لا يزال مفقودا ومن الدراسات القيمة التي قام بها أحد أبناء أدرار هي دراسة الأخ الكريم المحترم جعفري الذي تناول فيها هذه الشخصية الفذة معتمدا على التراث الأداري المخطوط وكذلك الشيخ باي الذي قام بعملية الجمع وأن ما قام به يحتاج إلى الدراسة من قبل الباحثين الجزائريين حيث قدم لهؤلاء الباحثين بعض المخطوطات التي لا يستطيع الباحث البعيد عن المنطقة الوصول إليها.

ومن بين المؤلفات نذكر: قصيدة في فك البحور، نظم مقدمة ابن أجروم التي نظمها سنة عشرين ومائة وألف، أرجوزة في العروض سماها روائق الحلل في ذكر ألقاب الزحاف والعلل، العبقرى نظم باب السهو من مختصر الأحضري، نزهة الحلوم نظم منشور مقدمة ابن جروم، نظم ثالث لمقدمة ابن جروم في النحو من بحر الطويل سماه كشف الغموم، نظم معاني بعض حروف الجر، أرجوزة في التصريف سماها روضة النسرين في مسائل التمرين، أرجوزة في علم الكلام سماها الأهنة المعجلة، شرح على الهمزية سماه الدخائر الكنزية في حل ألفاظ الهمزية، شرح على لامية ابن المجراد في أعراب الجمل، شرح روضة النسرين في مسائل التمرين.

من خلال القائمة المتعلقة بإنتاج هذا العالم الجليل نلاحظ عليها أن جل اهتمامه كان مركزا بالدرجة الأولى على علم اللغة العربية وهو الفن الذي عرف اهتماما كبيرا من قبل العلماء الأدراريين في عصره والعصور التي سبقت له وله مميزات أدبية امتاز بها عن غيره من الأدباء تتمثل في الأبيات العشرة التي تقرأ من اليمين إلى اليسار وبالعكس مطالعها:

أدر كلام كبر رباك مالك ردا
أدب وكف أرسنا إن سر أفك وبدا

كما يتمثل دوره الفكري في إنشائه البحر الجديد الذي سماه المضطرب وأخار له وزن:

فعولن مفاعلن فاعلات فعولن مفاعلن فاعلات

وأشدد فيه قصيدة مطلعها:

صل يا الهي ثم سلم دائما على خير الأنام
ما دعاك أولباك محرم قاصدا إلى البيت الحرام

كما يتمثل فكره أيضا في الأبيات العشرة في الجناس مطلعها:

يا ويح مبتا الضلالة بل لهدى فلسوف يندم يوم يؤخذ بالنوا
ما همم إلى لقاء كواعب عرب تميمس كأنهم القضب النو

شرح على صغرى الصغرى سماه معونة القراء أرجوزة عقد بها شافية ابن الحاجب في علمي التصريف والخط وأبطأ عن تجريدتها ثم بدا له فمزقها بعد أن جرد منها نحو كراسين، شرح على القصيدة الشقراطية: سماه الدروع الفارسية، ومن مؤلفاته تحلية القرطاس في مسألة تضمين الخماس.

ومن بين الذين ترجموا له من علماء أدرار الشيخ عبد الرحمان التينلاني فقال عنه: شيخنا الفقيه الأديب النحوي اللغوي أبو عبد الله سيدي محمد بن أب المزمر رحمة الله فقيها أديبا نحويا لغويا تصريفا عروضيا فائقا كل من لقيه في الفنون الثلاثة الأخيرة رائق الخط شاعرا مجيدا مقلقا لا يباري فيه ولا يجاري من صغره إلا الآن حتى قال في عنفوان شبابه مخبرا على حاله:

إذا ساد با لأقدام عمرو وبالذكاء تفرد أياس ويا لجلود حاتم
فإن شعاري صنعة الشعر فالذي ينازعني فيها فذلك ظالم

نستنتج من نص التينلاني ما توصلنا إليه سلفا ويمكن الإضافة عن ذلك كثرة اهتمامه بالفقه المالكي ثم يتناول التينلاني كيفية الالتقاء به في أدرار فيقول: (لقيته في

صغري وأنا في المكتب بزاوية عم والدي بتلان كان قد مر بها متوجها لبلاد تاجورارين فحضرت إقرائه للمرشد المعين فأعجبني تدرسه فوعده إن رجع لبلده أن أرحل إليه للأخذ عنه فلم يقدر لي ذلك) يتجلى من النص ما يلي:

أن التلاميذ الصغار الذين يدرسون في الكتاتيب وهي الدراسة الأولى بالنسبة للشخص كانوا يشاركون في السماع للدروس التي يتلقاها الكبار وهي أكثر من مستواهم. أن علماء أدرار كانوا عندما ينتقلون بين منطقة وأخرى يتوقفون في المراكز العلمية ويعطون دروسا للطلبة في تلك الزوايا ثم يستدرج التينلاني في ترجمة ابن أب فيقول: (ثم لقيته مرارا بعد ذلك) يبدأ من النص أن التينلاني توجه إلى مكان تواجد ابن أب وأخذ عنه مجموعة من الدروس مما جعله يعلق على ذلك بقوله: (استفدت منه فوائد في النحو واللغة والتفسير وكان متفتنا مجيدا فاطنا عارفا) وعن طريقته في التدريس قال عنها التينلاني (يباحث الشراح في مجلسه بأحسن بحث) لكن ما يعاب عليه حسب ما ذكره هذا العالم أنه قليل المطالعة عكس معاصريه وفي هذا الصدد يقول (إلى أنه كان قليل الإقراء ضورا على الطلبة) لكن بالنسبة لفقه المعاملات يظهر أنه لم يكن بارعا فيه مثل ما هو الحال بالنسبة لعلموم اللغة والأدب ولذا كان يلجأ إلى غيره للإجابة على النوازل التي كانت تصل إليه وهو ما يؤكد التينلاني بقوله (كان رحمه الله وارعاه في الفتوى لا يكاد يجيب في نازل ويحيل لى غيره ولو كان أدنى منه لأنه غلب عليه علم الأدب وأثر نظره وإقرائه فيه) نجد هناك تناقض في نص التينلاني فمن ناحية يرى أنه قليل المطالعة ومن ناحية أخرى يرى أنه كثير المطالعة ولعل الأخير هو الأصح لأنه خلال عملنا في فهرسة مخطوطات ولاية أدرار وجدت مجموعة من المخطوطات لها تعليقات من قبل هذا العالم الجليل وأحسن مثال على ذلك تعليقه على نسخة الدرر المكنونة الموجودة في أن زقمير من بين التعليقات أنه حاول أن يربط بين الغارات التي تقوم بها القبائل العربية على مازونة وما جاورها وغارات تلك القبائل على أدرار في عصره

وعن كثرة قراءته يقول التينلاني (وكان كثير المطالعة لا تكاد تجد كتابا بتوات إلا وتجد خطه فيه وكان متفنتا في الضبط لا يتساهل فيه) وهذا يتجلى لنا من خلال تصحيحه لبعض نوازل المازوني وقد اعتمدنا عليه في تحقيقنا للكتاب وعن شيوخه يقول التينلاني أخذ ببلده عن الفقيه السيد الصالح بن المقداد وعن الفقيه شيخنا سيدي عمر الرقادي كان دائما يستفتي الشيخ أبا الأنوار دفين زاوية مولاي الهية أولف وكانت أسئلته نثرا ونظما ومن بين تلك الأسئلة ما وجهه للشيخ أبي الأنوار وفي هذا الصدد يقول:

هذا سؤال جاهل فقير لله جان مذنّب حقير
للشيخ سيدي أبي الأنوار العالم السوالي ذي الأسرار
بعد سلام طيب عميم عليكم ورحمة الكريم
نص السؤال أن ذا للبلدا عيادة إذا أراد ذا
أحدهم تخليف خصم بليا أن يجلب الختم إلى تنغ بويّا
طوعا وإكراها ولا ييالي وإن نائيا منه على أميال
إذ جعلوا الخلف به مفترضا وكل جامع سواه رفضا
وذاك أنه على ما جربا إن خلتف المرء به وكذبّا

الجواب:

وبعد فالجواب أن الخصما يمنع أن يجلب خصما رغما
إلى سوى ثلاثة المساجد فتلك قد ذكر غير واحد
أن لها يجلب في المقاسمة لا غيرها من كان ذا إقامة
منها على عشرة الأيام فدون لا غير بلا ملام
وغيرها لا يجلب الخصم له لخلف ولو غدا محله
بل إنما للخصم فيما قد وردا تخليف خصمه بجامع البلد
فإن له خلف به ما قدرا فأعده ناكلا على من شهرا

تشتهر منطقة أدرار بكثرة النوازل التي طرحها وأجاب عليها علماءها وقد جمعت أبرزها الغنية للبلبالي وهي عبارة على الوضعية الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع الدراري في ذلك العصر.

في سنة عشرين ومائة وألف نظم مقدمة ابن جروم التي مطلعها:

قال ابن أب واسمه محمد الله في كل الأمور أحمد

وقد شرحها كلامن الشيخ مولاي أحمد الطاهر الحسني والشيخ محمد بن بادي الكنتي سباه مقدمة العي المصروم هذه القصيدة في فك البحور مطلعها:

بدأت بحمد الله رب مصليا على أحمد الهدي الرضا علم الهدي

وأصحابه الأكرمين وآله وبعد فخذ فك البحور على الولا

وهي من البحر الطويل نظمها في سنة عشرة ومائة وألف للهجرة وفي سنة ست وعشرين ومائة وألف للهجرة أرجوزة في العروض سباهها روائق الحلفي ذكر ألقاب الزحاف العلل.

مطلعها:

قال عبيد ربه محتسبا محمد الزمري نسبا

ثم على البحر السريع القبض المبتغي جدواه دون غيبض

الوافر الحسن المديد الجاه مولاي أحمد بن عبد الله

أزكى صلاة وسلام وعلى أصحابه وآله ذوي العلا

وفي سنة ثمان وعشرين ومائة وألف نظم باب السهو من مختصر الأحصري في العبادات سباه العبقري.

قال في مطلعته:

الحمد لله الجزيل النعم مرشد من عن سبل الحق عم
ثم صلاة الله يتولاها السلام على رسول آله سيد الأنام

وفي سنة أربع وأربعين ومائة وألف نظم مقدمة الأجرومية من بحر الرجز سماه
نزهة الخلوم منشور ابن جروم ومطلع النظم:

نحمدك اللهم يا من أنعمنا وعلم الإنسان ما لم يعلم
وبك أسألك أن تصلياً على نبي بالبهاء حلياً

وهذه المنظومة قد قرضها عبد الرحمان بن يعمر التتلافي بقوله:

إذا رمت يزري بالذري في سلك فلأزم ذرا الشيخ ابن أب النسك
فما أنفك مذ أزمان بيدي عجائباً بصوع قريض محكم النظم والسبك

ومن بين الذين شرحوها الشيخ باي بلعالم وسماها بالرحيق المختوم على نزهة
الخلوم وفي سنة سبع وخمسين ومائة ألف نظماً على مقدمة ابن جروم مطلعها:

لك الحمد يا الله يا من تفضلاً ومن علينا بالبيان وأجلاً
أهـي صلاة مع كريم تحية إلى من أتى بالحق للخلق مرسلأ
محمد الهادي الأمين آله وأصحابه والتابعين على الولا

وهذه المنظومة شرحها الشيخ باي وسماها عون القيوم على كشف الغموم.

الشيخ محمد بن عبد الرحمان البلبالي له كتاب غنية المقتص السائل فيما حل بتوات
من النوازل جمعه بمعية ابنه عبد العزيز، تتلمذ على الشيخ محمد بن عبد الله الأدغاغي
المقبور بأولاد ونقال.

الشيخ سالم بن محمد بن أبي بكر العصنوني له مؤلفات كثيرة منها:
نظم يشتمل على أمور الآخرة ذكر فيها الحساب والعقاب والجنة والنار يشتمل
على 300 بيت، توفي سنة 968.

وتضم لعائلة البكريين بعض العلماء ومن هؤلاء العلماء نذكر:

محمد البكري بن عبد الكريم⁽¹⁾ هو السيد محمد البكري بن عبد الكريم الأمريني
الشيخ الإمام العالم المهام السيد الرباني العالم التوراني تاج الدين أبو المواهب كان رحمه
الله شيخا عارفا عالما عاملا متفنا في علوم شتى وحامل لواء المحبة الغراء.

شيوخه: أخذ عن الشيخ محمد بن علي الأوجراني التواتي وعن الشيخ سيدي
سعيد قدورة الجزائري وعن أخيه سيدي الحاج محمد القاضي التواتي لم يتعرض
الكاتب إلى العلوم التي تلقاها عن هؤلاء الشيوخ ويبدو لي أنها نفس العلوم الإسلامية
التي كانت تدرس في المدارس والزوايا بإقليم توات ولم يتوقف هذا العالم عن الأخذ
من علماء توات فقط بل انتقل إلى مصر وأخذ عن العالم الجليل محمد الخرشبي وقد
أجازه في علم الحديث وفيما يتعلق بالتصوف فإنه أخذ طريقة القوم عن شيخه الولي
الصالح الرباني الشيخ سيدي محمد بن عمر البدوي كما تتلمذ على أبنائه الأربعة وهم
محمد الصالح والشيخ عبد القادر والسيد محمد والسيد عبد الكريم وابن أخيه عبد الله
بن محمد بن عبد الكريم والشيخ التتلاي ومحمد الفاسي المصري فهذا العدد من
الشيخوخ الذين تتلمذ عليهم يؤكد لنا بأنه أصبح من بين العلماء البارزين الذين عرفتهم
توات خلال عصره وهو ما يؤكد صاحب النص بقوله (كان رحمه الله كثير الاجتهاد
له اليد الطولى في كل فن من فنون العلم فصيح اللسان رحب الجنان طويل الباع في
النوازل مداوم الاطلاع في الفروع والمسائل)⁽²⁾.

(1) الذرة الفاخرة، ص 11.

(2) ابن عبد الكريم، النبعة، ص 106.

فالنص يوضح لنا العلوم التي برع فيها وأغلبها لا يخرج عن ما ألفناه عن علماء توات خاصة النوازل الفقهية التي اهتم بها هؤلاء لأن إقليم توات كان مستقلا غير مرتبط بأي نظام مغاربي خلال هذه المرحلة ما عدا تعيين القضاة الذين كان يتم في بعض الحالات من طرف المملكة المغربية والسبب في ذلك يرجع إلى العلاقة بين الأسر الشريفة في توات والمملكة المغربية فقد تولى هذا العالم الجيل خطة القضاء بتوات في عهد مولاي إسماعيل ولم يكن ذلك مقتصرًا على توات فقط بل شمل كل الإقليم وهو ما يرجع إلى المكانة التي أصبح عليها هذا العلم الجليل لأن حساده لم يتركوه بل وشوا عنه عند السلطان فأمر باحضاره فلما حضر بطلت الحجة لأنه ظهر للسلطان دينه وورعه وصلاحه مالم يعهده في غيره وأعطاه الحرية الكاملة في تنفيذ أحكام الشرع⁽¹⁾.

الطرق الصوفية:

أحمد بن صالح البزاني من بين الأولياء الذين ورد ذكرهم في هذا المخطوط وهو من تلاميذة أحمد بن يوسف مؤسس الزاوية الكرزازية وهذا الأخير حسب مناقبه من تلامذة أحمد بن يوسف الملياني⁽²⁾

وعن هذا الولي الصالح يقول المؤلف أحمد بن أبي صالح البزاني تلميذ أحمد بن يوسف ومن كرامته يصل الصبح في قصره إماما ثم بعد ذلك يحضر الحضرة كل يوم يجتمع به زاوية كرزاز وعند طلوع الشمس تجده بجنانة يقرأ الصبيان ويقول فلان من شأنه كذا حتى شاع خبره وأتته الوفود من كل الجهات بأولادهم للقراءة وصار يقول للصبيان ولا يدرك من يرتب به إلا الصبح كل واحد يقرأ يجد عشاؤه ليلا وحده وجميع من في المدرسة يكون واليا تقيا غنيا زاهدا عالما.

(1) ابن عبد الكريم، النبذة، 107

(2) بوحسون بوفلجة، المصدر السابق، ص 10

يتجلى من النص ما يلي:

أن توات كانت من المناطق التي استوعبت الطرق الصوفية ومنه الطريقة الكرزازية لقربها من كرزاز هذه الطريقة امتدت إلى شرق المغرب الأقصى.

أن رجال الصوفية في توات كانوا يتوافدون على زاوية كرزاز للأخذ عن مؤسسها ومن جاء بعده الأذكار ويساهمون في الاحتفال بالمناسبات الخاصة التي كانت تقام بالزاوية كالحضرة وهذه توجد في أغلب الزوايا ومن بين الذين عارضوها الشيخ سيدي عبد الرحمان الوغليسي البجائي الذي أنكر على المتصوفة هذا العمل واعتبره من البدع التي يجب محاربتها.

كما يلاحظ على النص أن سكان توات كانوا يساهمون جماعيا في الأنشطة الفلاحية فالإمام كان يتوجه إلى البستان للقيام بالنشاط الزراعي بعد أداء صلاة الصبح ولم يكن عمله مقتصرًا على الفلاحة فقط بل كان يرافقه التلاميذ حيث يبدو لي أنهم كانوا يساهمون معه في عمله وفي نفس الوقت يلقنهم المعارف لأن الطريقة البيداغوجية في تلك المدة تعتمد بالدرجة الأولى على تلقين الطلاب وأغلب هؤلاء الطلبة يقيمون في المدرسة ويحصلون على غذائهم منها.

المهدي بوشنتوف يعتبر المهدي بوشنتوف من بين الأولياء الذين ورد ذكرهم بهذا المخطوط هو رجل مجدوب أي من الصوفية.

عبد الرحمان بن محمد التامرتي يعتبر الشيخ من رجال الصوفية بأدرار وهو دفين زاوية أدغاغ وقبل استقراره بزاوية أدغاغ كان ببني تومرت مع أبيه الحاج محمد الذي وجهه إلى أدغاغ حيث قال له انطلق لزاوية أدغاغ ولازم بابها يفتح الله لك الفتح الكبير ويفتح إلى أهلها بك فصار يقيم بها ليلا ونهارا يأتيه الوفود إليها ويخبرهم بالمغيبات.

يلاحظ على النص أن أولياء توات لا يستقرون بمكان واحد بل يتوجهون إلى أماكن مختلفة لإقامة الزوايا وتعمير الأرض باستصلاحها ويقومون خلالها بالعباد فتنتشر كراماتهم وتأتيهم الوفود فيقيمون معهم وهو ما يؤدي إلى توسع عمران تلك القصور.

لم يكن هؤلاء الأولياء من إقليم توات بل جاء بعضهم من أماكن بعيدة عن الإقليم ومن هؤلاء الأولياء الولي الصالح محمد بن سيدي الحاج عبد الرحمان القسنطيني الذي استقر بزاوية أدغاغ وهو من أهل السلوك له خوارق تأتيه الوفود والركبان من كل الجهات ومن حلف في قبره بالحنث نزلت عليه مصيبة.

سيدي بعلالة دفين زاوية أدغاغ من كرامة هذا الولي الصالح أنه جاءه يوما أحد الأشخاص ويعرف بالجيلالي يختبر أحواله بعد شرائه جنان فقال له سيدي أشرت الجنان الفولاني ولا مال موجود عندي فقال له أمضي لزاوية ميمون تجد بها من يعطيك قيمة الجنان وخلال توجهه للزاوية وجد رجل في الطريق فسأله من أي بلد قال من أدغاغ فقال له ابن الجيلالي بها أم لا قال له نعم قال هاك مال ادفعه له وعندما حسب المال وجده قيمة الجنان لا زيادة ولا نقصان هذه الكرامة توضح لنا التعامل في العقار بإقليم توات الذي يخص بالدرجة الأولى شراء البستان وغيرها لأن البساتين تعتبر أهم الأنشطة التجارية لهؤلاء السكان.

محمد الطالب بن سيدي عبد الله بن علي حفيد مولانا سليمان من بين الكرامات التي نسبت له أنه كان يوما يقرأ الصبيان ومعه والده فألح الوالد على أبيه وبكى وقال له ما تريد فقال له نريد الثمر الجديد فقال لخماسه أجنبي له الثمر من ورجلان فطلع الخماس وبلغ الرسالة فإذا بالثمر الأحمر يظهر فجنا الثمر وترك بعضه ليرجع إليه فجاء بالثمر وقال له خذ بعضا من الثمر أيها الخماس فقال له أريده متكلا على ما تركه ليرجع إليه فيها عاد للنخلة فإذا هي كما كانت أول مرة.

يلاحظ على النص ما يلي:

أن العلاقة التجارية لم تكن مقتصرة على المبادلات التجارية بين إقليم توات والسودان الغربي بل مع أغلب مناطق الجزائر حالياً وأن المبادلات تتمثل على الخصوص في المواد الغذائية التي كانت تحتاج إليها المنطقة.

ففيما يتعلق بإنتاج التمور فإن بعض المناطق كانت التمور فيها تنضج قبل توات ومنها ورجلان التي يبدو لي أن هذا الولي الصالح كان يملك بها بساتين كما أن جزءاً من تلك التمور يصدر إلى غرب إفريقيا بينما البعض يستهلك داخل الإقليم.

يبين لنا صاحب النص أن هذا النوع من التمور يغلب عليها اللون الأحمر وهي لا تزال بإقليم ورجلان.

كما يوضح النص مهنة الخماسين الذين كانوا يأخذون نصيبهم من الإنتاج مقابل خدماتهم لبساتين النخيل طوال السنة.

عبد الله الأدغاغي دفين أولاد أنقال هذا الولي الصالح عرف بأنه من بين الذين يعقدون المجالس العلمية في حلقات دراسية وبلغ عدد الطلبة الذين يحضرون تلك المجالس ثلاث وثمانين طالباً من طلاب العلم والكل أدرجت على يديه الدرجة القصوى وأدركت العلم والعمل والتقوى وبلوغ المنى فلا خاب من العدد رجل واجد إلا وانفرد برتبته وكرامته لا تعد ولا تحصى.

يلاحظ على النص أن توات خلال هذه المرحلة لم يذكر المؤلف تاريخها بل اكتفى بإيراد المجالس العلمية وعدد الطلبة المساهمين في الحلقات العلمية مما يؤكد لنا تطور الحركة الفكرية.

مولانا سليمان دفين بني غزوان إن سبب مجيء هذا الشريف لتوات حسب ما ورد في النص أن شيخه سيدي علي بن حرزهم دفين فاس كان يقرأ عليه ووصل درجة من العلم ومما يؤكد ذلك أنه ورد عليه الشيخ فوجدهم يقرأهم فاستخفى عنه حتى كمل

القراءة فأمر بالخطور في بيته فلما حضر قال له يا مولانا سليمان قال نعم قال له مجلان لا يقعان في مرج واحد فلا بد أن تترك البلد أنت أو أنا ولكن ذلك على مكان عباده وأهله كلهم عباده وهو قطر توات.

يلاحظ على النص أنه ذكر رجل يعتبر من بين رجالات التصوف.

ويوضح النص أيضا توزيع عائلة مولاي سليمان بالجنوب المغربي وفي هذا الصدد يقول الكاتب: (وجد مهفي السير على غزوان لوجود مولانا علي بها ووجد عنده إخوانه وهم مولانا أبي بكر ومولانا محمد فنزل الشيخ بغزاوان عند مولاي علي فوجد جذبات من سجلهامة ومن سوس يطلبون مولاي علي والده للتبرك به فأكبر والده مولانا أبي بكر فوجهه لتافياللت ومولانا محمد لسوس ومولانا سليمان وجهه لتوات لأن توات راحة لكل شريف).

يستنتج من النص ما يلي:

أن فاس من أهم المراكز التي توافد عليها الأشراف لأنها أول عاصمة لدولتهم حيث استقر بها إدريس الثاني وبعد وفاته توزع منها أبناؤه على مناطق المغرب الأقصى وبذلك تشكلت الأسر الشريفة بتلك النواحي ومنها انطلقت إلى بقية الأقاليم وهؤلاء يعرفون بالأشراف الإدارية.

يوضح النص أيضا أنه خلال القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي توزع إخوان مولاي سليمان على أهم حواضر الجنوب المغربي ومن تلك الحواضر انتقل هؤلاء إلى إقليم توات، وفي توات قاموا بحفر الآبار وتسوية التربة وهو ما يتجلى لنا من خلال النص (خرج من غزوان سنة 580هـ وقد أمره شيخه بحفر بئر في كل بلد يبيت فيها ويرد له ترابه ومن استوت تربته وحفرته ينزل بها وصار هكذا دأبه حتى وصل عريان الرأس من توات فاستوت التربة).

يلاحظ على النص أن هذا الشريف لم يكن يسير بمفرده بل كان له رفقاء كانوا يقومون بعملية الحفر وتسوية التراب.

وهنا يتساءل الباحث هل تلك الآبار بداية لفقارات جديدة أو إضافة لفقارة أخرى أو بداية لفقارات جديدة نشأ عنها قصور جديدة استقر بها السكان بعد ذلك.

ومن بين الشرفاء الذين استقروا بتوات مولانا سليمان دفين زاوية حنين بتدكالت وحسب المؤلف فإنه من أولياء الله الصالحين نسبت له كرامات عديدة بعضها لا يزال متداول لدى مريدي هذه الزاوية وهناك أيضا مولانا الهيبة دفين زاوية أولف.

ومن بين الذين نسبوا أيضا للعائلة الشريفة مولانا عبد الكريم وفي المستور كان عالما ووليا صالحا استمرت الولاية في أولاده من بعده.

* مولاي أحمد بن يحيى دفين تيمي وأولاده مولاي محمد ثم مولاي عبد الرحمان ومولاي سليمان ومولاي محمد المقبور بتيمي بعبد الله.

* مولاي عمر ببريش وهو من أهل الخير والولاية استمرت الولاية في أحفاده.

* مولاي عبد الكريم حفيد مولانا الشريف دفين سالي.

* مولاي حماد دفين تادمين.

* مولاي عبد الله دفين الأحمر.

* مولاي أبو فارس دفين فونوعيل.

* مولاي قاسم دفين برديع من قرى تيمي.

* مولاي عبد الكريم الغريب دفين المهديّة.

* مولاي سليمان دفين أولاد أوشن من قرى تيمي.

* مولاي بعلي دفين تنيلان.

* مولاي الشريف دفين أولاد علي من قرى تيمي.

ولعل هذا التوزيع الذي أورده المؤلف يبين لنا تعمير المنطقة وعلى الخصوص في بداية عهد الموحدين ثم بعد ذلك يسرد المؤلف الأماكن التي انتقل فيها مولاي سليمان فقال عندما وصل عريان الرأس من توات تعرض له رجال توات ورجال جرارة وضيّفوه بتيّمي ثم وصل إلى أولاد طلحة فحفر وشاطت التراب وتحوّل إلى قصر الملح فحفر وشاطت التراب وجاء لقصر بوعوينات فشاطت التراب أيضا طلق السبع الذي كان يمتطيه فعرف الموضع بالسبع ومنه جد السير إلى أن نزل مقصود الله ثم تحوّل لتينلان في مستهل جمادى الأخيرة سنة 591هـ فضيّفوه وأكرموه وحفر البئر وشاطت التراب وتحوّل منه لأولاد عمور بتيّمي وحفر البئر واستوت التراب والحفرة فقال هذا هو المكان وأرض البركة.

يلاحظ على النص أن مولاي سليمان وجد ترحاب من قبل السكان توات وجرارة وهي من الأقاليم التي ورد ذكرها من قبل الرحالة وتواجد هؤلاء بمدينة السبع حاليا لأنها تتوسط توات وإقليم جرارة وأن توافد هؤلاء على مولاي سليمان يؤكد أيضا حب السكان لآل البيت وهو لم يكن مقتصرًا على توات فقط بل كل القطر الجزائري بكامله، والأشراف في توات جندوا السكان لاستصلاح أراضي الموات وحفر الآبار مما أدى إلى زيادة الأنشطة الفلاحية من ناحية أخرى ارتبط هؤلاء بالسكان بواسطة المصاهرة بين هؤلاء وشيوخ القبائل فمولاي سليمان تزوج بنت الشيخ أعمر وبقيت معه إلى سنة 595 فأتت بولد سمّاه مولاي عيسى وحضر الوليمة أهل تيّمي من قصر تميمون إلى قصر السبخة إلى قصر الحذب.

لعل هذا الزواج يندرج ضمن الموالاة هؤلاء الأشراف من قبل السكان بتلك النواحي مما يؤكد لنا أن الإنجاب الأول احتفل به كل سكان الناحية بعدها يتعرض المؤلف إلى أسماء القصور التي كانت خلال القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي من ذلك يمكن تأريخ تلك القصور وفي هذا الصدد يقول: (وكانت عدة قصور بتيّمي

الآن مقصود الله وتيسان وأولاد مطاع بالقصيبة وأولاد علي بقتور وزوان والعربة وزاوية عيسى وقصر الملح وأقبوا وأولاد بحفص وأولاد بحوا وتخفيف وأهل قصور الجذب والسبخة وقصر مبمون وزاوية الغريب وتوريرت وسعد الله وويل الله والشيخ دحوا وسيدي الحاج بزاوية أدغاغ وبوصلاح هؤلاء قصور تيمي).

فالذي يستنتج من النص أن تيمي عبارة عن منطقة تشكل من مجموعة من القصور بعضها ينسب إلى سكانها المقيمين بها منهم أولاد مطاع وأولاد علي قتور وأولاد بحفص وأولاد بحوا وأولاد الشيخ أمبارك وأولاد أحمد.

أغلب هؤلاء سكنوا منطقة تيمي قبل القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي وبذلك تكون تيمي قد عرفت استقرار سكانها قبل وصول مولاي سليمان إلى المنطقة وبعضهم استقروا بها بعد وصوله.

كما تعرض صاحب النص إلى بعض الزوايا بإقليم تيمي وهي زاوية عيسى وزاوية الغريب وزاوية أدغاغ وبوصلاح لكن ما يعاب على النص أن الكاتب لم يحدد لنا تاريخ تأسيس هذه الزوايا ومؤسسها.

بعض هؤلاء الأشراف اتخذوا من توات منطلقا لهم نحو السودان الغربي ومن بين هؤلاء مولاي عبد الصمد الذي توجه إلى أرض تكرر وأسس بها زاوية لم يبين المؤلف الأسباب بالتفصيل التي أدت إلى خروج هذا الشريف بل اكتفى بالقول أن مولانا علي وأخواله أهل تنيان القديمة والشيخ عبد الله كان يتخلف عليهم وكان الشيخ لحسن ينزل القبور وكان صاحب سطوة وأشد قوة وبأس وجدوا مع إخوانه أهل تنيان وكانوا أشد قوة وتزوج من تنيان بنت الشيخ المحفوظ.

ما يستنتج من النص أن من أبرز العوامل التي أدت إلى خروج بعض الأشراف من توات إلى تكرر هو ربما سوء معاملة هؤلاء من قبل شيوخ القبائل الذين تميزوا بأنهم أشد قسوة وبأس وجد.

وفي نص آخر يوضح لنا المؤلف طبقات المجتمع التواتي فيقول (بتنلان العوام والمرايطين والقراء والعلماء الواصلين وأهل الشوكة والبلية).

أن ما ورده المؤلف تؤكد النصوص المتوفرة لدينا والتي تنص على أن المجتمع في تيمي وغيرها من مناطق إقليم توات أن يتشكل من العرب وهؤلاء حسب النص من بني هلال الذين استقروا بتوات وهؤلاء هم أولاد عمارة وأولاد جرير وأولاد علي بن علي وأولاد دقيش وهناك الحراطين والعبي الذين يشكلون الطبقة الدنيا من المجتمع.

وأما المرايطين فهؤلاء هم الأولياء أي شيوخ الزوايا الذين ورد ذكرهم في النص وهم يمثلون الطبقة الثانية من المجتمع بعد الأشراف وشيوخ القبائل الذين يمثلون المرتبة الثالثة كانوا يتحكمون في أمور المجتمع ويتميزون بشدة قسوتهم.

وفي نص آخر يرس المؤلف مناطق توزيع الأشراف بداخل توات منهم أولاد عبد الكريم وأولاد إبراهيم بعض هؤلاء ببوران وآخرون بالغرابة وآخرون بتيمي الوسطانية وآخرون ببني تومرت.

فالملاحظ على النص أن هناك أسبابا أدت إلى هجرة الشرفاء من مناطق تواجدهم إلى مناطق أخرى حبا في نشر الإسلام وتأسيس الزوايا واستصلاح الأراضي لفائدة السكان والظاهرة هذه استمرت إلى عصرنا فنجد أحد أشراف أولف أقام بتمرتاست وهو مولاي الوافي رحمه الله استصلح جزء كبير من الأرض وأقام بها التوارق.

وفي بعض الأحيان نتيجة للانقسامات التي كانت تحدث بين الأسر الشريفة وما يؤكد المؤلف بقوله وكان سبب تفريقهم لما تحول سيدي أحمد بن يوسف من أولاد أنقال لزواية رزق الله الواسع بعد ما كمل بناؤها عام 1058 ظهر البغض بينهم والشحناء ما أصابهم من تخريب البلد وتحولهم لغيرها وانكسرت شوكتهم.

محمد بن البكري يعتبر من بين الأولياء الذين ورد ذكرهم في هذا المخطوط وقد نزل بالعكاية وشيد بها زاوية بادن سيدي علي بن حنيني الزجلاوي وكانت مأوى للضيوف.

يلاحظ الباحث حسب النصوص التي اطلع عليها والروايات الشفاهية أن بإقليم توات نوعان من الزوايا بعضها مخصصة لتقديم الطعام للواردين عليها من الفقراء وأبناء السبيل وهناك وثائق ترجع إلى القرن التاسع عشر الميلادي تشير إلى توقف القوافل التجارية بالزوايا عند توجهها إلى السودان الغربي أو قيامها بالنشاط التجاري بين إقليم توات والمناطق الشمالية من الوطن وعلى الخصوص النواحي الغربية منه.

ويبدو لي أن ذلك لم يكن مقتصرا على هذه الفترة التاريخية بل أغلب الفترات التي مرت بها هذه المنطقة.

وهناك زوايا علمية تحتوي على مدراس يتوافد عليها الطلبة من داخل توات وخارجها وهناك زوايا تجمع بين زوايا الإطعام وزوايا العلم.

عمر المهداوي من المناطق التي نسب إليها هؤلاء الأولياء المهدية التي نزل بها سيدي عمر وشيد بها المساجد والمحضر سواء بقصر تيمي أو غيره من قصور المنطقة فقد تميز هذا العالم الجليل ببناء المساجد وحفر الآبار بالطرقات التي يسلكها الناس والقوافل التجارية.

فالذي يستنتج مما سبق أن هؤلاء الأولياء لم يتوقفوا عن تأسيس المدارس لتعليم الناس بل ساهموا في الأنشطة الاجتماعية والاقتصادية بحل مشاكل الناس وإقامة الآبار في الطرقات التي يسلكها الناس.

أحمد بن يوسف⁽¹⁾ كان أحد الأئمة العلماء صالحا وارعا زاهدا وصف بالعلم والورع والزهد إذن فهو من رجال الطرق الصوفية الذين يعرفون بصلاحهم وورعهم وتقشفه في الحياة من حيث الأكل واللباس.

(1) الشيخ باي، الغصن الداني، ص 4.

كان مولده عام 1002 بأولاد أنقال نشأ بها وتلقى العلم على شيوخها بعدها انتقل إلى تينلان سنة 1052 فأسس بها المسجد والزاوية.

عبد القادر بن عمر لتلاني⁽¹⁾ من بين الأولياء الذين ترجم لهم وهو أيضا من الشخصيات العلمية بإقليم توات عرف من خلال كتب التراجم أنه كان ماهرا في علم الحديث تميز بمكارم الأخلاق وهو ما جعل الناس يتوافدون عليه لزيارته ومن أبرز هؤلاء الشيخ عبد الكريم.

الأسرة الجعفرية: من بين الأسر العلمية التي عرفتها توات خلال العصور الحديثة والمعاصرة.

أحمد زروق⁽²⁾ هو العلامة أحمد بن زروق ابن صابر البدوي الجعفري لم تذكر المصادر التي اطلعنا شيئا عن تاريخ مولده بل اكتفت بالقول أنه كان عالما إماما.

شيوخه:

تلمذ على يد الشيخ محمد الونقالي ومحمد بن أحمد الزجلاني وهم من العلماء البارزين في توات خلال هذا العصر.

لم يتوقف عن الأخذ على هؤلاء فقط بل توجه إلى مدينة فاس التي اعتبرت من أهم المراكز الفكرية في بلاد المغرب خلال هذا العصر وفي فاس أخذ عن علمائها كالسيد التاودي الذي يعتبر من بين كبار علماء فاس استفاد منه في دراسة صحيح البخاري الذي كان من أهم الكتب التي تدرس للطلبة في المؤسسات التعليمية خلال تلك المدة ختم عليه صحيح البخاري مدة خمسة عشر مرة ولقبه شيخه بقاضي فاس توفي يوم 17 رمضان 1245

(1) الشيخ باي، الغصن الداني، ص 5.

(2) نفسه، ص 5.

عبد الحق بن عبد الكريم⁽¹⁾ لم تذكر المصادر التي اطلعنا عليها تاريخ هذا العالم بل اكتفت بالقول بأنه كان إماما صالحا ماهرا في علوم شتى وكان من غرائب الدهر ولم يكن في وقته من أبناء جنسه من يستحظر الفروع الفقهية مثله كبير القدر وافر الحرمة.

يستنتج من النص عدم وجود تدقيق في المعلومات فهو يقول أنه كان إماما صالحا لم يوضح لنا المسجد الذي كان به إمام والصلاح المقصود به تصوفه ولم يحدد لنا أي العلوم التي كان ماهرا فيها هل هي العلوم النقلية أو العقلية وهو كغيره من علماء توات كان تركيزه على الفقه وفي هذا الصدد يقول المؤلف وكان من غريب الدهر وأن نباغته في العلوم الفقهية حولت له ولاية القضاء توفي سنة 1210

توات في وصف الرحالة المغاربة:

قرى تسابيت⁽²⁾:

دخلنا أول عمالة توات وهي قرى تسابيت وزرنا بأول قرية الولي الصالح للتبرك به حيا وميتا وهو سيدي محمد بن صالح المعروف بعريان الرأس تلميذ الولي الصالح المشهور سيدي أبو الرواين دفين مكناس بمغربنا نفعا الله بها وأدركنا عنايتنا وكان وصولنا لها ضحى يوم الخميس آخر يوم من ربيع الثاني وأقمنا بها ستة أيام وبعنا بها خيلنا وما ضعف من إبلنا واشترينا ما نحتاج إليه من التمر.

لكن أعراب تلك البلاد لا يأكلون طعامه ويقول عنهم هؤلاء اللصوص لا أتركهم يأكلون طعامي يستعينون به على ظلم المسلمين ومع ذلك لا يقدر أحد منهم مع عتوهم واستكبارهم على إذايته وعلى كل حال فالرجل من أهل الخير والصلاح.

(1) عن عبد الكريم بن عبد الحق، الدرّة الفاخرة، ورقة 5.

(2) تسابيت ناحية جنوب دغامشة على بعد حوالي 30 كلم من وادي الساوره وهي مجموعة من القصور منها عريان الرأس انظر مولاي بلخمي، المرجع السابق، ص 69.

وبها أنواع كثيرة من التمر ووجدنا التمر رخيص ولم نلق هناك أحدا ممن ينتسب للولاية أو صلاح ولا من أهل العلم والفلاح وغالب أهلها عوام أهل تجارة جل عيشهم التمر وبخارج البلد مرعى حسن للإبل صلحت فيه إبل الحجاج أيام الإقامة وعدد المثلقال عندهم أربعة وعشرين موزونة المثلقال الأربعيني مثلقال شريفى نسبة للأمير الشريف صاحب سجللماسة.

وصلينا الجمعة فيها أول يوم قمنا فيها وسرد الخطيب خطبة عظيمة وعظية بأهل الإسلام فأقبلوا النصيحة والسلام وحضر الخطبة رجل ممن كان معنا فى الركب فبكى بموعظته تلك بكاء كثير كان عن صدق لاستعمال فيه.

سبب إقامتنا فى هذا البلد هذه المدة أن كثير من الحجاج لما غلا صرف الذهب فى تافيلات وهى سجللماسة أخوا الصرف إلى توات فإن الذهب فيها أرخص وكذلك سعر القوت من الزرع والتمر وهذه البلدة هى جمع للقوافل الآتية من تمبكتو من بلاد أقرىز من طرف السودان ويوجد فيها من البضائع التى تجلب من هناك الشيء الكثير والسلع التى تجلب من الغرب خارج السودان نافقة فى هذه البلاد كالخيل وملابس الملف والحرير فإذا قدم الركب إليها كان بها سوق حافل ثم ارتحلنا من توات بعد ما لحق بنا جملة ممن يريد الحج من أهلها وخلفنا قرى توات وراءنا وعدلنا ذات اليسار إلى بلاد أوقروت ونزلنا بقرى الدغامشة قرب زاوية سيدي عبد الله بن طمطم البلاد ذات رمل وأن الولي من أهل الخير والدين يطعم الواردين عليه فى بلاد كاد الطعام أن يكون فيه دواء⁽¹⁾.

لكن أعراب تلك البلاد لا يأكلون طعامه ويقول عنهم هؤلاء اللصوص لا أتركهم يأكلون طعامي يستعينون به على ظلم المسلمين ومع ذلك لا يقدر أحد منهم مع عتوهم واستكبارهم على إذايته وعلى كل حال فالرجل من أهل الخير والصلاح.

(1) مولاي بلخميبي، المرجع السابق، ص 69.

أولاد محمود⁽¹⁾:

نزلنا قرية يقال لها أولاد محمود وهي من قرى الدغامشة بلاد أوكرت ارتحلنا من أولاد محمود إلى أوكرت وهي قرية كثيرة ذات نخيل جم وهي معدودة من بلاد نجوراران واشترى الناس ما أحتيج منها من الزاد إلى بلاد وركلا وادي أمقن⁽²⁾ ومعنا رجل من عرب الخنافس اكتراه أمير الكب يدلم على الطريق ومعادن المياه كثيرة في هذا الوادي قل ما يخل يوما من منهل وماؤه عذب غزير.

وجدنا أغلب المناهل قد دفناها أولاد محمد عرب توات خائفين من عدوهم ابن سعيد أن يغيروا عليهم فطمسوا ما في طريقهم من الماء لأجل ذلك ولم نزل نسير مع ذلك الوادي نزد الماء يوم بعد يوم.

قرية والن:

هذه القرية ليس فيها إلا نخلات معدودة قد يبس أكثرها وبقيت جذرات تسقى عليها الرياح وحجرات من جريد النخل مرفوعة من الأرض مقدار القامة يبس فيها تمر تلك النخل إذ لا يقدرّون على وضعه على الأرض لثلا يغلب عليها الرمل فيذهب أدراج الرياح.

لم نجد بتلك القرية إلا رجلا واحدا ومعه نساء من قريته يعولهن وهو من ذرية رجل من الصالحين اسمه سيدي محمد بن موسى مدفون في تلك القرية وزعموا أنه أول من بنى تلك القرية وأحياها وفجر ماءها وغرس نخيلها والعرب يحترمون النازل بها بحرمة ويتأثر من تعدى عليه منهم بذلك ويأتون ببعض صدقاتهم إليه.

(1) أولاد محمود لا تزال تحمل نفس الاسم وبها بلدية تعرف بنفس الاسم على الطريق نحو مطارفة.

(2) ما يزال يحمل نفس الاسم وهي الآن محطة تتوقف بها السيارات والحافلات المتجهة من أدرار نحو غرداية والمنية.

وقد وجدنا في روضته سفر من نوازل البرزلي بخط الإمام ابن مرزوق وقد أفسد القطر جانباً منه ومعه إجازات لبعض السادات القادرية بخط مشرقي وكثر تعجبنا من وصول ذلك إلى هذه القرية⁽¹⁾.

كتب سيدي محمد بن إسماعيل هذا العالم الجليل مات بتكرارين سنة 1064 / 1653 خلف كتباً كثيرة وأوصى بها لخدام الروضة التبوية وأوصى بأن يصير شخصه بصبر وكافور ويحمل إلى المدينة المشرفة يدفن فيها وعين لم بحمله نحو من ثلاثة مائة دينار من متخلفة.

دفن بتكرارين هناك إلى أن ذهب سيدي علي بن الشيخ الحفيان للحج بعد ذلك بسنين فبعثوها معه وضاع كثيراً منها وقد رأيت بعضها بالمدينة لمشرفة ورأيت زمام ما وصل منها وليس يشبه ذلك عدة كتبه وقد أخبرني بنفسه رحمه الله قبل موته بسنة لما لقيته بقيق أن كتبه تبلغ قريباً من ألف وخمسمائة كتاب والذي بلغ منها إلى المدينة المشرفة نحو مائة وسبعين سفراً ورأيت منها جملة كثيرة وهي كتب نفيسة جداً اقتنى أكثرها لما كان بمدينة أسطنبول عندما زار سيدي محمد بن إسماعيل أسطنبول قال للوزير الذي أكرمه بهذه المدينة كتب قيمة وليس لي ما أحصل به أمنيته منها فبعث إلى دلال وقال له كل ما يقع بيده من الكتب فأعرضه على هذا الشيخ فما استحسن منها فأتركه له وخذ الثمن من عندي لأربابه القليعة ثم ارتحلنا من قرية ونزلنا القليعة وهي قرية حصينة من حجر صلد في سفح جبل منقطع عنه وبها آبار كثيرة الماء ونخيل ليس بكثير وهي في طاعة سلطان وركلان وهذه القرية كان ينزل الشيخ الحاج سيدي أبو

(1) هذا المكان من الأماكن التي تزار من قبل سكان المنية حسب رواية طلابي من المنية وأن بقاء تلك المخطوطات لعلها من خزانة هذا الوالي الصالح وقد نبه العياشي لمصير مخطوطات المنطقة التي تركت للتلف نتيجة للظروف المناخية

أبو حفص بن الوالي الصالح سيدي عبد القادر بن محمد بن سليمان بن بو سباحة ويعرف بسيدي الشيخ وله حرمة وصيت في هذه النواحي خصوصا والده أبو حفص مثابر على فعل الخيرات من جهاد وحج فقد أفنى غالب عمره في التردد إلى الحرمين ولم يزل على ذلك دأبه إلى أن توفي سنة 1059 / 1649.

أبو يحيى بن محمد المنياري⁽¹⁾ 74 لم يكن من أهل توات كغيره من العلماء الذين توافدوا على توات بلجاء من خرجها فنزل تمنطيت فاتفقت الجماعة التواتية على طريق الشمال الجزائري: هو من أهم المسالك حيث يربط المدن الساحلية والداخلية في الجزائر بإقليم توات اتخذته القبائل التي تركت مضاربها في الشمال نتيجة للاضطرابات التي عرفتھا الجزائر خلال المراحل التاريخية؛ حيث يجد الباحث في كتب التراجم والأنساب المخطوطة بتوات معلومات قيمة تتعلق بأصول هذه القبائل؛ وتاريخ استقرارها بتوات.

كما سلكها مجموعة من العلماء نذكر منهم على سبيل المثال الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني الذي حل بتوات في الثلث الأخير من القرن التاسع الهجري؛ أي حسب بعض الروايات وهو ما يؤكد بقله (دخلنا توات فوجدناها دار علم وأكابر؛ فانتفعنا بهم؛ وانتفعوا بنا) لكن هذا يتعارض مع هذه الرسالة حيث يصف العلماء الموجودين بتوات بالقصور بالنسبة للجانب الديني ومحمد بن علي الباز الذي حل بها سنة 890 والديه سيدي التهامي⁽²⁾.

(1) لمؤلف مجهول، أنساب تيمي، ورقة 1.

(2) نفسه، ورقة 2.

الزوايا:

من بين الزوايا التي وردت في بعض كتب التراجم:

زاوية سيدي البكري⁽¹⁾ بتمنطيت تذكر كتب التراجم التي رجعنا إليها أن أهلها ينسبون إلى الأسرة المرينية.

زاوية الغريب المشهورة الآن بتميمون من بين الذين نزلوا بها واستقروا فيها السيد دين الله من تدلس عام 956هـ

زاوية ملوكة كانت قبل مملكتها من قبل البلاليين لمولاتنا حدية وتملكها الأخوان البلاليين⁽²⁾.

زاوية سيدي عيسى إن أهلها الآن أصلهم من فاس من قبيلة لوداي نزلوا على أولاد بفارس في سنة 856هـ وأنهم هم الذين أجروا فقارة طازوة زاوية سيدي عبد القادر فونوغيل كان مقدمها عام 1113/1705 الشيخ عبد القادر بن عمر رئيس ركب الحجيج التواقي الذي كان ينظم في الغالب إلى الركب السجلماسي المهار بتوات والزواوية في الحقيقة هي تابعة لسيدي بن عمر عبد القادر بن أحمد بن يوسف التينلافي⁽³⁾.

تراجم العلماء:

تأسيس زاوية ملوكة⁽⁴⁾:

نسب الكاتب كرامة للوالي الصالح الحاج بلقاسم الملوكي تلك الكرامة التي لها علاقة بتأسيس زاوية ملوكة وهذا الأخير اعتبر بأنه رجل علم وزهد بارع حيث قال عنه أنه لا يفترى ملازم القطب الميموني وتخلق بخلوقه ولما جاء مع إخوانه وغاب

(1) لمؤلف مجهول، أنساب تيمي، ورقة 2.

(2) لمؤلف مجهول، معجزات الأولياء وكرامتهم، ورقة 9.

(3) الشيخ باي، المرجع السابق، ج 1 ص 34 وما بعدها.

(4) ابن عبد الكريم، النبذة، ص 111.

هؤلاء الإخوان وتركوه مع أهله بملوكة قدم الميموني وذكر له طول غيبة إخوانه عنه فسكت الميموني ساعة ثم قال له يوم غد ياون إخوانك إن شاء الله فقم وبشر عائلتك بذلك ولا تخبر أحد بقولي هذا⁽¹⁾ ومن وجدته ببلدك لقبه الذكر وغدا قدم إخوانه وقال لهم نجعل زاوية على كل واحد منا خمس ماله فصار بها خمس زاويات:

الزاوية الكتنية من بين المراكز العلمية المتقدمة التي عرفتها ولاية توات وهي تشكل إحدى دوائرها دائرة زاوية كتته⁽²⁾ من أبرز علمائها مولاي عبد الله الركاني ومن بين الذين استقروا بهذه الزاوية الأشراف الثانية وهم الأولاد المباشرين لسيدي حموا بن الحاج والذين توافدوا على الزاوية الكتنية من مدينة تافيلالت ونزلوا عند مؤسسها أحمد الرقاد الكنتي ثم طابت لهم السكنى بها بما وجدوا عنده من حسن الجوار والتبجيل والتكريم وما زالت فروعهم المنتشرة في هذه الناحية وهؤلاء هم مولاي محمد جد شرفاء زاوية كتته ومولاي عبد الله صاحب قصبة مخلوف الكائنة بوادي أبي علي البرمكي ومولاي عبد المالك جد شرفاء تاخيف ومولاي أحمد جد شرفاء أضوى ومولاي أحمد جد شرفاء أبريش ومولاي الزين جد شرفاء الرقاني وبني عمومته بتافيلالت ومولاي عبد الكريم جد الشرفاء العكارمة الموجدون الآن بتطوين الشرفاء ومولاي الشريف المقبور بتاسبيت وأولاد عمهم بأولف.

مولاي حموا بلحاج قدم إلى توات سنة 1035 مع إخوانه السبعة بإرث أبيه وأبوه هذا كان يمر بقصور توات مروراً تملك الكنتي بالأوراد الزيانية المتصلة بسيدي عبد الرحمان الشريف المسعودي المشيش من أحفاد علي بن عبد السلام بن مشيش والذي انتقل إلى القنادسة منهم هو عبد الرحمان من مراکش وعبد الله الركاني اتصل بسيدي أحمد المعاصر له فأخذ عنه الأوراد الزيانية⁽³⁾.

(1) عن تأسيس زاوية ملوكة المؤلف مجهول أنساب تيمي ورقة 1.

(2) عن تأسيس الزاوية الكتنية انظر مولاي التهامي سلسلة النوات في إبراز شخصيات من علماء وصالحى

إقليم توات ج 1 ص 60.

(3) الزيانية هي نسبة للشيخ القندوسي الزياتي شيخ زاوية القنادسة التي امتد نفوذها لولاية أدرار.

تأسيس الزاوية الركانية:

هناك روايات متعددة عن تأسيس الزاوية منها الذي اشتهر وتواتر عن الخاص والعامه وشاع وذاع بين الأنام أن سبب حدوث زاوية الغوث الأكبر والوالي الأشهر مولاي عبد الله الركاني أن أباه السيد مولاي علي كان كثير التجوال والترحال من البلاد الفيلاية إلى الأراضي التكرورية وكان يمر بالأراضي التواتية في أغلب الحالات وكانت له في البلاد الركانية مغالطة مع رجال التجارة والصناعة وكان يجلب لهم من المغرب ما يحتاجون إليه فاجتمعت له في دهمهم أموال كثيرة وديون متنوعة ولعله طلبهم في أداء ما في ذمتهم فمنعه الكثير منها فتفكر فيما يفعل فأشار عليه بعض العقلاء أن يتزوج منهم وأن يصاهر كبير الجماعة وصاحب الرأي منهم ففعل وبذلك تمكن من جمع ديونه وصلحت له الفكرة ثم رجع إلى تافيلالت وترك زوجته حبلى فأنجبت له مولاي عبد الله⁽¹⁾.

ومما شاع عن إنتشار كراماته أن عبد الله الركاني زار قبر أبيه بتافيلت وإخوانه مع أبيه وصاحب معه كتابا بأحزاب ودعوات وأسرار ولعل فيه دليل الخيرات كان أبوه تركه له عند أمه وصية وأمرها ألا تمكنه منه حتى يسألها عنه وما سألها حتى بلغ مبلغ الرجال وقد أخبرته بقولها عندما قصد زيارة تافيلالت اعلم يا بني أن بيتكم من بيوت العظمة وأبوك من الأشراف العظام ومن العلماء الأعلام وأجدادك من آل عبد الله الشريف ومن في بلدة توات من يبلغ تربتكم إلا من كان من أبناء عمكم فأنتم أهل الجود والمجد فإذا وصلت بلدة أجدادك فتأدب مع الكبير والصغير والذكر والأنثى وإذا سألوكم عن علامة تدل على أنك منهم فهذا دليل جدك مولاي علي وهذه وصيته وقد أخبرني أبوك أنك ستشرق عليك شمس المعارف والأسرار وعندما زار قبر أبيه تكلم هذا الأخير من قبره وأكد نسبه ونفس الشيء حدث خلال زيارته لقبور أخرى بعدها توجه إلى مكان الزاوية حاليا وأسس زاويته على تقوى الله.

(1) عن تأسيس الزاوية الكتية وما قيل فيها من كرامات انظر عبد الرقاني المرجع السابق ص 5 وما بعدها.

كانت ترد عليه الوفود من أرض السودان والمغرب وموريتانيا ولا سيما من بلاد التكرور توفي سنة 1148⁽¹⁾.

تأسيس الزاوية:

الأرض التي أسست عليها الزاوية كانت غابة ذات أشجار مختلفة ووحوش ضاربة وهوام مؤدبة قد منعت سكانها من الإقامة بها وهي أرض متسعة مشتركة بين ثلاثة قصور يدعي كل قصر أنها من أملاكه وقد وقفت البغلة تحت شجرة عند صخرة بيضاء وما زالت الآن تلك الصخرة تعرف بحجرة السبع وهي بجانب دار المؤسس بل داره على ظهرها وكانت بجانب الشجرة أحجار كلها مقل للأسود.

1- مسلم هو الحسن أبو مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري نسبة إلى قشير بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة قبيلة كبير النيسابوري ولد رحمه الله سنة 819/204 وتوفي سنة 261 لمزيد من المعلومات انظر الحسن مسلم بن الحجاج صحيح مسلم مطبعة دار الكتاب العربية ص 144.

والنمور والحياة الزاحفة ووجد في في فروع الشجرة كما قال صاحب التبر الوقاد سجادة من جلد بها سبعة وقلنسوة ومعها عكاز مكتوب عليه هذه أمانة عومر الشيخ بن أحمد البكاي أخذناها من شيخنا محمد بن عبد الكريم المغيلي وقد تركناها في هذه الشجرة أمانة برعاية الله لمن يأتي بتعمير الأرض من أحفادنا.

شراء الأرض رجع الشيخ إلى قرية أولاد الحاج البرجة بضواحي الزاوية عند القائد يومئذ الحاج أحمد الموسوي وبعد أيام سأل عن تلك الأرض الممنوعة من السكن لما حل بها من الهوام فقليل له بأنها لأولاد أجريز ويدعيها قوم آخرون فقام إلى أولاد أحريز

(1) عن تأسيس الزاوية الكتبية وما قيل فيها من كرامات انظر عبد الرقاني، المرجع السابق، ص 15.

فطلب منهم أن يبيعوها فأجابوه واشتراها منهم بحدوده الأربعة كما هو المسموع والفاشي بين الناس ويجدها من جهة مشرق الشمس قصر عزي وغربها السبخة أو الصفية الكائنة بأرض السبخة ويمينها واد وغزر وشالها حدود قصر الغلا.

ولما اشتراها منهم قام عليه قصر عزي زاعمين أنها ملك لهم قائلين إن شئت شراؤها والى نزعناك فيها ما بقينا فاشتراها منهم مرة أخرى من غير بحث ولا نقاش ثم قام عليه أهل قصر المقاطبة يقولون أنها ملك لهم فاشتراها منهم مرة ثالثة ثم بدأ في استصلاحها بمساعدة عبد القادر بن عומר الذي أمده باليد العاملة والنفقة على العاملين مع الإعانات التي وردت عليه من جهات أخرى وبعد ما انتهى من بناء مسكنه قام ببناء المسجد الذي يعرف بمسجد الشيخ وكان المسجد قد أسس من قبل أبوه إلا أنه أضاف إليه زيادات أخرى وحسب بعد المصادر أن تأسيس المسجد كان سنة 1022 هـ وبعض الروايات تقول أنه كان في سنة 1034 هـ.

قال القاضي سيدي المختار الرقادي لما حضرت الأرض وارتفعت الأشجار ونمت الثمرات فقام أهل القصور الثلاثة المذكورة وقالوا فيما بينهم إن بقي هذا الإنسان فينا نسينا ونسيت أخبارنا فها بنا لتغضبه حتى يفارق هذه الأرض وينزل بغيرها فنشايخه ونرضيه ونخدمه كغيرنا ونستريح من مقامه بين أظهرنا وكان القوم لا يريدون وجه الله فجمعوا وقطعوا رؤوس النخيل ظلما واعتداء فسكت عنهم وفوض إلى الله أمره فلم يبق منهم بعد تمام السنة سائل ولم يبق إلا امرأة واحدة من القاطبة وقال لها يكون لك ولدا بشرط أن تسكني أرضا غير هذه فأجابته ونزلت قصر تازولت الأعلى وجاءت امرأة برضيع في حجرها وقالت لم يبق من بني حريز إلا هذا فقال لها أسكني حيث شئت بولدك غير قصركم فوالله لا يعمر إلا يوم القيامة وأما قصر عزي فلم يبق منه ذكر ولا أنثى وما زالت هذه القصور معروفة في مكانها خاوية على عروشها إلى يومنا هذا.

اشتهرت الزاوية لكتبية وفرضت سلطتها الدينية والاقتصادية على القرى المجاورة لها وتشكل هذا كله عرش عرف بعرش أولاد إلي حموا بلحاج هذا العرش عرف فيما بعد بزاوية كتنة.

بدأ عمارة الزاوية بفضل اليد العملة والأموال التي وصلتته من جهات مختلفة وبمجرد ما انتهى من بناء مسكنه أسس مسجدها المعروف بمسجد الشيخ علي بن أحمد وكثرت طلبته وقصده الناس وزاد في المسجد أضعاف ما كان أسسه أبوه وكان التأسيس سنة 1022 وفي بعض الوثائق أنه سنة ألف وأربعة وثلاثين.

كان الشيخ عالما عاملا متفتنا في العلوم متبصرا نحويا ذا إلمام بعلوم الصرف والنحو والبلاغة متضلعا في علوم اللغة العربية أصوليا نقادا عالما بالأصول والفروع والمعقول والمنقول محدثا مفسرا

طريقته العلمية في التدريس:

كان رحمه الله يرتب تدريسه إلى ثلاثة مراحل:

* مرحلة المبتدئين.

* مرحلة المتوسطين.

* المرحلة النهائية.

في المرحلة الأولى يدرس لتلاميذته ابن عاشر ومقدمة ابن رشد ورسالة ابن أبي زيد القيرواني وفي النحو الأجرومية والملحة الحريية وخلاصة ابن مالك النحوية وقسم التلاميذ إلى قسمين خصص المتفوقين بدراسة مغنى اللبيب في النحو وكان يدرس الخلاصة بشرح المكودي أو الأشموني وكان يشرح بالصریح على التوضیح حاشية وشرح لابن هاشم على الخلاصة وكان يشرح لامية الزقاق في الفقه المالكي في المرحلة الوسطى مع رسالة أبي زيد القيرواني⁽¹⁾ وكان يقرأ في علم التجويد الجزرية

(1) رسالة أبي زيد القيرواني هي مختصر في الفقه المالكي ومؤلفها هو أبو محمد عبد الله نسب لمدينة القيرواني وكانت كثيرة التداول في مراكز العلم بتوات لا تخلوا منها خزينة من الخزان.

وابن جري وفي العقائد كتب السنوسي⁽¹⁾ وجوهرة التوحيد في مصطلح الحديث البيقونية ونخبة الفكر لابن حاجر وكان له الإمام بعلم المواقيت وكان يدرس الطرفة لمحمد العربي الفاسي غالبا في مصطلح الحديث أيضا ونظم المقنع في التوقيت ونهاية المنتخب المحمود في قواعد المذهب للزقاق وشرح خليل مع السهو وألح على حفظ المتن وكان يقرأ من المختصرات الحديث النبوي كبهجة النفوس وتحليلها بمعرفة ما لها وما عليها وشرح ابن عطاء الله في التصوف وحرص كبير على الفتاوى من المعيار وتدریس لأهل النهاية تكمیل المرام في شرح شواهد ابن هشام البسط والعريف للمكودي ومختصر البرادعي في الفقه وكان يشرح لامية الزقاق بشرح القاضي عبد الله اللواتي وشرح شواهد ابن أحمد الأعمش في المساند وألفية السيوطي وألفية العراقي.

وكان يتدأ في علم الأصول بشرح الورقات للإمام الحرمين وجمع الجوامع لابن السبكي والموافقات للإمام الشاطبي وكان يحتم البخاري في كل أربعة سنين⁽²⁾.

يلاحظ على طريقته التعليمية ما يلي:

أولا أن طريقته التعليمية لا تختلف كثيرا عن ما هو موجود في أغلب الحواضر الإسلامية ومؤسستها التعليمية وعلى الخصوص ببلدان المغرب الإسلامي من حيث المناهج التعليمية والدروس التي كانت تلقى على طلبة العلم وهي تشمل كل الفنون الإسلامية المتداولة في عصره والعصور التي سبقت له لكن الجديد بالنسبة إليه أنه يقسم مراحل التعليم إلى مراحل ثلاثة صاحب النص لم يحدد لنا كم تستغرق كل مرحلة من هذه المراحل كذلك لم يحدد لنا الأسباب التي جعلته يختار بعض الكتب لمرحلة دون أخرى هل السبب في ذلك يرجع لصعوبة تلك الكتب أو لأهميتها.

(1) محمد بن محمد بن يوسف بن عمر السنوسي نسبة لقبيلة بني سنوس لكن المترجمين له يعتبرونه من الأشراف أي للحسن بن علي ولد سنة 1428/832 وتوفي سنة 1490/895 لمزيد من المعلومات عنه انظر مهدي رزق الله المصدر السابق ص 442.

(2) محمد بن عبد البكراوي المصدر السابق ص 33
عن المعارف التي كانت تدرس فكانت تشمل القرين وتفسيره علم الكلام والتصوف الفقه وأصوله السير والتاريخ والأنساب اللغة وأدبها العلوم العقلية.

يضاف إلى ما سبق أن صاحب النص لم يحسب المرحلة المتعلقة بدراسة القرآن وحفظه وتعليم الكتابة ومبادئ الشريعة الإسلامية وعلومها

وعن توزيع الوقت لا يغادر مصلاه بعد الصبح حتى يصلي الضحى كما كانت عادة كثير من أهل الله ثم يخرج ويتناول ما خف من الفطور ثم يفتح الدروس لتلاميذته إلى منتصف النهار وفي كل فصل حسب ما يناسبه من الوقت وكان يحظر مجلسه ما يزيد عن ستائة تلميذ.

يبدو لي أن الدروس كانت تستغرق كل اليوم لا ينقطع فيها الشيخ وكانت عبارة عن مجالس علمية يكون فيها الشيخ في الوسط ويلتف حوله طلابه ويبدو لي أن كثرة طلابه ربما دفعه إلى إقامة كرسي لإسماع صوته.

إنتاجه العلمي يتميز بالكتب الفقهية والتصوف والحديث والتفسير ورسائل وأجوبة عن نوازل كثيرة لكن أغلب هذه الكتب قد ضاعت لأن المسؤولين عن تلك الخزائن لم يعطوا لها العناية الكاملة ولم يفتحوا أبوابها للباحثين للاستفادة منها وبذلك قد ضاعت وضاع معها جزء هام من التراث الوطني ولا يزال الضياع لحد الآن.

مكانته العلمية: وصف من قبل الذين ترجعوا له أنه كان عالما عاملا متفنا في العلوم التي ألفت إليه قيادها فقيها متبصرا نحويا ذا إلمام بعلوم النحو والصرف والبلاغة متطلعا في علوم اللغة العربية أصوليا نقادا عالما بالأصول والفروع والمعقول والمنقول محدثا ومفسرا أنجب ثمانية ذكور وكلهم من رجالات العلم قال عنهم الشيخ سيدي المختار بن أحمد بن أبي بكر الوافي جابوا الأرض وتوطنوا بها.

مولاي عبد المالك الرقاني⁽¹⁾ أخذ رحمه الله الأوراد والطريقة عن والده مولاي عبد الله الرقاني وعن الشيخ سيدي عبد الرحمان بن زيان.

(1) مولاي الهيبة، المرجع السابق، 34.

الشيخ أحمد بن الشيخ محمد لبكاي⁽¹⁾ هو ابن الشيخ محمد المعروف بالقيرم هواو لمن عرف بالكتتي نزل فصك ومات بها في الأراضي الموريطانية وعرفت بنوه من بعده ببني الكتتي (وله فروع بموريطانية والمغرب والسودان ومالي والنيجر ونيجيريا والسينغال وغيرها من البلاد الإفريقية وهو ابن الشيخ سيدي يحيى بن العلامة عثمان الملقب دومان والثلاثة بقرية عزي من أرض فونوغيل وعثمان هذا مقبور بالقرب من مستغانم فهو من أحفاد عقبة ابن نافع وهو ابن شاعر مات شهيد يدافع عن السنة ضد الرستميين ودفن بأرض تيهرت وهو ابن عمر الملقب بورد العلم مات بأرض الزاب في معترك وقع بينه وبين الفاطميين من الشيعة عفا الله عنهم وقبره في أرض الزيبان قرب الأراضي البسكروية).

يلاحظ على النص ما يلي:

أولا أن الكاتب جاء بنسب الكتتيين وربما أخذه من المؤلفات الكتتية وما أكثرها وبين لنا أن الكتتيين موزعين على أجزاء من بلاد إفريقيا غربها وشمالها وشرقها وهذا مؤكدا بالنصوص المتوفرة لدينا لكن ما يتعلق بنسب هؤلاء إلى عقبة بن نافع فالمصادر المتوفرة لدينا أيضا تشير إلى أن أبناء عقبة بن نافع قد استقروا في المغرب الإسلامي.

ثانيا أن حروب هؤلاء ضد الرستميين لم تؤكد المصادر الإباضية وهنا يتساءل الباحث مع من كان هؤلاء هل مع الأغلبة أو مع الأدارسة لأننا نجد بالقرب من تيهرت قلعة شاعر وهل هذا هو المقصود بالرواية أم لا

وفي منطقة الزاب تناولت الرواية حروب أبناء عقبة ضد الخلافة الفاطمية وما هو معروف لدينا أن الحروب التي وقعت في تلك المنطقة كانت بين الزناتيين والفاطميين سواء خلال ثورة صاحب الحمار أو بعدها أو قبلها وهنا نحن في حاجة إلى مصادر مؤكدة تشير إلى الموضوع حتى يمكن الأخذ بالرواية.

(1) مولاي الهيبة، المرجع السابق ص 35.

والرواية التي جاء بها مولاي الهيبة حسب ما ورد في الكتاب هي من كتاب كشف النقاب عن أخبار عقبة المستجاب لسيدي عبد المؤمن الرقادي وهذا الأخير اعتمد فيها على تراث الرقادين خاصة المخطوط منه.

مولده: ولد هذا الشيخ الجليل سنة 968 بواد نون⁽¹⁾.

شيوخه: تلقى الدراسة الأولى على أبيه وهو قراءة القرآن على طريقة ورش وقالون ومبادي العلوم الدينية والطريقة القادرية ثم جددها عن عم أبي سيدي المختار الشيخ بن عمر الشيخ ومن تلك المؤلفات التي درسها عن أبيه رسالة أبي زيد القيرواني ومختصر البردعي وكتب ابن رشد ومختصر الشيخ خليل وتحفة الحكام لابن عاصم وتبصرة الحكام لابن فرحون المالكي ومقدمة ابن جروم وقرأ عليه الألفية والشافعية وكلها لابن مالك وتلخيص المفتاح في علوم البلاغة أجازة أبوه في النحو والصرف.

كما قرأ عليه جمع الجوامع وموافقة الإمام الشاطبي في علم الأصول عن عمه سي المختار وهو الذي أكمل تربيته بعد أبيه أجازة في موطأ الإمام مالك وصحيح البخاري كما أجازة ابن عمه سيدي الأمين الأزرق.

رحل إلى فاس وأخذ بها علوم الحديث وقواعد التفسير وعلوم القرآن وقد أجازة في علوم القرآن ومصطلح الحديث علماء ولادة وشنقيط.

علي بن أحمد الرقادي⁽²⁾ ولد ﷺ بالزاوية الرقادية عام 1008 من الهجرة انتهى من حفظ القرآن وهو ابن إحدى عشر سنة على يد أبيه لأنه كان يباشره في التعليم وتحفيظ القرآن بنفسه بالزاوية الكتبية في بداية أمره على ما كان عليه من العلوم الأخرى وأخذ

(1) البكراوي، النبذة، ص 78.

(2) نفسه، ص 78.

مبادئ الفقه عن أبيه أحمد الرفادي قرأ عنه مختصر الأخضرى ورسالة ابن أبي زيد القيرواني ومختصر البرادعي ومقدمة ابن رشد وبداية المجتهد ونهاية المقتصد لابن رشد الحفيد أيضا وعلوم النحو والصرف وقواعد التجويد.

رحل إلى فاس وأخذ عن علمائها علوم القرآن والحديث وعلم أصول الدين والفقه وعاد من فاس إلى الزاوية يحمل شهادات عالية من مشائخ المدرسة الدلالية ومن أجازها بها الإمام ابن علي أبو رحال العدني المكناسي عندما عاد إلى الزاوية درس بها إلى جانب أبيه ثم بعد ذلك ورد قوم من السودان وبالتحديد من تكرر طلبوا من أبيه من يعلمهم دينهم فأذن له بالانتقال معهم إلى بلاد تكرر ونزل بتمبكتوا عند البراييش وفتح لهم مدرسة وكان أكثر تلاميذته من النيجر ونيجيريا وقد أسلم على يديه خلق كثير من الكور والزمره والهوسة.

مكث الشيخ عشر سنين ثم عاد إلى الزاوية فوصلها في وفد هام من السودان والأعراب القاطنين بها ولازموا الشيخ برسم الصحبة والأخذ عنه قلده أباه الأوراد القادرية ووكله التفويض على الزاوية والانفاق على الطلبة ومكنه من قواعد التصوف. كان ﷺ ذا صيانة وديانة وكان أحرص الناس على التعلم والتعليم وكان يأمر من يلقاه بتعليم الأهل والأولاد والخدم والعبيد.

اتسعت الزاوية الرقانية في عهده فأقبل عليها طلبة العلم وقف لصلح الطلبة أجنة وبساتين كانت تقدر غلتها بسبعين حمل من القمح والقناطر المنقطرة من التمور.

علمه كان ﷺ كما نعتة الشيخ المختار الكبير عالما علامة متفنا فقيها فرضيا معدوم للفتوى مفتاحا للمشاكل الفقهية متضلعا في علوم العربية نحو وصرف وأدب وكانت له اليد الطولى في علوم البلاغة وفي علم أصول الفقه وعلوم الحديث والتفسير وكان مهتما بعلم التاريخ وحضارة الأمم.

الأسرة البكرية:

من بين الأسر العلمية في إقليم توات نجد الأسرة البكرية التي تعتبر من أقدم الأسر العلمية التي كان لها تأثير كبير في تمنطيت أو غيرها من المدن الأخرى التي تندرج الآن ضمن ولاية أدرار.

عمر بن سيدي محمد بن سيدي عمر البكري⁽¹⁾ ينسب حسب الرواية التواتية إلى العلويين الحموديين الذين استقروا ببلاد المغرب والأندلس وأقاموا لهم دولة بالأندلس كانت عاصمتها الجزيرة الخضراء جنوب الأندلس خلال عهد ملوك الطوائف بعد سقوط الخلافة الأموية بالأندلس وتوزع هؤلاء بعد سقوط دولتهم على يد المرابطين في مناطق المغرب الإسلامي ومنها أراضي الدولة الجزائرية حديثا.

سكن مدينة فاس وهو من بين علمائها الأجلة تميز بغزارة علمه ورجاحة في العقل.

أسباب خروجه من فاس إلى توات:

إنه لما أتم الله عليه النعمة أشار عليه بعض المقرين الخروج على السلطان وإقامة دولة أخرى بقيادته وأظهروا له كامل التعاون والسند وأمنوه من المخاوف والمزالق. لكن الشيخ رحمه الله ابتعد عنهم وطلب السلامة وفي نفس الوقت كان أمير المغرب يعلم قدرة الشيخ في نفوس العامة وتخوف منه أشد الخوف ومكر له مكر خفيا فعلم الشيخ بذلك وعاد عليه الكرة أولئك المرادون وعرضوا عليه أمر المبايعة وعندما اشتد الأمر عليه لم يجد إلا الفرار فاختر توات ومن الصدف أن نزل في هذه المدة من أهل تمنطيت في هذه المدة رجل يدعى ذكر بن يحيى وكان رئيس قومه وسيدهم فأظهر للشيخ الورع والزهد والثقة والوفاء فما كان منه إلا أن وضع بين يديه مالا وفيرا وطلب منه أن يبيء له مسكن في تمنطيت حتى يفيد عليه وهو في غاية الاطمئنان.

(1) الرقادي، المرجع السابق، ص 78.

نستنتج من النص الذي بين أيدينا ما يلي:

أن الشيخ يبدو أنه طمع في إقامة دولة له بالمغرب الأقصى على أنقاض الدولة المرينية التي كانت قد وصلت إلى مرحلة الضعف نتيجة النزاع بين أفراد الأسرة الحاكمة مثلها مثل بقية دول المغرب الإسلامي المعاصرة له وكانت له الامكانيات للقيام بهذا العمل نتيجة لنفوذه داخل الرعية حسب النص لكن الحقيقة أن الرعية خلال هذا العصر لم يكن لها نفوذ يذكر وأن الذين كانوا يقررون أما رجال الطرقية الذين لهم تأثير في اوساط المجتمع اوشيوخ القبائل دوي النفوذ خلال هذا المدة ولدا ربما عدم وجود دعم من هؤلاء هو الذي جعله يتخلى عن المشروع وليس زهد في الحياة كما ورد في النص.

وأن اختيار لتوات جاء نتيجة لدراسة مسبقة لأنها بعيدة عن مراكز القرار لأنه يبدو لي أن السلطان المريني كان على علم بذلك ولدا خرج قبل إلقاء القبض عليه وهناك إشارة في النص تؤكد ذلك ولا يمكن له أن يتوجه إلى منطقة معينة إلى بعد وجود هذا التأييد من طرف أهل الحل والعقد بها ولذا عندما علم بوجود وفد من تمنطيت اتصل به وضمن تأييد هؤلاء له عند وصوله.

لكن التأييد لم يتم لأن صاحب النص يقول أن هذا الشيخ بعد أن أخذ المال نكر الشيخ ولم يؤدي ما طلب منه وهو ما يتأكد من النص الذي يقول صاحبه أنه بعد ما دخل توات ونزل عند بعض أحبه ببلد تيمي ثم بعد ذلك انتقل إلى تمنطيت فنزل بقصر عمر ويوسف ففرحت به قبائل تمنطيت غاية الفرح وعندما جاء الشخص الذي سلمه المال في فاس أنكره وخرج غاضبا من تمنطيت إلى بلد الساحل فعرضت عليه قبيلة أولاد محمد من تامنطيت وناشدوه السكنى معهم فقال لهم لقد خرجت وصح عزمي ولما أثقلوا عليه بالالحاح خلف معهم ابنيه سيدي ميمون وسيدي التهامي وأعطوهم فقارتين شرق تمنطيط معروفتان إلى اليوم.

نستنتج من النص ما يلي:

أن الشخصية التي رأى الشيخ أنه يمكن اعتمادها في وجوده بتمنطيت خاتته وأنكرت اتصاله بها وهذا ربما يرجع إلى سببين أساسيين:

أولهما أن هذا الشخص عندما حصل على هذا المال الوفير استغله لنفسه ولم يعترف بأنه للشيخ الجليل وهذه عادة شيوخ القبائل في هذا العصر الذين تميزوا بعدم الثقة واغتصابهم أموال الغير.

أن الشخص خشي أن يصيبه مكروه من السلطان لأن هذا العالم الجليل اتهم بالخروج عن السلطان وفراره لتوات خوفه من القصاص.

وأما حب الناس له فيرجع بالدرجة الأولى إلى نسبه الشريف تبخره في العلوم وهذه الصفات كانت مقبولة من طرف السكان في ذلك العصر والعصور الموالية له.

عدم بقاءه في أولاد محمود أن الشيخ كان يركز على تمنطيت لأنها العاصمة السياسية لإقليم توات والعاصمة الثقافية ولذا حاول أن تكون مقرا له.

ثم واصل الشيخ رحلته فوصل إلى بلاد الساحل ناحية رأس الماء وأولاده هناك يعرفون بالحاجب وقد توفي صاحب الترجمة في الرابع عشر من شوال 826هـ.

اختياره لهذه المنطقة يرجع بالدرجة الأولى إلى الحماية التي يمكن أن تقدمها له الدولة الزيانية لأن رأس الماء يندرج الآن ضمن ولاية سيدي بلعباس وخلال تلك الفترة كان ضمن ولاية قلعة بني راشد الزيانية.

سيدي ميمون بن عمر 890⁽¹⁾ ولد رحمه الله بفاس وبها نشأ وتعلم على علمائها ومن الشيخ الذين تتلمذ عليهم أبوه والشيخ ابن غازي وهو من بين العلماء الأجلاء في عصره.

(1) البكراوي، النبذة، ص 106

قدم إلى توات مع أبيه كان أول نزول له مع أبيه في تمنطيت ثم استقر في أولاد محمد بالقرب من المطارفة ومنها اتصل بالعالم الجليل أبو عبد الله العصنوني الذي كان قاضيا بتوات خلال تلك المدة فتزوج ابنته.

هو أول من أدخل صحيح البخاري إلى توات بعد عودته من فاس وأصبح الكتاب من أهم الكتب التي كان لها الاقبال الكبير فدراسة الفقه المالكي بتوات تقام احتفالات عند ختمه⁽¹⁾ توفي رحمه الله في أوائل ذي الحجة 890.

أحمد بن ميمون بن عمر⁽²⁾ ولد رحمه الله في تمنطيت وبها تعلم ونشأ اشتهر بكرمه فكان يدفع المال للفقير والمسكين فزاد حب الناس إليه وكثر المادحين لأعماله فكثر حساده فضاقت عليه الأرض بها رحبت وهو ما دفع به إلى الهجرة نحو الشمال حيث يوجد ضريح جده وما بقي من أفراد العائلة التي استقرت برأس الماء وعندما دخل على أحد أعمامه وهو أبو الفضل لم يشجعه على الاستقرار برأس الماء بل طلب منه العودة لتوات وقاله (كفاك الله كيد أعدائك وأورثك أرضهم وديارهم وأموالهم ويقال له أنه أعطاه خبزة وعكاز وخرج من عنده راجعا إلى توات مكرها طائعا)⁽³⁾.

نستنتج من النص أن الصراع بين العلماء في هذا لوقت كان على أشده وما حدث للشيخ المغيلي حدث لهذا العالم الجليل الذي ترك توات واتجه إلى الشمال وهو عكس المغيلي الذي انتقل إلى السودان كذلك يشير النص إلى العلاقة بين توات ومدن الجزائر الشمالية ومنها ناحية أم عسكر التي بدأت تتشكل بها مراكز علمية.

(1) البكراوي، النبذة، ص 107.

(2) نفسه، ص 104.

(3) نفسه ص 106.

فلما كان اليوم السابع من رحلته ركز العكاز ستره ليصلي الظهر والقافلة سائرة فنزلت السترة في الأرض فلما أتم صلاته تفقد سترته فإذا تحتها تابوت كبير مملوء بالذهب مدفون في الأرض فنادى على خادمه واستخرج الذهب من الأرض وعندما خاف الخادم من اكتشاف الرفقة المال أنهم سيقتلونهم لا محالة فقال له لا تخف إن الأمر رباني⁽¹⁾.

يلاحظ على النص أيضا العلاقة التجارية بين الأقاليم التلية من بلاد المغرب الإسلامي وإقليم توات لأن العالم الجليل خرج برفقة إحدى القوافل التجارية لأنه لا يمكن قطع المسافة بين هذه الأقاليم دون مرافقة القوافل وهو ما يتأكد من كتب الرحالة.

وأن حصوله على الذهب يندرج أيضا ضمن كرامات عمه لأنه هو الذي سلم له العكازة وقال له سيكون لديك مالا كبيرا فالكرامات كانت منتشرة خلال تلك الفترة التاريخية.

(فلما علمت الرفقة بالأمر هموا بقتلها وأرادوا بهما شرا فهربا مجتهدين هائمين في الليل حتى رأى أرا في مكان بعيد فقصدها فإذا هي قافلة كبيرة وعندما أخبروهم بما أصروا عليه ساروا في طلبهم وتمكنوا من القضاء عليهم وتخليص أموالهم منهم ثم أوصلوهم إلى بلهما توات)⁽²⁾.

فالملاحظ على هذا النص الصراع الذي كان يحدث بين القوافل التجارية لأن تلك القوافل كانت مجهزة بفرق عسكرية تحمي تلك القوافل عند توجهها إلى توات وفي بعض الأحيان تكون الحماية من القبائل التي تتجاز مضاربها مقابل تقديم ضريبة المرور لها مثل ما كن يحدث بالنسبة لمنطقة الهوقار فكان التوارق يفرضون على القوافل ضرائب تتمثل في المواد التي كانوا يحتاجون لها.

(1) البكراري، النبذة، ص 107.

(2) نفسه، ص 106.

عندما حل بأولاد محمد وجدهم يعيشون في ضيق نتيجة للصراع الذي كان بين هؤلاء وأولاد يعقوب فقدم المساعدة لأولاد محمد تمكنوا من تحقيق الانتصار بعدها توجه إلى زيارة الشيخ المغيلي الذي استقبله وولاه الخطبة بالمسجد توفي رحمه الله سنة 920.

عبد الحميد بن أحمد بن ميمون⁽¹⁾ ولد رحمه الله بتمنطيت لم يكن غنيا كأبيه بل كان يعيش مما يقوم به من عمل وهو نسخ المصاحف حيث كان يبعث بالمصاحف التي ينسخها إلى سلطان السودان وكان هذا الأخير يرسل له الأموال توفي رحمه الله سنة 997.

محمد بن أحمد بن ميمون⁽²⁾ لا نعرف تاريخ مولده لأن الذين ترجموا له اكتفوا بوصف شخصيته فقالوا عنه كان رحمه الله من العابدين القانتين كثير الاجتهاد عدلا مرضيا فقيها ربانيا.

شيوخه تتلمذ على شيوخ أجلاء منهم محمد بن محمد بن أبي القاسم الذي وصفه في إجازته بقوله الفقيه الحسيب الأصيل أبي محمد وكان رحمه الله في عدله وورعه يضاهي من سمي عليه وهو الشيخ أبو محمد صالح.

كما تتلمذ على عبد الحميد بن أحمد وعن الشيخ القاضي سالم بن محمد بن أبي بكر العصنوني وقد تزوج بنت أبي سالم العصنوني.

يلاحظ على النص أن العائلات العلمية في توات كانت تتصاهر فيما بينها وهذا يلاحظ على أغلب تلك العائلات وهو يرجع بالدرجة لوجود قواسم مشتركة بين تلك العائلات تتمثل على الخصوص في العلم الأخلاق الإسلامية الحميدة توفي رحمه الله ليلة الأحد آخر يوم من المحرم عام 1000

أحمد بن أبي محمد بن ميمون⁽³⁾ لم نعرف تاريخ مولده لأن الذين ترجموا له اكتفوا بذكر وفاته.

(1) البكراوي، النبذة، ص 109.

(2) نفسه، ص 110.

(3) نفسه، ص 110.

شيوخه: تلقى التعليم الأول بمسقط رأسه بتمنطيت على أفراد العائلة وفي المدرسة التمنطية.

توجه إلى فاس للأخذ على علمائها الأجلة فتفقه على يد العالم الجليل المنجور الذي كان من أبرز علماء فاس في ذلك العصر تخرج على يده مجموعة من طلبة العلم وكذلك أبو عبد الله محمد بن مجبر الذي أخذ عنه العلوم القرآنية كالقراءات السبع والتجويد كما تلقى العلم على تلميذ بن غازي محمد العدى وشيخه في الحساب والهندسة سيدي يعقوب البدرى وحسب الذين ترجموا له أنه أخذ عن أربعة وعشرين شيخا من العلماء المعتبرين من مدينة فاس.

نلاحظ على هذا النص أن فاس كانت في أغلب الأحيان هي قبلة التواتين وبذلك تمكن هؤلاء من نقل المعارف التي كانت سائدة في هذه الحاضرة الإسلامية التي كانت قبلة أيضا لعلماء آخرين من السودان الغربي والمغرب الأوسط ومن الذين درسوا فيه من الجزائريين مجموعة كبيرة منهم على الخصوص الونشريسي وابنه وابن شقرون وغيرهم.

كثرة هؤلاء الشيوخ وتنوع المعارف جعل منه من أكابر علماء عصره وصفه بالعالم الجليل وهو ما يتأكد من وصف معاصريه له قال عنه سيدي عبد الكريم في رحلته (هو العالم الرباني والعامل النوراني له اليد البيضاء في علوم الإسلام والدراية الفائقة في القراءات والحساب وأما في النحو فلا يشق له غبار مع التواضع الوافر والصلاح الظاهر مع الاشتغال بها يعني ومجانبة ما لا يعني وملازمة الأوراد في الخلوات وزيارة الأولياء في المهمات والأحياء)⁽¹⁾.

يتجلى من النص العلوم التي برع فيها والتي تلقاه عن الشيوخ الذين أخذ عنهم وعلى الخصوص في فاس وهي المعارف التي كانت تدرس بفاس خلال عصره ويبدو لي أنه قام بتدريسها عندما رجع إلى مسقط رأسه.

(1) البكراوي، النبذة، ص 111.

كذلك يلاحظ على النص أنه كان من بين رجال الصوفية ويبدو لي أنه أخذ دروس التصوف في فاس على العلماء الذين كانوا هناك ولم يشر إلى أسمائهم.

وهناك نص آخر أوسع من الأول يوضح لنا فيه العلوم التي اشتهر بها فيقول (هو الشيخ النحوي أبو عبد الله شيخ المشائخ في الحديث بوقته كان مقبلا على ربه مشاركا في العلوم اللسانية والفقهية أعجوبة الزمان يحفظ صحيح البخاري حفظا متقنا وأمهات المذهب المالكي كالمدونة وابن الحاجب وابن المراز ويكتب بعض الكتب في شرح هذه الأصول⁽¹⁾).

فالكتب الواردة في النص هي الكتب التي تكثر مخطوطاتها بالخزائن التواتية.

كان من بين العلماء التجار حيث تذكر المصادر التي رجعنا إليها أنه تخلص من مهنة القضاء وتولى النشاط التجاري وقال قولته المشهورة (يحاسبني الله عن ألف قنطار أيسر من أن يحاسبني عن قضية فاصلة بين اثنين)⁽²⁾ توفي رحمه الله في بلاد أقدر من أرض السودان ليلة الاثنين 27 خلت من ذي القعدة 1008

عبد المهمين بن أبي محمد بن أحمد بن ميمون لم يذكر الذين ترجموا له شيئا عن تاريخ مولده بل اكتفوا بالقول هو الشيخ البطل لهام كنز الشريعة والعقيدة تتلمذ على محمد محمد بن أبي القاسم الحسني وأجازه رحمه الله عام 982 اشتغل بنشر الإسلام في السودان وتوفي به سنة 1008

عبد الكريم بن محمد بن أبي محمد التواتي⁽³⁾ ولد رحمه الله بتمنطيت عام 944 وبها تلقى الدروس الأولى على شيوخها وعلى الخصوص والده سيدي محمد وقال عن نفسه في كتابه الرحلة في طلب العلم أن أول استفادة استفدتها من أبي قوله لم حرف

(1) البكراوي، المرجع السابق، ص 111.

(2) نفسه، ص 112.

(3) نفسه، ص 113.

جزم فحفظتها ولم أفهم معناها وعن القرآن قال وقرأت عليه القرآن إلى سورة الأعراف ومن الشيوخ الذين تتلمذ عليهم الشيخ قدورة الجزائري⁽¹⁾ الذي زار توات وأخذ عنه مجموعة من علمائها الأجلة وعبد الحاكم بن عبد الكريم الذي درس عليه مجموعة من المعارف وعبد الرحمان بن علي السجلماسي وأبو زيان التلمساني وأحمد بن بومعزة وغيرهم وفي الفقه تتلمذ على سعيد المقرئ فقد أخذ عنه رجز ابن بري شرحا وفهما في قراءة نافع واستفاد منه ما أشكل عليه في الفرائض والحساب.

ومن أشياخه سيدي عبد الصمد بن عبد الرحمان فقرأ عليه مختصر خليل من أوله إلى فرائض الصلاة ومن البيوع إلى قوله وما يدل على الرضاء في أثناء الخيار.

ومن أشياخه محمد عبد الحكم بن عبد الكريم الجراي أخذ عنه في العام العاشر ويحكى عن نفسه في كتاب الرحلة ولما التقيته وسلمت عليه قال لي في كتاب تقرأ فقلت له في ألفية ابن مالك فقال لي أين بلغت فقلت له الموصول قال لي أنت موصول إن شاء الله

ومن جملة ما أخذه عنه الأجرومية بالكامل ومختصر خليل من وله إلى آخره وصدرا من التفسير وأبوابا من البخاري وقرأ القرآن عليه بحرف نافع إلى أثناء سورة الفرقان والمقدمة للسنوسي والدرر اللوامع ورسالة ابن أبي يزيد القيرواني وكل هذا مذكور في إجازته له رحمة الله عليه.

ومن أشياخه سعيد بن حمودة الجزائري التقى به في مدينة بني عباس⁽²⁾ وكان الفضل في معرفته يعود إلى شيخه الحسن بن أحمد بن أبي الشريف الحسيني.

فلما لقيه سيدي السعيد قال له (لا أدخر عنك ما في الصدور ولا ما في السطور فمتى أردت شيء من كتبني نخرجه لك تطالع فيه) لا أعرف المدينة التي تلقاه فيه هل

(1) أبو عثمان سعيد قدورة من أبرز علماء مدينة الجزائر تفقه بالجزائر ورحل لتلمسان ودرس على أبي عثمان سعيد المقرئ ثم عاد إلى الجزائر ودرس بالجامع الأعظم توفي سنة 1656/1066.

(2) مدينة بني عباس المقصود بها بني عباس التابعة لولاية بشار.

بني العباش البشارية أو قصر يقع في توات كما يلاحظ أيضا على النص أن الشيخ سعيد قدورة كان يحمل كتبه معه لذا قال لطالبه أنه يمكن إعطائه الكتب للاطلاع عليها متى شاء.

كما يوضح صاحب النص أن هذا لعالم الجليل كان يريد التوجه لتلمسان للأخذ عن علمائها وفي هذا الصدد يقول "ومن بين الأمور التي وقعت له أو لما حضر درس أبي الفرج سيدي السعيد كانت عزمته الرحلة إلى تلمسان ووجده يدرس في الرسالة عند باب النفقات فجلس عنده حتى فرغ فوجده يقتصر على القلشاني وابن ناجب فغير ذلك خاطره وعزم على الرحلة إلى تلمسان لكن الشيخ تفرس ما حاك بخاطره فقال له حين فرغ من درسه يا فلان ها نحن اشترى ما رأيت اتفقت أهل الفن أنه لا يترك المحقق للمظنون وذلك أن قراءتنا هذه محققة أن تصيها وقراءة تلمسان قيل تصيها وقيل لا تصيها وقيل تشتغل عنها بعد وصولها بطلب المعاش أو النسخ أو العلائق وأنت هنا من كل ذلك بريء وإن لك من الناصحين واختر لنفسك ما شئت فانقل رحمه الله عن تلك العزيمة ولازمه أيده الله".

اختصر له كتاب العيون تاغامرة على خفايا الرامزة على الخزرجية من وضع الدماميني.

تولى رحمه الله المحكمة الشرعية بالديار التواتية سنة 1022 وكان يعرف بعالم توات حسبما ذكره أبو سالم العياشي في رحلته فأصبح حاملا لواء النص والقياس⁽¹⁾.

ومن بين الذين وصفوه من التواتيين الشيخ سيدي البكري الذي قال عنه العالم الهمام النحوي اللغوي البياني الحسابي الفرضي الأصولي العروضي الفقيه المتحدث الجامع بين المعقول المنقول رواية ودراية.

وقال عنه صاحب الدرة الفاخرة⁽²⁾ كان إماما عالما عادلا متفنا في علوم شتى كبير القدر وافر الحرمة تولى القضاء وانتهت إليه الرئاسة.

(1) العياشي، الرحلة، ص 22.

(2) الدرة الفاخرة، ص 113.

تلاميذته تخرج على يديه طلبة أجلاء منهم ابنه الشيخ محمد بن عبد الكريم وأحمد بن يوسف التتلافي ومحمد بن علي الوراق.

تأليفه: غاية الأمل في إعراب الجمل وهو شرح على لامية ابن المجراد، تحفة المجتاز إلى عالم الحجاز، شقائق النعمان فيما جاوز المائة بعد زمان، سفينة النجاة بأهل المناجاة، الرحلة في طلب العلم، توفي رحمه الله يوم الاثنين 23 شوال 1042 الموافق 1622. الحاج محمد بن سيدي عبد الكريم بن أحمد⁽¹⁾ لانعرف تاريخ مولده لأن الذين ترجموا له اكتفوا بتاريخ وفاته.

شيوخه: تلقى تعليمه الأول في مسقط رأسه بتوات وكان من بين شيوخه أبيه، كما تتلمذ على علماء الحرمين الشريفين خلال رحلته للحج وهو ما يؤكد صاحب النص بقوله (هو الأوجه النزبه والبحر الزاخر والحظ الوافر محي الدائر من سنن الأوائل وأواخر الشيخ الإمام عالم أعلام أخذ عن والده وعن أعيان علماء الحرمين)⁽²⁾.

يبدو أنه مكث في الحرمين مدة من الزمن وعندما علم بوفاة أبيه عاد إلى توات واستقر بتمنطيت وكان من أبرز العلماء بها وهو ما جعل السلطان المغربي ويبدو أنه من السعديين عندما نزل توات اتصل به لأهميته بالنسبة لتوات وهو محمد بن الشريف وقد ولاه القضاء بها عام 1055

ومما يذكر من أخباره أن الرحالة أبو سالم العياشي لما علم به التقاه لقصد امتحانه في معارفه فبدأ يسأل المسألة بعد الأخرى والكتاب بعد الآخر حتى قال له العياشي ما بقي لنا إلا علم العروض فإني لم أسألك فيه فقال رحمه الله ما رأيك لو أمهلنا الأمر إلى الصباح.

وخلال نومه وقف له أباه واطلعه على علم العروض وفي الصباح تمكن من تحقيق النصر في هذا العلم وبذلك بين للعياشي بأنه من العلماء وأن هذه الامتحانات

(1) الشيخ باي المرجع السابق ج 1 ص 57.

(2) المقصود به الحرم المكي والمسجد النبوي الشريف.

والمناضرات كانت تتم بين هؤلاء العلماء عندما يقدم أحدهم إلى منطقة يقوم بمناضرة علمائها حتى يمكن أن يبين لهم أهميته كعالم جليل ويكتشف العلماء بتلك المنطقة توفي رحمه الله سنة 1092.

البكري بن عبد الكريم 1042⁽¹⁾ ولد رحمه الله في الثاني عشر من رمضان سنة 1042 وذلك بعد وفاة أبيه بأربعين يوما عاش في كفالة أخيه سيدي الحاج أحمد لقاضب بن عبد الكريم.

شيوخه كان من بين الشيوخ الذين تلقى عليهم العلم أخيه الحاج أحمد الذي استفاد منه في علوم النحو وغيره من المعارف وعندما التقى بالشيخ يدر التيطافي بين تانمطيط والمنصورة سأله عن اسمه وبعد معرفته قال له لأذهبن بك إلى حيث تكون فأخذه إلى واحد من الذين تتلمذوا على أبيه وهو محمد بن علي النحوي الوراقوني المنشأ التمنطيطي الأصل بزاوية سيدي أعمروا بأقروت فوضعه إمامه فقال له جئت بك به لتفعل معه ما فعل معك أبوه فقال له جزاك الله عني وعن شيعتي وابن شيعتي خيرا فبالغ الشيخ في إكرامه مكث عنده مدة من الزمن حتى تمكن من الحصول على مجموعة من المعارف أجازة فيها بعد ذلك.

وأما طريقة التصوف فقد أخذها عن الشيخ محمد بن عمر البلدي.

رحل إلى مراكش وفاس بأرض المغرب الأقصى فتتلمذ على علمائها الأجلة وبعد هذه الرحلة عاد إلى مسقط رأسه وبعدها انتقل إلى مدينة الجزائر بطلب من سعيد قدورة وظل في الجزائر إلى أن توفي سعيد قدورة سنة 1076 بعدها عاد إلى توات وبعد مدة انتقل لزيارة الأماكن المقدسة فتوقف بتونس وأسس بها زاوية لا تزال لحد الآن بعدها توجه إلى طرابلس ومصر وفي هذه الأخيرة التقى بالشيخ أبو عبد الله الخرشبي مفتي المالكية بمصر فأخذ عنه وعندما عاد إلى الجزائر بعد أدائه فريضة الحج أسس بالزاب الزاوية البكرية ثم قصد توقرت فمكث بها ثلاثين سنة بعدها عاد إلى توات فتولى القضاء بها سنة 1092.

(1) الشيخ باي، المرجع السابق، ج 1 ص 120.

تخرج على يديه مجموعة من التلاميذ من بينهم سيدي ناجم والشيخ سيدي محمد الأدواعلي الذي أخذ عنه في العلن والسر وكذلك ابن ناصر الدرعي توفي رحمه الله سنة 1133.

محمد الصالح بن الشيخ البكري هو محمد الصالح بن الشيخ البكري بن عبد الكريم بن محمد لا نعرف تاريخ مولده لأن المترجمين له اكتفوا بتاريخ الوفاة 1139.

وصف من قبل الذين ترجوا له بأنه كان عارفا بأصول الدين والسنة حاضرا مع الله ملازم المطالعة عابدا زاهدا إماما حجة ورجلا فاضلا وسيدا عادلا ثقة من العلماء المخلصين ومن الأخيار المتقين ومن العلماء العاملين معروف بالحكمة والدهاء واليقظة والفطنة متميز بكثرة علمه وسعة صدره مشغلا بالعلم والتعليم مدرسا مفيدا فالنص يحتاج إلى توثيق علمي فهو يذكره من أهم العلماء في عصره ولم يذكر لنا الشيوخ الذين تتلمذ عليهم حتى نعرف العلوم التي تلقاها منهم واكتفى المترجم بأنه درس على أبيه في تمنطين وعندما تم دراسته انتقل إلى توقرت وفي توقرت تولى دراسة كتاب الغزالي علوم الأحياء بجامعةها.

وذات مرة خلال دراسته دخل عليه حاكما من حكام المدينة والمقصود به أحد سلاطين توقرت فأبطل هذا الحاكم الدرس وتفرقت الحلقة ومات ذلك الحاكم بدعوة الشيخ في اليوم التالي غدرا تميز أيضا بالعزلة فهو من رجال التصوف توفي رحمه الله ببلدة توقرت سنة 1139.

عبد القادر بن سيدي البكري هو عبد القادر البكري بن عبد الكريم لم نعرف مولده كغيره من العلماء لأن النصوص التي رجعنا إليها اكتفت بالوفاة والوصف فقط فتمد وصف هذا العالم الجليل بأنه كان شيخا ناسكا عابدا مرضيا خيار عباد الله الصالحين والعلماء العاملين مطبوع على الخير وحسن النية قرأ العلم على شيوخ مصر.

رحلته إلى المغرب بعثه أباه إلى سلطان المغرب مولاي إسماعيل الشريف فوصل إلى بساط السلطان بنعله فنهره بعض الوزراء فقال له الملك دعه فإنه كريم ابن كريم سكن رحمه الله أقسطن من أرض قرارة وكان يتصرف في تلك النواحي بالنيابة عن أبيه الذي كان قاضي توات توفي عام 1142

البكري بن عبد الرحمن بن الطيب كان عالما متضلعا في الفقه واللغة والنحو وعلم العروض وعلم الموايرث فهو من تيلان أصلا ومن زاوية الشيخ البكري مسكنا ودارا يقال أنه إذا سئل عن مسألة يقول للسائل تريد الجواب نظما أو نثرا لأنه كان بحرا فياضا زاخرا له مؤلفات عديدة له أرجوزة في التوحيد والفقه والأخلاق سماها الأولويات وجعل عليها الشيخ باي شرحا سماه المباحث الفكرية في شرح على الأرجوزة البكرية يقول في بدايتها يقول من باسم الإله يبتدي وبالمحامد له في الأبد

محمد نجل عبيد الرحمان لقبه البكري على الأوزان

ثم يقول:

أرجوزة قد شملت من العلوم ثلاثة من خير أنواع الفهوم
أولها التوحيد ثم الفقه ثم التصوف اشريف الوجه
بويتها في نضمها أبوابا نظما أثبت به الأبوابا
ولي باب تحته فصول ليتيسر بها الحصول

وله قصائد تتعلق بمدح الرسول ﷺ وله رسالة تتعلق بالمرض فيها: وأما ما شكوت بها أيها الأخ الأحب النجيب من المرض الذي منعك لذة الطعام والشرب ولعل ذلك والله أعلم من احتقان فضله رية في المعدة من بقية الطعام قد تعفنت هنالك لا يخرجها إلا القيء أو الإسهال فإن كانت تقدر على إخراج القيء فافعل فإن الحكماء من الأطباء قد حضضوا على إخراج القيء لأنه صابون البطن فكما أن الثوب يزيل وسخه بالصابون كذلك البطن صح وصحت الأعضاء فإذا صح استلذ الإنسان الطعام والشراب.

يلاحظ على هذا الجزء من الرسالة أن السكان في أدرار كانوا عندما يتعرضون لتسمم في المعدة يلجئون إلى إخراج ما تحتويه المعدة من طعام بواسطة القيء أو الإسهال وهذا يعتبر غسل المعدة المعمول به الآن في المستشفيات، والجزء الثاني من الرسالة يوضح فيها كيفية إجراء القيء فيقول: وطرق إخراج القيء أن يسخن الماء فيجعل فيه شيئا من الملح فيجعل أصبعه في أقصى اللسان ويكون ذلك بعد الأكل فإن القيء يهيج الخروج ولا يترك الإخراج حتى لا يبقى من القيء شيء، وفي الجزء الثالث من الرسالة يتعرض للعوامل التي تؤدي إلى هذا المرض يذكر منها الماء واللحم وفي هذا الصدد يقول: وأعلم أن ماء أولف غليظ وخيم خشين فإذا اجتمع هو ولحم البقر في البطن فقد اجتمع الضرر جميعه واحذر من لحم البقر فإنه داء رديء ولا تعرج عليه ولعل هذا الضرر قد جاءك من جهة ومن أراد أن يزيل داءه فليطبخه بالشوم والزنجبيل والفلفل الأحمر وقد جعل الله في لحم الضأن ثم المعز ثم الإبل ولحم الذكور أفضل من لحم الإناث وأفضل لحوم الطيور لحم الدجاج.

وأما لحم المعز فهو بارد يابس رديء ثقيل وخيم لا يوافق إلا أهل الإقليم الحار الرطب من السودان كأهل برنوا عمالته إلى زندر وما قاربها يمينا وشمالا فإن أرضهم حارة رطبة وأجسادهم كذلك وما جعل الله في السبب سواد ألوانهم إلى حرارة أرضهم.

وأما لحم الظبي فإنه لا ينبغي الإكثار من قديده لأنه رديء بالنسبة إلى لحوم الأنعام.

وأعلم إن سهل الله لك في خروج القيء فلا تأكل إلا على الجوع ولا تشرب إلا على العطش ولا تشبع مشبعة كبيرة وترفع يدك من الطعام وفيك بقية من الشهوة.

وأما شرب التاي فلا تداوم عليه كل يوم ولا تجم بين شربتين بين يوم وليلة فلا ينبغي المداومة عليه لمن كانت طبيعته الصفراء فإن الصفراوي قليلة الرطوبة كثير اليابس والآتي يرشق الرطوبة الفرعية فإذا أفناها أخذ الرطوبة الأصلية التي تقوم بها الروح فيقع الضرر وتعقل الطبيعة وتتقلص جلده الدماغ فيتضرر في الوجدانية والجشائية وخير الأمور أوسطها.

وأما الشيخ الكبير فلا بأس عليه أن يشربه مرتين أو ثلاثة في اليوم أو الليلة ولا سيما الشاب الصفراوي فإنه لا بد أن يأخذ بالأوسط فيه.

وأما الخبز الفطير المسمى عند العامة بالكسرة فإنه من أسباب الأمراض لمن داوم عليه لأن الخبز الفطير غليظ ثقیل بطيء الهضم وهي من أكثر طعام تيدكالت لا تكاد تنهضم والمدمن عليه معرض للأمراض إلا إذا سلمه الله فإذا اجتمعت الكسرة ولحم البقر والماء الوخيم في البطن اجتمع الضرر ولولا أن كثرة توابلهم فلفل السودان الأحمر هلكوا لأن الكسرة ثقيلة ولحم البقر ثقيل والماء ثقيل والمطلوب منك أن تبدل الكسرة بالخبز الرقيق والعيش وكل خفيف.

الرسالة في مجملها مهمة جدا وهي عبارة عن مجموعة من النصائح قدمها تتعلق المأكولات التي لا تزال لحد الآن في منطقة أدرار وكذلك نوعية اللحوم المستهلكة والتاي الذي يكثر شربه في كل منطقة أدرار وفي بعض الأحيان يتم الإكثار منها وهذه النصائح لا تقتصر على عصر الكاتب بل يمكن اللجوء إليها الآن.

عبد الحق بن عبد الكريم البكري استخلفه ولده في تولية القضاء أثناء مرضه الذي مات فيه الشيخ محمد بن البكري سنة أربع وسبعين ومائة وألف.

وأوصاه بما يلي: إنني وليتك هذا الأمر الذي يضاعف فيه للمحسن ثوابا وللمسيء عقابا ولم يكن الباعث عليه حب الوالد لوالده وإنما هو لما تبين لي من ظاهر أمرك والله أعلم بسرائرك ولقد علمت أنه ليس أحد أعز علي منك والله شهيد على أي بريء من جيفك فالزم الحق بين ذلك الحق منازل أهل الحق يوم لا يقضى بين الناس إلا بالحق وهم لا يظلمون فطهر يديك عن إضرار المسلمين وبطنك من أموالهم ولسانك من أعراضهم فإذا فعلت ذلك فليس عليك سبيل: (إنما السبيل على الذين يظلمون الناس وبينون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم).

يستنتج من النص أن هناك وراثه في بعض المناطق بأدرار ومنها ولاية القضاء لعدم تواجد دولة تقوم بعملية التعيين لأن هذه المنطقة شبه مستقلة عن الدول في الشمال رغم أهميتها التجارية في تلك العصور.

ومن بين الذين ترجوا له الشيخ عبد الرحمان بن عمر التينلاني حيث قال في شأنه: لم يزل قاضي الجماعة الشيخ سيدي عبد الحق بن عبد الكريم معتمدا على فتواه ورواية مقتفيا في الحوادث على منقوله واختيارته ومن أنصافه أنه كتب للقاضي المذكور بما نصه: (إذا خاطبتك بعزو المنقول فاحكم بذلك وعهدته علي وأن خاطبتك بعز المعقول فاحكم بذلك وعهدته علي وإن خاطبتك بالمعقول فأقرع باب فإنك مسؤول وأسأله التوفيق ولك).

يلاحظ من خلال هذه الرسالة المختصرة للبلبالي أن قضاة أدرار كانوا يستشرون علماء عصرهم في بعض القضايا وهذا نجدهم جاليا من خلال التراث الذي لم يحقق لحد الآن.

قال ولقد اطلعت على كثير من الردود بين الشيخ القاضي عبد الحق وعبد الرحمان التينلاني وكان موقفه موقفا صلبا لا تأخذه في الله لومة لائم.

محمد بن المبروك البدوي⁽¹⁾ تتلمذ عن الشيخ محمد بن عبد الله الونقالي والشيخ عمر التينلاني والشيخ عبد الرحمان بن عمر بلغ وصف بأنه بلغ الغاية القصوى في الفصاحة والبلاغة خلف العديد من القصائد الشعرية وكانت غالب أشعاره في مدح الرسول ﷺ.

ومن مميزات شعره أنه طبق في شعره مرج البحرين يلتقيان فجمع قصيدة واحدة بين بحرين هو البسيط والمنسرح فتقرأ القصيدة أولا من بحر المنسرح:

عمت ليلى وقلبك احتراقا من أجل فرقته وما سبق

(1) عمار بن عبد الرحمان التينلاني ولد عام 1152 وورقة 9.

ثم تقرأ نفس القصيدة من البحر البسيط:

عمدت ليلي أخي وقلبك احترقا من أجل فرقتها العظمى وما سبقا

توفي سنة ست وتسعين ومائة وألف 1196.

مقتطفات من الدرة الفاخرة للشيخ عبد القادر بن عمار بن عبد الرحمان التينلاني.

الشيخ أبي عبد الله سيدي محمد بن العلامة سيدي عبد الرحمان بن عم التينلاني قال عنه انتهت إليه الرياسة في التجويد وعلم القراءات ثم قال توفي في شهر صفر سنة 1233 ورقة 8.

أبي عبد الله الحاج محمد بن عبد الرحمان البلبالي ولد سنة 1155 تتلمذ على الشيخ محمد بن بد الله الونقالي والنحو عن سيدي محمد بن عبد الرحمان التينلاني قال كان رحمه الله من كلامه:

إن الرياح إذا اشتدت عواصفها فليس ترمي سوى العالي من الشجر

تولى القضاء الأكبر وأشتهر اسمه في البلاد وانتهى إليه علو الإسناد في الديار التواتية ورقة 10

عبد الله بن محمد بن عبد الكريم لم نعرف تاريخ مولده وكل ما نعرفه عنه أنه توفي سنة 1134

تلقى العلم على والده سيدي الحاج محمد بن عبد الكريم وكذلك عمه الشيخ سيدي البكري عرف عنه أنه كان متفنا في علوم شتى وأديبا شاعرا له قصائد متعددة ومنها قصيدة ذكر فيها توقرت والأحداث التي وقعت بها ومطلعها قوله:

تقرت قرّت بها عين الحسود فلم يبق له مطعن فيها ولا قبل

استقر بتميمون معلما توفي سنة 1134.

الأسرة البلبالية:

قصر ملوكة تقع ملوكة على بعد 05 غرب مدينة أدرار عاصمة ولاية أدرار وهي تتبع إداريا بلدية تيمي شيدت القصبه من طرف الإخوة الخمسة البلباليين على الأرض التي اشتروها من امرأة عرفت بلالة حدة بقيمة عشرين فرفور 1010 وبوثيق القاضي محمد البكري بن عبد الكريم التمنطيبي الجد الأول للبلباليين هو أحمد الفقيه وهو مقبور بمقبرة سيدي عثمان بن سيدي مخلوف بتبلالة.

أما عن مولدهم فكان بتبلالة وهو أصل التسمية الذي أخذوه من مكان الولادة.

والإخوة الذين انتقلوا لتوات فهم الحاج بلقاسم والحاج محمد والحاج علي والحاج عبدالله والحاج عبد الرحمان وهم أبناء السيد ابن بوزيد البلبالي دفين بتبلالة.

وأصل هذه العائلة هي سجلماسة التي كانت تعتبر من أهم المراكز التجارية والعلمية بجنوب المغرب الأوسط منذ القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي حيث تأسست بها إمارة مدرارية.

وللمنطقة علاقة مباشرة بالجنوب الغربي الجزائري لقربها منه لذلك كان الانتقال يتم باستمرار بين سجلماسة وتلك المناطق فقد خرج أبي البلباليين من سجلماسة من أجل نشر العلم وحط رحاله في تبلالة التي كانت هي الأخرى من المراكز العلمية والتجارية خلال هذا العصر مما جعلها تستقطب مجموعة من العلماء وكبار التجار ومن بين هؤلاء هذه الأسرة العلمية التي لم تتوقف عند تبلالة بل توجه أبناء الشيخ الخمسة إلى توات فحطوا رحالهم في البداية بتسايت التي كانت أول القصور التواتية التي يتوقف بها الرحالة القادمين لهذه المنطقة ومن ناسايت انتقلوا إلى المنصور ببودة ثم إلى أدغاغ بتيمي وتركوا أثرا بتلك المنازل فكانوا رجال علم مما جعل الطلبة في هذه القصور يلتفون حولهم ويأخذون عليهم جملة من المعارف كما ساهموا في إيضاح مجموعة من القضايا الدينية لأنهم كانوا رجال إفتاء وأسسوا قصر ملوكة سنة 1023⁽¹⁾

(1) قصر ملوكة من بين القصور التواتية التي لا تزال محافظة على مكانتها المعمارية ومسكن شيوخها لا تزال قائمة ومعروفة لدى أحفادهم وقد زرتها مرارا واطلعنا عليها.

استمر نشاطهم العلمي بملوكة حيث تحولت إلى قلعة علمية توافد عليه مجموعة من كبار علماء الناحية وتلاميذتها للأخذ عن البلباليين ولكي يوفروا الإمكانيات العلمية أسسوا بملوكة مدرسة وخزانة للكتب والمؤسس لتلك الخزانة هو محمد بن عبد الرحمان بن عبد القادر البلبالي⁽¹⁾ الذي ولد يوم عرفة فعرف بسيدي الحاج وفق التقاليد فكان هو المؤسس للخزانة ولد هذا العالم الجليل سنة 1155 عرف اليتيم لأنه توفي أبوه وهو صغير فتربى في كفالة أمه وزوجها محمد الصديق بن العالم.

شيوخه كان أول من تتلمذ عليه سيدي عبد الرحمان بن إبراهيم وهو من أفراد العائلة البلبلية وبذلك تكون دراسته الأولى كانت في مدرسة أجداده وبعدها انتقل إلى تنلان فأخذ عن عالمها الجليل عبد الرحمان بن عمر التينلاني والشيخ محمد بن عبد الله الونقالي والعالمان من أبرز العلماء في عصره فكان يحظر مجالسهما العلمية ثم بعد مدة من الزمن اقتصر على مجلس محمد بن عبد الله الونقالي وأصبح من بين الطلبة النجباء المقربين إليه ولدا خلال مرضه الذي توفي خلاله أمره بتدريس طلابه وهذا الاختيار وجد استحسانا من قبل الطلبة إلا أنه لم يمكث مدة من الزمن فعاد أدراجه إلى تينلان حيث أخذ على الشيخ محمد بن عبد الرحمان بن عمر التينلاني وبعدها عاد من جديد للأخذ على عبد الرحمان بن عومر التينلاني.

تلاميذته ومن أخذ عنه العلم ابنه محمد عبد العزيز وأحمد بن عبد الرحمان بن المبروك الونقالي وسيدي أحمد البدوي وأحمد الحبيب البلبالي وعبد الله بن عبد الكريم الحاجب والسيد المأمون بن مبارك والسيد إبراهيم الواجدي.

نشاطه العلمي والديني: بعد هذه الدراسة الطويلة على أبرز علماء توات خرج إلى ميدان العلم فتولى خطابة جامع أولاد عبد الله بن موسى بتمنطيط التي أقام بها حيناً من الدهر وتزوج منهم وأنجب ابن سماء عبد العزيز ثم بعد ذلك انتقل إلى مسقط

(1) عبد الكريم البكراوي جوهرة المعاني فيما ثبت لي لدى من علماء الألف الثاني ص 31.

رأسه وبلدة آبائه قصر ملوكة فأقام بها مدرسا بمدرستها وأسس مكتبتها التي وصل عدد مخطوطاتها إلى 400 مخطوط في شتى فنون العلم من قراءات وفقه وأصول ولغة وعروض وبلاغة وفلك وتاريخ وغيره كما تولى القضاء في توات ابتداء من سنة 1210 توفي رحمه الله ليلة الاثنين آخر جمادي الثاني 1244، رثاه يوسف ن عبد الحفيظ التينلاني بقصيدة مطلعها:

انس نديمك بالصباية وأنشد بعد المدام قريضك المتجرد

إلى أنقال

شيخ الورى البلبالي العلم الذي هاجت عليه بلابل وتجلدي

ويمضيء

وبمهجتي قطن الهوى حتى كوى وبجوى جوى حمم الجوى والأكيد
وبعام دمر شفیه جفى مارش أخرى الحمادين استوى للموعد
في ليلة الاثنين رأى هلاله بين العشائين استبان بمود

البكري بن محمد بن عبد العزيز بن محمد بن عبد الرحمن بن عبد القادر البلبالي⁽¹⁾ ولد سنة 1223 بقصر ملوكة تتلمذ في البداية على أفراد عائلته وهو أبوه وجدته وأن الدروس التي كان أخذها عن علماء ملوكة هي العلوم الإسلامية التي كانت تدرس في تلك المدارس وهي العلوم الإسلامية من فقه وحديث وتفسير وعلوم لغوية وعلوم عقلية وإنسانية وغيرها من المعارف وبعد تخرجه عن هؤلاء العلماء الأجلاء قام هو الآخر بالتدريس بمدرسة ملوكة وكان لطلبته حظوظ وافرة للاستفادة منها لما كان يعرف عنه من مرح وكرم مع جميع الناس وخصوصا طلبته توفي رحمه الله 1294 بملوكة.

(1) عبد القادر بن عمار بن عبد الرحمن التينلاني، الدرة الفاخرة، ص 5.

محمد عبد العزيز بن محمد بن عبد الرحمان البلبالي⁽¹⁾ من بين العلماء التواتيين الذين ينسبون إلى العائلة العلمية البلبلالية التي كان لها دور مشرف في تطوير الحركة الفكرية بإقليم توات عرف عنه في كتب التراجم أنه كان عالما ماهرا ولد هذا العالم الجليل في مسقط رأسه بملوكة من قرى تيمي وبها نشأ.

شيوخه: كانت أول دراسة له على والده القاضي الفقيه الحاج عبد الرحمان البلبالي الذي كان آيات الله في الفقه والنحو حتى كان والده يلقيه بسبويه وبذلك يكون قد أخذ عليه مجموعة من الفنون على الخصوص العلوم اللغوية التي اشتهر بها.

هذه الدراسة خولت له تولي شؤون القضاء بعد والده المذكور ولم يتوقف عن ذلك بل تولى مهنة التدريس بمدرسة ملوكة وهنا نجد علماء البلباليين كانوا يتوارثون الوظائف على آبائهم.

إنتاجه العلمي: تمثل في مجموعة من النوازل الفقهية التي اشتهر بها علماء توات وتعلق بأمر المنطقة فهي صورة حية للمجتمع التواتي.

كما اشتهر في ميدان الشعر وهو يتجلى لنا فهذه القصيدة التي كاتب بها أحد علماء توات وهو الشيخ أحمد زروق بن سيدي محمد بن موسى من آل سيدي يوسف بن صابر البدوي:

إليك أبا العباس انحوا أو اذهب ومنك أروم الوصل الذي هو أوجب
سلكت طريقا واضحا تطلب العلا فنلت مقاما شامخ الصرح أرحب
عوصرت معينا سلسيلا لذوقها لذادة طعم رائق وهو أشنب
رحيق ولا غول فيها غبر أنها يهزها قلب الليب ويطرب
نهارها زهو يفوح لفقته وأكلتها أحلى مذاقا وأطيب

(1) محمد بن عبد الكريم البكراوي، المصدر السابق، ص 10.

ولكنها المرقى لفضلها شديد
 فهرول له تحظى بفضل شرابه
 تصير يحزب من سما يسموهم
 وتحسب في أعدادهم عند عددهم
 احزني جميع ما وريت عن النهى
 وما قد أجزت من كتب عديدة
 وأطلب منك بعد صالح دعوة
 ليصلح ما قد خل في من معائب
 ويختم عني بأحسن القوم عندما
 أنا وجميع الوالدين وأولادي
 وقد قاله عبد العزيز محمد
 وأنصار خير الخلق طرا جميعهم
 فصلي على الرسل الكرام هنا
 واله والأصحاب طرا وزوجه
 فأجابه سيدي أحمد المذكور بها نصه:

أجيبك يا عبد العزيز وأطنب
 أتاني قريض منك يا خير فاضل
 يترجم عن علم تحملت صفواه
 ولكنه قد جاوز الحد في الثنا
 وأنب بسن العنس والقوس عالم
 ولكن أهل الود دام ارتقاؤهم
 نسبت المعلى للمعالي وما حوى
 تحية ذي ود من المسك أطيب
 بأخلاقك الحسنى يروق ويعذب
 ونبيء عن فهم سديد ويعرب
 وبحجمتوني بالذي لست أكسب
 وفي منهجات العلم جهلي مركب
 تفالوا وظنوا والظنة تكذب
 سهام لمعالي بل لغفل يدب

الحاج بن البكري بن محمد عبد العزيز بن محمد بن عبد الرحمان بن عبد القادر البلبالي⁽¹⁾ ولد سنة 1253 بقصر ملوكة.

شيوخه: أخذ العلم عن أبيه وجده وأيضا عن أحمد الحبيب البلبالي بعد وصوله إلى درجة كبيرة من العلم تولى التدريس بمدرسة ملوكة خلفا لأبيه كما تولى شؤون القضاء سنة 1328 فكان من أهم قضاة توات في عصره توفي رحمه الله بملوكة سنة 1329هـ.

محمد بن عبد الرحمان البلبالي⁽²⁾ ولد سنة 1166هـ

تعليمه: بدأ دراسته الأولى بمسقط رأسه بملوكة على شيوخها فحفظ كتاب الله تعالى في السنة السابعة من عمره وكان ذلك على البركة الطاهر سيدي عبد الله بن إبراهيم بن سيدي الحاج علي بن أحمد بن سيدي بوزيد البلبالي وهو ما يؤكده هو بقوله في كتاب الغنية فافتح الله الروح بحروف ا؛ ب؛ ت، بعدها وجه لدراسة علوم الشريعة وغيرها من المعارف لتي كانت متداولة في عصره وكان من بين العلماء الذين أخذ عليهم العلم الجليل عبد الرحمان بن عمر التتلافي الذي كان من أبرز علماء عصره فدرس عنه تجويد القرآن على رواية ورش وقالون ثم أخذ عنه العلوم الفقهية ومن أهم الكتب التي درسها عنه مختصر خليل كما تتلمذ عليه في العلوم النحوية ومن الكتب التي أخذها عنه ألفية ابن مالك كما تتلمذ على العالم الجليل محمد بن عبد الله الونقالي درس عليه الأجرومية والمختصر فكانوا يهتمون بالمختصر في أشهر ثم تقلص الوقت إلى عشرة أيام ربعا للوقت وبذلك تكون هذه الدروس تلقينية بالدرجة الأولى مع الشرح وبلغ سن الرشد وهو يدرس عند الونقالي الذي كلفه في هذه المدة بتدريس التلاميذ.

الحاج عبد الرحمان بن سيدي سالم البلبالي⁽³⁾ هو الشيخ الفقيه العالم العلامة الوجيه الفاضل الجليل الخير الأصيل عبد الرحمان بن سيدي سالم البلبالي أصلا الأنصاري نسبا الراشدي مسكنا وموطنا.

(1) عبد القادر بن عمار، الدرّة الفاخرة، ص 31.

(2) نفسه، ص 31.

(3) عبد القادر بن عمار البلبالي، المصدر السابق، ص 15.

شيوخه: كان رحمه الله من عبادة العلماء الأخيار أخذ عن علماء جلة أشهرهم الشيخ أبو العباس سيدي أحمد الحبيب البلبالي الملوكي⁽¹⁾ درس وأفتى وأجاد وأفاد وأضاءت بنوره مصابيح وقادة.

شعره: له أشعار مفيدة من ذلك قصيدة مدح بها أهل بدر يقول فيها:

عليك ارتزاقني سيد مبدأ الفجر وأرجوك غفران بجاه ذوي بدر
لأنك يارب دنوت إليهم فقلت اعملوا ما شئتم قد قضى أمري
بغفرانه لكم وإني أحبكم برخصكم أنفاسكم لي سوى غيري
روينا حديثا عن شافعنا أن من دعا عند ذكركم بحباب بلا حصر
فعدتهم كعدة الرسل للورى وعدة طالوت لمن جاوز النهر
وقد ذكر البخاري منهم أكابر نظمتهم نظما يجازني بالدخر
فأولهم نبينا ورسولنا وأبو بكر الصديق ثم عمر
عثمان علي ثم أبيس البكري فحمزة مع بلال مولى أبي بكر

إلى آخر القصيدة التي ذكر فيها كل الصحابة رضي الله عنهم الذين شاركوا في غزوة بدر إلى جانب الرسول ﷺ اعتمادا لما ورد في كتاب صحيح البخاري.

ولد سنة 1291.

شيوخه: أخذ العلم عن سيدي عبد الله بن أحمد الحبيب بن محمد بن عبد الله بن إبراهيم وقد كان من أنجب تلاميذته ثم اشتغل بالتدريس وكان مستخلفا لشيخه بعد وفاته ثم انقطع عن التدريس وبقي متفرغا لخزانة الكتب ينهل منها توفي سنة 1374.
الطاهر بن الحاج محمد بن الشيخ بن عبد الرحمان⁽²⁾ ولد سنة 1332 بقصر ملوكة.

(1) عبد القادر بن عمار البلبالي، المصدر السابق، ص 15.

(2) نفسه، ص 15.

شيوخه: كانت دراسته الأولى على كبار شيوخ ملوكة ومن هؤلاء أبيه الحاج محمد بن الشيخ تميز عن علماء ملوكة بأنه كان كثير الترحال مشغلا بالتعليم درس بقصر أولاد علي من قصور أدرار كما ارتحل إلى كل من بوقطب والعين الصفراء بولاية نعامه وفيهما قام بالتدريس مدة من الزمن وعندما شعر بعجز أبيه رجع إلى ملوكة.

عرفت توات خلال هذه المرحلة أحداثا منها الإحتلال الفرنسي لها وتعرضها لأزمة اقتصادية حالت دون الاهتمام بالجانب العلمي وربما تعتبر هذه المرحلة بداية لانحطاط الحركة الثقافية بإقليم توات فالنسخ قد انقطع إلا من بعض نسخ المديح النبوي الذي كان ينشد في بعض أبيات المولد النبوي الشريف وبعض الأدعية والعقود التي تستلزمها ضرورة الحياة أما غير ذلك فلا أثر للنسخ توفي سنة 1399.

أحمد ولد سيدي سالم⁽¹⁾ تلقى العلم عن السيد عبد الله بن أحمد بن الحبيب في كوسام من بين العلماء البلبالين سيدي الحبيب بن محمد البلبالي كان عالما ماهرا في كل الفنون تتلمذ عن شيخه سيدي الحاج محمد البلبالي وعن والده سيدي عبد العزيز ومن بين علماء هذه العائلة نذكر أيضا:

عبد الكريم بن عبد المالك البلبالي كان إماما عالما ماهرا في كل الفنون أخذ عن شيخه سيدي الحاج محمد وعن والده سيدي عبد العزيز توفي سنة 1288.

ومن علماء هذه العائلة محمد بن سيدي محمد عبد الرحمان كان إماما عالما في الفقه والتفسير والحديث والنحو والغالب عليه التخلي والانقطاع عن الناس أخذ عن الشيخ سيدي محمد بن الشيخ عبد الرحمان البلبالي والحاج البلبالي توفي سنة 1246، كان من المبالغين في حفظ المسائل، ومن علماء هذه العائلة سيدي البكر بن العلامة سيدي عبد العزيز وصف بأنه كان عالما ماهرا في فنون كثيرة فقيه متحدث متفنن تتلمذ على جده الشيخ سيدي الحاج وعن والده سيدي عبد العزيز وكان صالحا محبا للصالحين مشهور بالدين والخير توفي عام 1248.

(1) عبد القادر بن عمار البلبالي، المصدر السابق، ص 16.

أسرة قصر كوسام:

من بين الأسر العلمية في توات وهي تنسب لأسرة البلباليين التي استقرت بقصر ملوكة ومؤسس هذه الأسرة هو العالم الجليل الشيخ القاضي عبد الله بن أحمد الحبيب بن أحمد بن عبد الله بن الحاج بن علي بن أحمد بن أبي زيد الانصاري، ولد في سنة 1250 الموافق 1834 بقرية ملوكة.

شيوخه: أخذ عن والده سيدي أحمد الحبيب.

علومه: تفنن في جميع الفنون وعلى الخصوص علوم القراءة والحديث فكان من رواة الحديث يستشير علماء الصحراء في مشاكلهم مارس التدريس وكان قاضيا ابتداء من 1323 وساعده على مهنته جملة من أشياخ المنطقة ومنهم سيدي الحاج التمنطيقي ومن تلاميذته ابنه سيدي عبد الرحمان البلبالي وابن أخيه أحمد البلبالي والحاج بوعلام البلبالي وعبد الكريم البلبالي ببني تامر وسيدي محمد بن عبد الرحمان الونقالي وسيدي العربي بن سيدي المأمون وأحمد بن ديدي والحاج محمد القاضي بتمنطيت ومحمد بن مولاي عبد العالي بدلدوا ومحمد بن صالح بن علي الراشدي بأولاد راشد ببلدية أولاد محمود بالمطارفة.

علمه: انفرد برئاسة العلم في وقته في الأصقاع التواتية له سيرة حسنة ومهارة سياسية انتقل في صغره إلى قرية كوسام وأسس بها مدرسة في شهر ربيع الثاني 1278 توفي رحمه الله وهو مشغول بقراءة الحديث بالمسجد وهو متربع ويده سبحته أول ذو القعدة 1329 الموافق لعام 1911، مدحه تلميذه محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق البكراوي في كتابه جوهرة المعاني فقال عنه:

أستاذي وملاذي ومنتهى ودادي ونور فؤادي وغابة مقصدي

ورثاه ببعض الأبيات تحتوى على خمسين بيت تتم على حب التلميذ وتعلقه بأستاذه نذكر من بينها هذين البيتين التاليين:

شجاني فراق من أنسى فؤادي وضقت دراعا بالذي دهان
بلا حظني الهوى لمعاني برق ونار الشوق ضاءت بامتحان

عبد الرحمان بن عبد الله بن أحمد بن الحبيب⁽¹⁾ ولد بكوسام 1280 هو شيخ الشيوخ ومعدن الجودة والرسوخ أبو عبد الله سيدي محمد عبد الله بن العالم الرباني سيدي أحمد الحبيب البلبالي علق عليه صاحب الزهرات بقواه (أعجوبة زمانه له القدم الراسخ في أصول الفقه وفروعه والنحو والصرف واللغة وعلم الحديث والتفسير).

يتضح من النص أن عالمنا كان من بين العلماء الذين عرفتهم توات في علوم الشريعة والعلوم الإنسانية وهي من العلوم التي كان الإقبال عليها كثيرا من الطلبة ولذلك علق عليه الكاتب بقوله (حمل راية العلم بتوات وقصدته الطلبة والركبان من جميع الجهات وكان مدرسا ملازما للدراسة لا يسأم من بذل العلم والإفادة إذا فتح الدرس خامر عقول الحاضرين بقريره الزاهر وإذا تكلم عن مسألة رأيته كالبحر الزاخر يقتطف من الأزهار ما يشفي غليل السائل وإذا أخذ البراع للدب عن إحياء السنة أو أمانة بدعة تجده كالطرير الوابل وإذا تصدر لقضية شاكل شريحا وعاياضا وقضاة السلف الطاهر).

فالنص يوضح لنا ما يلي:

أولا أن الكاتب يعتبر من بين المدرسين في إقليم توات يتميز بنوع من الخصوصيات التي ربما لا نجدها عند البعض الآخر كاعتماده على مجموعة كبيرة من المصادر العلمية التي كانت متوفرة لديه يستعملها عندما تطرح عليه الأسئلة من قبل طلبة العلم الذين يحظرون دروسه أو يحفظ بعضها وهي عادة علماء ذلك العصر الذين يحفظون بالكتب ذات الأهمية.

(1) الشيخ باي، المرجع السابق، ص 1 ص 201.

ثانيا غزارة العلم حيث سمح له بحل القضايا التي كانت تتعرض علماء توات وأغلبها التي لها علاقة بالأحوال الاقتصادية والاجتماعية والدينية كما وقف موقفا معارضا للبدع التي كانت منتشرة في ذلك العصر.

تلاميذته: يبدو من خلال كتب التراجم التي اطلعنا عليها أن علماء ذلك العصر كانوا يجدون قبولا من قبل الطلبة الذين كانوا يتوافدون عليهم ويزيد عددهم كلما زادت مكانة العالم وهو ما جعل صاحب الزهرات يعلق على ذلك بقوله (تخرجت على يديه الفحول وانتفع من قبض مداده خلق كثير وانتشرت تلاميذه فمنهم القضاة والمدرسون والمفتون)⁽¹⁾.

فهذا الجزء من النص يؤكد لنا بأن مدارس توات وزاوياتها كانت تكون أغلب الحالات التي كان يحتاج إليها ذلك العصر سواء داخل إقليم توات أو الأقاليم المجاورة لها على الخصوص المدرسين ورجال الإفتاء هؤلاء كان المجتمع في أشد الحاجة إليهم زيادة على القضاء.

تلاميذه: من بين التلاميذ الذين أخذوا عنه العلم أفراد العائلة البلبالية وهو ما يؤكد صاحب النص بقوله (فمن تقلد من تلاميذته القضاء ابن عمه وفريد عصره ووحيد دهره السيد محمد بن القاضي بن سيد أحمد الحبيب ثم نجله الفقيهان الجليلان محمد عبد الرحمان الذي تولى بعده مقامه في التدريس ثم القضاء مع ابن عمه المذكور ابن عمه السالم)⁽²⁾.

يلاحظ هنا أن أغلب الذين تخرجوا عليه وتولوا الوظائف في توات وعلى الخصوص مهنة القضاء التي تولها عدد من البلباليين نجد أيضا علماء تمنطيت ومن هؤلاء العالم الجليل السيد الحاج محمد بن عبد الكريم من آل الشيخ سيدي البكري التمنطي وكذلك محمد العربي التمنطي.

(1) عبد العزيز التينلاي، الزهرات، ص 66.

(2) نفسه، ص 67.

وهناك تلاميذ من الذين تخرجوا عليه تولوا مهنة التدريس بتوات وخارجها وهو ما يؤكد المؤلف بقوله (وأما من نفع الله به من تلاميذته وتولى التدريس ونفع البلاد والعباد فأكثر من يحصى منهم شيخنا محمد عبد الكريم المذكور والشيخ سيدي أحمد دادي التمنيطي ومحمد بن السالم ابن سيد الحاج عبد الله التلاني وعبد الكريم المطارفي).

يستنتج من النص أن الطلبة الذين درسوا بزاوية ملوكة كانوا من أهم المدرسين سواء في تمنطيت أو المطارفة والمنطقتين كانتا من بين المراكز الفكرية في إقليم توات وجرجرة.

شيوخه: أخذ العلم عن الحاج عبد القادر البلبالي قاضي تميمون وأخوه الحاج البشير علمه: بعد الأخذ عن هؤلاء العلماء الأجلاء تولى التدريس بعد وفاة والده بكوسام كما تولى خطة القضاء منذ سنة 1330 توفي في 22 ربيع الثاني 1353 بمجلس القضاء الشرعي بأدرار.

محمد بن أحمد بن الحبيب⁽¹⁾ ولد بملوكة سنة 1248.

شيوخه: أخذ عن أبيه أحمد الحبيب تولى القضاء في أوائل القرن 14 توفي في سنة 1319.

محمد بن أحمد بن الحبيب ولد بكوسام 1277.

شيوخه: أخذ عن عمه عبد الله بن أحمد الحبيب تولى القضاء سنة 1329 توفي يوم السبت 10 رمضان 1354

سالم بن عبد الله بن الحبيب ولد بقرية كوسام سنة 1277

شيوخه: أخذ عن والده عبد الله بن أحمد الحبيب درس بكوسام وهو أول من أسس المسجد الكبير فكان مدرسا وإماما.

أحمد بن الطالب أحمد ولد بقرية ملوكة سنة 1317 أخذ عن محمد عبد الرحمان بن عبد الله البلبالي والسيد سالم بن عبد الله.

(1) التينلاني، المصدر السابق، ص 16. توفي سنة 1397 الموافق لسنة 1977.

الأسرة المطارفية:

تقع المطارفة شمال ولاية أدرار وتبعد عن مقر الولاية 90 كلم وهي تابعة لبلدية أولاد محمود وقد تم إنشاء قصر المطارفة من طرف القوافل التجارية التي تتوقف به خلال القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي.

علماء الأسرة:

العائلة العلمية بمطارفة تقع المطارفة شمال ولاية أدرار وتبعد⁽¹⁾ عليها بنحو تسعين كلم وعلى مقر بلدية أولاد محمود وقد تم إنشاء قصر المطارفة خلال القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي من قبل القوافل التجارية التي كانت تجتاز المنطقة فالجواب يقول ليس من شرط جواز الوقوع الأخص وأيضاً فقد ذهب على نحو الآية عبد الله بن عباس رضي الله عنه وأشار إلى وقوع هذا الجائز في الدنيا في حق النبي صلى الله عليه وسلم وأنه رآه ليلة الإسراء والمعراج وقد اختلف العلماء على من يعود إليه الضمير في قوله تعالى ولقد رآه نزلة أخرى هل وجبرائيل أم الله فانظر ما هنالك والله أعلم.

من هؤلاء شيخ الجماعة ورئيس الإيالة الشيخ الجليل والإمام الفذ أبو عبد الله محمد بن أحمد الراشدي ثم المطارفي⁽²⁾ أحد تلامذة الإمام الفذ العالم الجليل الفقيه الشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الله الونقالي الأدغاغي التماوي.

شيوخه: تلقى تعليمه الأول على يد والده ثم انتقل لإتمام دراسته عند الشيخ المذكور آنفاً فنهل من علمه واعترف من بحره وأجازه الشيخ لونقالي بعد ذلك في الفتوى والقضاء والتدريس فكان أول من عقد مجلس القضاء بناحية جراحة وأنشأ زاوية لتعليم الطلاب الوافدين إليه لتحصيل المعرفة والعلم كان ذلك أواخر القرن الحادي عشر الهجري وبداية القرن الثاني عشر.

(1) عبد الكريم التينلاني، المصدر السابق، ورقة 21.

(2) نفسه، ورقة 21.

الأسرة الجعفرية من بين الأسر العلمية التي عرفتها توات خلال العصور الحديثة والمعاصرة.

أحمد زروق⁽¹⁾ هو العلامة أحمد بن زروق ابن صابر البدوي الجعفري لم تذكر المصادر التي اطلعنا شيئا عن تاريخ مولده بل اكتفت بالقول أنه كان عالما إماما.

شيوخه: تتلمذ على الشيخ محمد الونقالي ومحمد بن أحمد الزجلوي وهم من العلماء البارزين في توات خلال هذا العصر لم يتوقف عن الأخذ على هؤلاء فقط بل توجه إلى مدينة فاس التي أعتبرت من أهم المراكز الفكرية في بلاد المغرب خلال هذا العصر وفي فاس أخذ عن علمائها كالسيد التاودي الذي يعتبر من بين كبار علماء فاس استفاد منه في دراسة صحيح البخاري الذي كان من أهم الكتب التي تدرس للطلبة في المؤسسات التعليمية خلال تلك المدة ختم عليه صحيح البخاري مدة خمسة عشر مرة ولقبه شيخه بقاضي فاس توفي يوم 17 رمضان 1245

عبد الحق بن عبد الكريم⁽²⁾ لم تذكر المصادر التي اطلعنا عليها تاريخ هذا العالم بل اكتفت بالقول بأنه كان إماما صالحا ماهرا في علوم شتى وكان من غرائب الدهر ولم يكن في وقته من أبناء جنسه من يستحضر الفروع الفقهية مثله كبير القدر وافر الحرمة.

يستنتج من النص عدم وجود تدقيق في المعلومات فهو يقول أنه كان إماما صالحا لم يوضح لنا المسجد الذي كان به إمام والصالح المقصود به تصوفه ولم يحدد لنا أي العلوم التي كان ماهرا فيها هل هي العلوم النقلية أو العقلية وهو كغيره من علماء توات كان تركيزه على الفقه وفي هذا الصدد يقول المؤلف وكان من غريب الدهر وأن نباغته في العلوم الفقهية خولت له ولاية القضاء توفي سنة 1210.

(1) الشيخ باي، المرجع السابق، ج 1 ص 212.

(2) نفسه، ج 1 ص 212.

محمد بن أحمد المطارفي⁽¹⁾ ينتسب هذا العالم الجليل إلى أحد الأسر العلمية وهي أسرة زاوية المطارفة تتعرض الكتب التي ترجمت له تاريخ مولده واكتفت بالشيخ الذين تتلمذ عليهم وهم الشيخ بن عبد الله الونقالي وصف بأنه من غرائب الدهر كبير القدر وافر الحرمة توفي سنة 1212.

الحاج محمد بن أحمد لا نعرف أيضا تاريخ مولده لأن الذين ترجعوا له اكتفوا بأنه دفين بني راشد ويبدو لي أنه تلقى دراسته الأولية في بني راشد ومن بين شيوخه محمد الونقالي ويظهر أن العلاقة بين التلميذ والشيخ لم تكن جيدة فالتلميذ كان يسخر من الشيخ خلال دراسته وهو ما جعله يقطع عليه مؤونته المتمثلة في المواد الغذائية التي كانت تمنح للتلاميذ الغرباء الذين يتابعون دراستهم بتلك الزوايا ولم يتوقف عند هذا الحد بل كلفه ببيع كتبه وثيابه ولما أراد هذا العالم الجليل السفر لبلده بعد ما تحسنت علاقته بشيخه أمره الشيخ بتدريس العلوم على الطلبة من زملائه فدرسها لهم وعند المغرب ألبسه اللباس الجديد وودعه بعد صلاة الصبح.

يلاحظ على النص أن الطلبة بعد تلقيهم العلم ووصولهم إلى مرتبة عالية يعودون إلى مسقط رأسهم ويحتفلون بهم توفي هذا العالم بأولاد راشد سنة 1211

عبد الرحمان دفين تميمون لم تذكر كتب التراجم شيئا عن حياته الأولى بل اكتفت بأنه مدفون بتميمون ينسب إلى إحدى الأسر العلمية علق عليه المؤلف بقوله كان عالما أدبيا وبعدها يشير إلى معارفه فيقول عنه ماهرا في الفقه جيد الخط والنوازل والوثائق وتفسير القرآن وقد اشتهرت به مدارس وزوايا إقليم توات وهناك شروحات على كتب الحديث والنحو مثل صحيح البخاري وكتب اللغة والألفية ومن الشيوخ الذين تتلمذ عليهم عبد الرحمان التلاني والحاج البلبالي وكان يبالغ في حفظ المسائل.

(1) الدرة الفاخرة، ورقة 23.

الأسرة البدوية:

من بين الأسر العلمية التي اشتهرت في إقليم توات الأسرة البدوية نسبة إلى بودة التي تعتبر من أهم المراكز العلمية بإقليم توات.

من بين العلماء الذين نسبوا إلى العائلة البدوية العالم الجليل العالم الجليل الحاج محمد بن عبد الكريم بن سيدي الحسن البداوي⁽¹⁾ لم نتعرف على تاريخ مولده لأن الذين ترجموا له اختصروا في ترجمته واكتفوا بالقول بأنه كان عالما علامة أخذ عن شيخ الشيوخ سيدي محمد الونقالي وكان في غالب أوقاته يسقي الماء للطلبة ويغسل ثيابهم وكان يدرس بزاوية تينلان ومن بين الذين نسبوا لهذه العائلة محمد بن عمر البدوي⁽²⁾ لا نعرف الشيء الكثير عن حياته لأن الذين ترجموا له اكتفوا بالقول أنه صاحب كرامات وخوارق وعادات واستمرت الولاية في أولاده من بعده فهو من رجال الطريقة لكن ما يعاب على الكاتب أنه لم يوضح الطريقة التي اتبعها هو وأولاده من بعده

ومن بين رجال التصوف نذكر أيضا أبو عفية لا نعرف الاسم الكامل له لأن الذي ترجم له اكتفى بأنه كان صالحا عارفا وارعاً ملازماً لزيارة كرزاز وبذلك يكون هذا العالم الجليل من أتباع الطريقة الكرزازية التي لها مریدین بتوات.

من بين العلماء الذين ورد ذكرهم في هذه الفهرسة العالم الجليل محمد بن عبد المؤمن لا نعرف الكثير عن حياته لأن الذين أرخوا له اكتفوا بالقول أنه من قرى زاوية كتنة تتلمذ على العالم الجليل محمد السباعي والحاج البلبالي وأنه مات مقتول قتله بعض من أهل بلده زاوية كتنة.

(1) المؤلف مجهول أنساب تيمي ورقة 13.

(2) الشيخ باي المرجع السابق ج 1 ص 132.

محمد بن المبروك البدوي⁽¹⁾ لا نعرف شيئا عن مولده لأن الذين ترجموا له اكتفوا بالقول أنه توفي سنة 1196 هـ وعن صفته يقول المؤلف أنه كان عالما ورعا زاهدا حفاظا وهذه الصفة تخص كل الذين ترجم لهم فهم علماء زهاد حفاظ.

شيوخه: تتلمذ على الشيخ بن عمر التينلاني فاستفاد من علمه مما جعله يصل الدرجة الكبرى في مختلف الفنون الإسلامية كالأدب والفن الذي اشتهر به وعلى الخصوص المدائح الدينية التي انتشرت في توات خلال جميع مراحلها التاريخية نسبت له مجموعة من قصائد المدح أغلبها لا زال مخطوط لم يرى النور يضاف إلى ذلك العلوم الفقهية واللغوية.

محمد بن أحمد بن ناصر البدوي⁽²⁾ لم يذكر المؤلف تاريخ مولده واكتفى بذكر وفاته فهي في شهر المحرم من سنة 1208 في درب الحجاز من الشرق من أم العظام في مكة وبذلك يكون هذا العالم الجليل قد توفي في موسم الحج.

شيوخه: من بين الشيوخ الذين تتلمذ عليهم العلامة محمد الونقالي.

علمه: وصف بأنه عالم علامة صالحا أحد الحفاظ والمقصود بذلك حفظ الأحاديث النبوية الشريفة لأن الدراسة في توات كانت تشتمل على تلقين الحديث وحفظه عن ظهر قلب.

محمد بن عبد الرحمان الغماري البدوي⁽³⁾ لم تذكر المصادر التي ترجمت له تاريخ مولده والشيوخ الذين أخذ عنهم في كل من توات أو غيرها من مراكز العلم بل اكتفت بأنه أخذ عن علماء فاس ولم توضح لنا أسماء هؤلاء العلماء الفاسيين الذين تتلمذ عليهم وعن علمه وصف بأنه كان عالما ماهرا حفاظا في كل فن.

(1) عبد القادر بن عمار التينلاني المصدر السابق ص 15 الشيخ باي المرجع السابق ج 1 ص 186.

(2) نفسه، ج 1 ص 186.

(3) عبد القادر بن عمر التينلاني، المصدر السابق، ص 15.

عبد الكري بن بابا حيدة لا نعرف التاريخ الذي ولد فيه وكيف بدأ مرحلته العلمية الأولى لأن الكاتب اكتفى بقوله أنه أخذ عن الشيخ عبد الرحمان بن بعمر وصف بأنه كان عالما صالحا زاهدا وارعا وبذلك فهو من رجال الطريقة الذين تميزت حياتهم بالزهد والصلاح.

رجال التصوف:

أبو مدين بن أبي بكر⁽¹⁾ من بين الطرق الصوفية التي انتشرت في إقليم توات الطريقة الزيانية ومن بين الذين أخذوا بها مولاي أحمد بن أبي حوا بلحاج دخل إلى توات في حدود 1035 راجعا من تمبكتوا بإرث أبيه كان منكبا على علم التصوف حتى ظهرت عليه أسرار وأنواره كانت له حلقات يتكلم فيها على محبة الله ورسوله وكيفية الوصول إلى حظيرة قدسه كان يكيف المحبة والمحيين ويصور مقامات العارفين ويبين المراد والمريد والإرادة وتحليلاتها وقد تمسك بالأوراد الزيانية المتصلة بسيدي محمد بن سيدي عبد الرحمان الشريف العلمي المسعودي المشيشي من أحفاد المولى على بن عبد السلام بن مشيش موطن أسلافه سابقا مراكش ثم انتقل منهم رجل وهو والد سيدي عبد الرحمان أو جده من مراكش إلى القنادة وبها اتصل المولى عبد الله الركاني بسيدي أحمد المذكور وفي كتاب فتح الشكور قال أخذ يعني الشيخ مولاي عبد المالك الأوراد والطريقة عن أبيه وشيخه مولانا عبد الله الركاني عن الشيخ سيدي محمد بن عبد الرحمان بن أبي زيان يعني القنادسي ثم يذكر سلسلة الشيوخ من بين العلماء التواتيين نذكر على وجه الخصوص العالم الجليل سيدي عبد الله بن الشيخ سيدي محمد لم يذكر المترجم العائلة العلمية التي ينتسب إليها ولا المراحل الأولى من حياته بل اكتفى بالقول (كان عالما صالحا زاهدا حافظا للحديث والفقه والتفسير والنحو).

(1) عبد القادر بن عمر التينلاني، المصدر السابق، ص 15.

ثم يذكر من بين الشيوخ الذين تتلمذ عليهم والده وعن علاقته بالناس يقول أنه كان يعامل الناس بكل جميل وكان من محاسن الدهر ومن بين العلماء الذين نسبوا إلى تميميون العالم الجليل سيدي عبد الرحمان دفين تميمون لم يتعرض الكاتب لمراحل حياته بل اكتفى بالقول بأنه كان عالما أديبا أخذ عن والده كان ماهرا في الفقه وكان جيد الخط والنوازل والوثائق.

ومن بين هؤلاء العلماء الذين نجد لهم تراجم مختصرة الحاج عبد الله بن الشيخ عبد الرحمان دفين بعبد الله لم نعرف الكثير عن حياته لأن الذي ترجم له اكتفى بالقول بأنه كان عالما متفنا في العلوم العقلية والنقلية والفقه والحديث تتلمذ على والده وسيدي محمد بن حميد وكان من بين الملازمين للشيخ سيدي عمر بن سيدي الحاج المهداوي توفي سنة 1221.

من بين العلماء الذين ورد ذكرهم في هذا الكتاب أبو مدين بن أبي بكر لم نعرف عن حياته الأولى الكثير لأن المؤلف اكتفى بالقول أنه كان عالما علامة تتلمذ عن عبد الرحمان بن عمر.

ومن هؤلاء العلماء نذكر أيضا:

عبد الله بن سيدي بومدين التمنطيقي⁽¹⁾ لا نعرف الكثير عن حياته الأولى لأن الذين ترجعوا له اكتفوا بالقول بأنه كان عالما علامة أحد أئمة المجتهدين في العصر تلقى العلم على والده وعن سيدي محمد بن أحمد الزجلاوي كان عديم النظر ومن مشاهير علماء عصره توفي سنة 1231 ومن بين العلماء الذين وجدنا تراجمهم في هذا المختصر العالم الجليل محمد بن أحمد لم يذكر الكاتب معلومات كثيرة عن حياته الأولى بل اكتفى بالقول أحد المجتهدين في عصره تتلمذ على الشيخ سيدي محمد بن أحمد وعبد الرحمان بن يعمر انتهت

(1) الظاهري، المصدر السابق، ص 23.

إليه الرئاسة في الديار التواتية وناب في التحكم بسيرة حميدة فالرئاسة التي ذكرها المترجم لم يحددها لنا هل هي رئاسة في ميدان الفكر أو السياسة ولعل هذه الأخيرة لأنه قال ناب أخاه في الحكم ومن بين الذين ينسبون لهذه العائلة عبد الرحمان بن أحمد وهو أخو العالم الذي سبقه لم نعرف أيضا تاريخ مولده وأين ينتسب بالنسبة لقصور توات لأن المترجم اكتفى بالقول كان شيخ الفقهاء وصدر العلماء فنشر به العلم وانتفع به الطلبة هذا الجزء من النص يوضح أن العالم الجليل كان من بين المدرسين في توات وهو ما جعل الطلبة يستفيدون من علمه وأما الشيوخ الذين تتلمذ عليه في دراسته ذكر المترجم أخوه والشيخ محمد عبد الله الونقالي.

تميزت شخصيته بأنها فضا غليضا ومن أفراد هذه العائلة نذكر أيضا العالم الجليل محمد بن عبد الرحمان بن حميد لا نعرف تاريخ مولده لأن الذين ترجموا له اكتفوا بالقول بأنه كان من أعيان العلماء ومشاهير الفضلاء وعليه مدار الفتوى في البلاد التواتية تتلمذ على العالم الجليل على الحسين بن حميد.

الأسرة العلمية القسنطينية:

وهناك عائلة علمية تنسب إلى مدينة قسنطينة لم تذكر كتب التراجم التواتية تاريخ انتقال هؤلاء من قسنطينة إلى توات بل اكتفت بذكرهم وهم على التوالي:

المحفوظ القسنطيني هو محمد المحفوظ القسنطيني⁽¹⁾ لا نعرف تاريخ مولده والأسباب التي جعلته ينتقل إلى توات وبالتحديد لتوكي وهي إحدى قرى دلدول فالذين ترجموا له أشاروا إلى علمه وقالوا عنه أنه هو أول من أدخل علم الفلك إلى جراحة ومن الكتب التي اهتم بها في هذا الميدان شرحا على منظومة العالم الفلكي سعيد السوسي المغربي التي خصصها لعلم الفلك.

(1) لمؤلف مجهول، أنساب تيمي، ورقة 17.

ويقول في مقدمة شرحه لها حمدا لمستحقه الذي زين الفلك بالخنس الجواري الكنس والسماء بالنجوم كل في فلك يسبحون وهو الله في السموات وفي الأرض يعلم سرهم وجهركم ويعلم ما تكسبون ثم يذكر السبب الذي جعله يقوم بشرح هذا الكتاب فيقول فإن في بعض الأجلة من السنين طلب مني شرحا بين فيه بعض ألفاظ صاحب المقنع فصرت أقدم رجلا وآخر لقلّة زادي وضعف فهمي ومزاجي لبضاعتي وخفت التكلم فيما لا أفهم والخوض فيما لا أعلم وقال مكره أخوك لا باطل⁽¹⁾.

نستنتج من هذا الجزء من النص أن الكاتب مثل كتاب عصره يبين في البداية عجزه في الفن الذي يريد الخوض فيه وهذا يندرج في إطار التواضع عكس عصرنا.

ثم بعدها يتعرض إلى المنهجية التي سيتبعها في شرح الكتاب فيقول "وجعله شرحا شافيا ويكون للواقف عليه كافيا" فالذي يستنتج من هذا أن الكاتب سيحاول تبسيطه لكي يتمكن الطلبة من فهمه وعلى الخصوص المبتدئين منهم.

لم يتوقف عن عملية الشرح للكتاب بتوجيه بعض الانتقادات على ما ورد في النص لأنها لا تنطبق مع الواقع مثل قول الكاتب والشهر كامل إذا طلع في كدح وبالنقص إذ يخفى قطعاً.

فعلق الشارح على ذلك فقال وإني في عام 1224 كنت ببلاد بريكان من ناحية تاسبيت بعد فجر ثمانية وعشرين من شوال رآه الشاهد الموقت الصومعي الحاج عبد الرحمان واستهل بتاسع وعشرين منه فسبحان القادر على كل شيء.

من هذا النص نستنتج أن الشارح لم يكتفي بالشرح والتبسيط على الكتاب بل أضاف معلومات قيمة نساها الكاتب أو أخطأ فيها وهذا الكتاب من أهم الكتب الفلكية المتداولة في إقليم توات.

(1) لمؤلف مجهول، أنساب تيمي، ورقة 18.

وفي الفصل الثاني من كتابه تناول علم التاريخ وبين بأن الأمم الماضية كانوا يؤرخون بنزول آدم أو بنار إبراهيم أو بعام الفيل وبعضهم يؤرخ بذو القرنين أو بمولد الرسول ﷺ وهنا يعتمد الكاتب على ما أورده المصادر الإسلامية بالنسبة لموضوع التاريخ.

والدارس للشرح يتجلى له أن الشيخ اعتمد في كتابه على التراث المخطوط الموجود بخزائنه والخزائن الأخرى التي لم يبق لبعضها أي أثر يذكر وكأن الانتهاء من هذا الشرح سنة 1232هـ.

ومن بين العلماء الذين نسبوا إلى مدينة قسنطينة نذكر أيضا: أبي زيد الحاج عبد الرحمان بن عبد الله القسنطيني⁽¹⁾ لا نعرف الكثير عن تاريخه لأن الذين ترجموا له اكتفوا بالقول بقولهم العالم العلامة والبحر الفهامة الأستاذ اللغوي العادل الرضى الحاج عبد الرحمان بن عبد الله.

يبدو للباحث أنه كان من رجال التصوف لأن المترجمين له بينوا بأنه كان حارسا على نفع العباد ونفع الأمة بهاله وعلمه منقطع القرنين في حفظ الجناح ولين الجانب صاحب الكرامات الظاهرة والعلوم المتعددة النافعة.

لعل من أهم العلوم التي اشتهر فيها أنه كان يقرض الشعر الملحون منها هذه القصيدة التي تحتوي على مائة وسبعين بيت يبدأها بالقول:

بسم الله نبتدي والصلاة على الهادي

لطريق الرشدي المهدي للسبيل

بعدها يتعرض إلى علم الفرائض ويبين أركان الوضوء والطهارة بعدها يتعرض إلى الصلاة وشروطها ثم أحكام الزكاة والحج والصيام ومن بين العلماء الذين نسبوا

(1) لمؤلف مجهول، أنساب تيمي، ورقة 15.

لمدينة قسنطينة العالم الجليل خالد القسنطيني⁽¹⁾ لا نعرف تاريخ مولده لأن الذين ترجموا له لم يذكروا مراحل حياته بل اكتفوا بالقول بأنه كان عالما علامة تتلمذ عن الشيخ سيدي محمد الونقالي.

العائلة الجنتورية:

وهناك عائلة علمية تنتسب إلى جنتور نذكر من بين العلماء الذين تمكن من معرفتهم من خلال هذه التراجم المختصرة الحاج عبد الرحمان الجنتوري لم يذكر المترجم له الشيء الكثير عن حياته بل اكتفى بالقول كان عالما عاملا علامة حفاظا أدبيا ورعا للعلوم الفقهية تتلمذ على الشيخ عمر بن عبد القادر التينلاني توفي سنة 1160

ومن العلماء الذين نسبوا إلى جنتور نذكر محمد بن سيدي الحاج عبد الرحمان الجنتوري⁽²⁾ لم نعرف الشيء الكثير عن حياته لأن المترجم اكتفى بالقول أحد العلماء العاملين تتلمذ عن والده

العائلة العلمية الفلانية⁽³⁾:

من بين العائلات العلمية بولاية أدرار عائلة الفلانيين وفي مقدمة هؤلاء:

أحمد بن محمد بن مالك الفلاني ولد سنة 1283 بقص الساهل ببلدية أقبلي دائرة أولف ولاية أدرار.

شيوخه: درس في سن مبكر فحفظ القرآن ثم التحق بالمدراس العلمية فتتلمذ على عمه الشيخ حمزة بن الحاج والشيخ المختار بن السيد العالم وهو الذي اقترح عليه أن يؤلف شرحا على المقدمة الأجرومية تلقى العلم على مجموعة من الشيوخ بداخل البلاد وخارجها مما ساهم في تكوينه العلمي.

(1) لمؤلف مجهول، أنساب تيمي، ورقة 16.

(2) نفسه، ورقة 16.

(3) نفسه، ورقة 17.

من مؤلفاته: شرح على المقدمة الأجرومية في النحو سماه تفريج الغموم على متن ابن أجروم وهو شرح قيم مفيد يحتوي على فوائد نفيسة وهو في غاية الوضوح يسهل على الطالب إفادة منه يقول في مقدمته أن الفقيه سيدي محمد بن العالم هو الذي طلب منه أن يكتب له تعليقا مختصرا على مقدمة ابن أجروم لبعض تلاميذته ليستعينوا به على فهمها ينتفع بها المبتدئ إن شاء الله ولا يحتاج إليه المتتهي كتبته للأطفال للممارسين من فحول الرجال فأجبتة نتوصل من خلال هذه المقدمة أن باقلي مجموعة من المستويات الدراسية فهناك المبتدئين الذين يحتاجون إلى كتب مبسطة لكي يتمكنوا من فهم المعارف العلمية ومن تلك الكتب النحوية لأنها مهمة بالنسبة للمبتدئين وله رسالة ردا على كلام الشيخ الكنتي في مسألة الشفعة.

إجازته العلمية⁽¹⁾:

تحصل الشيخ على مجموعة من الإجازات العلمية إجازة عمه الشيخ حمزة يقول في هذه الإجازة بعد المقدمة أني قد أدنت له في جميع ما يصلح لي عني بالشروط المعتر عند أهله من قراءة وإقراء جميع العلوم الشرعية الإسلامية فقها وتفسيرا وجميع العلوم اللسانية نحوا وصرفا ولغة وبيانا ومنطقا وأصولا.

في هذه الإجازة لم يذكر الكاتب كعادة العلماء بإقليم توات حيث يذكرون الكتب التي أجازوها تاريخ الإجازة أو آخر رمضان 1313، الإجازة الثانية من العالم الجليل إسماعيل بن وديعة الله السلاوي يقول أجازة إجازة كاملة كما أجازة الشيخ أحمد بن أبي بكر الكنتي الوافي إجازة متصلة مسلسل لا انقطاع لها ولا انقصاص.

من بين العائلات العلمية بولاية أدرار عائلة الفلانيين وفي مقدمة هؤلاء أحمد بن محمد بن مالك الفلاني.

(1) الشيخ باي، المرجع السابق، ص 131.

شيوخه: درس في سن مبكر فحفظ القرآن ثم التحق بالمدراس العلمية فتعلم على عمه الشيخ حمزة بن الحاج والشيخ المختار بن السيد العالم وهو الذي اقترح عليه أن يؤلف شرحا على المقدمة الأجرومية تلقى العلم على مجموعة من الشيوخ بداخل البلاد وخارجها مما ساهم في تكوينه العلمي.

علماء تنجريين:

المنطقة المعروفة بجزارة بتنجريين من المراكز الهامة بولاية أدرار وربما تعتبر من بين المناطق الأولى التي عرفت استقرارا بشري.

ولا يمكن للباحث أن يقوم باحصاء علمائها لأننا لم نتمكن من معرفة كل خزائنها العلمية ومعرفة تلك الخزائن ثم دراستها يمكن للباحث أن يتعرف على العلماء الذين أنجبته هذه الناحية من الوطن العزيز علينا، من علمائها المعروفين لدينا لحد الآن نذكر على الخصوص:

الشيخ عبد الرحمان بن إبراهيم الجنتوري⁽¹⁾ توفي بأولاد في القرن الثالث عشر الهجري من بين إنتاجه العلمي الزرقاني على مختصر الشيخ خليل في أربع مجلدات شرح المواق على مختصر خليل ويحتوي على مجلدين كبيرين منظومة العلامة بن سينا في الطب تحتوي على ما يقرب من ألف بيت، كتاب الدراية يحتوي على أربعة عشر علما منها أصول الدين، التفسير، علم الحديث، أصول الفقه، علم النحو، علم الصرف، علم الخط، علم المعاني، علم البيان، علم البديع، علم التشريع، علم الطب.

كتاب مجموعة يحتوي على 39 علما منها الأدب، اللغة، المعاني، العروض، البديع، قوانين الكتابة، قوانين القراءة، المنطق، النفوس، القراءات الحديثة، التفسير، الجدل، الطب، الغراسة، التعبير، الكيمياء الأكرس، الفلاحة، الأخلاق، تدبير المنزل، الهندسة، الحساب، الهيثة، الشعوذة.

(1) الشيخ باي، المرجع السابق، ص 132.

محمد بن أحمد العالم الزجاجي له مجموعة من المؤلفات منها الفتاوى المعروفة بنوازل ابن العالم وهو كتاب قيم يتعلق بالأوضاع الاجتماعية للمجتمع التواتي وله ألفية الغريب في علوم القرآن تشتمل على ألف بيت جعل عليها الشيخ باي شرحا سماه ضياء المعالم في شرح ألفية الغريب لابن العالم الغريب المكرر وقواصر السور أي الكلمات التي لم ترد في القرآن إلا مرة واحدة في سورة معينة ومعرفة الوجوه والنظائر استهلها بقوله:

الحمد لله الذي قد شرفنا مباحث التفسير فيما عرفنا
وجعل انتحاله في الأجر مثل الشهادة النفيس الدخر

وله شرح على التلمسانية في الفرائض وشرح على المرشد المعين.

عبد الرحمان بن إبراهيم بن عبد الرحمان الجتوري من بين الذين ترجعوا له الشيخ عبد الرحمان بن يعمر في فهرسته يقول في شأنه: شيخنا الإمام العالم العلامة المحقق النظار الفهامة المتفنن أبو زيد سيدي عبد الرحمان بن الفقيه سيدي إبراهيم بن العلامة المشارك سيدي عبد الرحمان أصل سلفه من بلاد تيطاف من توات ثم انتقلوا لأن صالح من بلاد تيديكات ثم انتقل جده المذكور لجتور من بلد تجورارين واستوطنها.

يبدو من النص كثرة تحركات السكان بين قصور هذه المنطقة ومن بينهم العلماء.

وعن شخصيته علق عليه الشيخ باي بقوله: (كان رحمه الله عالما محققا نظارا صالحا ورعا نزيها عفيفا ذو صلاح وعفة من نشأته إلى وفاته مشغلا ما يعنيه ملازما للقراءة والإقراء والمطالعة والتأليف والتقيد مدة عمره)⁽¹⁾.

تلمذ على مجموعة من علماء توات ذكر من بينهم في بلده عن والده المذكور وعن ابن عمه الفقيه المبارك سيدي عبد العلي بن أحمد بن عبد الرحمان من بين الكتب التي

(1) الشيخ باي، المرجع السابق، ص 137.

قرأها عليهما المختصر والألفية والقليصادي إلى الجذور وكان أيضا من رجال التصوف ومن بين كتب المتصوفة التي أخذها عنهما الوفاق الخمس الخالي الوسط على طريقة الزجلوية ولازمه مدة يظهر من النصوص المخطوطة أن علماء توات كانوا شديدي الترحال داخل توات وخارجها للأخذ عن علماء عصرهما لهذا حاول هذا العالم الجليل القيام بالرحلة لفاس للأخذ عن علمائها لكن وصول أبي حفص لتوات جعله يتخلى عن الرحلة للأخذ عليه وفي هذا الصدد يقول: ثم رحل متوجها لمدينة فاس فردده أهله ثم لما بلغه قدوم الشيخ أبي حفص السابق لبلادنا رحل إليه فأقام عنده نحو سنة ونصف قرأ له دروسا من المختصر في أوائل البيوع وجمع الجوامع والسلم والتلخيص ولامية الأفعال ودروا من صحيح البخاري وقرأ عليه الشروح من هذا الكتاب التي ذكرها هذا العالم الجليل التي كانت تدرس لطلبة توات، المختصر والرسالة والأجرومية والألفية وغير ذلك ولازمه وانتفع به وهو أجل من أخذ عنه في بلادنا ثم رجع لبلده فأقام بها مدة ثم رحل إليه ثانية وأقام عنده نحو ستة أشهر فقرأ عليه مختصر السنوسي في المنطق وعقيدته الكبرى وحضر دروسه في المختصر وغيره ثم رجع لبلده.

نلاحظ على النص أن طلبة توات كانوا عندما تصلهم أخبار عن وصول أحد العلماء للمنطقة كانوا يرتحلون للمكان الذي يقيم فيه وكان في أغلبه زوايا المنطقة التي توفر لهم الإقامة فيمكثون مدة لتلقي العلم ثم يعودون لبلدانهم مرة وفي بعض الأحيان كانوا يحضرون المجالس العلمية وهم في سن لم يبلغوا الحلم وفي هذا الصدد يقول: (ولما قدم المرة الثانية وجدني صبيا وقد ناهزت الحلم وأنا أقرأ القرآن في المكتب وحضرت مجلس شيخنا أبي حفص المذكور فلما جالسته وقع في قلبي حبه فكنت لا أفارقه بعد خروجنا من المكتب إلا في أوقات الضرورة وألفني هو أيضا وكذلك أترابي ومن قارباني من صبيان المكتب فطلبنا منه الإراء فأجابنا إلى ذلك فحضرت دروسه في الصغرى والمرشد المعين والقرطبية والدرر واللوامع والأجرومية والألفية) ونجد في

بعض الأحيان كان الطلبة النجباء يقومون بمراجعة الدروس لزملائهم وفي هذا الصدد يقول: (ونحضر مذاكرته مع الطلبة في دروس الشيخ أبي حفص واستفدنا منه أضعاف ما استفدنا من شيخنا أبي حفص لانبساطه معنا ومداعبته وصبره على جفائنا فأحببناه حبا شديدا).

فلما رجع لبلده حزنا لفراقه ثم ما رجع في المرة الثانية فرحت لذلك فرحا شديدا ولازمته وابتدأت عنه قراءة الألفية حتى بلغت أعراب الفعل فلما عزم على الرجوع لبلده حزنت لذلك وأخذني من الغم ما لله أعلم به فأستذنت أبوي الشيخ أبا حفص على الرحيل معه لبلده فأذنوا لي فرحلت معه وابتدأت عليه المختصر وما بقي من الألفية وقرأت عليه الحديثين الأولين من الأربعين النووية والجزئين الأولين من مختصر القلصادي في علم الحساب وحضرت دروسه في الرسالة وغيرها وأقامت عنده نحو سنة وأربعة أشهر ثم رجعت لبلدي وأقامت بها نحو خمسة أشهر ثم رحلت ثانيا فأقامت عنده سنة فأكملت عليه المختصر وسمعت منه صحيح البخاري إلى ما فاتني أولا من بعض مجالسه وكذلك الشفا ثم رجعت لبلدي ولازمت الشيخ أبي حفص المذكور وإنما كرهت الإقامة عنده وإن كان يسعفني بمرادي من الإقراء وإعارة الكتب أكثر من الشيخ المذكور لأنني استوخمت بلده ولم يوافقني هواها وأكثر إقامتي فيها وأنا مريض بالحمى ولم أعرف الحمى قبل رحلتي إليها ثم أني استجزته كما استجاز شيخنا أبا حفص المذكور فإنه أجازته إجازة عامة وخاصة فأجابني لما طلبته منه لحسن ظنه ومحبته لي فأجازني كل ما أخذته منه مكاتبة وناوليته بيده لما قدم للحج سنة خمس وخمسين ومائة وألف 1150.

أن الإجازة في ذلك العصر كانت بمثابة الشهادة في عصرنا ويذكر فيها المجيز الكتب التي درسها لطالب الإجازة وفي بعض الأحيان سندها ويتجلى لنا من خلال تصفحنا لفهرسة التينلاني في إجازة شيوخه له إذا أصبح طالب الإجازة متمكنا من

العلوم يطلب منه شيخه أن يجيزه هو الآخر وفي هذا الصدد قال: وقد طلب مني أن أجيزه في ما أخذته عني فحملني من ذلك أمرا وأرهقني فيما ندبني إليه عسرا لما رأيت أني لست أهلا لأن أجاز، فضلا عن أن نجيز:

ولكن البلاد إذا اقشعرت فحق موايها الراعي الهشيم

فأسعفته في ذلك، وإن لم أبلغ رتبة أولئك، لأن من أنتسب لقوم عد مثلهم، وإن لم يحصل له ما حصل لهم فأجازته إجازة مطلقة في كل ما أخذته عني ومنهم الفقيه أبو عبد الله محمد عبد العلي من بين الشيوخ الذين تتلمذ عنهم أبي عبد الله سيدي محمد عبد العلي ومنهم محمد بن أبي زيد عبد الرحمان بن خلدون وهذا الإمام الشهير ابن عبد السلام الهواري ومنهم العالم الأجل محمد العربي بردلة رحمه الله تعالى وغيرهم ممن أصروهم بفاس ولما قفل من حجة رحلت إليه.

كان رحمه الله أعلم من لقيته بالأصول والقواعد الفقهية فاق في ذلك شيخنا أبا حفص المذكور فضلا عن غيره عارفا باستخراج الفروع والنوازل منها وبدها إليها ولقد قال لي يوما وددت أني وجدت طالبا حادقا إقراء مختصر الشيخ خليل على أن أسند كل مسألة منه إلى أصلها، وانتهت إليه الرئاسة في الفتوى والتدريس بمنطقة توات تجمارين بعد وفاة الشيخ أبي حفص وكان إذا رفع إليه سؤال في نازلة يشجن جوابه بالمعقول ويطيل فيه النفس فإذا وقف عليه من فقهاء العصر من الإمام له في القواعد انكاره واستطاله ظنا منه أنه لا طائل تحته وذلك من جهله من جهل شيئا عاداه وقلما جاء سؤال في كاغد إلا وملاه بجوابه بديهة رحمة الله، وكانت بينه وبين شيخنا أبي حفص رحمهما الله مراجعات في مسائل لم يرجع أحدهما فيها لصاحبه حتى توفي أبو حفص وطالت بيني وبينه المراجعة في بعضها بعد هو ذلك أني كنت استصوبت رأي أبي حفص فيها فلم يزل يراجعني حتى رجعت لرأيه ووقع لي في ذلك معه في مسائل وتلك عادته رحمة الله على كل من خالفه لا يزال يراجعه بالمعقول والمنقول كان شديد النكير على قضاة العصر في

هذه البلاد وهم محقوقون بذلك الشدة جهلهم وجورهم ومخالفتهم السيرة وتغييرهم الشريعة في كثير من أحكامهم حتى صاروا عوام غير بلدهم ممن يرد عليها من أهل سجلماسة وغيرها من السؤال قضاة بلده ينكر ذلك عنهم ويقول شريعتنا تخالف شريعتكم جهلا منهم وما يدرهم أن الشريعة لا تتخالف وإنما يخالفها من يعطأها وليس من أهلها جهلا أو جورا وهو لاجتمع فيهم الأمران نسأل الله العافية فيما خالفوا فيه الشريعة أنهم يقبلون من المدعي الشهادة في الكاغد ولو كان الشاهد حيا ولا يكلفونه الإتيان به لأدائها ولا التعريف بخطه وزمن ذلك أنهم يحكمون بالأقوال المرجوحة إذا وقفت هواهم ويزعمون أن ذلك يسوغ لهم وهو خلاف الإجماع ومن ذلك أنهم يحكمون ببيع عقار الحاضر في الدين قبل الأعذار إليه وعجزه عن ذلك، ومن ذلك أنهم يحكمون في الموارث من غير تكاليف القائم إثبات الموت وعدة لوارثته، ومن ذلك أنهم يحكمون لى الغائب واليتيم من غير تسمية الشاهد وكثيرا ما يتساهلون في تحليف القائم يمين القضاء وغير ذلك من جهلهم وجورهم.

هذه النصوص التي أوردها هذا العالم الجليل تؤكد الدور الذي كان يقوم به القضاة في المجتمع التواتي لأنهم هم الحكام الشرعيون ولكنهم حسب ما أورده الكاتب أنهم انحرفوا على الشريعة ولم يطبقوا أحكامها في مجموعة من القضايا التي كانت تطرح عليهم في مجالسهم منها قبولهم الشهادة على الورق دون حضور الشاهد لأن الشريعة تنص على حضوره للدلاء بشهادته أمام القاضي وكذلك ويقع العقار الحاضر في الدين دون إثبات الوفاة وكذلك الوراثة وهو ما يتعارض مع الشريعة الإسلامية.

ألف رحمه الله تأليف نظما ونثرا يبدو أن المؤلف في موضوع شرحه لمختصر خليل لم يكتفي بشرح المختصر فقط بل تعرض لبعض شراحه الذين سبقوه ومنهم الزرقاني الذي لا تخلوا خزينة من خزائن أدرار من كتابه شرح مختصر خليل وبهذا نرى بأن علماء توات لم يكونوا مقلدين بل أبدعوا في أمور تتعلق بالعلوم الفقهية مما يؤكد كثرة

اطلاعهـم وهو ما يؤكد قوله: منها شرحه على المختصر ومنها ما يتعلق بكلام شارحه الشيخ عبد الباقي الزرقاني وكان شديد النكير عليه حتى يسبه في بعض المواضع لخرق الإجماع وكان يطيل النفس فيما خالف فيه قضاة وقته ومفتوه مقتضى المذهب، ثم أنه ابتداء من أول المختصر شرحا أقتصر فيه غالبا على إسناد مسائله لأصولها ومنها منظومتان في علم الكلام رائقتين ولامية ضمنها محصل كلام السنوسي في عقائده وشروحها وهما في غاية الإفادة قرأتها معا عليه.

يتجلى من النص أن العلماء في توات كانوا يقومون بتدريس كتبهم لطلابهم وهو ما جعل التينلاني يعلق على ذلك بقوله قرأتها معا عليه كما نجد هؤلاء الطلبة يساهمون في تصحيح مؤلفات شيوخهم وعلى الخصوص إذا كان هذا الشيخ غير متمكن في علم من العلوم وهو ما يؤكد المؤلف بقوله: (إلا أنه رحمه الله لم يتقن فن العروض والقوافي فلذلك يوجد فيهما من عيوبهما كثيرا وقد أذن لي رحمه الله في إصلاح ما ظهر لي من ذلك فيهما فأصلحت ما أمكنتي)⁽¹⁾. منها شرحاه عليها وهما أيضا في غاية الإتقان

وله منظومة في قضاء الدين سماها معونة الغريم مفيدة ضمنها مسائل لا توجد مجموعة في غيرها، ومنها شرحه عليها وهي منظومة في التصوف ضمنها فن التصوف من نقاية السيوطي وخاتمه جمع الجوامع وأخبرت أنه نظم قصيدة في الفائض توفي رحمه الله في 3 جماد الأولى سنة ستين ومائة وألف 1162.

كان رحمه الله ملازما للتدريس مدة عمره إلا ما عورض له من السفر والمرض درس في التفسير والحديث وعمدة الأحكام وغيرها وأصول الفقه وفروعه وعلم الكلام وعلم الفرائض والمنطق والحساب والنحو.

عبد العزيز نجل العلامة سيدي محمد بن عبد الرحمان ذكر أن حم بن الحاج محمد بن الحسن قال: كان عالما فقيها أديبا وله معرفة بعلم الطب وأخذ عن شيخه محمد الونقالي.

(1) لمؤلف مجهول، أنساب تيمي، ورقة 11.

الشاذلي بن الشيخ سيدي عمار بن عبد القادر التلاني لم يذكر ازدياده ولا وفاته وإنما قال توفي في مدينة فاس وقال توفي 1173.

أبو زيان بن سيدي الحاج عبد الرحمان توفي بفاس مع ابن عمه الشاذلي 1181.

محمد بن أحمد المطارفي رحمه الله قال عنه: كان إماما صالحا ماهرا في الفقه والتفسير وتولى التدريس بعد شيخه سيدي محمد الونقالي.

عبد الله سيدي محمد بن موسى الجعفري كان رحمه الله إماما عالما في الفقه وله شعر جيد وكان صالحا أديبا أخذ عن شيخه محمد أونقالي وعن يدي محمد الزجلاني وسافر لفاس وأخذ عن علمائها ومنهم التاودي الذي حظ مجلسه وختم عليه البخاري خمسة عشر مرة وذكر هنا قضية (طابا) أي الشمة التي أفتى الكثير من العلماء ببخثها وجتمها وتوفي رحمه الله عام 1245.

عبد الله بومدين بن أبي بكر قال عنه صاحب الدرة كان رحمه الله أحد الأعلام وأحد الأئمة المجتهدين في العصر أخذ التجويد عن والده وأخذ العلم عن شيخه محمد بن أحمد الزجلاني وكان عديم النظير في العلم على اختلاف فتنه وكان من أعيان العلماء ومشاهير الفضلاء وكان ذا ثقة صالحا توفي سنة 1231.

عبد الله بن محمد عبد الله كان عالما صالحا وهذا العالم نجهل تاريخ حياته أخذ عن شيخه الحاج محمد بن عبد الرحمان البلبالي أحمد بن عبد الرحمان بن المبروك كان عالما فقيها أخذ عن شيخه محمد بن سيدي عبد الرحمان البلبالي وعمر بن عبد الرحمان وعن علماء فاس. الحبيب بن أحمد بن عبد الله البلبالي كان عالما ماهرا في فنون كثيرة أخذ عن شيخه محمد البلبالي ومحمد عبد العزيز.

أبو عبد الله سيدي محمد بن أحمد الزجلاني رحمه الله كان من الأعلام المجتهدين

في عصره

من بين المحاورات العلمية التي دارت بين علماء توات نجد محاورات الشيخ حمزة وعلماء كوسام تتعلق بالصلاة في الغار⁽¹⁾ وتحت الهدم وبطلانها بين الشيخ حمزة بن الحاج أحمد القبلاوي من جهة وعلماء كوسام من جهة أخرى وتوجد أربعة رسائل تتعلق بالموضوع ثلاثة رسائل من الشيخ حمزة موجهة لعلماء كوسام ورسالة من هؤلاء له وهنالك محاورات بين علماء تمنطيط وتتلان تتعلق بالمرض المخوف⁽²⁾ وقد جرت المحاورات بين الشيخ محمد بن السيد عبد الرحمان التتلاي والفقيه عبد الكريم بن أحمد التمنطيطي وإن ما كتبه عبد الكريم التمنطيطي يتعلق بنازلة حجاج فيها فقد ظهر لي ولك في مسألة الحبس أن حيازته لا تصح عن الحبس في مرضه المخوف وبقي الكلام في وصف المخوف فإن قلت أنه يكفي الآن يقوم البيئة بأنه حبس وهو مريض مرضا مخوفا واتصل به ذلك المرض المخوف إلى أن مات مع كون الشاهد من أهل المعرفة بالأمراض فهذا لم يتضح لي فالأئمة وصفوا المرض المخوف فقالوا أنه ما أقعد صاحبه عن الدخول والخروج والتصرف ولم يقولوا مع هذا يرجع فيه إلى الأطباء بعدها يستعرض النصوص المتعلقة بعلماء المالكية ومنها ما يتعلق بالمرض المفلوج وقد أجابه عبد الرحمان التتلاي وردوده تتمثل فيما يلي:

أما قولك أنه لم يتضح لك كون الحبسي لا بد من شاهد بوقوعه في المرض أن يقول بأنه مرض مخوف أنه لا بد في الشاهد أن ينص عليه وأن الإهمال لا يفيد وهو مطروح في باب الشهادة وأما كون الشاهد لا بد أن يكون من أهل المعرفة بالأمراض وأن المعرفة بالأمراض لازمة للمعرفة بين المخوف وغيره.

والأئمة لم يوصفوا المرض المخوف ماعدا ابن الحكم ثم بعد ذلك تأتي الإجابة لعلماء توات عن النازلة ومن بين هؤلاء مجد الزجلاوي.

(1) الشيخ باي، المرجع السابق، ج2 ص 101، 111

(2) نفسه، ج2 من ص 93 إلى 96.

والمحاورة طويلة وهي تشبه ما حدث بين علماء بجاية وتلمسان في قضية الشرف من طرف الأم.

محاورة بين الشيخ محمد بن السيد عبد الرحمان التلاني والفقيه السيد عبد الكريم بن أحمد التمنيطي جاء في الرسالة التي كتبها بعد الحمد لله والتصلية والشكر وبعد فقد ظهر لي ولك في مسألة الحبس أن حيازته لا تصح عن الحبس في مرضه المخوف وبقي الكلام في وصف المخوف فإن قلت أنه يكفي إلى أن يقوم البينة بأنه حبس وهو مريض مرضا مخوفا واتصل به ذلك المرض المخوف إلا أن مات مع كون الشاهد من أهل المعرفة بالأمراض فهذا لم يتضح لي أن الأئمة رحمهم الله وصفوا المرض المخوف فقالوا أنه ما أقعد صاحبه عن الدخول والخروج والتصرف ولم يقولوا مع هذا يرجع فيه للأطباء، وأما قوله في المسائل الملقوطة ويرجع فيه إلى معرفة الطبيب بأن الهلاك فيه كثيرا فلعله في المرض الذي لا نص فيه آخر وهذا صحيح لكن إذا قامت البينة العادلة بالصفة التي وصفها الأئمة فمن أعى أن المريض على ذلك الوصف إنما مات بحدوث مرض آخر وهذا إن فرضنا أن المرض المتصل بالموت يحتاج فيه بعد الموت منه إثبات كونه مخوف، وقد أجاب عن ذلك محمد عبد الرما ما نصه: أما قولك فإنه لم يتضح لك كون الحبس لا بد من شاهد بوقوعه في المرض أن يقول بأنه مرض مخوف وأن يكون ذلك إلا هذا من أهل المعرفة بالأمراض إذ كانت تروم اتضاحه فألق سمعك لما يتلى عليك وطهر سريرك من دسياسة التعصب فإن فعلت ظهر لك من اشتراط الأئمة في التبرعات الواقعة في المرض أن يكون ذلك المرض مخوفا أنه لا بد في الشاهد بذلك أن ينص عليه وأن الإهمال لا يقيدوه مطروح في باب الشهادة لأن بطلان التبرعات في المرض لازم كونه مخوفا وقد علم بالقوانين العقلية أنه إذا لم يكن الملزوم وهو شرط في بطلانها وقد علم أن الشرط يلزم من عدمه العدم فإذا سلم وجود الملزوم وثبوته إنما يكون بطرف الإثبات إلى منها الشهادة وهي المتعينة هنا والشهادة لا تكون إلا بالتصريح فإن بهذا الدليل العقلي أنه لا بد من النص على أن المرض المتنازع فيه مخوف.

وأما كون الشاهد بذلك لا بد أن يكون من أهل المعرفة بالأمراض فما لخفاء فيه زاد شادته بكونه مخوفا ملزومته معرفته بالفرق بين المخوف وغيره وإلا لم تصح شهادته لعدم الأمن عليه من التباس المخوف وغيره لأن المعرفة بالأمراض لازمة المعرفة بالرق بين الموف وغيره والمعرفة بالفرق المذكور لازمة للشهادتين فتعين المرض المخوف وصحة الملزوم توجب صحة اللازم يجب بطلان الملزوم وبهذا الدليل العقلي يتضح لك ما ذكرت أنه لم يتضح وأما الدليل الثقلي فغير محتاج له في هذا المحل وأما قولك أن الأئمة وصفوا المرض المخوف فأقول: لم يصفه بذلك إلا ابن الحكم في رواية على ما نقله الباجي كما في مختصر ابن عرفة فتعبرك بما يفيد العموم وأما قولك ولم يقولوا مع أن هذا يرجع فيه إلا الأطباء فأقول: إذا وقفت إلى ما عرف به غير واحد لمرض المخوف ظهر لك صحة نقيض كلامك لأن ابن الحاجب قال في تعريفه ما نصه: والمخوف ما يحكم الطبيب بأن الهلاك فيه كثيرا ومراده بالكثير أن يكون الموت من هذه الأشياء شهيرا لا يتعجب من حصول الموت معه إلى بخلاف الجرب إلى غيره.

وأجاب على ذلك سيدي محمد بن صالح البكري وبعد فما قيد بمخوله وأعله من عارضه ظاهرا وأجاب عبد الحق البكري فقالوا بعد فما كتبه ابن شيخنا في المرض المخوف بمخوله وأعله في معرض من عارضه صحيح وكتب الزجلاني فما كتبه صاحبنا محمد بن شيخنا أبي زيد عبد الرحمان بن عمر رحمه الله بمخوله وأعله صحيح.

محاورة بين علماء ملوكة وزاجلوا في ما جمع الأحباس هذه المحاورة كانت بين عبد العزيز بن محمد بن عبد الرحمان البلبالي مع محمد بن عبد القادر بن محمد الصالح ومحمد بن أحمد وعبد الله بن محمد بن عبد الكريم الملقب بالحاجب وأحمد بن عبد الرحمان بن عيسى الأكلوي من الساورة والفقهاء المدني بن الكبير الفلالي وعبد الله بن الحسن العالم.

والمسألة من غنية المقتصد السائل سئل عنها أولا عبد العزيز البلبالي ونصها: مسألة حبس عقد السيد أحمد بن يعيش بن أحمد في جنازه وسماه بحدود على أولاد

محمد ضما والحبيب والتقي ومحمد فتحا يقتسمونه أرباعا لا فضل لواحد على آخر ثم على أعقابهم الذكور ثم على أعقاب أعقابهم وكل عقب فهو بمنزلة من أدلى به من المحبس عليهم قل أو كثر كل واحد يتبع قسط أصله ومن مات المحبس عليهم دون عقب ذكر يرجع نصيبه لإخوانه أو أعقابهم الذكور.

من بين الذين أجابوا على النازلة أحمد بن عبد الرحمان بن عيسى الأكلوي من بلاد الساورة فأجاب بأن لجواب في الفصل الأول من المسألة وما عداه خبط عشواء وعويل وضيج ليلتفت إليه في هذه النازلة لأن المحبس صرح بأن الأعقاب بمنزلة أبناء الصلب وأبناء الصلب فيهم التسوية وكذلك سائر الأعقاب لا يأخذ عقب واحد منهم إلا من كان لأبنيه تعدد أو انفرد فإن شرط المحبس يجب اتباعه ولا سوغ العدول عنه بوجه من الوجوه إلا إذا كان والله أعلم.

وأجاب الأكلوي:

محاورة بين علماء كوسام وأقبلي في حكم الصلاة في الغار كانت هذه المناظرة بين الشيخ حمزة بن الحاج القبلاي من جهة وعلماء كوسام من جهة أخرى وتوجد المناظرة في أربعة رسائل تم تبادلها بين هو العلماء ثلاثة رسائل من الشيخ حمزة وواحدة من علماء كوسام ونص ما كتبه علماء كوسام وبعد فمعلوم من الدين ضرورة أن التوجه في الصلاة إلى جهة الكعبة المشرفة واجب لا تصح الصلاة بدونه على الدوام وأن الصلاة أحد أركان الإسلام الذي من حاد عنه فقد حاد عن سبيل الإسلام وأن المراد بالكعبة بناؤها لا البقعة من المسجد الحرام قال خليل وبطل فرض على ظهرها قال شارحوه وكذا في جوفها فيعاد أبدا ولو كان بين يديه قطعة من سطحها بناء على أن المأمور به جملة البناء لا بعضه ولا الهواء خلافا لأبي حنيفة في اعتبار الهواء واكتفائه بقطعة من سطحها وتكلم المصنف عن الصلاة في جوفها وفوقها دون تحتها لأحرويته بالبطلان من فوها قال سند فلو جوزنا الصلاة في الكعبة أو على ظهرها لم تجز في سرب

تحتها أو مطمورة لأن البيوت شأنها أن ترفع وليس شأنها أن تنتزل وذلك يحكم بأن سطوح المساجد كالمساجد في الأحكام بخلاف ما لم لو حفر بيتا تحتها فإنه يجوز أن تدخله الحائض والجنب ومقتضاه بأن الصلاة تحتها فرضاً أو نقلاً.

قال بعضهم لكن محل ذلك لم يكن ضرورة أو خوف من كسبع بدليل ما تقدم له أول الأبواب من أن الاستقبال إنما هو شرط بالقدرة ويجري فيمن حفر مطهرة تحتها فإنه لا تصح صلاته فيه ومن الداسوقي تنبيه سكت المصن عن حكم الصلاة تحت الكعبة في حفرة وقد تقدم الحكم بطلانها مطلقاً فرضاً أو نقلاً لأن ما تحت المسجد لا يعطى حكمه ألا ترى أنه يجوز للجنب الدخول تحتها ولا يجوز له الطيران فوقها.

يرد عليه علماء كوسام فيقولون قال الله تعالى وحينا كنتم فولوا وجوهكم شطره وحيثما لتميم مكة كما في المنهج السالك وفي الشيخ خليل وإلا يكن بمكة أو جامع عمرو أو بمسجد المدينة فالأظهر جهاتها اجتهدا.

قال الزرقاني فمعناه المشهور الإجتهد في استقبال جهتها فقط ولا يلزم منه تقدي مساماتها بتقدي أنها لو نقلت، أما المصلي لهما من أي مكان كان موجهها لها وبهذا علم صحة صلاة الصف الطويل لغير من بمكة... الخ.

وفي نقل البناني عن التوضيح من بعد عن مكة الأول فيه لأحد أن أوجب عليه الكعبة ومقابلتها فإن ذلك تكليف بها لا يطاق وفي الزجلاوي ما نصه وأورد على الثاني من القولين أن لا تصح صلاة الصف الطويل الزائد على طولها وعرضها هو خلاف لإجماع.

وفي الداسوقي بعد كلام ما نصه: فالواجب على المصلي أن القبلة في الجهة التي أمامه ولو لم يقدر أنه مسامتها ومقابل لها.

وقال في التمهيد القول المختار عندنا أن الوادي وغيره من بقاع الأرض جائز أن يصلي فيها ما لم تكن فيها نجاسة، تاريخ الرسالة ربيع الأول 1334.

إجابة الشيخ حمزة وأما ما أشرت إليه من المراجعة فمعلوم أن الصع بالحق سنة معلومة وتبينه طريقة واجبة محتومة لكن في وقتها ومع أهلها إذ رأيت في زمننا هذا مما يورث الضعائن ويورث الحقد الكامن لفساد الزمان بفساد أهله أنه الزمن الذي يرجع فيه الدين لأصله من ضعفه وغرته بندور المعني به وقلته كما قال ﷺ: بدأ هذا الدين غربا وسيعود غربا فطوبى للغرباء من أهله.

العلوم:

فالدارس لتراث التواتين وعلى الخصوص الإجازات العلمية التي منحت لعلماء توات من قبل شيوخها نجد أهم هذه العلوم:

الفقه:

اهتم علماء توات بالفقه المالكي لأنه من بين المذاهب التي سادت في توات لأن علاقة هذه الأخيرة كانت مع المراكز التي تدين بالفقه المالكي سواء في الجزائر أو المغرب الأقصى لكن هذا لا يمنع من القول أن هؤلاء لم تكن لهم معرفة بالمذاهب الأخرى على الخصوص كتب السنة فالعارف لخزائن توات يجد بالإضافة إلى أمهات مصادر الفقه المالكي بعض الكتب لمذاهب أخرى لكنها قليلة وحتى الكتب التي تدرس في زوايا توات أغلبها كتب مالكية نذكر منها على الخصوص متن ابن عاشر ورسالة أبي زيد القيرواني ومختصر خليل والعاصمية.

لم يكن هؤلاء العلماء مدرسين لكتب المالكية بل كانت لهم تأليف نذكر منها تأليف الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي بعنوان مغتي النبيل في شرح مختصر خليل وكذلك الشيخ عبد الكريم بن محمد الذي له حاشية على مختصر اللقاني على ابن الحاجب وشرح على مختصر خليل ومحمد بن العلم ألف كتاب في نوازل الزلقاوي.

يتضح مما سبق أن علماء توات لم يبدعوا في هذا العلم بل اكتفوا بالشروحات وهو ما يتماشى مع عصرهم الذي اشتهر بالشروحات على أمهات الفقه المالكي وعلى الخصوص مختصر خليل وفي أصول الفقه نجد اهتمام علماء توات بهذا الفن قليل لأن ما توصلنا إلى معرفته هو كتاب الشيخ سيدي محمد العالم الذي وضع حاشية على شرح علي بن عبد الرحمان المنجور لكتاب المنهج المنتخب إلى قواعد المذهب المالكي.

علوم القرآن:

كان لعلماء توات مساهمة في هذا العلم ونجد كتب قيمة تنتسب للتواتيين في هذا الفن نذكر منها على سبيل المثال كتاب الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي المعروف بالفتح المبين في شرح القرآن الكريم وكذلك كتاب الشيخ عبد الرحمان التتلاي المعروف باسم الدر المصون في إعراب القرآن الكريم ولمحمد بن العالم الزقلاوي منظومة في تفسير غريب القرآن.

علوم اللغة:

اشتهر علماء توات في علم اللغة لأنها كانت من بين العلوم التي كثر الإقبال عليها في مدارسهم وزواياهم فلا تخلوا ترجمة لعالم من العلماء من ذكر أنه عالم في اللغة لكن الذين اشتهروا منهم نذكر على سبيل المثال عبد الكريم بن محمد التمنيطي الذي ألف كتاب بعنوان غاية الأمل في إعراب الجمل وحاشية على العيون الغامزة على خبايا الرامزة والكتابين هما شروح لكتب أخرى في علم اللغة ولعل ممن أبرز الذين ألفوا في هذا الفن العالم الجليل ابن أب المزمر الذي ألف كتاب بعنوان نيل المراد من لامية ابن المجراد وروضة النسر في مسائل التمرين.

التاريخ والتراجم:

الدارس لمنجد كتب ذات قيمة علمية مثل ما كتب في حواضر المغرب الإسلامي بل نجد معلومات قليلة جدا ترجع إلى ما بعد القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي.

السيد أبو بكر بن سيدي المحجوب التمنيطي له قصائد وفتاوى مختلفة.

الزاب:

مفرده زاب ويعتقد بعض الباحثين أن الزاب بالأمازيغية يعني الواحة بينما يظن البعض الآخر أن أصل التسمية جاءت من منطقة في العراق تكثر فيها الواحات وقد عرف ابن خلدون الزيبان بأنها وطن كبير يشمل قرى متعددة متجاورة جمعا جمعا أولاها زاب الدوسن ثم زاب مليلي ثم زاب بسكرة وزاب تهودة وزاب بادس وبسكرة أم هذه القرى وبالتحديد الزيبان تشمل المنطقة الواقعة جنوب الأوراس حتى شط ملغيغ ويتوزع كالتالي:

الزاب الغربي يقع غرب بسكرة ويشمل حاليا بلدية طولقة الغروس، برج بن عزوز، ليشانة، بوشقرون، فوغالة، والحاجب الذي يشكل القسم الشمالي منه وتشكل بلديات أوماش مليلي أورلال مخادمة وليوة فسمه الجنوبي.

أما الزاب الشرقي فيحتل الناحية الشرقية من بسكرة ويمتد حتى شمال الوادي فيشمل بلديات سيدي عقبة الشتمة، قرته، سريانة وغيرها من قرى المنطقة.

وادي ريغ يسميه ابن خلدون ريغة أو بلاد ريغة وتأتي التسمية من قبيلة ريغة التي كانت مضاربها تنتشر بتلك الناحية لكن صاحب معجم البلدان يرى أن ريغ كلمة بربرية معناها السبخة فمن كان منها يقال له الريغي.

وادي ريغ:

يبتدئ من بلدية أم الطيور التابعة لولاية الوادي عند شط ملغيغ شمالا ويمتد جنوبا لبلدية عمر وعاصمته مدينة توقرت يضم عدة واحات وبلديات أهمها على التوالي أم الطيور، أنسبغة، المغير، سيدي خليل، تندلو، الماراة، تقدادين، جامعة سيدي همران، ثمرنة الجديدة، سيدي راشد، مفر، المقارين، الزاوية تبسبست، يني يسود، تقرت، تماسبن، بلدة عمر، وينقسم إداريا بين ولاية الوادي⁽¹⁾.

(1) ابن خلدون، العبر، ج 6 ص 137.

سدراة⁽¹⁾:

قبل التعرض لورجلان لا بد من الإشارة إلى مدينة سدراة لا نعرف إلا الشيء القليل عنها.

سدراة اسم لقبيلة بربرية من بطون لواتة وهي سدراة بن نيطط بن لو يقع الباحث أمام إشكالية فيما يتعلق بمدينة سدراة بالنسبة لتاريخ بنائها ونسبها فيما يتعلق بالنقطة الأولى أن مدينة سدراة تنتسب إلى قبيلة سدراة مثل ورجلان التي نسبت إلى بني وركلان حسب ما ذكره ابن خلدون وأن قبيلة سدراة حسب رواية البكري خلال القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي لم تكن بعيدة عن موقع سدراة فكانت مضاربها حول مدينة بسكرة.

ويبدو من خلال النصوص التاريخية أن قبيلة سدراة كانت موزعة على مناطق المغرب الإسلامي فكانت من القبائل التي بايعت إدريس الأول خلال القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي.

مدينة سدراة قد تم اكتشافها سنة 1951 تقع إلى الجنوب الغربي لورجلان⁽²⁾.

اختلف المؤرخون في تاريخ التأسيس حيث ينقل الأستاذ مزهودي أن المدينة أسست منذ 720/101 والمصادر الإباضية تذكر أن المدينة كانت عامرة في هذا التاريخ وحتى الباحثة السويسرية التي قامت بالحفريات على هذه المدينة تتجه إلى نفس الاستنتاج حيث ذكرت بأن الإباضيين لم يكن لهم الوقت الكافي لتأسيس مدينة جديدة بعد سقوط تيهرت والأرجح أنهم استوطنوا المدينة وطوروا بنائها.

(1) ابن خلدون، العبر، ج 6 ص 137.

(2) نفسه، ج 6 ص 137.

ويذكر الأستاذ دبور أن سدراتة تحولت إلى عاصمة للإباضية بعد سقوط تيهرت وقبل تأسيس نظام العزابة المتفق عليه كانت سدراتة تتمتع بنظام إداري مشترك مع ورجلان يسمى الأعيان وبعد تأسيس الحلقة أصبح يديرها مجلس العزابة.

وأن التطور الذي عرفته سدراتة يرجع بالدرجة الأولى إلى موقعها الإستراتيجي على الطريق الذي يربط مدن المغرب الإسلامي في الشمال مع السودان الغربي فزادت أنشطتها التجارية مما ساهم في ارتفاع المداخيل وحسب معلوماتنا أن أول مؤرخ ذكر مدينة سدراتة هو أبو العباس أحمد بن سعيد الشماخي في كتابه الذي يحمل اسم وقائع نفوسة وفي نص آخر يقول أن في سنة 1274/673 خربت سدراتة والذي خربها يعرف بالقائد المنصور لكن بول بلانشي يرى أن سدراتة هدمت سنة 1077/470 من قبل الجيش الحمادي.

مدينة ورجلان:

الاسم:

قصر ورجلان العتيق وقع تعريفه بعدة أسماء منها وارجلان ورقلان وتلفظ ورقن ترجع هذا التسمية للقبيلة التي تواجدت مضاربها بتلك المنطقة حسب ما ورد عند ابن خلدون حيث يقول: (بنو وركلان هؤلاء إحدى بطون زناتة من ولد قرني بن جانا كانت فتتهم قليلة ومواطنيهم قبلة الزاب اختطوا المصر المعروف بهم)⁽¹⁾.

ابن خلدون كعادته عندما يتناول القبائل البربرية يشير إلى أصولها ومضاربها ومكانتها ويلاحظ على النص أن بنو ورجلان لم يكونوا من القبائل الكبرى التي لها تأثير في النشاط السياسي وقد فضلوا الاستقرار عن الرحلة بإقامتهم لمدينة ورجلان ويقول ليتلوا أن أصل اللفظ أمازيغي وهذه واريكلان ويتألف من جزئين وار يعني أبناء وهذا ما نجده في الوانشريس مثلاً ويكلان وهو جمع مفرد أكلي وهو الأسود أو الزنجي يصبح المعنى الكلي أبناء الزنج.

لكن يبدو أن هذا النص غير صحيح لأن مدينة ورجلان كانت في البداية حسب ما أورده ابن خلدون مسكونة من قبل القبائل البربرية وليسوا من الزنوج وأن هؤلاء تواجدوا بورجلان نتيجة للنشاط التجاري الذي كان يربط ورجلان بالسودان الغربي منذ عهد الدولة الرستمية

كما نجد اختلاف بين المؤرخين هل ورجلان تطلق على المدينة أو الإقليم ولعل هذا مرتبط بمراحلها التاريخية فالقرون الأولى للهجرة حتى القرن الثالث كانت تطلق على إقليم يحده شرقاً بلاد الزاب وغرباً وادي ميزاب وجنوباً مدينة سدراتة والقرى التابعة لها.

ومن بين الرحالة الذين تعرضوا لها ياقوت الحموي الذي قال عنها (ورجلان كورة بين إفريقية وبلاد الجريد وعاصمتها تسمى فجوة)⁽²⁾.

(1) ابن خلدون، العبر، ج 6 ص 418

(2) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ص 210.

نستنتج من هذا الوصف الذي أورده ياقوت الحموي الذي اعتمد على الرحالة في وصفه للمدن أن منطقتها كثيرة الاتساع تمتد من الجزائر إلى الجنوب التونسي وهذا البلد لهذا العهد باب الولوج السفر من الزاب إلى المفازة الصحراوية المقضبة إلى بلاد السودان يسلكها التجار الداخلون إليها.

ورجلان مدينة أزلية لها سبعة أبواب ولها سور حصين ومحيط به خندق ممتلئ بالماء خلف سورها وبها طائفة من الرافضة الإباضية مع أهل السنة ولهم مسجد مخصوص بهم لصلاتهم ولهم عصبية على أهل السنة لا يقدرّون على زجرهم وتقع بينهم الحرب ومشيختهم لبني ميزاب من طوائف زناتة وهم الذين أسسوها في صدر الإسلام أيام فتح إفريقية.

يضم حوض ورجلان مجموعة من القصور القديمة كقصر عجاجة، سيدي خويلد، الشط نقوصة، قصر ورجلان العتيق شيد هذا القصر فوق هضبة جيرية بوادي كية ولا يزال عامرا إلى اليوم ويتكون من ثلاثة حارات موزعة حول سوق المدينة تتخللها دروب ضيقة وأخرى واسعة وهذه الدروب كانت تؤدي إلى أبواب المدينة وهي باب الربائع وباب بابا أحمدوا باب أبو إسحاق، وباب همر، وباب عزي⁽¹⁾.

القسم الشرقي:

الأسوار:

أن ورجلان في البداية كانت بدون أسوار لكن عندما تعرضت للغارات والتخريب على الخصوص في عهد بني غانية تم بناء الأسوار الأولى للمدينة سنة 603-1206 لكن بنو غانية خربوا تلك الأسوار وأعيد بناؤها سنة 625-1227 قبل أن يخرب ممدية سدراتة 626-1228 ثم يعود بنو غانية إلى ورجلان سنة 631-1233 ويعربها للمرة الثانية ثم يعاد بناء أسوار المدينة سنة 638-1240.

شيد هذا القصر فوق هضبة جيرية بوادي كية ولا يزال عامرا إلى اليوم.

(1) ابن خلدون، العبر، ج 6 ص 413.

المساجد:

تحتوي ورجلان على مجموعة من المساجد بعضها عام والبعض الآخر خاص بالمجموعات البشرية القاطنة به وترجع هذا التسمية للقبيلة التي تواجدت.

من بين المؤرخين الذين تناولوا المسجد ابن خلدون الذي قال بنو ورجلان هؤلاء إحدى بطون زناتة وكانت مواطنهم قبلة الزاب اختطوا المصر المعروف بهم لهذا الزمن على ثمانية مراحل من بسكرة واليهم كان هرب أبي يزيد مخلد بن كيد عند فراره من الاعتقال سنة 325⁽¹⁾

ثم قال ولما استبد الأمير أبو زكرياء بن أبي حفص بملك إفريقيا وجال في نواحيها في أتباع ابن غانية مر بورقلة فأعجبته وكلف أهلها بالزيادة في تعميرها فاخطط مسجدها العتيق ومئذنته وكتب عليها تاريخ البناء واسم الأمير.

لكن المصادر التاريخية التي سكت عن تاريخ أقدم مسجد في ورجلان فإن أحد أئمتها ذكر أن المسجد العتيق الحالي كان موجودا أثناء وجود سدراتة وهو الذي ذكره ابن خلدون ولقد تهدم وجدد سنة 1970

ويبدو للباحث أن من بين المساجد التي شيدت في ورجلان مساجد للإباضية خلال القرون الأولى للهجرة وبالتحديد بعد تأسيس الدولة الرستمية واستقرار المذهب الإباضي بورجلان واعتمادا إلى الدراسة الإباضية أن المسجد الإباضي أسس في ورجلان حوالي القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي ويبدو أنه توسع بعد هجرة الإباضيين إلى ورجلة بعد سقوط الدولة الرستمية.

يمثل كل من السوق والمسجدين الأساسين لالة مالكية وللأعزة مركزه⁽²⁾ حي بني إبراهيم يوجد به المسجدان الهامان وهما مسجد أبو زكرياء الذي أنشأ سنة 626-1228

(1) ابن خلدون، العبر، ج 6 ص 413.

(2) العياشي، الرحلة الرحلة، ص 23 انظر مولاي بلخمي، المرجع السابق، ص 83.

وموقع المسجد الإباضي للأطوبة الذي دمر في القرن 17 ومن بين الذين تناولوا مساجد ورجلان العياشي خلال رحلته حيث قال: "دخلنا ورجلان قبل غروب الشمس ونزلنا باب المدينة المسمى باب السلطان وكان من لطف الله بالحجاج أن صادف دخولنا دخول قافلة في أعراب الأرباع قدمت بسمن كثير وغنم وإبل وزرع اشترى منها الناس ما احتاجوا إليه بأرخص الثمن وقدمت أخرى بعدها بيوم تحمل مثل ذلك أو أكثر فتنعم الناس في اللحم والتمر والسمن واشترى الحجاج غنما دخلنا المدينة لحضور صلاة الجمعة وصلينا بجامع المالكية وخطب الخطيب خطبة كثر فيها اللحن والخطا والتحريف والتقديم والتأخير ثم دعا في خطبته الإمام المهدي ثم السلطان الأعظم محمد بن إبراهيم بن مراد ثم طلعا للمثدنة وهي مشرفة على المدينة كلها فنظرنا إلى أطرافها ووسطها فإذا هي عظمة لها سبعة أبواب وهي في وسط خط من النخل فيها خندق ماء مملوء من كل جهاتها لا يصل أحد لصورها إلا من ناحية الأبواب وقد خلا كثير منها بسبب فتنة وقعت قبل قدومنا بنحو من شهرين وذلك أن طائفة منها هي بيضة البلد وعصبته أهلها اتهمهم الأمير بالقيام عليه فاتفق مع رعيته على قتلهم وأن لا يتركوا أحدا منهم صغيرا وكبيرا فأمر بسد أبواب المدينة وكلف الأعراب بخارجها إلى قتل كل من يخرج منها وهذا العمل أثر سلبا على الأمير وأسقط منزلته بين الناس"

ثم لقيت الإمام وأدخلني إلى منزله وأحضر لي ما عنده من الكتب فإذا عنده أجزاء من الموطأ ومن البخاري وبعض شراح المختصر والرسالة ثم دخلت المسجد فهو مسجد متقن الصنعة مجصص الأرض والحيطان على بابه أماكن وفي جوانبه معدة للوضوء وقضاء الحاجة ومكان معد لتسخين الماء فأعجبني غاية والمسجد مسجد الإباضية وهم كثيرون في ورجلان وأصلهم من ميزاب وهؤلاء يسمون أشياخهم بعم فلان وسألت بعض الناس عن عدم انكار والي البلد عن هذه الطائفة مع أنه ليس من معتقدهم فأخبرني أنهم عصابة في حروب تقع بينه وبين أخواله وأعرابهم فلا يقدر أن ينكر عليهم ذلك وهذا كله من رقة الديانة وخيانة الأمانة خزانة الأمير ولما كان آخر أيام الإقامة سألت صاحبنا إمام المسجد

هل في البلد شيء من خزائن الكتب فأخبرني أن عند الأمير خزانة من الكتب وأنه لا يمنع من أراد الدخول إليها فذهبت معه إليه وأدخلنا ورحب بنا وأخبره صاحبنا بما أريد فأدخلني إلى كتبه فإذا عنده نحو أربعين سفرا من جملتها التوضيح والتتاني وبهرام وحواشي على الصغرى لأهل البلد دراهم يتعاملون بها يكثرون فيها أنحاس أربع وعشرون قيراط في ربع ريال ومن عادتهم أن يلقي ثياب الميت ولا ينتفع به استخراج المياه من غرائب أهل البلد استخراج المياه وهو عيون الماء الغزيرة بحفر الآبار فيحفرون البير من نحو خمسين قامة ثم يصلون إلى حجر مصفح على وجه الأرض فينقرونه فإذا نقبوه فاض منه الماء فيضانا قويا ويطلع كذلك بسرعة إلى فم البير ويصير عينا من المرافق التي كانت تشتهر بها توقرت المسجد الجامع الكبير بها.

يبدو أن الجامع في توقرت قد أسس خلال التواجد الإباضي بالمدينة والضواحي المجاورة لها بعد سقوط دولة الرستميين فكان من بين المناطق التي استقر بها الإباضية توقرت وما جاروها وخلال تلك المدة أقاموا لهم مسجد يؤدون فيه الصلاة ومن بين الذين تناولوا مسجد توقرت الوزان الذي قال عنه أن مسجدها مبني بالحجر واقين وأغلب سكانه من الإباضيين حي بنبس يسين يحتل القسم الجنوبي وأغلب سكانه من المالكية البعض منهم من لجأ إليه من سدراتة القديمة والبعض الآخر من الزنوج.

الري:

من بين الطرق المستعملة في الري في كل من أدرار وورجلان ما يعرف اليوم بالفقارات التي تستعمل مياهها في ري البساتين وهناك طريقة تتعلق بتوزيع مياه الفقارات على البساتين حيث توجد مقاييس لتوزيع تلك المياه المستعملة لحد الآن ومن بين المؤرخين الذين تعرضه للفقارات ابن خلدون حيث يقول: (وفي هذه البلاد الصحراوية إلى وراء العرق غربية في استنباط المياه الجارية لا توجد في تلول المغرب وذلك أن البير تحفر عميقة بعيدة الهوى وتطوي جوانبها إلى أن يوصل بالحفر إلى حجارة صلدة فتحت بالمعاول والفؤوس إلى أن برق جرمها ثم تصعد الفعلة ويقذفون

عليها زبرلة من الحديد تكسر طبقها عن الماء فينبعث صاعدا فيفعم البئر ثم يجري على وجه الأرض واديا ويزعمون أن الماء ربما أعجل سرعته عن كل شيء وهذه الغريبة موجودة في قصور توات وواركلا وريغ⁽¹⁾.

يتفق هذا النص مع ما توصلنا إليه عند تعرضنا للفقارة في منطقة توات وأنها نتاج لخبرة البربر وليس العناصر الأجنبية لأن ظروف المنطقة جعلتهم يلجأون لهذا الأسلوب في إستخراج المياه لأنها شريان الحياة بتلك المناطق الصحراوية التي تحتوي على خزان مائي كبير تحت الأرض فكانوا يستعملون كل الوسائل للوصول إليه وحتى في منطقة وادي ميزاب حيث القصور شيدت فوق هضبات صخرية كانوا يستعملون نفس الأسلوب لإستخراج المياه.

ومن بين الذين تعرضوا لهذا الموضوع العياشي حيث قال: ومن غرائب هذا البلد استخراج عيون الماء غزيرة بحفر الآبار فيحفرون بئر نحو من خمسين قامة ثم يصلون إلى حجر مصفح على وجع الأرض فينقرونه فإذا ناقبوه فاض منه الماء فيضانا قويا ويطلع كذلك بسرعة إلى فم البئر ويصير عينا فإن لم يتدارك الحافر بالجدف أغرقه الماء⁽²⁾ وغرر مياهها ويشهد لذلك أثر العمران بها في أطلال الديار ورسوم البناء وإعجاز النخل المنقعر.

التجارة:

ونستفيد من نصه أنها كانت من بين المراكز التجارية الهامة حيث تتوافد عليها القوافل المتجهة من مدن المغرب الإسلامي إلى السودان الغربي مما جعلها تتشكل فيها طبقة من التجار الأغنياء لذا قيل عنها: (كثيرة الخيرات).

وأما محاصيلها الزراعية فكانت تتشكل على الخصوص في أشجار النخيل⁽³⁾ ومن بين الذين تناولوها ابن سعيد المغربي الذي قال عنها: (أن اسم قاعدتها تمارية).

(1) ناصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، ط 1985 ص 225.

(2) ابن خلدون، العبر، ج 7 ص 68-69.

(3) نفسه، ج 7 ص 63.

واهتمام سكانها بالنشاط التجاري استمر أيضا إلى القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي حيث وصفها الإدريسي بقوله (ورقلان بها قبائل مياسير وتجار أغنياء يتجولون في بلاد السودان إلى بلاد غانة وبلاد ونقارة فيخرجون منها التبر ويضربونه في بلادهم باسم بلدهم)⁽¹⁾.

فنص الإدريسي أوضح ويحتوي على معلومات ذات أهمية تتعلق بورجلان في عهد الدولة الموحدية حيث كان تجارها لا يقتصرون على التجارة مع المدن القريبة منها كإقليم توات بل امتد نشاطهم إلى أدغال إفريقيا وهو ما جعلهم يحصلون على أموال طائلة من هذه التجارة المتمثلة في العبيد والتبر الذي كان يضرب بورجلان ويحمل اسم المدينة وبذلك كانوا يتعاملون بالعملة المضروبة بورجلان.

ويقول عنها الحميري في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي: بأنها عبارة عن سبعة مدائن مسورة حصينة قريبة من بعضها البعض لعل المقصود بالمدن القصور. تعتبر مدينة ورجلان من أهم المراكز التجارية بالوحدات الصحراوية لأنها قاعدة تجارية تربط مدن المغرب الإسلامي في الشمال بالمراكز التجارية بإفريقية الغربية أو ما كان يعرف بالسودان الغربي خلال العصور الوسطى والدارس لهذا المركز التجاري الهام لا بد له من الاطلاع على نصوص كتب الرحالة وفي مقدمة هؤلاء الإدريسي الذي قال عنها (هي مدينة فيها قبائل مياسير وتجار أغنياء يتجولون في بلاد السودان إلى غانة وبلاد ونقارة فيخرجون التبر ويضربونه في بلادهم باسم بلدهم)⁽²⁾.

تذكر بعض المصادر أن أبا يزيد مغلد بن كيداد ضرب العملة في مدينة ورجلان خلال الثورة التي قام بها ضد الخلافة الفاطمية ويبدو من خلال نص الإدريسي القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي أن ورجلان استمرت في ضرب النقود التي كان

(1) بلخمي، المرجع السابق، ص 87. نقلا عن الإدريسي.

(2) ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، ص 100

يتعامل بها تجارها ومن بين الرحالة الذين تعرضوا إلى نشاطها التجاري ابن سعيد الذي قال عنها: (أنها بلاد نخيل وعبيد ومنها تدخل العبيد إلى المغرب الأوسط وإفريقية والسفر منها في الصحراء إلى بلاد السودان كثير)⁽¹⁾.

ويذكر ابن خلدون (أن ورجلان كانت في عهده بابا للسفر من الزاب إلى المفازة الصحراوية المؤدية إلى بلاد السودان يسلكها التجار الداخلون إليها بالبضائع)

من خلال هذه النصوص يتضح للباحث أن مدينة ورجلان من أهم المراكز التجارية خلال العصور الوسطى استمرت من القرن الثاني للهجرة إلى عصر ابن خلدون وبعده لم يكن نشاط ورجلان الاقتصادي مقتصرًا على التجارة فقط بل شمل الزراعة.

فالنصوص التاريخية المتوفرة لدينا تشير إلى استغلال السكان للمياه الجوفية بالرغم من بعدها من سطح الأرض فإنهم بدّلوا جهودا كبيرة للإستفادة منها فالدارس لنصوص كتب الرحالة يستنتج أن مدينة ورجلان كانت من بين المناطق التي اشتهرت بزراعة أشجار النخيل والحمضيات والحبوب والفواكه والخضر التي كانت تزرع إلى جوار أشجار النخيل وهذا لا يزال العمل به في أغلب الواحات الصحراوية وجزء من هذا الإنتاج كان يصدر إلى السودان الغربي وهو ما يؤكد ابن خلدون بقوله أن الخضر والفواكه المصدرة إلى السودان من ورجلان وتوات وتكرارين⁽²⁾.

وفيا يتعلق بتربية المواشي فأهمها على الإطلاق تربية الجمال لاستعمالها في وسائل النقل بالنسبة للقوافل التجارية⁽³⁾.

(1) ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، ص 120

(2) ابن خلدون، العبر، ج 6 ص 231.

(3) نفسه، ج 6 ص 232.

العلاقة التجارية في العصور الحديثة:

كانت لورجلان خلال العصور الحديثة علاقة تجارية مع غدامس فكانت القوافل تخرج من ورجلان وتتجه مباشرة نحو الشرق عبر الفيافي إلى أن تصل مدينة غدامس وهو طريق صعب للغاية لكن تجار ورجلان يسافرون باستمرار إلى غدامس التي تلتقي فيه قوافل تونس وطرابلس والسودان والجزائر تتبادل مما عندها من السلع وتعود إلى منطلقاتها وقد كان هناك عاملا ساعد العلاقات بين ورجلان وخدامس يتمثل في التنافس الذي لا ينقطع بين واحة الوادي وسكان غدامس وكانت القافلة تخرج من ورجلان محملة بالأقمشة الحريرية والقطنية وبالثمور والحبوب والزيت والأسلحة وتعود محملة بالتبر والعبيد وريش النعام والعاج والبخور وغير ذلك من المتوجات الإفريقية.

لم تقتصر العلاقة على غدامس بل امتدت إلى السودان الغربي فكانت قوافل ورجلان تسلك طريقين نحو السودان أولهما يمر بغاط قبل أن يصل "أحير" التي تعتبر أول محطة سودانية ويستغرق السير لقطع هذه المسافة ثلاث وسبعين يوما، والمحطة الثانية "أغادس" التي تبعد عن أحير بمسافة سبعة أيام لا يصادف فيها الماء إلا مرة واحدة ولم يمكن للقافلة أن تتوغل بعد ذلك إلا بعد دفع الضرائب لسلطانها، والمحطة الثالثة هي "دامركوا" الواقعة في مقاطعة برنوا وفي منتصف الطريق بين أغادس وكاتشنه، المحطة الرابعة أو المحطة الأخيرة هي "كانوا" وكانت مشهورة بصنع الأقمشة القطنية ويمر الثاني بالقليلة التي تقع وسط غابات النخيل ثم تنتقل القافلة إلى عين صالح وبعدها ترحل القافلة إلى تمبكتوا.

السلع:

من بين السلع التي تحملها قوافل ورجلان إلى السودان الغربي الثمور التي تحمل بكميات كبيرة والأقمشة الصوفية كالبرانيس والقنادر والحنابل وغيرها من الألبسة والأغطية التي تباع بكثرة في سائر أسواق السودان المرجان وهو يباع في أعماق إفريقيا.

الأسلحة:

وتشمل الأسلحة النارية المستوردة من أوروبا أو الأسلحة المصنوعة في توقرت ووادي ميزاب وصفائح السيوف المصنوعة في قسنطينة، والبارود الذي يصنع في خنقة سيدي ناجي والزيبان ثم يحمل إلى تمبكتوا وكذلك ريش النعام⁽¹⁾.

وتأتي تلك القوافل بالسلع الإفريقية التي تتمثل في التبر الذي يستخرج من بلاد السودان ويباع بالسرة والوزنة والمثقال.

العبيد كان أمراء السودان يتحاربون فيما بينهم والأسرى من الجانين هم العبيد الذين يبيعونهم لتجار بلاد المغرب الإسلامي وتعتبر ورقلة أهم مستودع للعبيد يوجهون منها إلى سائر البلاد وإلى الخارج.

العاج تستورد أنياب الفيل وتباع في مدينة كانوا لجميع التجار ومن الجزائر ينقل إلى أوروبا.

الأقمشة القطنية وتصنع خاصة في مدينة كانوا ثم تلون بالأزرق أو تخطط وقد كان التوارق وسكان الصحراء يفضلون اللون الأزرق.

الكوروا وهي فاكهة مالحة يستعملها الأفارقة بمثابة القهوة تباع بقسنطينة وغيرها من المدن الجزائرية.

الحشيش وهو نوع من المخدرات التي كان الأغنياء يتعاطونها ويزرع في نواحي أحير وجلد بقر الوحش وفول السودان والبخور الأسود وغيره.

(1) من المواد التي كثر عليها الإقبال.

الأحوال السياسية:

يبدو أن مدينة ورجلان خلال عهد الدولة الرستمية كانت علاقاتها بالدولة الرستمية تتميز بالولاء لهذه الدولة وكانت تحت سيطرة شيوخ القبائل القاطنين بها وأن العلاقة بينها وبين حواضر دول المغرب الإسلامي هي علاقات تجارية وحتى مع الدولة الرستمية التي يبدو أنها كان لها أنصار بها على المذهب الإباضي ولعل هذا هو العامل الأساسي الذي جعل يعقوب بن أفلق يتوجه إليها مع جمهور كبير من سكان تيهرت خوفا من بطش الشيعة وكثرة هؤلاء جعلت بعض المصادر تذكر أن هؤلاء ولد لهم في إحدى الليالي خلال توجههم إلى ورجلان وسدراتة سبعون ذكرا كم كان عدد الإناث كما يوضح صاحب النص فيقول: (أقبل يعقوب بن أفلق وعياله وأهله إلى ورجلان وذلك على عهد أبي صالح جنون بن يمران فتلقيه أبو صالح في جموع أهل ورجلان فأدخلوه وأكرموه وأحسنوا القيام به فطلبوه أن يولوه على أنفسهم فامتنع لهم ممن ذلك فقال لا يستتر الجمل بالغنم)⁽¹⁾.

ويبدو من خلال بعض النصوص أن هناك فرقة من الجيش الفاطمي قامت بمطاردة هؤلاء بعد خروجهم من المدينة وتعرفت على المسلك لأن المصادر الإباضية أشارت إلى مبارزة أبو يعقوب للجيش الفاطمي حتى يبتعد أصحابه وفي هذا الصدد جاء في إحدى النصوص (نظروا إليه وعرفوه أي يعقوب توقفوا له من هيئته)⁽²⁾.

يبدو من النص أن أهل ورجلان حاولوا إغتنام فرصة وجود الأمير الرستمي بين أحضانهم فطالبوا منه أن يقيم لهم دولة تجمع شملهم فرفض ذلك لأن الظروف لم تكن في صالحه لأن قوة خصمه كبيرة وأن الدولة لا يمكنها جمع شتاتها للصراعات التي كانت تتخبط فيها والتي سهلت على الفاطميين السيطرة عليها دون صعوبات تذكر.

(1) ابن زكرياء، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، تحقيق وتعليق، إسماعيل العربي، الجزائر 1979 ص 104.

(2) نفسه، ص 109.

وخلال عهد الخلافة الفاطمية كانت ورجلان لها مكانة كبيرة ويبدو للباحث أن من بين المساجد التي شيدت في ورجلان مساجد للإباضية خلال القرون الأولى للهجرة وبالتحديد بعد تأسيس الدولة الرستمية واستقرار المذهب الإباضي بورجلان واعتمادا على الدراسة الإباضية أن المسجد الإباضي أسس في ورجلان حوالي القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي ويبدو أنه توسع بعد هجرة الإباضيين إلى ورجلة بعد سقوط الدولة الرستمية ومن المساجد التي اشتهرت في هذه المدينة مسجد الشيخ صالح بن جنون بن يمران الذي أحرقه المعز بن باديس في هجومه على ورجلان حسب رواية أبي زكرياء لكنه أعيد بناؤه لأن الدرجيني يذكر أن سعيد بن زنگيل عندما كان مقبلا بورجلان كانت حلقة بهذا المسجد.

الحملة الفاطمية:

إن الدولة الفاطمية قامت بحملة على ورجلة بعد التجا بني رستم لها بعد سقوط دولتهم⁽¹⁾.

من بين الذين تناولوا هذا الموضوع أبو زكرياء فقال خرج عبيد الله متوجها إلى سجلماسة فجاز في طريقه إلى ورجلان فلما رآه سفهاؤهم هزؤوا منه وقالوا هذا الذي جاء من المشرق يطلب الملك فرموا في وجهه وضربوا له القرون وكان أشد الناس عليه في ذلك أهل قصر بكر فلذلك حرق المسجد الكبير أثناء رجوعه⁽²⁾.

ثم إن عبيد الله سأل عن شيخ أهل ورجلان ف قيل له غيار فقال أين منزله فقالوا تاغايرت فقال شيخهم غيار وبلدهم تاغايرت. غير الله ما بهم.

يبدو من هذا النص أن دخوله إلى ورجلان كان في المرحلة الأولى لكن هذا غير مؤكد لأن المصادر المتوفرة لدينا لا تشير إلى توجه أبو عبد الله الصنعاني إلى ورجلان وربما عبيد الله المهدي وابنه القائم خلال توجههما مع القوافل التجارية إلى سجلماسة يبدو لي أنهم اتخذوا طريق ورجلان⁽³⁾.

(1) أبو زكرياء، كتاب سير الأئمة، 109.

(2) نفسه، ص 110.

(3) نفسه، ص 110.

أما توجهه إلى ورجلان فكان بعد إطلاق عبيد الله من سجن سجلماسة والقضاء على دولة بني مدرار في المرحلة الأولى وخلال عودته حاول الاستيلاء على ورجلان لأهميتها من الناحية الاقتصادية وتوجه من بقي من الأسرة الرستمية إليها وفي هذا الصدد يقول أبو زكرياء أن عبيد الله انتخب من عسكره أولى القوة والعدة والسلاح الشائك فجعل عليهم عاملا وانقدهم إلى ورجلان فتوجه بهم العامل فلما وصل إلى ورجلان وقد سمع أهل ورجلان باقباله توجهوا إلى كريمة وهي كدية عظيمة لا ترام فطلعوها فحفروا فيها مواجل للماء فملؤوها فلما وصل إليهم حاصرهم أشد الحصار⁽¹⁾.

وذكر أصحابنا أنه طوق عليهم سبعة أطواق من خيل فأراد الإقامة عليهم حتى يموتوا عطشا فلما رأوا ذلك ارتبت نفوسهم وفيهم رجل يهودي فأمر بجمال فزمت أفواهاها فعطشها ثم أخذها فوقفها على حرف كريمة فجعل لها في قصاع كبار زيت فإذا نظرت الجمال إلى ما في القصاع جعلت أفواهاها في القصاع فمن رآها من أسفل كريمة حسب أنها تشرب فإذا أعيثها أزمتهما رفعت رأسها فنفضت الزيت من مناخرها ومن بعد عنها حسب أنها تشرب وبلغنا أنهم أخذوا كساءة فرشوها بزيت فنشرت على حرف كريمة فلما رأوها قالوا أن مع القوم ماء ونحن محاصروهم ليموتوا عطشا ففتحوا عنهم وقالوا لا مطمع لنا فيهم فارتحلوا عن أهل ورجلان فحرقوا المسجد الكبير لجنون ابن يمران رحمه الله فدخلوا ديارهم ففتشوها فوجد في دار واحد بيضة النعامة مملوءة شعير فحملوها فلما وصلوا إلى رملة زلفان لحقهم رجل من أهل ورجلان ممن أراد هلاكهم فأدرك بقية أهل العسكر فقال لهم مالكم تركتم أهل ورجلان وليس معهم ماء وإنما جعلوا لكم الحيلة فنظر بعضهم إلى بعض فأخذوه وقتلوه⁽²⁾.

(1) أبو زكرياء، المصدر السابق، ص 110.

(2) نفسه، ص 110.

نستتج من النصين ما يلي:

أن أبا عبد الله الصنعاني لم يتوجه إلى ورجلان بعد عودته من سجلماسة لأنه يريد الوصول إلى رقادة في أقرب مدة زمانية حتى لا يسمح للأغلبة وحلفائهم من إعادة تشكيل قوتهم العسكرية من جديد لهذا كلف فريق من الجيش بالتوجه إلى ورجلان للقضاء على من تبقى من بني رستم خوفاً من اتخاذهم ورجلان عاصمة جديدة لهم لوجود أموالهم بها وقد اقترح هؤلاء على آخر أمراء بني رستم لإعادة بناء الدولة لكنه رفض طلبهم.

يضاف إلى ذلك أن ورجلان كانت من أهم المحطات التجارية في عهد الدولة الرستمية والسيطرة عليها ضمان استمرار تدفق السلع الإفريقية وعلى الخصوص الذهب الذي كانت الدولة في أشد الحاجة إليه لكن انسحاب الجيش الفاطمي وعدم استمرار الحصار يرجع بالدرجة الأولى إلى الازهاق لأن هذا الجيش قطع مسافات كبيرة من تونس إلى سجلماسة ويريد العودة إلى رقادة للاستفادة من مقدمه الدولة لهم⁽¹⁾ وإن القادمين إليها من تيهرت لعبوا دور كبير في الحياة السياسية في المدينة وهو ما جعل أبو يزيد قبل إعلان الثورة على الخلافة الفاطمية يتوجه إلى ورجلان لتجنيد السكان ضد الفاطميين والقبائل المتواجدة بين الواحات وجبال الأوراس وحتى عندما حوصر من قبل قوة الفاطميين والصنهاجيين حاول أبو يزيد مخلد بن كيداد التوجه إليها لكنه تم إلقاء القبض عليه وسجن من قبل الفاطميين في قلعة كيانه أو ما يعرف اليوم بقلعة بني حماد وبعد هزيمة باغاي التي أصابت الإباضية عاد بعضهم إلى ورجلان ومن هؤلاء أبو الربيع سعيد بن زنگيل الذي قصد ورجلان فرارا من المعز لدين الله وكذلك أبو نوح الذي توجه إلى ورجلان فأكرمه أهلها وحافظوه وعظموا درجته وأحسنوا القيام به فملاً له الشيخ جنون بيتا إلى السقف بالتمر وأجرى عليه

(1) أبو زكرياء، المصدر السابق، ص 111.

مائدة بكرة وأصيلا فمكث في ورجلان زمنا حسن الحال ثم أراد الرجوع إلى بلده فقال له الشيخ أبو صالح أقعد في ورجلان وأقاسمك جميع ما ملكت وكان هذا الشيخ ذو مال كثير⁽¹⁾.

يلاحظ الباحث من النص أن معركة باغاي كانت ذات أهمية كبيرة لكنها لم تستغل من قبل الفاطميين بل إن المعز لدين الله عفا على زعمائها وتقرب منهم لكن البعض لم يثق في الخلافة الفاطمية بل انسحب إلى ورجلان حيث وجد الترحيب وحسن الاستقبال⁽²⁾ وبعد هذه المعركة عرفت مدينة ورجلان اضطرابات بعد وفاة أبي صالح حنون ويذكر أن بني ورماز طغوا وأكثروا من الفساد فاجتمع شيوخ أريغ إلى الشيخ أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الذي ذكرهم بما يقوم به بني ورماز من فساد وقتل العزابة الذين كانوا يزورون المدينة ويظهر أن هؤلاء كانوا قوة لا تقهر وهو ما جعل أحد شيوخ أريغ يعرب عن عدم استطاعته وضع حدا لطغيانهم مما أدى إلى غضب الشيخ أبي عبد الله ورحيله من ورجلان إلى مدينة فزان وعندئذ اتحد الإباضية وتمكنوا من القضاء على هؤلاء وهو ما يتأكد من وصف الأحوال ورجلان بعد عودة أبي نوح فقال أب وزكرياء أن أبا نوح رضي الله عنه لما رجع إلى ورجلان ثانية بعد موت أبي صالح ابن يمران وجد أحوال أهله قد تغيرت فمكث فيها ما شاء الله فجمع من ينظر إليه من وجوه أهل ورجلان فقال لهم إني رأيت فيكم ثلاث خصال، الأولى نكاح السر فيكم فاش فإذا مر أحدكم برجل وامرأة مجتمعين في موضع التهمة قالوا له قد تناكحنا فكاد يظهر فيكم الفحشاء، أن أحدكم يطلق عبيده ولا يعوله ويأمرهم بطلب معاشهم فيطلقون في أموال الناس من جرائد النخل والليف والكرائف وغير ذلك فيكاد أحدكم سارقا وهو في المحراب قاعدا، والثالثة أنكم أظهرتم بينكم التفرقة فطائفة يقولون مسجدا ومسجداكم وطائفة يقولون حصيرنا وحصيركم ويهودنا ويهودكم⁽³⁾.

(1) أبو زكرياء، المصدر السابق، ص 111.

(2) نفسه، ص 111.

(3) نفسه، ص 111.

يستنتج من هذا النص الذي أورده أبو زكرياء أن المجتمع الورجلاني عرف نوع من الانقسام نتيجة للاختلاف بين العناصر التي يتشكل منها سواء من الناحية المذهبية أو من الناحية العصبية القبلية ولعل السبب في هذا يرجع بالدرجة الأولى إلى الغناء الذي عرفته المدينة خلال هذه المرحلة التي تعاصر الدولة الزيرية والحماذية فازداد الانحلال الخلقي وكثر قطاع الطرق فضعفت القيم الاجتماعية لهذا المجتمع.

ويبدو أن الصراع المذهبي الذي عرفته تيهرت انتقل إلى ورجلان لأن الشماخي يشير إلى أن أهل ورجلان قتلوا جماعة من الأشعرية وأن هذه الأوضاع أدت إلى هجرة العلماء منها وأن بعضهم علق عليها بقوله أن ذكر ورجلان مضرّة وكيف بدخوله.

ويروي الوسياني أن أبا يعقوب سافر إلى تيهرت من جبل نفوسة فلما وصل إلى ورجلان لم يدخلها خوفاً من الخلاف والشقاق بل كان يبعث من يقضي له حوائجه لكن على الرغم من هذه الاضطرابات التي عرفتها ورجلان فإن هجرة الإباضيين لها لم تنقطع خاصة قبل بناء مدن وادي ميزاب فقد قدم إليه أهل درجين بعد تعرضهم لهجوم من قبل الدولة الزيرية أدى إلى فقدانهم للقلعة التي كانت تقدم لهم الحماية وهي قلعة درجين كما توجه إليها أهل طرابلس الغرب عند تعرضهم للقحط سنة 430/... من بين الذين تولوا شؤون ورجلان الشيخ أبي عبد الله محمد السدراتي وكان قد ولاه أهل ورجلان أمورهم فعندما كبر ولزم بيته تنحى عن أمورهم ليس لدى الباحث مصادر تاريخية حول مسجد مدينة ورجلان.

مراحل تطور المدينة:

وقع اختلاف بين المؤرخين فيما يتعلق بعلاقة ورجلان بالدولة الرسمية هل هي علاقة سياسية أو اقتصادية أو علاقة مذهبية

فالممتصّح للنصوص يرى بأن بني رستم لم يسيطروا على ورجلان ولم يرسلوا لها حامية عسكرية بل أن سكانها كانوا يضمنون لهم أمن القوافل التجارية التي كانت

تتجه من تيهرت إلى السودان الغربي وهذا راجع بالدرجة الأولى إلى تواجد مجموعة من الإباضية في مدينة ورجلان وهو ما يؤكد عبد العزيز المجذوب بقوله كانت أغلبية بلاد إفريقية في الجنوب والوسط تابعة لهذه الإمامة أما ولاء سياسيا أو مذهبيا ويقول جودت عبد الكريم أن حدود الدولة الرستمية شملت الصحراء بها في ذلك ورجلان ويدل على ذلك أن سكانها إباضيو وأن الإمام يعقوب أمر أفراد الأسرة الحاكمة فر إليها وعرض عليه أهلها الإمامة لكن المتبع لما أورد في المصادر أنها كانت تحكم من قبل شيوخها ومن هؤلاء أبو صالح بن يرميان⁽¹⁾ وهو الذي عرض على يعقوب إقامة إمارته بورجلان فقال له لا يستتر الجمل بالغنم⁽²⁾.

كانت ورجلان من بين المدن التي أيدت ثورة أبو يزيد مخلد بن داد ولعل السبب في ذلك تواجد المذهب الإباضي بها لأنها كانت ملجأ له بعد فراره من السجن سنة 310 وخلال الثورة كانت تصله المساعدة من ورجلان ويقال أنه ضرب بها النقود وخلال حصار الفاطميون له في قلعة أبي الطويل أراد الذهاب لورجلان لكن محاصرة المغراويين له حال دون ذلك أي كما كان لورجلان دور في ثورة الوسيانيين ضد المعز لدين الله الفاطمي والتي انتهت بهزيمتهم في معركة باغاية سنة 358-968.

عهد الدولة الحمادية:

نتيجة للصراع الذي عرفته منطقة المغرب الإسلامي وعلى الخصوص المغرب الأوسط بين زناتة وكتامة ثم بين زناتة وصنهاجة جعل مجموعة من الزناتيين بتجهون نحو الجنوب ومنها ورجلان وما جاورها وقد طردوا من قبل الحماديين ففي سنة - 440-1048 حاصر الناصرين على الناس درجين فخربها فانتقل سكانها إلى ورجلان

(1) مسعود مزهودي، المرجع السابق، ص 115.

(2) نفسه، ص 115.

التي كانت تابعة إداريا للحماديين وعندما ثاروا خزرون المغراوي على الدولة الحمادية أرسل له الناصر ابنه المنصور فوصل وادي ريغ وورجلان وخرب كل القرى التي تعاونت مع خزرون الزناتي⁽¹⁾ ورجلان في عهد الموحدين.

يبدو من خلال النصوص التاريخية التي اطلعنا عليها أن ورجلان من بين المدن التي أرسل لها ابن تومرت دعائه وفي هذا الصدد يقول الدرجيني: حدثنا بعض أهل ورجلان أن أول داعي وصل إلى ورجلان من دهاة الدعوة الموحدية العتروسي وصلها في خيل فلما قدم إليها دعاهم إلى إجابة دعوته فأجابوه رأي أكثرتهم على قتله هو وأصحابه حتى لا يظلمهم ذكر فقال علماءهم ما أضربنا أن نصل إلى الفقيه أبي يعقوب نعلمه فقال لهم هؤلاء لا يخربون بلدكم بل تنالون في أيامه عزا وإقبالا فأجيبوا دعوتهم تفلحوا فليسوا بالذين يخربون بلدكم ولعل هذا هو السبب الذي حال دون الهجوم الموحدى على ورجلان حين قيام هذه الدولة عرج يحيى بن غانية على سدراتة سنة 624-1227 فخرّبها وخرب القرى المجاورة لها وأحرق النخيل وغور الآبار عقابا لسكانها على عدم مساعدته لهم ثم عرج على ورجلان فدمر سورها لكن بعض الباحثين ومنهم الشيخ إبراهيم أعزام يستبعد أن يكون الميورقي قد دمر ورجلان بعد سدراتة فيقول: وبعد خراب البلاد تفرق الباقي من سكانها إلى وادي ملوية وبعضهم الآخر سكن وادي ميزاب والبعض الآخر انضم إلى ورجلان⁽²⁾ فلو كانت ورجلان قد دمرت لما لجأ سكان سدراتة إليها لكن الباحثة مادلين بريغول ترى عكس ذلك فتقول أن ورجلان قد دمرت بالفعل ثم أعيد بناؤها من طرف من تبقى من سكانها والفارين من سدراتة والزنوج وأفراد من الجالية اليهودية.

(1) الدرجيني، المصدر السابق، ج 1 ص 105.

(2) نفسه، ج 1 ص 494.

عهد الحفصيين:

يبدو من خلال المصادر التي أرخت للدولة الحفصية أن أبو زكرياء الحفصي قدم بوجلان بعد الاستيلاء على إفريقية فأعجب بقصر ورجلان وكلف بالزيادة في تمصيره واختط به المسجد العتيق ومأذنه المرتفعة وكتب عليها اسمه وكان ذلك سنة 622-1228⁽¹⁾.

وفي سنة 682 و684/1283 و1285 تولى السلطة في ورجلان بني غابول وهم يتممون إلى عرش بني وكين كما شاهدت ورجلان تبعيتها للدولة المرينية خلال التوسع الذي قام به أبو الحسن المريني 734-1333.

وفي سنة 781-1382 تولى حكم ورجلان عائلة الفيلايين بطلب من أعراش المدينة وكان أولهم مولاي موسى الفيلاي.

العهد العثماني:

دخلت مدينة ورجلان وتوقرت تحت حكم العثمانيين وتعاهد سكانها على دفع الضرائب للدولة غير أن هذه التبعية لم تتجسد إلا خلال الحملة التي قام بها صالح رايس لكل من ورجلان وتوقرت سنة 959-1552 تجسدت بموجبها تبعية ورجلان للدولة الجزائرية وألحقت ببايلك قسنطينة وهنالك نص يشير إلى ذلك فيقول: ثم سلك الله على ورجلان وأنقوصة الظالم الغشوم صالح الترك وحاصرهم حصارا شديدا وأعطوا له مالا عظيما واتفقوا معه على غير الحق خوفا⁽²⁾ وفي سنة 1040 - 1602 وبعد الصراعات التي عاشتها ورجلان خلال حكم عائلة الفيلاي استدعى السكان عائلة أعلاهم فاستولت على الندينة وتولت الحكم بها علي⁽³⁾ ثم أصبحت تتمتع بنوع من الاستقلال.

(1) الدرجيني، المصدر السابق، ج 1 ص 5.

(2) مجهول، مصدر سابق، ص 2.

(3) يحيى بن معمر، الإباضية في موكب التاريخ، ج 2 ص 406.

الأحوال الاجتماعية:

عناصر السكان:

لا توجد للدارسين بالنسبة لتاريخ المغرب الإسلامي مصادر تتعلق بالسكان ولذا فالاعتماد الكامل يكون على كتب الرحالة نجد الدراسات الفرنسية المتوفرة لدينا أشارت إلى سكان ورقلان فقالت هؤلاء يعودون إلى الأثيوبيين أو القرمانيين الذين سكنوا وسط الصحراء في عصور غابرة لكن لم تحدد لنا هذه الدراسة كيف وصل هؤلاء إلى هذه المناطق والأدلة المادية لأن هذا يحتاج إلى دراسة أثرية للوصول إلى تأكيد هذا القول وعملية المقارنة بالنسبة للجماجم الإنسان والمواد الأثرية أما تواجد العنصر الأمازيغي في هذه المنطقة حسب بعض الدراسات وكتب الرحالة أنه يعود إلى العصر الروماني حيث تم طرد القبائل المناهضة للرومان في ولاية إفريقيا إلى المناطق الجبلية والواحات الصحراوية وهذا ما يؤكد الرحالة التيجاني والقلقشندي أنه بعد الحروب الدامية وقع اتفاق بين الأمازيغ والرومان على أن تعود المدن والبلاد الساحلية للروم والجبال والصحاري وأطراف البلاد للأمازيغ هذا الرأي يحتاج إلى دراسة معمقة لأنه في رأي لا يمكن للأمازيغ الرضى بهذه الشروط لأن المناطق الجبلية توجه إليها لخصائنها الطبيعية والصحاري نتيجة لعملية الزحزحة مثل ما حدث في عهد الإحتلال الفرنسي وربما هناك عوامل سياسية كانت وراء الهجرة خلال العصور الوسطى والمتمثلة في وجود قبائل معارضة للسلطة فاليقوبي خلال القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي يرى أن هنالك قبائل أمازيغية هاجرت من إفريقيا نحو سجلماسة جنوب المغرب الأقصى ومن بين تلك القبائل نفوسة ومالية وأن هجرتها ترجع بالدرجة الأولى إلى الصراع بينها وبين الأغالبة الذي أدى إلى انهزامها في معركة وامانوا بليبيا وكان من بين العوامل التي أدت إلى ضعف الدولة الرستمية وفي هذه المدة كانت سجلماسة في ظل الدولة المدراية التي كانت علاقتها حسنة للغاية مع بني رسم.

ويبدو حسب بعض الباحثين أن الحروب التي عرفتها بلاد المغرب الإسلامي خلال مرحلة الفتوحات دفعت ببعض القبائل إلى الهجرة نحو الواحات الصحراوية ومن بين هؤلاء المهاجرين بنو ورجلان من زناتة الذين استقروا في منطقة ورجلان وكانوا من بين المؤسسين للمدينة فعرفت ورجلان باسمهم ولم يكن هؤلاء ضمن القبائل الأمازيغية الكبرى لذلك كانوا تابعين لبني توجين.

من بين المؤرخين الذين تناولوا السكان ابن خلدون الذي قال بنو ورجلان هؤلاء إحدى بطون زناتة وكانت مواطنهم قبلة الزاب اختطوا المصر المعروف بهم لهذا الزمن على ثمانية مراحل من بسكرة وإليهم كان هرب أبي يزيد مخلد بن كيدد عند فراره من الاعتقال سنة 325.

ورجلان بنو ورجلان هؤلاء أحد بطون زناتة وكانت مواطنهم قبلة الزاب ثم اختطوا المصر المعروف بهم لهذا العهد على ثماني مراحل من بسكرة بنوها قصور متقاربة الخطة ثم استبحر عمرانها فصارت قصرا وكان معهم هناك جماعة من بني زنداك مغراوة وإليهم هرب ابن أبي زيد النكاري عند فراره من الاعتقال سنة 325 واستبحر عمران هذا المصر واعتصم به بنو ورجلان هؤلاء والكثير من طوابع زناتة السكان⁽¹⁾.

بنو ورجلان بطن من بطون زناتة من ولد فرني من جانا كانت مواطنهم قبلة الزاب واختطوا ورجلان فأعطت مدينة سدراتة اسمها للمدينة⁽²⁾.

بنو يفرن من أوسع بطون زناتة هم أبناء بن الديرت بن جانا بن يصلتن بن مسرا بن زاكيا بن ورسيك أعتقوا المذهيين الإباضي والصفري⁽³⁾.

بنوا مغراوة يتصل نسبهم بزاكيا كقبيلة بني يفرن فهم كذلك من زناتة وهي من أوسع بطون زناتة.

(1) ابن خلدون، العبر، ج 6 ص 62.

(2) ج 6 ص 63.

(3) نفسه، ج 7 ص 62.

بني وزمار قيسلة زناتية كانت مضاربها بوادي ريغ وورجلان أشتهروا بكونهم من قطاع الطرق على المسافرين والقوافل وهو ما جعل أبو عبد الله مؤسسة الحلقة يترك منطقة وادي ريغ ويتجه إلى ضواحي ورجلان مع تلاميذه بسببهم.

قبيلة سدراتة أصلها من لواتة استقرت في برقة والأوراس وورجلان إليها نسبت عند تغلب الهلاليين إياهم على المواطن بالبضائع وسكانها لهذا العهد من أعقاب بني ورجلان وأعقاب إخوانهم من بني يفرن ومغراوة ورئيسهم يعرف بالسلطان والرئاسة فيهم لبني أبي غبول ويزعمون أنهم من بني واكير إحدى بطون واركلان والحاكم لهذا العهد أبو بكر بن موسى بن سليمان من بني غبول.

يبدو أن الإباضيين وصلوا إلى ورجلان في مرحلة مبكرة أما قبل تأسيس الدولة الرستمية أو خلالها لأن ورجلان كانت من مراكز التجارة والدعاة كانوا يرافقون القوافل التجارية ومن بين الذين تعرضوا لهؤلاء ابن خلدون الذي قال في شأنهم (نزل الكثير منهم أي الخوارج ما بين قصور الزاب وورجلان فاختلفوا قرى كثيرة في عدوة وادي ينحدر من الغرب إلى الشرق ويشتمل على المصر الكبير والقرية المتوسطة وأكبر هذه الأمصار تسمى توقرت)⁽¹⁾.

نلاحظ من خلال نص ابن خلدون أنه لا يقتصر على ورجلان بل يشمل كل المراكز الإباضية بوادي ميزاب ولعل هذا المقصود بالواد وادي ريغ وورجلان وتوقرت وفي نص آخر يقول ابن خلدون بنو وركلان هؤلاء إحدى بطون زناتة من ولد فريني بن جانا وأن إخوانهم يزمراتن ومنحصة ونالتة المعروفين لهذا العهد منهم بنو وركلان وكانت فتهم قليلة وكانت مواطنهم قبلة الزاب واختطوا المصر المعروف بهم لهذا العهد على ثمان مراحل من بسكرة بنوها قصور متقاربة الخطة ثم استبحر عمرانها⁽²⁾.

(1) ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6 ص 63.

(2) نفسه، ج 6 ص 83.

يلاحظ الباحث على نص ابن خلدون أنه لم يبين لنا السكان الذين كانوا متواجدين في ورجلان قبل هذه الهجرة والأسباب التي أدت إلى الهجرة لكن ما يوضحه أن المدينة بدأت في شكل قصور ثم زاد عمرانها فتحولت تلك القصور إلى مدينة تحتوي على كل المرافق الضرورية.

قبيلة تناوطة انتشرت مضاربها في ليبيا والجنوب التونسي ويبدو أن بعض بطونها استقرت في ورجلان العرب.

يبدو أن القبائل العربية وعلى الخصوص الهلالية استقرت بالقرى المجاورة للمدينة منها قرية الشط التي أسست بعد خراب مدينة سدراتة من طرف بنو غانية وقرية عجاجة أعلي سكانها من ذرية سيدي عطاء الله وقرية أخويلد يسكنها جماعة من الأعراب أطلق عليهم اسم المرابطين قرى الرويسات يسكنها أعراب قدموا إليها من المشرق سنة 580-1185.

ديار أسعيد يسكنها أعراب من قبيلة سعد عتبة وهم قوم رُحَّل يمكنون في المنطقة مدة ثم يرحلون عنها إلى بلاد التل.

العبيد إن النشاط التجاري لمدينة ورجلان مع السودان الغرب جعلها من بين أهم المدن التي يتواجد بها الجنس الزنجي وقد علق على ذلك الحسن الوزان فقال: أغلب الناس سود ليس بسبب المناخ ولكن لأن لهم جوارى يتسرون بهن فيأتين بأولاد سود ويعرفون أيضا برجال الحششاء وتسميهم الأعراب بالحرثاني ويسميهم البعض بالرواغة⁽¹⁾.

اليهود تواجد اليهود في ورجلان مثل ما هو الحال بالمدن التي تقع على المسالك التجارية وأن تواجدهم كان بجوار سوق ورجلان واستمروا بها حتى طردوا منها خلال استيلاء أولاد علاهم على المدينة سنة 1040-1630 فاستوطن معظمهم قرى.

(1) أغزام، المصدر السابق، ص 82.

الأحوال الثقافية:

اعتبرت ورجلان من أهم المراكز الثقافية خلال العصور الوسطى وعلى الخصوص عندما انتقل إليها ما بقي من أتباع الدولة الرستمية من رجال سياسة وثقافة فالمصادر الإباضية التي اطلعنا عليها ترجمت لمجموعة من العلماء الذين نسبوا لورجلان منذ نهاية الدولة الرستمية على يدي الفاطميين سنة 909/296.

من بين هؤلاء أبو صالح⁽¹⁾ الذي كان من علماء القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي ينتسب إلى العاصمة الثانية للدولة الرستمية وهي سدراتة يعتبر صلة وصل بين تيهرت وورجلان فقد انتقلت ثقافة تيهرت إلى ورجلان بفضلها حيث عمد إلى حلقة المناضرات كما كان عليه الحال في تيهرت

لم يكن عالة على مجتمع ورجلان بل كان يشغل في مزرعته مدة من الزمن وما بقي له من الوقت يقضيه بمسجد ورجلان لتلقين طلبة العلم ويتحاور مع من كان من العلماء في ورجلان.

من بين الذين ورد ذكرهم العالم الجليل إبراهيم بن سحامة بأن إبراهيم 1203/1155/600/550.

لم تذكر المصادر التي اعتمدناها شيء عن حياته الأولى بل اكتفت بالقول أنه كان معاصرا لسليمان بن عبد السلام الوسياني ومن علماء القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي إبراهيم سليمان أبو سهل ق 12/6.

يبدو من خلال كتب السير الذين ترجموا له أنه من أبرز علماء عصره ومن بين الذين تعرضوا له الوسياني الذي قال بأنه تتلمذ عليه واستفاد منه في علم العقائد والنحو وعلم الأخبار أي التاريخ ولعل جزء من كتاب أبي زكرياء نقله عنه ومن بين المؤلفات التي اطلع عليها الوسياني له كتاب في العقيدة وعلم الفرائض وكتاب آخر

(1) جمعية التراث معجم علماء الإباضية، ج 3 ص 499.

يتعلق بسير العلماء يعتبر من الكتب المفقودة، ومن العلماء الذين عرفهم القرن السادس من مدينة ورجلان العالم الجليل إبراهيم بن يوسف بن أبي يعقوب بن إبراهيم السدراقي الورجلاني أبو إسحاق 1203/600⁽¹⁾ فهو من مدينة سدراتة التي دمرها أبو إسحاق الميورقي خلال هجومه على ورجلان في الثلث الأول من القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي ويبدو من خلال التسمية أن هذا العالم الجليل من علماء سدراتة انتقلت عائلته إلى ورجلان وينتسب إلى أسرة علمية لهذا كان والده من بين الشيوخ الذين تتلمذ عليهم ومن بين الذين تعرضوا إليه الدرجيني الذي قال عنه "إمام في علم الأدب وإن ذكر في الفروع فيا للعجب وقد تمسك من الحديث والأصول بسبب أقوى سبب"⁽²⁾.

يلاحظ على النص أن العالم الجليل كان كغيره من علماء عصره لم يقتصر على علم واحد بل كان له الباع الطويل لكن في الأدب كان الأكثر ومن علماء القرن الخامس أيضا نذكر أيوب بن إسماعيل اليزماتي المزاتي أبو سليمان 500-550/1106-1155.

يبدو من الاسم والكنية أنه ينتسب إلى قبيلة مزاة وهي من القبائل التي أخذت بالمذهب الإباضي ويعتبر من أهم علماء ورجلان في هذه الفترة التاريخية وهو ما جعل الدرجيني يعلق عليه بقوله بحر تتصادف في غواريه السفن وإن سئل في علم من العلوم أجاب.

لم يتوقف عالمنا هذا عن نبوغه في مجموعة من الفنون العلمية بل سخر ماله لخدمة العلم والعلماء فجعل من داره مدرسة يدرس بها تلاميذه ويطعمهم من ماله الخاص وعلى الخصوص الغرباء منهم وهذا الاهتمام جعل مجموعة من العلماء الذين اشتهروا فيما بعد

(1) جمعية التراث، المرجع السابق، ج2 ص 21.

(2) نفسه، ج2 ص 22.

يتوافدون عليه ويأخذون من علمه ونذكر من بين هؤلاء يخلف بن يخلف الدرجيني صاحب الطبقات وعثمان بن خليفة السوفي صاحب كتاب التساؤلات وأبو يعقوب الورجلاني ومن علماء القرن السادس الهجري حنين بن القاسم أبو رحمة ق 6/12⁽¹⁾.

لا نعرف تاريخ مولده والعلوم التي تلقاها عن شيوخه الأوائل لأن الذين ترجموا له اكتفوا بقولهم بأنه كان من المعاصرين لأبي عمار بن عبد الكافي وأبو يعقوب يوسف بن خلفون وهما من العلماء الأجلاء في المذهب الإباضي ويبدو أنه كان من بين المهتمين بأمور الفقه الإباضي لهذا نجد الوسياني اعتمده في سيره والسوفي في تساؤلاته مما يؤكد اطلاعه على ما كتب من قبل شيوخ الإباضية في عصره والعصور التي سبقتة.

علق عليه الشماخي بقوله عالم علامة كبير وهو من أهل التحقيق وقد نسب إليه كتاب عنوانه المعلقة تناول فيه الأحكام والفتوى التي اشتهر بها علماء المغرب والأندلس خلال العصور الوسطى والعصور الموالية لها ومن علماء القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي داود بن مصالة بن يحيى المزاتي أبو إسحاق ق 6/12⁽²⁾.

لا نعرف عليه معلومات كثيرة لاختصار. تراجم الإباضية ما عدا تعليق الوسياني عليه بقوله كان هو وابنه أبو عروض ممن يعول عليهما في الشدائد⁽³⁾.

المقصود من هذا الكلام أنه لم يكن من رجال العلم فقط بل كان من رجال السيف لأن علماء ورجلان وغيرها من المدن الجزائرية خلال المراحل التاريخية كان علماءها يقودون الجيوش حين تتعرض مدنها إلى الأخطار الخارجية وما يؤكد هذا القول أن داود بن يوسف وهو من بني يزنسن أو يصلتن في بعض النصوص ويصلتن نسبة إلى جد قبيلة مغراوة كان أحد الرؤساء الثمانية الذين حاربوا إسحاق الميورقي 1228/626.

(1) يعتبر من كبار علماء القرن، 7هـ/13م.

(2) جمعية التراث، المرجع السابق، ج2 ص 316.

(3) نفسه، ج2 ص 316.

وهنا يتساءل الباحث عن تواجد المغراويين في ورجلان لأن ابن خلدون عندما تعرض إلى مضاربهم في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي والقرنين السابع والثامن الهجريين حددها بالمنطقة الغربية وأنهم على المذهب السني المالكي لكن النص يرى تواجد بعضهم في ورجلان وهذا الوجود سبق الدور الثاني الذي ستلعبه مغراوة في أحداث المغرب الإسلامي خلال القرنين السابع والثامن الهجريين ومن علماء القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي زكرياء بن أبي بكر اليرساني 500-550/1106-1155⁽¹⁾ هو أخو أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر الورجلاني العالم الجليل يبدو أنه زيادة على اهتمامه بالعلم وتدريسه له فإنه تولى مشيخة ورجلان في عصره له حلقة درس بمسجد ورجلان يقبل عليها الطلبة اشتهر بقرض الشعر.

هذه بعض الأمثلة على الحياة الفكرية في ورجلان خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين وقد تميزت بما يلي:

أن أغلب العلماء الذين اشتهروا في ورجلان خلال هذه الفترة التاريخية كانوا من علماء الإباضية ولم يكن هؤلاء من المترجمين أو الشارحين فقط بل كانت لهم إضافة على المذهب الإباضي.

أن جل هؤلاء ينتسبون إلى القبائل البربرية التي أخذت بالمذهب الإباضي وأيدت الدولة الرسمية منذ تأسيسها فنجد مثلا الهواريين والمزاتيين وحتى المغراويين.

لم يتوقف النشاط الثقافي في ورجلان على القرنين الخامس والسادس الهجريين فاستمر في العصور الموالية.

(1) يوقع هذا دور العلماء في الأحداث السياسية وعلى الخصوص مواجهة الاضطرابات.

الحياة الفكرية في العصور الحديثة:

استمرت ورجلان خلال هذه الفترة التاريخية من بين المراكز الفكرية في الجنوب الجزائري ونجد من العلماء الذين عرفتهم هذه المرحلة أحمد بن الحاج قاسم سنة 1708/1120⁽¹⁾ لم تذكر المصادر التي ترجمت له تاريخ مولده والشيوخ الذين أخذ عليهم في مراحل التعليم بل اكتفت بالقول أن أصله من ورجلان استقر مع أبيه في القرارة وهذا النص يوضح لنا أن مدينة القرارة بعد تأسيسها وربما خلال مرحلة التأسيس استقبلت أسر من مدينة ورجلان ولا تزال بقايا منهم إلى يومنا هذا وكان لهذا العالم دور في تأسيس مسجد القرارة ومن المعاصرين له بأحمد بن أفلق 1756/1149⁽²⁾.

يعتبر من بين علماء ورجلان الإباضيين لمساهمة في تسيير دواليب السلطة بها إلى جانب حكامها كما كان يدير المسجد الإباضي بورجلان لأنه هو المسؤول عن شؤون الإباضية بها وخلال هذه المرحلة أيضا نجد عالم آخر لا يقل عن الأول وهو بلقاسم بن حمر 1640-1591/1050-1000 كان من بين علماء ورجلان الذين نزحوا إلى القرارة واستقروا بها وتركوا بها ذرية يعرفون بأولاد أوبالة وكان من أول الأئمة بالنسبة لمسجد القرارة بعد تشييده وهو ما يؤكد لنا مكانته العلمية.

ومن علماء هذه المرحلة التاريخية يس بن موسى بن الحاج داود 1761/1175 لم نعرف معلومات كثيرة عنه لأن الذين ترجموا له اكتفوا بالقول بأنه من ورجلان وبالتحديد سدراتة وبما أن سدراتة انهارت في القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي فإنه يتسبب إلى الأسر السدراتية التي استقرت بورجلان.

(1) من كبار علماء ورجلان في القرن 17م.

(2) لا يزال المسجد ماثلا للبيان.

يبدو أنه تلقى دراسته الأولى بمسقط رأسه ورجلان وبعدها انتقل إلى وادي ميزاب فتلمذ على علمائه أمثال الشيخ محمد بن القاسم المصعبي وصالح بن إبراهيم بعدها عاد إلى مدينة ورجلان فتولى الحلقة بها.

وهنا يلاحظ الباحث أنه في العصور الوسطى كانت ورجلان تؤثر على المراكز الحضارية القريبة والبعيدة عنها فكان العلماء يأتونها من تونس وليبيا لكن في العصور الحديثة أصبح علمائها ينتقلون إلى مراكز أخرى للأخذ عن علمائها مثل وادي ميزاب التي تحولت إلى مركز هام للدراسات الإباضية.

ومن بين الذين ترجموا له يحيى بن معمر الذي قال عنه رأيت له كتباً كثيرة وأجوبة فقهية من خط يديه وله قصائد شعرية ومراسلات مع أمير ورجلان تتعلق بكيفية المحافظة على الأمن في البلاد ومن المعاصرين له بحمان بن عيسى 1631/1040⁽¹⁾.

هذا العالم لم يكن رجل قلم بل كان من بين السياسيين فهو الذي أتى بمولاي عبد الغفار أحد أشرف مدينة فاس لتولي شؤون مدينة ورجلان سنة 1631/1040 تولى السلطة السياسية في هذه البلاد ولم يتوقف هذا العالم على تأييد هذا الشريف فقط بل ساهم في نقل السلطة إلى أخيه بعده.

المؤسسات التعليمية:

الحلقة⁽²⁾:

في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي قام أبو نوح وباخرز الحلقة في ورجلان كانت الحلقة في البداية تعقد بعيدا عن العمران وأحيانا في الغيران

(1) جمعية التراث، المرجع السابق، ج 3 ص 666.

(2) سبق التعرض لها.

وفي الأماكن السرية لكن ابتداء من القرن الخامس أصبحت تعقد في المسجد وأصبح المسجد مقر الحلقة التي من حولها يدور المجتمع الإباضي فتتم العلاقات بين الأفراد والجماعات في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي قاما أبو نوح وباخزر الحلقة في ورجلان⁽¹⁾.

ومنها حلقة يعقوب بن أفلاح وكان الشيوخ يعتبرون ورجلان وريثة تيهرت ومنها حلقة سعيد ابن زنگيل وعبود الكزاني المزاتي الذي قتل في باغاية وكانت له حلقة يقصدها الطلبة من مختلف التجمعات الإباضية وفي النصف الثاني من القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي اشتهرت حلقة أبو نوح سعيد المديوني في ورجلان وحلقة أبو يوسف البجلاني الذي أسندت إليه مهمة الاحتساب بجادوا لقمع الفساد الذي ظهر في المجتمع الورجلاني بعد معركة باغاية وفي بداية القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي ظهرت حلقة أبي يعقوب بن سهلون⁽²⁾.

أهم العلوم:

الرواية:

بورجلان نجد الأسماء التي ذكرتها كتب التراجم الإباضية هي أبو يعقوب يوسف بن سيلوس قاضي ورجلان وتلميذه أبو صالح جنون بن يمران الذي رويت عنه عدة نصائح وكان يلقب بشيخ الرأي الناصح ومن هؤلاء لوأب بن سلامة المزاتي الذي اشتهر بكتابه بدء الإسلام وشرائع الدين وفي الرواية أشتهر أبو سليمان بن يعقوب بن أفلاح كانت له عدة فتاوى خالف فيها جمهور الإباضية وقد نقلت كتب السير بعضها وكذلك العز بن

(1) الحلقة المقصود بها المجالس التي يعقدها جماعة الإباضية.

(2) من بين المؤسسين لنظام الحلقة.

تاغيرات الذي قام بتدوين الآراء الفقهية وأبو موسى عيسى الذي روي عنه كتاب السير عدة حكم ومواقف ومنهم خزرون بن فلفول الذي روي عنه صاحب المعلقات عدة روايات تحت عنوان مسائل الشيخ ابن خزرون⁽¹⁾.

ومن بين المؤلفين الذين أنجبهم ورجلان أبو العباس أحمد الفرسطاني الذي ألف في آخر حياته خمسا وعشرون كتابا منها القسمة ولارضين ومنها من لا يسع الناس جهله في التوحيد والسيرة في الدماء والجراحات وكتاب الديات وكتاب تبين أفعال العباد وكتاب الألواح الذي تركه مدونا في الألواح قبل وفاته.

التفسير:

من بين المفسرين الذين استقروا بورجلان لواب بن سلامة الذي فسر القرآن باستعراض النصوص والشواهد القرآن والحديث وبها استبد المير أبو زكرياء الحفصي مر بهذا المصير بأعجبه وكلف بالزيادة في تمصيره فاخطت مسجده العتيق ومثذنته المرتفعة وكتب عليها اسمه وتاريخ وضعه نقشا في الحجارة.

(1) يتسب لقييلة مغراوة وبالتحديد آل خزرون.

توقرت⁽¹⁾:

قبل التعرض لتوقرت لا بد من الإشارة إلى:

وادي ريغ⁽²⁾:

في ريغ نشطت الحركة العلمية منذ بداية القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي ليتنقل إليها مركز الدعوة في نهاية القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي مع ظهور محمد بن أبي بكر القرسطائي ومن أشهر الحلقات في أريغ حلقة أبو زكرياء يحيى بن ويحمن الهواري التي كان مقرها بتين زراتين وحلقة تلميذه أبو محمد العاصمي الذي تشابه حلقاته مع حلقة أبي نوح سعيد المدوني فكان شديد التنقل بين ريغ والزاب وهو مما يوحي بإشرافه على مجموعة من الحلقات ووادي ريغ في هذه المرحلة عرف توافد عدد كبير من الإباضيين عليه وفي القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي فتبقي حلقة أبي عبد الله بن أبي بكر القرسطائي التي أسسها سنة 1018/409 على رأس الحلقات من حيث الأهمية لما امتازت به من التكامل والشمول وللدور الكبير الذي لعبه هذا العالم لإيجاد مركز جديد للدعوة بوادي ميزاب.

ومنها حلقة أبي زيد عبد الرحمان بن المعلى المؤسس الأول لحلقة العزابة بمسجد أريغ وحلقة أبي الربيع سليمان الزلغيني بأجلوا وادي ريغ.

وكانت ريغ من أهم المراكز التي تحتوي على خزائن المخطوطات فقد ذكر الوسياني أن إبراهيم بن مطكود سن 1078/471 ترك مكتبة عظيمة عند وفاته بأريغ أوصى بها لتلميذه أحمد بن محمد بن أبي بكر.

(1) لا تزال تحمل نفس الاسم ويبدو أن اسمها أمازيغي.

(2) وادي ريغ، المناطق المجاورة لتوقرت.

من أهم الكتب الإباضية هي التي ألّفت في وادي ريغ نذكر منها على سبيل المثال ديوان الأشياخ وهو عبارة عن موسوعة فقهية في المذهب الإباضي تتألف من اثنا عشر جزءاً ألّفت في سنة 1014/405 من بين هؤلاء أبو عمران موسى بن زكرياء من تاجديات بأريغ.

وديوان العزابة الذي ألّفه ثمانية من علماء الإباضية في تاجديت بأريغ وهو يقع في خمس وعشرين كتاباً ومن بين هؤلاء العلماء يوسف بن عمران من تاجديات ومن الذين اشتهروا في وادي ريغ عبد الله بن محمد الفرسطائي يعتبر من العلماء المصلحين البارزين في النصف الأول من القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي اشتهر بتأسيسه لنظام العزابة وذكر الشماخي أنه له تأليف كثيرة لكن ما يعاب على روايته أنه لم يتعرض لعناوين هذه الكتب والذين جمعوا آرائه من بعده هم تلاميذته نذكر منهم على سبيل المثال سليمان بن مخلف وعبد الله العاصمي.

ومن بين العلماء الريغيين المشهورين في ميدان الرواية سعيد بن أبي محمد ويسلان رويت عنه عدة مسائل في العقيدة وسعيد بن عمار الزواعي الذي روي عن أبي عبد الله القسطلاني بعض السير كما روي عنه أبو زكرياء بعض الروايات ويعقوب بن أبي القاسم الويليلي وهو من أبرز الرواة الذين اعتمد عليهم أبو زكرياء في سيره وكذلك الدرجيني وأبو يعقوب بن يوسف بن ثيال من تاجديت وله عدة فتاوى وروايات.

من المرافق التي كانت تشتهر بها توقرت المسجد الجامع الكبير بها، يبدو أن الجامع في توقرت قد أسس خلال التواجد الإباضي بالمدينة والضواحي المجاورة لها بعد سقوط دولة الرستميين فكان من بين المناطق التي استقر بها الإباضية توقرت وما جاروها وخلال تلك المدة أقاموا لهم مسجد يؤدون فيه الصلاة ومن بين الذين تناولوا مسجد توقرت الوزان الذي قال عنه أن مسجدها مبني بالحجر المنحوت الجميل.

الأحوال السياسية:

تعتبر توقرت من بين المدن التي انتشر فيها الإسلام مبكرا ويبدو لي أن وصول عقبة ابن نافع لبسكرة كان له صدهاء بمدن الجنوب ومن بينها توقرت حيث اعتنق البعض منهم الدين الإسلامي وخلال القرون الأولى خضع أهل توقرت إلى سلطة دول المغرب الإسلامي وعلى الخصوص في عهد الموحدين حيث كانوا تابعين لأمير بسكرة وعندما تأسست الدولة الحفصية خضعوا إليها بواسطة حكام بسكرة من بني مزني الذين استقلوا بالزاب ومدوا نفوذهم إلى توقرت وورجلان.

وأكبر هذه الأمصار تسمى توقرت مصر مستبحر العمران بدوي الأحوال كثير المياه والنخيل ورثاسته في بني يوسف بن عبد الله وتغبي على ورجلان من بد أبي بكر بن موسى أزمان حدائته وأضافها إلى عمله ثم هلك وصار أمر توقرت لأخيه ميعود بن عبيد الله ثم لابنه حسن بن مسعود ثم لابنه أحمد بن الحسن شيخها لعهد بن خلدون وبنوا يوسف بن عبيد الله هؤلاء من ريغة ويقال أنهم من سنجاس وفي أهل تلك الأمصار من مذاهب الخوارج وفرقهم كثيرة وأكثرهم على دين العزابة ومنهم النكاية أقاموا على انتحال هذه الخارجية لبعدهم عن منال الأحكام ثم بعد مدينة توقرت مدينة تماسين وهي دونها في العمران والخططة ورثاستهم لبني إبراهيم من ريغة وسائر أمصارهم كذلك⁽¹⁾

إمارة بني جلاب:

نجد اختلاف بين المؤرخين في تحديد تاريخ وصول بني جلاب إلى توقرت تذكر بعض الكتب أنه خلال العهد الحفصي وصل أحد أفراد البيت المريني وهو سليمان الجلابي قادما من فاس فاستقر بتوقرت بعد رجوعه من الحج وأسس بها مسجدا ثم وجد تأييدا من القبائل العربية بالناحية كأولاد مولاة والدواودة ونصبوه حاكما عليهم.

(1) ابن خلدون، العبر، ج 7 ص 58.

يقول الحسن الوزان عن تنوقت بها نحو ألفين وخمسمائة كانون دورها مبنية بالآجر المشوي حاشا المسجد الجامع فإنه وده مبني بالحجر المنحوت الجميل.

أما مرمول فيقول عنها يعمرها ألفان وخمسمائة منزل مبنية بالحجر والآجر سكانها نبلاء وأغنياء يملكون نخيلا مثمر لكن المنطقة لا تنتج من القمح لا النزر اليسير فيجلب أهلها الحبوب من قسنطينة مقابل التمر

كانت المدينة في أول الأمر خاضعة للملوك مراكش ثم أصبحت تابعة لسيادة مملكة تلمسان لكنها في أيامنا هذه خاضعة للمملكة تونس يؤدي السكان خراجا سنويا للحاكم يقدر بآلتي ألف مثقال أما الحاكم الحالي فهو عبد الله القائد الشجاع والبطل الشهم الذي يحرص على سلامة السكان وأمن الإقليم يتألف جيشه من فرسان ورماة القذائف والبنادق ومن المشاة وقد استأجر عناصره من بين المقاتلين الأتراك.

هي قاعدة وادي ريغ ومسكن أمرائها أولاد جلاب وأول من التقيته من طلابتها سيدي محمد التواتي ولده عالم توات في زمنه وهو قاضي توات وبلدة تمنطيت ثم خرج والده هذا بعدما تفقه وبقي في ورجلان أعوام ثم انتقل منها إلى تنوقت شد طرفا من الفقه والنحو وله بعض الخبرة في علم العروض ثم خرج بعد مفتي البلد وهو سيدي محمد أخو الأمير وسيدي محمد بن إبراهيم تلميذ سيدي علي الأنصاري ولم يزلوا مدة إقامتنا يترددون إلينا ويسألون واستحسنوا قصائدي الوتريات وأخذ مني سيدي محمد بن إبراهيم الكراسية التي جمعت في معاني لو الشرطة والكراسة التي سميتها ذوي الهمم العالية على الزهد في الدنيا الفانية وأعطاني مجموعا فيه عدة تأليف اغتبطت به كثيرا وقرأ على سيدي محمد بن عبد الكريم شرح منظومة أبي الفرج الإشبيلي في ألقاب الحديث وسألوني عن قتال أهل ورجلان هل يحل لهم أم لا فقلت لهم إنهم ليسوا من أهل طاعتكم ولا ولاية لكم عليهم فقالوا أنه يجب علينا تغيير المنكر وهذا منكر قلت نعم إن من زيادة على وجود الرسوم الصخرية بها شرط المنكر أن لا يؤدي إلى منكر

أعظم منه فإنكم لا تصلون إلى ذلك إلا بعد قتل أناس كثيرين وأمرأ هذا البلد أولاد جلاب وأسلافهم من بني مرين وولدهم كان من أمرأ العدل على ما يحكى عنه وأولاده على سيرنه لا يقدمون على أمر إلا بعد مسلة الفقهاء.

لعل السبب في اختياره حاكما عليهم يرجع بالدرجة الأولى إلى الصراع بين هذه القبائل وانتسابه إلى إحدى الأسر الحاكمة ببلاد المغرب الإسلامي والقبائل العربية كانت لها علاقة مع تلك الأسر التي سيطرت على المغرب الإسلامي بعد سقوط الخلافة الموحدية فقد تعاونوا مع الحفصيين ومع بني زيان ومع بني مرين⁽¹⁾.

لكن هذه الدولة وجدت معارضة من قبل بايات الشرق الجزائري الذين كانوا يريدون السيطرة على مدن الجنوب لأهميتها من الناحية الاقتصادية ومن بين هؤلاء صالح باي الذي يعتبر من أبرز البايات الذين حكموا الشرق الجزائري فدخل في صراع مع حاكم توقرت إبراهيم بن أحمد بن محمد بن جلاب سنة 1733/1202 الذي هاجم توقرت بقوته العسكرية ودمر جزء من مرافق المدينة ومن المسجد الجامع ثم دخلها عنوة وأسر حاكمها وفرض عليه الإقامة الجبرية بقسنطينة لكن عند مقتل صالح باي سنة 1792/1207 فر إبراهيم بن أحمد من قسنطينة وعاد إلى توقرت.

وخلال تلك المدة كانت توقرت تابعة للشيخ إبراهيم بن الحاج ابن قانة الذي استعمل من قبل صالح باي لاقبال نفوذ بوعكاز وسمح له بالتوسع خارج بسكرة لكن هذا الأخير وجد معارضة من قبل القبائل العربية خاصة الموالية لبوعكاز ومنها قبائل توقرت⁽²⁾.

فدخل ابن جلاب المدينة وأعاد بناء المسجد الذي دمر من قبل قوة صالح باي 1804/1219 ولمحاولة بقاء توقرت تابعة لبابيلك قسنطينة اتصل حسن باي بأفراد أسرة ابن جلاب وطلب منهم التخلص من إبراهيم بن جلاب مقابل مكافئة مالية

(1) ابن خلدون، العبر، ج 7 ص 58.

(2) كان على رأس مشيخة فرجية في العهد العثماني.

تقدم لهم وهو ما جعل الفتنة تشتد بينه وبين السلطان الذي جند قبيلة الطرود وهي من أعظم القبائل المحيطة بالمدينة ولم يتوقف عند هذا الحد بل حث إخوانه مطالبته بالإرث ولم تتوقف تلك الفتنة إلا بعد مقتله في مكيدة دبرت له سنة 1230/1815⁽¹⁾.

يقول أحد الباحثين الفرنسيين وهو شربونوا أن هذا الأمير النزيه لم يجد القوة للبقاء في الحكم أكثر من سنة ثم انتخبت الجماعة الشيخ إبراهيم الحاج بن غانة وبعد بضعة أشهر ظهر الشيخ إبراهيم في سلطته ودام حكمه اثنا عشر سنة ثم طرده الشيخ الخازن من توقرت⁽²⁾.

الأحوال الاقتصادية:

توقرت تعتبر من بين مدن الجزائر الهامة فهي عاصمة للثروة خلال العصور الحديثة يحيط بالمدينة سور تتخلله ابواب وتشتمل دائرتها على ثمان وثلاثين قرية اهمها كونين التي تلتقي بها القوافل التجارية المتوجهة الى الجريد وتعتبر توقرت من الاسواق ذات الاهمية في الجنوب الجزائري بعد ورجلان ووادي سوف وتجارها يحملون إلى الجنوب التونسي الأقمشة الصوفية والمنتجات التي تتواجد بها ويجلبون من تونس العطرية والأقمشة القطنية المستوردة من أوروبا.

تماسن:

قال الدكتور أبو القاسم سعد الله استطاع العياشي أن يعاين جامع تامسين قرب توقرت وأن يسجل أن له صومعة عالية تبلغ حوالي مائة درجة وأن يشاهدها من أعلى عليها اسم بانئها وهو أحمد بن محمد الفاسي 1414/817.

وقال الدكتور مؤنس ومن أجل مساجد هذه النواحي مسجد تماسين في ناحية توقرت المشهورة بجماها ومناعتها وبها مساجد مبنية من اللبن المقوي بجذوع النخل ولكل مسجد منها مئذنة تشبه في هيئة تخطيطها العام مسجد عقبة ابن نافع.

(1) صالح باي، من أبرز من تولى باي على قسنطينة.

(2) بن قانة عائلة حكمت منطقة بسكرة وآخر حكامها عبد العزيز بن قانة.

سبق لنا القول أن الحاج سليمان المريني استقر مع أسرته وأتباعه في توقرت وتماسين وعاش في سلام إلى غاية سنة 1334/735 وهو جد بني جلاب الذين حكموا ريغ والعدواني يرى هو الآخر أن الحاج المريني هو الذي أسس قصرا في توقرت وآخر بتماسين وتتطابق هذه المعلومات مع الرواية الشفاهية المتداولة بين الناس وهي أن مئذنة تماسين معاصرة لمئذنة توقرت وأن أحد المصلحين وهو الحاج إبراهيم المغراوي هو الذي حول تماسين من أسفل الربوة إلى أعلاها والتي تعرف بالقصر وهو الذي بنى المسجد في بلدة تماسين وكذلك المئذنة سنة 1319/716.

وقال عنها العياشي ورحلنا إلى بلدة تماسين وهي بلدة كثيرة العمارة والنخيل وأميرها هو ابن عم أمراء توقرت وفي مسجدهم صومعة ووثيقة البناء طويلة جدا فيها نحو من مائة درجة على بابها اسم صانعها وهو المعلم أحمد بن محمد الفاسي وتاريخ بنائها سنة 817.

قصر تماسين واحد من قصور وادي ريغ يقع القصر على هضبة ارتفاعها ثمانية أمتار يتشكل القصر من مجموعة من الحارات متقاربة تفصل بينها الشوارع والأزقة تسكنها عائلات تربط بينها صلة القرابة.

المساجد تعتبر تماسين المركز الروحي لوادي ريغ لذلك تحتوي على مجموعة من المساجد منها مسجد سيدي الحاج عبد الله نسبة لأحد الأولياء شيد حوالي 588.

المسجد الكبير يقع وسط القصر وتقام به صلاة الجمعة ويرجع تاريخ إنشائه إلى حوالي 663 وأعيد تجديده سنة 1913 مسجد القبة الخضراء وهو من المساجد العتيقة أسس على يد الوالي الصالح الحاج عيسى التمساني وكان من بين المساجد التي يدرس بها الفقه والقرآن وعلوم اللغة العربية.

مسجد با عيسى نسبة إلى أحد علماء الإباضية وهو من أقدم المساجد في هذا القصر لأن هذه المنطقة عرفت استقرار الإباضيين بها بعد سقوط الدولة الرستمية وأمهات المصادر في الفقه الإباضي كتلت بهذه القصور وكهوفها.

بلاد ميزاب:

وكانت تخوم بلاد زناتة منذ غلبهم الهلاليون على إفريقيا وضواحيها أرض مصاب ما بين صحراء إفريقيا وصحراء المغرب الأوسط بها قصور، اتخذوها فسميت باسم من ولى خطتها من شعوبهم⁽¹⁾.

تعرف أيضا ببلاد الشبكة وهي عبارة عن هضبة صخرية تقع شمالي صحراء الجزائر وتمتاز عن بقية المناطق المجاورة لها بطبيعتها القاسية فهي عبارة عن صحراء تتوفر بها كل شروط الصحراء وسميت بالشبكة لأنها تتخلها أودية عديدة مركزها مدينة غرداية.

عناصر سكان قبل تأسيس المدن: يقول العالم الجليل الشيخ عبد الرحمان باكلي أن سكان واد ميزاب القدماء هم من قبيلة بني مصعب وهي فرع من زناتة وتحولت الكلمة من مصعب ومصاب ومضاب وميزاب إلى بني ميزاب ومما يؤيد هذا الرأي تحويل الصاد إلى زاي لدى سكان وادي ميزاب ومصعب حسب نسبة البربر هو مصعب بن بادين انتقل لبنوه إلى الوادي مع بني إخوانه عبد الواد وتوجين وزردال وهم من الطبقة الثانية من زناتة انتقلوا إليه لأسباب سياسية.

قال ابن خلدون وقصور مصاب سكانها لهذا العهد شعوب بني بادين من بني عبد الواد وبني توجين ومصاب وبني زردال فيمن انضاف إليهم من شعوب زناتة وإن كانت شهرتها مختصة بمصاب.

لا نعرف الأسباب التي أدت إلى هجرة هؤلاء إلى الوادي قبل قيام الدولة الرستمية لأن المصادر المتوفرة لدينا سكنت عن ذلك ماعدا قول الشيخ أبي إسحاق طفيش الذي ذكر أن هجرة هؤلاء كان في القرن الثاني الهجري ولم يوضح لنا أسباب

(1) ابن خلدون، العبر.

تلك الهجرة ومن الأحداث التي عرفتها بلاد المغرب خلال تلك المدة ثورة الخوارج وزناتة من أهم القبائل ولهذا يبدو لي أن الحروب التي قامت في الشمال أدت بهؤلاء إلى الهجرة نحو الجنوب كما هاجر إخوانهم من المغرب الأدنى إلى المغرب الأوسط وكانوا الحلفاء الأوائل لبني رستم عند تأسيس الدولة الرستمية.

بني مصعب مثل بقية القبائل البربرية الأخرى لا نعرف المراحل التي مرت بها دخول الإسلام لهم لكن يبدو لي أنه تم بين حملة عقبة الأولى وحملة موسى بن نصير التي كانت النهاية بالنسبة لإسلام البربر وأغلبهم اعتنقوا الإسلام دون أي مقاومة تذكر وفيما يتعلق بالجانب المذهبي فإنهم كغيرهم من الشعوب الإسلامية تأثروا بانتشار المذاهب الإسلامية والتيارات الإسلامية فاعتنقوها وكان من بينها المعتزلة التي يبدو أنها وصلت بلاد المغرب الإسلامي في فترة مبكرة للعلاقة بين المشرق والمغرب ولم يتوقف وجود هؤلاء بأمصار المغرب بل امتد إلى وادي ميزاب ومن بين شيوخهم سليمان بن عبد الجبار المدفون بالعطف وكان معتزليا.

أطلال القرى تأكد للباحث أن البربر مثل بقية الشعوب الأخرى كانوا يختارون المجاري المائية لبناء قراهم لكن مع زيادة عدم انتشار الأمن أدى بهم إلى إقامة مدنهم في سفوح الجبال مما يسمح لهم للدفاع عنها في حالة الخطر لذا فهذه القرية توجد مجاورة للوادي ولها حصن كانوا يلجؤون إليه عند الخطر لا تزال أطلاله ماثلة للعيان.

قرية اقنوناوي قرب موقع السد الكبير: ومن بين القرى القديمة قرية أتلات موسى على مقربة من شعبة أتلات بواحة بني يزقن ويذكر إبراهيم مطياز قرية بوهراوة شمال شرق غرداية.

تاجنيت العطف⁽¹⁾: من الذين سكنوا وادي ميزاب سليمان بن عبد الجبار وهو من المعتزلة الذين كانوا بالمنطقة قبل وصول الإباضيين وكان مسكنه بقرية أغرم إنتلزييت وهي متواجدة في العطف أبغور ينحدرون من سلالة أولاد عبد الله، الذين استقروا مبكرا في هذه المنطقة الصحراوية ويكون جده الأول أحريز بن عبد الله⁽²⁾ أسس مدينة العطف وحسب المراجع الإباضية فإن كلمة العطف لانعطافها جانب الوادي ويقال لها العطفاء (الحمرء) ويشار لقاطنها بالعطفاوي وتعتبر أقدم مدينة في وادي ميزاب إذ سكنها المعتزلة ويقال أن اسمها الحقيقي هو تاقنيت (إناء بالبربرية)⁽³⁾ ويقول أسسها خليفة بن أبغور سنة 402-1012

لكن المخطوط يذكر أن مدينة العطف بعد أن أسسها سليمان بن عبد الجبار، وخليفة بن أبغور، نزل عليهم بني مرزوق وهنا يلاحظ الباحث أن بني مرزوق وصلوا إلى مدينة العطف في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي وساهموا في تأسيس بنورة ومليكة هي أقدم مدن ميزاب الحالية أنشأها خليفة ابن أبغور عام 402/1012.

قرية نورة حسب المخطوط أو بنورة حسب ماهو متداول⁽⁴⁾: تشكل بنورة من قريتين متصلتين في وقت واحد على جبل منقطع لوحده واتخذت هذا الاسم إلى امرأة كانت تباع النورة، وهي المغرة في عرف البعض، أو ما تسمى حاليا الجير محمد بن يوسف وهناك من يرى أن التسمية هي أث بنور نسبة إلى القبيلة الأمازيغية، التي بنت هذه المدينة أسست المدينة 457-1065⁽⁵⁾

وأولاد حريز ونزلوا العطف ومكثوا فيه مدة طويلة فأغار عليهم أولاد عبد الله ووقعت العداوة بينهم فتوجه وفد منهم

(1) أطفيش، المصدر السابق، ص 23.

(2) نفسه، ص 23

(3) نفسه، ص 31.

(4) نفسه، ص 21.

(5) نفسه، ص 21-22.

يبدو أن مدينة العطف دخلت في صراع مع غرداية لم يذكر الكاتب أسباب الصراع ولا تاريخه بل اكتفى بذلك الغردانيين حيث قال: أولاد عبد الله وقعت العداوة بينهم فتوجه وفد أهل غرداية وكانوا في عدد وافر وأرادوا أن يمتحنوا أهل العطف فبعثوا رجلا قبل الهجوم أتى إلى البير المسمى باغي وزعف زعفات كبيرة سمعوه أهل العطف فتسلحوا وخرجوا له فهبط الرجل في البئر ولما رأوه فرجعوا للبلد ثم طلع الرجل وفعل كما فعل في الأول فخرجوا له أيضا وهبط وفي الرابعة زعف ولم يخرجوا وآمنوا وطرحوا سلاحهم فهجم عليهم أولاد عبد الله فمات من مات ومن بقي فرهاربا.

قرية ابو كايوا: أسست من قبل المعتزلة لا نعرف أيضا متى أسست وكيف خربت عكست الأولى الآن أطلالها لا تزال ماثلة للعيان.

أت بنور اوبنورة: اسم قبيلة بربرية لا نعرف أيضا نسب هذه القبيلة البربرية الآن الأبحاث تشير إلا أنها تأسست سنة 1065/457.

كذلك نجد الصراع في وادي ميزاب لم يكن مقتصرًا على سكان تلك القصور والمناطق المجاورة لهم بل كان الصراع داخل تلك القصور بين أحيائها ويورد صاحب المخطوط ما وقع حيث اختلف سكانها وانقسموا إلى فرعين وفي هذا الصدد يقول: بعد مدة من التاريخ وقع شجار بين أهل بنوة وانقسموا إلى قريتين وحدة غربية وأخرى شرقية فما كان كل من نورة الشرقية إلا أن استعانت ببعض الشعانة وهاجموا على إخوانهم في نورة الشرقية والبقاء لله وأهل هذه القرى كلهم كانوا على مذهب المعتزلة الذي كان مذهب سليمان بن عبد الجبار ماعدا شيء من المالكية قليلون وأما المذهب الإباضي لم يكن أبدا في وادي ميزاب لكن انتشاره كان بعد هجرة الإمام أفلح من تيهرت لورجلان.

غرداية أسست غرداية سنة 447-1053⁽¹⁾:

سميت باسم الغار الذي كانت تقيم فيه امرأة عرفت بالداية في أعلى الجبل الذي بنيت عليه غرداية وعرفت غرداية بتاغردايت ومعناها الأرض المستصلحة الواقعة على ضفة مجرى الوادي وبذلك يكون هؤلاء الذين أسسوها قاموا قبلها باستصلاح الأراضي المجاورة للوادي لأن المكان الذي توجد به المدينة حاليا كان فوق الجبل منقطع عن هضبة جبال المنطقة أو تمغاردايت نوع من النخيل بالأمازيغية وأما الأسطورة المتداولة بين الناس حول امرأة وجدت في مغارة عند وصول بابا والجمة إلى المنطقة التي تزوجها وأنجبت له ذرية منها تلك التي ينحدر منها أولاد عمي السعيد سكنها في البداية المهاجرين من وادي ريغ، وجربة، وجبل نفوسة وكذلك الشعابنة من متليلي واليهود من جربة والزخانة قدموا من قصر البخاري إلى غرداية مع أولاد فخار وكان ذلك سنة 395 - 1005 ويتواجد هؤلاء في كل من قصر البخاري، بوقزول، عين وسارة، الخلفة، مسعد.

قدوم بني مرزوق:

وبني مرزوق وصل عرش بني مرزوق إلى غرداية في 8 ربيع الثاني 933/12 جانفي 1527 بموافقة من الشيخ صالح بن عمي السعيد وأصل هؤلاء من نفطة كانوا على المذهب النكاري يذكر أن الشيخ صالح بن عمي السعيد هو الذي قبل هؤلاء سنة 933/1527 وفرقهم على بعض عشائر غرداية على شرط أن يدفعوا للعرش ثلث محاصيلهم وأن يتجندوا مع المواطنين إن واجههم عدو لكنهم لم يوفوا بهذا الشرط الأخير حين هاجم البدو الغرابة على غرداية يوم 11 شوال 945/1539 فاصطفوا معهم وناصروهم فطردوا من غرداية ثم وقع تجديد قبولهم في العشائر 949/1543.

(1) انظر بكير أعويشت وادي ميزاب ص 66.

ومن ولاهم من أتباع الأمير يعقوب ولعله آخر أمراء الدولة الرستمية وهذا يؤكد لنا أنه من بين الذين استقروا في غرداية أتباع بني رستم الذين هاجروا إلى ورجلان بعد سقوط الدولة الرستمية سنة 909 / 296.

سألت الشيخ عبد العزيز الثميني عن كثير من الأعراس الساكنين في غرداية فقال أنهم مندمجين من أخلاط عرب وبربر فقلت له الشيخ بابا عيسى العلواني قال لي هو من الغرب وأهله بناحية كاف عفرون وسليمان بن يحيى جاء معه وعمرؤا في غرداية واتبعوهم كثيرا من الناس كما قدم إليها بعض أهل فقيق وهم أولاد الشيخ بلحاج باحمد وأولاد ناصر من مازونة ومنهم من قدم من مستغانم وتلمسان.

عرفت ذريته بالخرارقة⁽¹⁾ وبعضهم في نورة ومنهم جدهم بابا والجمة بن بابا جاي بن عيسى حاي بن داود بن سليمان بن داود وكان هذا الأخير من علماء وادي ميزاب انتقلت له المشيخة في السابع من المحرم 543 / 28 جوان 1148 وهو الشيخ إبراهيم بن يوسف بابا والجمة حفر الآبار وغرس الأشجار ولذلك لقب بابا والجمة بالعربية أب الأجنة.

ومن الذين استقروا في غرداية بابش بن أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الله بن حنين بن أسبع بن أبي القاسم بن عبد الله بن عبد الرحمان البابشي النفوسي قاد قومه من ناحية فساطوا الواقعة في جبل نفوسة، ليستقر بغرداية وذلك خوفا من جور القبائل المجاورة له.

الحاج داود باعمور بن عيسى وأولاد عبد الله وأولاد الحاج المسعود وأولاد مسعود يتصلون بصالح بن موسى حسب ما أورده الشيخ طفيش ومن أبرز علمائهم الذين لهم تأثير في الحياة الفكرية أبو جعفر الحاج مسعود الزناتي الذي أتى من فاسطوا من جبل نفوسة مع أخيه الحاج محمد سنة 1077 / 470 وسكن غرداية ودرس بها كما درس بالعطف لمدة سنتين ويبدو أن غرق في البحر عندما كان متوجها إلى الحج سنة 1108 / 502.

(1) هو عمار فخار، المرجع السابق، ص 33.

وفي عام 1000 جاء الشيخ عمي موسى من جبل نفوسة فوصل إلى جربة ومعه ابنه أحمد فمكث بها مدة ثم أقبل على غرداية وتزوج بنت الشيخ بابا والجمعة فولدت له ولدا سباه موسى وكان الشيخ عمي موسى يعلم الصبيان ثم توجه إلى ورجلان مكث فيها أياما وعندما لم يجد ما يليق به رجع إلى غرداية ونشر المذهب الإباضي بسياسته وحسن سيرته ودخل كثيرا من المالكية في المذهب الإباضي وانقرض مذهب المعتزلة وبقي المذهب الإباضي والمالكي إخوانا.

من بين الذين نزلوا غرداية الشيخ عيسى بن علوان ورفقائه من أولاد محرز وأصلهم من ناحية تلمسان وبها إخوانهم إلى الآن عرش كامل لأولاد عمي عيسى وأولاد باسليمان الذين بعضهم في غرداية.

أولاد يونس الناشبة أصل هؤلاء جبل نفوسة وكانوا من الأوائل الذين استقروا في غرداية ويرجع الفضل للشيخ عيسى بن علوان والشيخ سليمان بن يحيى اللذان كانا سببا في تعمير غرداية ثم بعدها يتعرض للصراع الذي عرفته غرداية ويقول ولكن الفسائدية دخلوا في آخر الأمر ونزلوا فروق شتى وصار تشاجر بين الفريقين أدى إلى سفك الدم وانقسم كل فريق وحده شرقي وغربي فكان الشرقي يستعين بالشعانة.

أت يزجن أو بني يسجن بني يزقن أو بني يسقن أو بني ازقن⁽¹⁾: بني يسجن كلمة تعددت كتابتها في المصادر الإباضية يزقن يسجن يزجن إزقن إسجن إسقن والاسم يطلق على قبيلة بربرية يقول الشيخ طفيش يسمون أولاد يسقن ويقطنون الآن ولاية أم البواقي ويعرفون بالسقنية

الاسم الذي أطلق على القرية يذكر الباحث بعض القبائل الأمازيغية التي لعبت دورا هاما خلال القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي وهي قبيلة بني يسجن التي

(1) أطفيش، المصدر السابق، ص 25.

كانت مضاربها مجاورة لوهران ثم انتقلت بعض بطونها إلى ايندلس في عهد الخلافة الأموية وربما البعض منها انتقل إلى وادي ميزاب ولا زال ذكرها بولاية أم البواقي حيث نجد السكان المتواجدين بين عين مليلة والفكرون يعرفون بالسقنية وهنا يجب أن نبحث عن العلاقة بين هؤلاء وقبيلة بني يسجن الزناتية لكن المعلومات الواردة في المصادر الإباضية والمتعلقة بسكان بني يزقن فإنها تؤكد أن هؤلاء يتشكلون من سكان القرى المجاورة التي سبق ذكرها وقد اندثرت قبل بناء بني يزقن الذي كان سنة 1321/720 ويقول الشيخ أطفيش (أن الذين أسسوها من أولاد يسقن من أعمال قسنطينية والمقصود بهم السقنية فنسبت القرية إليهم)⁽¹⁾.

ثم دخل إليها السكان من القرى المجاورة لها وهي ترشين، ثلاث موسى، أقنونا، بوكايو.

بني يسقن بعد ما كانوا يسكنونها الستائر وهم قليلون وبها شرذمة من عرب المخادمة وهؤلاء ينحدرون من قبيلة سعيد الذين قدموا إلى إفريقيا في القرن التاسع الميلادي وخيموا بناحية تماسين والحجيرة ثم تفككت قبيلتهم إلى أربعة بطون، سعيد أولاد عمر، أولاد مولات، سعيد عتبة والمخادمة الذين انتقل بعضهم لبني يسقن فطردهم أولاد موسى وهؤلاء ينتمون إلى أولاد علي بن يزيد من بسكرة.

وأولاد عنان هم من بني مظهر وجدهم منصور بن إبراهيم ينتسب للأشراف وهو ما يؤكد العشماوي⁽²⁾.

وأسسوا يسقن على جبل بوكايو يشرف الجبل على الأجنة الحالية لبني يزقن على يمين الذهاب إليها ويذكر التأسيس، كذلك نجد من بين سكان وادي ميزاب أولاد إسماعيل الذين انتقلوا إليها من تافالالت بالمغرب الأقصى ونجد الآن مدينة جديدة قرب بني يسقن

(1) أطفيش، الرسالة المختصرة، ص 19-20.

(2) نفسه، ص 20.

تعرف باسم تافلات وهناك من يرجعهم إلى الأشراف أبناء الحسن بن علي⁽¹⁾ يقول عنهم صاحب المخطوط الذين يسكنون في قصور العطف ومليكة ونورة ودشرة المنيعه، ومن خلال النص يتضح أن هؤلاء توزعوا على مدن المنطقة وقراها

أتمليشت مليكة: نسبة إلى مليكش أحد شيوخ بني زناته ومليكش هي قبيلة بربرية صنهاجية كانت مضاربها بسهل متيجة ويرى أطفيش أن المدينة نسبت إلى امرأة وقيل أنها سميت كذلك لإشرافها وعلوها على القرى الأربعة.

كذلك نجد صعوبات جمة أيضا في تحديد اسم مليكة ولعلها حسب قول الشيخ طفيش أنها تنتسب إلى قبيلة صنهاجية وهي قبيلة مليكش التي لا تزال مضاربها الآن بمنطقة القبائل وكانت قبل هذا مجاورة أيضا لجزيرة بني مزغنة لأن ما يعرف على القبائل الأمازيغية من خلال دراستنا لها أنها كانت تتميز بكثرة الانتقال نتيجة للاضطرابات التي عرفتها بلاد المغرب خلال العصور التاريخية المتعاقبة.

قرية مليكة تأسست مليكة على مرحلتين الأولى مكان اسمه أغرام أنواداي في سنة 1018/408 واندثرت سنة 1123م⁽²⁾ والثانية من طرف مجموعة من المهاجرين من نفوسة سنة 1349/750 وهي من القرى الخمسة منتصبة على جبل، على أسفل المسجد الموجود بمحاذاة الواد فوق البنيان وانتقل أهلها إلى حيث هم متواجدين الآن⁽³⁾.

من بين الذين سكنوا مليكة ويروا وهؤلاء ينتسبون لأولاد عبد الله الذين كانوا الأوائل الذين سكنوا مليكة ومن بطون هؤلاء أولاد وروار الذين استقروا هناك تحت رعاية جدهم عمي السعيد⁽⁴⁾

(1) أطفيش، الرسالة المختصرة، ص 21.

(2) نفسه، ص 19.

(3) نفسه، ص 262.

(4) بكير أوغشت، وادي ميزاب في ظل الحضارة الإسلامية، ص 68.

وأولاد عبد الله كانوا متواجدين في مليكة، على سائر القرى الأخرى، فنجد أولاد بكلي من بني يسقن، وأولاد وكتن وذلك في عهد أبي مهدي عيسى وأصلهم من المغرب الأقصى⁽¹⁾ فيما يرى البعض الآخر، أن أولاد عبد الله من رعايا بني رستم، سكنوا تيهرت وهم إباحية من مغراوة⁽²⁾

ولاد ويروا ساهموا في بناء مليكة للمرة الثانية 689-670: وقع اختلاف في نسبهم منهم من يقول أنهم من أولاد نائل ونسبوا إلى عين ويروا ثم جاء أولاد علي وهم أولاد الخلف حسب المصادر الإباحية هم من ذرية الخلف بن علي من أهالي العطف وجلهم هم من ذرية جلهم بن علي، يسكنون مدينة العطف ويبدو أن أصلهم من نفوسة حسب ما ذكرته المراجع الإباحية ومن بين علمائهم أبو هرون الجلامي موسى بن يوسف النفوسي⁽³⁾

أسست المدينة خلال 1355/756 فالمدينة من خلال التاريخ أنها تأسست خلال العهد الزياني ولعل من بين العوامل التي أدت إلى تأسيسها الصراع الذي اشتد بين بني حفص وبني زيان على منطقة القبائل الكبرى والصغرى

قرية باب السعد: من بين اللقرى التي نشأت إلى جوار غرداية قرية بابا السعد غرب غرداية في أعلى الجبل، وفي سنة 1388/790 تحصن بها أهل غرداية عند هجوم غزاة من بني عباس وكان ذلك التحصين سببا في انتصارهم على العدو الذي دفن موته هناك.

إنشاء بلدية بريان⁽⁴⁾: تأسست بريان في سنة 1060-1649 وحسب ما هو متداول في المنطقة أن كلمة بريان أي برغير عطشان أوبر كثير المياه ويقال أن أصلها بئر ريان لوجود بئر ويقال أيضا أنها إسم لكبير أولاد يعقوب الذين سكنوها عبد الرحمان

(1) أطفيش المصدر السابق ص 21.

(2) يوسف بن بكير المرجع السابق ص 15

(3) محمد طفيش المصدر السابق ص 28.

(4) أطفيش المصدر السابق ص 24.

بكري فتاوى الجزء الأول المطبعة العربية غرداية، ص 158 ط 2003 وفي رواية أخرى أسسها أولاد نوح والعفافة بعد نزوحهم من غرداية وأولاد يحيى من العطف ويقال أنها منسوبة إلى كلمة: (أت إبرقان) ومن بين الذين يسكنون بريان أولاد يحيى بن سليمان من ذرية الحسن وجدهم سالم بن إبراهيم بن عبد الله⁽¹⁾.

وبالقرب من بريان يوجد وادي بالوح ووادي السودان الذي يبدو أن القوافل المتوجهة للسودان الغربي كانت تسلكه فاعتماد السكان يكون من ماء النهرين لسقي بسايتهمم والتزود بمياه الشرب.

يذكر المؤلف معلومة مهمة تتعلق بالصراع على السلطة في المغرب الأقصى بين الوطاسيين والسعديين فيقول: سألته على ابن عمه سالم بن بكير وكيف كان مجيئهم من فقيق قال لي وقع تشويش بين أعراش الغرب مع أحد عمال السلطان أبا حسون وهرنا من ذلك الوطن ونزلنا في بريان لما كانت الحرب بين أبي حسون والشيخ السعدي وكن ذلك سنة 1554/961.

الفخارين الذين يسكنون بريان قال لي أصلهم من الغرب وقد انتقلوا إلى المدينة قبل وصولهم بريان وهم مختصون في صناعة الخنزف والجبس في منطقة أغرام أنوادي بمليكة ويعرفون باسم أولاد فخار عندما أتوا للمدينة⁽²⁾.

لما خرج العفافة وأولاد باخة من الأغواط اتجهوا نحو الجنوب إلى أن وصلوا إلى موضع يقال له الكبش نزل فيه العفافة وعمروا فيه وبنوا ديارا وحفروا بئرا ومن بين الذين سكنوا المنطقة أولاد عطاش وهم أبناء الولي الصالح الشيخ عيسى بن عطاش وهم المعروفون بالعطاشة ومسكنهم في الوادي وادي زقير لكن أهل بريان قدموا للقرارة وحملوهم على سكن بريان فانتقلوا لبريان سألت عن أخي موسى بن أحمد

(1) بكير بن سعيد أعوش: وادي ميزاب في ظل الحضارة الإسلامية المطبعة العربية غرداية 1991 ص 70

(2) انظر محمد بن يوسف أطفيش الرسالة الشافية ط حجرية 1881 ص 80.

فقال نحن مداييح في الأصل وجدنا هو محمد بن أحمد مول الحوض الشريف المدبوحى كان من بين الذين ساهموا في التأليف بين المتنازعين في عهده بين قبيلة الشعانة والمداييح فكان وراء الصلح الذي تم بين الطرفين سنة 1397/800

ثم يذكر الأرباع الذين يسكنون الأغواط وبعضهم في بريان ثم الكرارشة ومن هؤلاء الشيخ بيهون دفين القرارة ومنهم في بريان أولاد باحمد بن كاسي

إنشاء بلدية القرارة⁽¹⁾:

القرارة يذكر أن تعمير القرارة كان سنة 1546/952 من طرف أولاد بولحية وهم بطن من قبيلة أولاد بخة التي تشمل أولاد حوا بن إبراهيم وجدهم بخت بن يعقوب ينحدر من الأشراف انظر طفيش المصدر السابق ص 22 وأهل عين بالة من ورجلان ثم توافد عليهم كثيرا من سكان بن نورة والعطف ثم توسعت بالدراسية وشرفاء القرارة وأصل هؤلاء أولاد عيسى بن علي بن إدريس وأولاد ناصر وهؤلاء كانوا متواجدين في وادي سوف أيضا ولعلمهم هاجر البعض منهم إلى القرارة⁽²⁾ انظر إبراهيم العوامر، الصروف في تاريخ الصحراء وسوف الجزائر تونس 1977-293.

لكن هؤلاء يبدو أنهم تركوا غرداية نتيجة للصراعات التي عرفت غرداية فانتقلوا إلى القرارة وأرادوا الاستقرار بالقرب من قصر خنوفة فوجدوا تشجيع من قبل أولاد سيدي يحيى ثم إن أولاد باخة تنبعوا وادي نسا حتى وصلوا موضع يقال له سيدي السلطان وعمرؤا فيه ومكثوا ثلاث سنوات ثم تقدموا إلى كدية العقارب فنزلوا به وسموه القرارة ثم عارضهم أصحاب قصر المبرتخ المعروف اليوم بالقصر التحتاني وأصلهم من بني يزقن ولما صارت الغلبة على أولاد باخة استعانوا بأولاد جلاب فنصروهم وبعد ارتحال جند بني جلاب عادت الحرب من جديد بين

(1) يوسف بن بكير، المرجع السابق، ص 28.

(2) نفسه، ص 28.

الطرفين انتهت بتخريب قصر المبرتخ بذلك صارت القرارة بلدا مغصوبا وقع هذا حوالي 1631/1040 بناء على هذا تبرأ سكان وادي ميزاب من أهل القرارة بقي القراريون أربعين سنة حتى أذعنوا لحكم البراءة عند قصد وفد من بني ميزاب للصالح بين المتخاصمين وقبل أهل القرارة دفع دية المقتولين ورفعت البراءة عنهم وشيدت مئذنة المسجد سنة 1080.

استقر حول القرارة أولاد الشرفة ومغزي وأولاد السائح والزناخرة وكلهم مالكية وانضم إليهم أولاد باخة من الإباضية وأولاد بالة من ورجلان ثم الناشابة من غرداية اتسعت القرارة بفضل النشاط التجاري وتضاعفت مساحة سوقها إلى ثلاث مرات لأن موقعها على طريق القوافل التجارية حيث كان يتردد على سوقها الأرباع وأولاد نائل وأعراب توقرت وبسكرة.

كذلك نجد المناطق المحيطة بالقصور كانت مسكونة من قبل القبائل العربية نذكر من بينها الزناخرة والأرباع ويبدو أنه كان هناك تصارع بينهما حول امتلاك المياه مثل ما حدث بين الزناخرة والأرباع وأهل بريان حول امتلاك وادي النساء.

بني زلطا هم بطن من بطون بني مصعب الذين نزلوا وادي ميزاب سنة 420 / 1029 وبني زلتن أوزلطن ومن أهم رجالتهم⁽¹⁾.

الشعانية⁽²⁾:

الشعانية هم قبائل عربية قدموا من القطاع الوهراني عاشوا على البداوة وقد أسسوا مدينة متليلي في القرن 17 الميلادي.

(1) حسب ما أورده أطفيش هم يستغن بن يازل، وناصر بن إبراهيم وداود بن يوسف انظر طفيش المصدر السابق ص 31-32.

(2) البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب مكتبة المثنى ص 77.
انظر مصطفى إبراهيم رمضان، خواطر حول الوضعية الاجتماعية والعلاقات الإنسانية في غرداية ص 12.

المنبعة⁽¹⁾:

مدينة المنبعة من بين المدن القديمة التي ورد ذكرها في كتب الرحالة ومن هؤلاء البكري الذي يقول: وفي الجنوب من تلمسان مدينة تيزيل وهي أول الصحراء ومنها يسافر إلى مدينة سجلماسة وورجلان والقلعة وهي مدينة معمورة يقول عن هذه الهجرة أنهم خرجوا من تيهرت سنة 306 فوصلوا الأغواط وبعضهم استقر بها والبعض الآخر ذهبوا مع الأمير إلى ورجلان قاصدين العمارة فأقاموا بها مدة خمسين عاما ثم طلبوا من أميرهم أن ينهض للجهاد ويرد من كان يريد الفساد فقال لهم أن الجمل لا يلتحي تحت الغنم ويبدو حسب النص أن أهل ورجلان أخرجوهم من المدينة فانتقلوا إلى سدراتة، ومن بقي في الأغواط التحق بوادي ميزاب فسكنوا غرداية ومليكة ونورة وهم المسمين بالخرارقة ويقيم هؤلاء في بلدية العطف ويعرفون حسب الرواية الشعبية بأولاد مخرق أو المخارق وفي هذا الصدد يقول الشيخ طفيش: أن رجلا نادى محمد وعلي بن محمد عند باب داره فخرجت زوجته وأجابته يزول يقغ بالبربرية ومعناها صلي واخرج ومن ثم منطقة في مليكة تعرف بباب ابن الأطرش، حيث وفد إليها الشعابنة من متليي الشعابنة حسب رواية دوماس فن أصلهم نواحي مدينة وهران، انحدروا من عائلة واحدة، كانت تخيم في منطقة التل تتكون من سبعة إخوة كان الأصغر سنا منهم يسمى تامر يشبه خاله، وكان محل حسن من إخوانه لذلك بعد وفاة والده فر هاربا مع أهله في اتجاه الصحراء، ولحق به أحد إخوانه وهو طريف قطعوا الجبال والسهول بحثا عن مكان ملائم فكادوا أن يهلكوا لولا كلبتهم التي دلتهم عن مكان الماء، فراحوا يكتشفون ذلك بواسطتها حتى وصلوا وادي متليي استقر تامر في الناحية الغربية، وطريف في الناحية الشرقية ولم يلبث أن تصاهرا وشيدوا مدينة متليي أعطوها اسم كلبتهم التي دلتهم عليها ويقال أن مؤسس المدينة هو سيدي علوش الصغير ثامر أو ما يعرف بأولاد الثوامر يمتنون حرفة الرعي بالإضافة إلى التجارة⁽²⁾

(1) يوسف بن بكير، المرجع السابق، ص 76

(2) انظر إسماعيل العربي الصحراء وشواطئها الجزائر 1984 ص 163، 164، 165.

الجبالية اليهودية:

إن اليهود لذين كانوا متواجدين في غرداية بعضهم قدم إليها من تمطيط بعد الثورة التي قادها الشيخ المغيلي ضد هؤلاء بينما البعض الآخر قدم من توقرت بعد أن حاول سلطانها فرض الإسلام على اليهود بقوة السلاح فتركوا توقرت وتوجهوا إلى غرداية وكان ذلك في القرن السادس عشر كان اليهود في غرداية لهم حيا خاص بهم غرب سور المدينة والبعض من هؤلاء كانوا في مدينة بنورة أما حرفتهم فكانت صناعة الحلي وصناعة الأواني المعدنية وكانت لهم علاقة بإخوانهم في المدن الجزائرية وقد أصدر مجلس وادي ميزاب أمرا يخصهم سنة 1834/1249 نص على أن لا يشتروا الملك في كافة قصور وادي ميزاب لا يشترون في الغابة ولا في القصر ومن باع لهم مناهل البلد فتلزمه العقوبة وفي غرداية لا يشترون سوى في حومتهم وأما في الغابة فلا يزيدون على ثلاثة جنائن.

نظام العزابة:

لعل من أهم ما يميز المجتمع الميزابي عن غيره من المجتمعات المغاربية الأخرى أن الأمر في البداية كان في أيدي العشائر التي تتواجد بداخل القرية أو المدينة وهؤلاء يختارون أحدهم ليقوم مقام الحاكم لتلك القرية أو المدينة لأن هذه المناطق الجنوبية خلال العصور الوسطى والحديثة كان خضوعها للسلطة في دول المغرب الإسلامي تتم عن طريق الولاء لكن بعد ذلك تحول حكم الجماعة الى ما يعرف بنظام العزابة لا نعرف تاريخ تحويل حلقة العزابة من أهدافها التربوية إلا الهدف الاجتماعي لكن بعض الباحثين المهتمين بالدراسات الإباضية يرون أن التغيير كان مع أبو عمار الكافي الورجلاني الذي ساهم مساهمة في الإعداد النهائي لسير حلقة العزابة وذلك في القرن السادس لهجري الثاني عشر الميلادي.

يقول لويكي أن هذه المؤسسة حلقة العزابة لم تكن موجودة بعد في ميزاب في عهد الدرجيني النصف الأول من القرن السابع لهجري الثالث عشر الميلادي وحلقة العزابة لها حق اختيار أعضائها بدون أي مداخله لمن عداها في ذلك يختار من كل عشيرة من ينوبها من الرجال ويتحرى ويتم اختيار أورع وأصلح ولا بد أن يكون متخرجاً من دار التلاميذ أو يختار من أصحاب المحاضر والذي ينضم إلى العزابة يكون صاحب عمل أو حرفة نقل عن الشيخ أبي عمار الكافي أنه قال: لا يدخل أحد الحلقة حتى يكون فيه أربعة خصال أن يكون كيساً أديباً؛ أن يكون مشمراً في طلب العلم؛ لا يكثر دخول الأسواق؛ يغسل جسده وقلبه بالماء، وصفة أهل الحلقة تتصف بها يلي: القسم الأول يجتهد في طلب العلم؛ أن يكون حافظاً للقرآن؛ أن يكون مجتهداً في حقوق الضعفاء والمساكين وقائماً بحقوق الأسواق والمجازر وأن لا يولوا المسجد من كان له أموال كثيرة وأولاد كثيرون ولا يولونه من كان بين

ثم يضيف الشيخ أبو عمار قائلاً: إن نظام العزابة في البداية لم يكتفي بالعشائر بل كانت تتخذ هؤلاء أعواناً لها لكي تنفذ القرارات التي تصدرها على مستوى كل مدينة ويستشير هؤلاء في بعض القضايا الاجتماعية لعلاقتهم المتينة بالسكان وكانت حلقة العزابة تستعين بهيئة دينية نسوية في حل مشاكل المرأة وكان من أهم اهتمامات هذه المجموعة النسوية القيام بغسل النساء المتوفيات والصبيان الصغار وتحقيق حكم البلوغ عند الفتيات لكي يتمكن من الزواج.

كل قرية من قرى وادي ميزاب يسكن بها عرش يخضع لقانون واحد وينقسم كل عرش إلى عدد من القبائل فعرش بني يزكن يتشكل من ثلاث قبائل هم أولاد موسى وأولاد عنان وفي القرن السابع عشر استقبلت بني يزقن أولاد عنان وكونت منهم قبيلة مستقلة وهو ما ساعد القرية على الحفاظ على الأمن والوقاية من الفتن الداخلية ويبدو لي أن تلك القبيلة كانت لها مساهمة في تطور بني يزقن وتنتخب كل عشيرة ممثل لها يسمى

ظامن ومن هؤلاء يتشكل المجلس الذي يسير القرية يعرف بمجلس الضمان يحافظ على أمن القرية ويدير شؤونها ويقوم بإصلاح ما تهدم منها بالأموال التي تجمع من القاطنين بالقرية وعلى مستوى وادي ميزاب فإن القرى تشكل اتحادا يسهر على شؤون مجلس أعلى يضم ممثلين عن كافة سكان هذه القرى منهم العلماء والأعضاء في حلقة العزابة وأعيان تلك القرى لا نعرف تاريخ إنشاء هذا المجلس إلى أن أقدم قرار أصدره يعود إلى أول رجب 1405/807 وكان في بداية أمره انعقد في مقبرة باعبد الرحمان الكرتي والمجلس يعتبر سلطة تشريعية فهو الذي يصدر القوانين والأحكام في الجرائم والمعاملات كما يضع اللوائح الداخلية التي تخص حياة البلاد العامة مثل تعديل المكايل والموازن وقبول العملات المتداولة في الجزائر.

رئيس المجلس يسمى شيخ وادي ميزاب تنتخبه عزابة القرى وهو الذي يتولى قيادة وادي ميزاب في رأس قوته العسكرية في حالة الغرى على قراه.

من بين القضايا التي عالجها هذا المجلس والتي تخص شؤون وادي ميزاب نجد من بينها أنه وقع اتفاق في رجب سنة 1405/807 نص هذا الاتفاق على ما يلي:

إن الولد الذكر يأخذه أبوه في السنة الخامسة من أمه بعد طلاقها منه والبت تخرج من الحضانة في السنة السابعة من عمرها فتبقى بدار أبيها إلى زواجها وفي شهر شعبان من نفس السنة يحدث تغيير ينص على أن البنت لا تخرج من الحضانة إلا بعد بلوغها الاثنا عشر سنة والتزويج لا يتم إلا برضاء الأم.

وفي اجتماع أواخر صفر من سنة 1550/975 تم الاتفاق بين عزابة خمس قصور في روضة الشيخ أبو مهدي عيسى على أن لا يتم العقد على أي امرأة بدون والي وأبطال نكاح السر الذي كان متفشيا وفي شهر رجب 1697/1108 نص الاتفاق الذي تم بين سبعة قصور في مجلس الشيخ عمي سعيد أن العرس إذا وقع لا يكون فيه خادمون في دار الزوج ولا في دار الزوجة الاثنين والكلام القبيح لا يذكر في العرس وللخادمة التي

تحمل المداراة المعروفة بالغدارة صاع واحد من القمح والبيض فوق الغدارة ممنوع والزعفران في الطعام ممنوع والسميد ممنوع وحمل العروسة على البغل ممنوع والعرط ممنوع وخبز الأسبوع ممنوع ويرد الزوج في المنديل نصف ريال لا زيادة واللعب والرقص ممنوعان والغدارة لا تكون كثر من ثمانية مداد وممنوع أن تجعل طعام العريس للحجة ولا الرفيس ولا الوزيرة ولا تجعل الرفيس يوم تقبض الجهاز ومما وقع الاتفاق عليه يوم 21 جوان 1830 أن المرأة إذا كانت في بلدة من بلاد ميزاب فأرادت أن تتزوج رجل في مدينة غير مدينتها أن عقد نكاحها يكون في البلد الذي هي فيه لا في المدينة التي فيها زوجها لأن ذلك أصلح لمعرفة حالها ومن أولى بتزويجها من أوليائها والمرأة إذا ضربها الحمل في بطنها وقد طلقها زوجها ومضى عليها أربع سنين من اليوم الذي طلقها ومات زوجها فلا إرث لها منه وأما التزويج فلا ولو طالت مدتها

هذا فيما يتعلق بالأسرة الميزابية وقضاياها أما المحافظة على من القرى فنجد قرارات تتعلق بذلك منها:

أن العبد إذا سرق يبيعه سيده والحر إذا سرق وشهد عليه اثنان ينفي من البلد سنين وعندما يرجع لا بد أن يأتي بشهود على أنه جوز لمدة ويتوب في الجامع إنه لا يعود لفعله وإن عاد ينفي ولا يرجع أبدا وفي أواسط شعبان 1785/1199 تم الاتفاق في مجلس أبي مهدي عيسى على من رفع الحديد ولم يضرب بل شال بيده ومنع فغرامته خمسون ريال وإن ضرب به فغرامته مائة ريال والقصاص والنفيان.

الفن المعماري لمدينة وادي ميزاب:

امتداد العمران:

مع مرور الوقت وتزايد السكان في قرى وادي ميزاب توسعت تلك القرى ولم تأسس قرى جديدة والسبب في ذلك يرجع إلى ما يلي:

ندرة المياه الجوفية وانخفاض مستوى الماء فأهل غرداية كانوا يرفضون تشييد قرية مجاورة لغرداية خوفا من انخفاض مستوى الماء.

من بين الطرق التي لجأ إليها سكان وادي ميزاب في اختيار موقع مدنها الحصانة الطبيعية وهذا لا يقتصر على مدن وادي ميزاب بل يشمل كل البربر سواء في الجزائر أو المغرب أو غيرها من مدن المغرب الإسلامي وقراه فالمدن والقرى تقع إما على هضبات أو في سفوح الجبال.

في البداية يتم تعيين مكان المسجد الذي يتوسط المدينة ومساحة المدينة لكي يحدد موقع الأسوار.

المراحل الأولى للمدن في وادي ميزاب كانت المساكن لا تفتح أبوابها على الخارج حفاظا على أمن المدينة وفي المراحل الأخيرة أصبحت الأسوار مستقلة على المنازل بينها وبين السور شارع عريض مثل ما هو الحال ببني يزقن حيث بلغ طول آخر أسوارها 2500 مترا وارتفاعه ثلاثة أمتار تتخلله خمسة أبواب وأبراج متفاوتة الأهمية أشهرها البرج المنسوب للشيخ بلحاج الذي لا يزال ماثلا للعيان وهو يعلو المدينة يرتفع بأربعة عشر مترا، حول المسجد الذي يتوسط المدينة نجد المساكن المتشابهة من حيث الشكل لا نفرق بين منازل الأغنياء والفقراء والأزقة لاحظت في تخطيطها أنها تتسع لمروور دابتين وأنها مقاومة لأشعة الشمس والزوايا الرملية التي تتعرض لها المنطقة.

يلاحظ أيضا أن سكان وادي ميزاب قاموا بتسقيف الأزقة لأغراض دفاعية حيث يتمكنون من اتخاذها مسالك عندما يوجهون الغارات وتمكن هؤلاء من اختراق الأسوار وتسقيف الأزقة لم يكن مقتصرًا هو الآخر على وادي ميزاب بل نجده في أغلب قصور توات وهو يحمي السكان من أشعة الشمس المحرقة خلال فصل الصيف كل مدن وادي ميزاب تحتوي على الآبار داخل تلك المدن لأنها تسهل عليهم مواجهة الحصار وأن حفر الآبار بتلك المدن يتميز بالصعوبة لأن أغلب تلك المدن تقع فوق الهضاب الصخرية وأن المياه توجد في أعماق تصل في بعض الأحيان إلى سبعين مترا.

المساجد تتميز عن مساجد حواضر المغرب الإسلامي بالبساطة لا توجد بها زخارف وفي ركنها الشمالي توجد المئذنة التي تتميز بشكلها الهرمي إلى جانبها الميضاة ومحاضر تعليم الصبيان.

الأسواق تغير شكلها في الماضي كان عبارة عن شارع من شوارع المدينة تباع به البضائع التجارية ولتوسع المدينة أختيرت بعض الساحات وتحولت إلى سوق كما هو الحال في غرداية وبني يزقن.

علاقة ميزاب بالدولة الجزائرية الحديثة أو ما يعرف عند البعض بالعثمانيين، تمتد العلاقة إلى السنوات الأولى من قيام هذه الدولة فقد أكدوا الولاء لصالح رئيس في أكتوبر 1552/960 عندما وصل إلى توقرت ورفض مالكيها دفع الخراج له وحاصرها ودخلها بعد ثلاثة أيام بعد حصارها وقصفها بالمدفعية ثم توجه منها إلى ورجلان لكن مالكيها فر منها مع جنوده والخراج الذي كانت تدفعه ورجلان قدر بثلاثين عبدا وتوقرت بخمس عشرة أمة وكانت قرى وادي ميزاب تدفع اثنا عشر عبدا واثنا عشر أمة وفي ولاية حسن باشا سنة 1630 حاول الكراغلة الاستيلاء على الحكم بالجزائر وضع الكراغلة مشروع يهدف إلى طرد الأتراك واجتمعوا في برج مولاي حسن وعند اكتشاف الأتراك لهذه المؤامرة فكروا في إحباط المشروع في أن يلبسوا عدد من عمل بني ميزاب ملابس نسوية ولما تدرثر هؤلاء بالملاحف أخذوا أسلحتهم والذخيرة في شكل متاع ثم تقدموا إلى الحصن ولمجرد ما دخل أولئك الرجال المتكرين الحصن هاجموا المتمردين بمساعدة من كان يتبعهم عن كثب فأخضعوهم وأهبطوا مشاريعهم بعدها منح لبني ميزاب الأشراف على المركز الرئيسي للدبح بمدينة الجزائر فهم يسيرونه ويستندون عملية الدبح لمن يحسنها منهم أو من غيرهم كما أحدثت لهم وظيفة أمين الميزابيين يحضر المجالس الاستشارية كعضو كامل العضوية.

إن الميزابيين في المدن الكبرى أمين يتتخبونه يشرف على شؤونهم ويمثلهم لدى السلطات العثمانية وكان بين يديه صندوق للتضامن تسدد منه ديون كل تاجر ميزابي أصيب بنكبة في تجارته.

كان لعروج اتصال وعلاقة بالشيخ باحيوا بن موسى وفرقة الفدائية من الفرسان المزابيين المرابطين في السواحل الجزائرية وقد شاركت هذه الفرقة من الفرسان في صد غارة الإسبان على جزيرة جربة سنة 1510/916 وفي الجزائر العاصمة لما أحس خير الدين بخطورة الموقف واحتلال كدية الصابون وإحاطة العدو الإسباني بمدينة الجزائر استدعى إلى قصره الشيخ باحيوا بن موسى وهو من العطف وأمين الميزابيين في الجزائر بكير بن الحاج محمد بن بكير هو من مليكة وغيره من الميزابيين يستشيرهم فأشاروا عليه بالقيام بعملية فدائية قد يكون بها إحباط المخطط الإسباني وانزاعه فاتفقوا معه على أن يقوموا هم بالعملية بعد ذلك اجتمع المزابيون بفرن الشعبة وهو موضع مسجد الإباضية بالجزائر تحت إشراف أمينهم وقد اختاروا سبعين فدائيا وقرروا حمل السلاح على النعش والسير به إلى المعسكر الإسباني بحسين داي حاليا فذهبوا بالتهليل والتكبير مخترقين العدو وعندما وصلوا بالقرب من مستودع البارود خرج واحد منهم يلبس عباءة من نوع اللش فدخل المعسكر الإسباني ونسف المستودع ثم أشعل الفدائيون النار في لمعدات والقوارب التي تصل للأسطول الإسباني بالشاطيء فلما شهدت قوة العدو المتمركزة بكدية الصابون انقسمت إلى نصفين قسم أسرع لانقاذ العسكر وقسم يواجه ضربات المجاهدين الذين فتحو أبواب المدينة بعد العملية الفدائية تم النصر يوم الأحد 24 أوت 925/1518 وفر القائد الإسباني دوهوقوا مع من بقي من رجاله وأما شهداء بني ميزاب فدفنوا بميدان المعركة بحي حسين داي.

أبو عمرو عثمان بن محمد 839/893⁽¹⁾ خرج أبو عمرو عثمان بن محمد بن عزوز من ملوك بني حفص إلى أهل توقرت وأغرمهم مالا وهدم سور البلد ثم قدم عاملا على ورجلان وأخذ منها ومن وادي ميزاب مالا جليلا وقفل راجعا إلى تونس سنة 1449/853.

محاولة صالح باي ضم ميزاب إلى ولايته سنة 1792/1206 إن صالح باي طلب تجار قسنطينة من بني مزاب بغرائم باهضة دون غيرهم مما أدى إلى سوء تفاهم بينه وبينهم فتجراً عليهم وصادر أموالهم فالتجأوا إلى زاوية بو حجر فاستقبلهم شيخ الزاوية وبالغ في إكرامهم ثم رجع بهم إلى قسنطينة وواجه صالح باي باللوم وأمره أن يرد لهم ما أخذ منهم وهدده فامتثل.

بعد ذلك وجه صالح باي طلبا إلى حسن باشا راغبا منه بإلحاح أن يهب له وادي ميزاب ليكون تحت سلطته وولايته وبمجرد ما بلغ الخبر أهل وادي ميزاب وأهل الحل والعقد منهم فرأوا من صواب الرأي أن يخبروا حسن باشا راغبون أن يعدل ما رغب فيه صالح باي.

انتدب المجلس الشيخ الحاج إبراهيم ليقوم بتحرير رسالة في هذا الشأن فبعثوها في ذي القعدة 1206 إلى أمين الميزابين في الجزائر وهو إبراهيم بن صالح الذي قدمها إلى الباشا بواسطة صهر الحاج علي فلما قرأ الرسالة أجاب عنها وأبطل ما عهد إلى صالح باي وفي أوائل محرم 1207 أرسل الشيخ إبراهيم رسالة شكر لحسن باشا على ما قام به اتجاه أهل وادي ميزاب.

(1) عن التواجد الإباضي في مدينة الجزائر.

الأوضاع الاجتماعية فالدارس للمخطوطات الموجودة في خزائن وادي ميزاب يلاحظ أن المنطقة تعرضت لحروب متعددة مثل ما كان عليه الحال في بقية مناطق القطر الجزائري مما حالت دون حدوث تطور حضاري يذكر فالحروب كانت تقع بين قرى وادي ميزاب والقبائل البدوية المجاورة لهم كما كانت تقع بين بعضهم بعضا وأمير البلد حكمه نافذ في أهل مملكته والأعراب الذين يردون عليه وقد وضع لنا جملا ليلة رحيلنا فبلغ الخبر إليه وبعث الحرس حتى أتوا بالإبل وأما دراهمهم فقراريط صغيرة اثنان وثلاثون منها فيربع ريال.

الأحوال الثقافية:

من بين المراكز الثقافية:

بني يزجن أو بني يسجن:
العصور الوسطى.

أكلي بن إبراهيم⁽¹⁾ 1229/626 يعتبر هذا العلم الجليل من بين العلماء الذين ساهموا في البناء الحضاري بواد ميزاب حيث ساهم إلى جانب أخيه في تشييد إحدى قرى بني ميزاب التي انهارت الآن وهي أثلاث أو موسى القريبة من يزقن حاليا ولم يتوقف الأمر به عند هذا الحد بل ساهم في إبعاد الأخطار الخارجية على المنطقة فكان من بين الذين تصدوا لثورة بن غانية التي دمرت مجموعة من القرى القريبة من وادي ميزاب سنة 1228/6226.

ومن بين الذين نسبوا إلى بني يسجن عبد العزيز بن يوسف المصعبي من عشيرة آل فاضل الله لم تتعرض كتب التراجم إلى دراسته الأولى بل اكتفت بالمعارف التي بارع فيها والتي تتمثل على الخصوص في شرح الأحاديث الأربعين من بين علماء بني يزسجن العالم الجليل:

أحمد نجار 1780/1175⁽²⁾ لا نعرف تاريخ مولده لأن الذين ترجموا له اكتفوا بالقول بأنه كان حيا سنة 1780/1195 وحتى الشيوخ الذين تتلمذ عنهم ولم يذكر هؤلاء إلا أنه تولى مشيخة بني يزجن وكان من بين علماء نهضتها ومن بين هؤلاء باحة وفضل لا نعرف معلومات كثيرة عنه لأن الذين ترجموا له ذكروا بأنه من بسكرة قدم إلى بني يسجن ونزل عند الشيخ حموا بن يوسف سنة 1400/802 ويبدو لم يعد إلى بسكرة لأنه ترك في بني يزجن ذرية تنسب إليه ومن علماء بني يزجن أيضا بلحاج بن

(1) جمعية التراث، المرجع السابق، ج 1 ص 166.

(2) نفسه، ج 2 ص 37.

محمد بن سعيد 900-950/1424-1543⁽¹⁾ لم يكن في البداية من أهل بني يسجن بل قدم إليها من جربة وقيل من نفوسة وهنا يرى الباحث أن مدن بني ميزاب في البداية كانت مفتوحة على كل المراكز الإباضية الذين يفضلونها لتوفر الحماية بها وبعدها عن عواصم دول المغرب الإسلامي المعارضة للمذهب الإباضي من أهم الأعمال التي قام بها أنه عمل على توحيد سكان بني يسجن وتولى أمر العزابة بها أنشأ قراءة القرآن والتقاليد التي لا تزال معروفة الآن في وادي ميزاب وزيارة الأماكن التاريخية المرتبطة بتاريخ الإباضية خاصة يوم الاثنين الأول من شهر مارس ومن علماء بني يسجن العالم الجليل با محمد بن عبد العزيز ق 16/10⁽²⁾ لم نعرف عن حياته الكثير لأن الذين ترجعوا له ذكروا أنه من الساقية الحمراء استقر في البداية بورجلان وبعدها اتجه إلى وادي ميزاب حيث عاصر مجموعة من الشيوخ نذكر من بينهم أبي مهدي عيسى بن إسماعيل ويبدو حسب بعض المصادر أنه تتلمذ عليه في بعض العلوم لكن ما ذكرته المصادر عن نشاطه السياسي أنه قام بتوحيد القرى المتنازعة حول مدينة بني يسجن لكن بعض المؤرخين يشكون في هذا لأن تلك القرى اندثرت قبل هذا التاريخ وربما أعيد إليها سكانها في مراحل تاريخية لاحقة ومن العائلات من نساء بني يسجن العالمة الجليلة باحة بنت الشيخ عبد العزيز الثميني 1223/1808 لا نعرف الكثير عن حياتها ما عدا ذكر المصادر لها أنها تتلمذت على أبيها وكانت مضرب المثل في بني يسجن خاصة ما تعلق بأمور العائلات وحل المشاكل التي كانت تعترض الأسرة الميزابية في عصرها لأن لبني ميزاب مجلس عزابة يتشكل من النساء ومن علماء بني يسجن عبد العزيز بن يوسف ابن موسى ابن الفضل المصعبي⁽³⁾ لا نعرف الكثير عن حياته ما عدا ذكر العلماء بأنه من كبار شراح الأحاديث بوادي ميزاب ومن علماء بني يسجن الذين

(1) جمعية التراث، المرجع السابق، ج 4 ص 191.

(2) نفسه، ج 4 ص 192.

(3) نفسه، ج 3 ص 192.

تلقوا العلم في بلدهم ثم ارتحلوا خارجها عبد الله بن عيسى اليسجني المتوفى 1118
1706 انتقل إلى مصر وتلقى العلم عن شيوخها الأجلاء وعندما رجع إلى بلده قام
بتعليم الطلبة ما تلقاه ومن أهم ما تركه من مؤلفات كتاب في تاريخ أجداد سكان
وادي ميزاب من بين المراكز العلمية التي انتسب إليها علماء وادي ميزاب مليكة ومن
علماء مليكة نذكر بكير بن محمد بن بكير لا نعرف الكثير عن حياته الأولى لأن الذين
ترجموا له اكتفوا بالقول بأنه كان حيا سنة 1518/925⁽¹⁾ وكان من الميزابيين القاطنين
بمدينة الجزائر خلال تواجد خير الدين بها وخلال هجوم دومنكاد عليها سنة 1518.

وخلال هذا الهجوم جند خير الدين سكان المدينة ومن بين هؤلاء بني ميزاب
ويبدو أن هذا الشخص كان شيخهم بها فاستدعاه خير الدين وكلفه بتكوين فرقة من
الفدائيين تتكفل بمهاجمة المراكز الإسبانية ومن العلماء الذين نسبوا إلى مليكة عبد
الرحمان الكرقي المصعبي ق 12/6⁽²⁾ لا نعرف الكثير عن نشأته ما عدا أنه ينتسب إلى
بني مصعب القبيلة الأولى التي استقرت بوادي ميزاب والذين ترجموا له اكتفوا بالقول
بأنه كان من بين العلماء الأوائل الذين استقروا بمليكة وله مصلى قبلة المدينة كانت
تنعقد به الاجتماعات المتعلقة بالتداول في شؤون المنطقة وهو ما يوضح للباحث أن
علماء بني ميزاب في المراحل الأولى من تأسيس المدن السبعة كانت الاجتماعات تعقد
خارج المدينة في المصلات أو المقابر ومن علماء مليكة أيضا عيسى بن إسماعيل بن
موسى أبو مهدي 1560/971⁽³⁾ لا نعرف الكثير عن نشأته الأولى لأن الذين ترجموا له
ذكروا بأنه كان على المذهب المالكي ثم تحول إلى المذهب الإباضي وأصله من بني نائل
وهي من القبائل الكبرى تعتبر عاصمتها الجلفة حاليا من بين الشيوخ الذين تتلمذ
عليهم عمي سعيد الجربي ومحمد بن زكرياء الباروني النفوسي هذه الدروس خولت له

(1) جمعية التراث، المصدر السابق، ج 2 ص 191.

(2) نفسه، ج 3 ص 344.

(3) نفسه، ج 3 ص 678.

تولي مشيخة مليكة وكان اللقاء باستمرار مع شيخه عمي سعيد الجربي شيخ غرداية في ذلك الوقت يعتبر من أبرز علماء عصره إنتاجا في ميدان المعرفة له مجموعة من الرسائل والردود والأجوبة منها رسالة إلى أهل ورجلان يدعوهم فيها إلى الطريق المستقيم جواب لأهل عمان في الأصول والفروع، جواب في قضية خلق القرآن رسالة في معنى التوحيد ورسالة أخرى في إعراب الشهادة.

كان من بين الرافضين لطرده أولاد عبد الله من مليكة ومن علماء مليكة عيسى بن خفيان⁽¹⁾ لم نعرف الكثير عن حياته لأن الذين ترجموا له اكتفوا بالقول أنه توفي سنة 1083/460 وبذلك يكون من بين علماء مليكة الأوائل لم يتوقف عمله على تشجيع العلم بل ساهم في حفر الآبار لتطوير النشاط الزراعي فحفر الآبار في الجبال والأودية تولى مشيخة مليكة وبعد وفاته تولاها من بعده أخوه ومن علماء مليكة نجد عيسى سليمان نوح ت 1089/485⁽²⁾ لا نعرف الكثير عنه لأن الذين ترجموا له بينوا بأنه الأخ الثاني لبابا أحمد مؤسس مليكة وهو ما جعله يتولى شؤون هذه المدينة مدة عشرين عام بعد وفاة أخيه ويبدو أنه من بين العلماء الذين اهتموا بتاريخ البربر فألف في ذلك كتب قيمة عن تاريخهم وبين أن أصلهم من المشرق رحلوا إلى المغرب منذ آلاف السنين وهي الرواية التي أخذها ابن خلدون ويبدو أنه اطلع على كتبه لأن ابن خلدون اعتمد في تاريخ البربر على نسابتهم ومن بينهم هذا العالم الجليل ومن المراكز العلمية التي نسب إليها علماء وادي ميزاب:

العطف:

من بين هؤلاء العلماء إبراهيم بن مناد العطاوي النصف الأول من القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي⁽³⁾ لا نعرف الكثير عن حياته الأولى لكن ما ذكره

(1) جمعة التراث، المرجع السابق، ج 3 ص 683.

(2) نفسه، ج 3 ص 686.

(3) نفسه، ج 3 ص 686.

الذين ترجحوا له أنه كان من بين العلماء الذين قاموا بنشر المذهب الإباضي في وادي ميزاب على حساب المعتزلة لأن جزءا هاما من سكان بني مصعب كانوا معتزلة ومن علماء العطف باحمد أو أيوب لا نعرف الكثير عن دراسته وحياته بل الذين ترجحوا له ذكروا لنا بأنه كات حيا سنة 1669/1080⁽¹⁾ ويبدو من خلال ما كتبه أبو اليقظان عنه أنه كان من كبار علماء عصره أشتهر في ميدان علوم القرآن فله شرح على الكشف للزخشري بخط يديه وقد لله برسالة تتعلق بتنزيه الله عز وجل كما أنه له نسخة من تفسير محكم الهواري بخط يديه ومن علماء العطف أيضا جلاب ابن ناصر لا نعرف الشيء الكثير عن حياته لأن الذين ترجحوا له اكتفوا بالقول أنه كان ضمن الثمانية الذين وقفوا ضد هجوم بنو غانية على وادي ميزاب 1228/626 ومن علماء العطف أيضا حريز بن موسى⁽²⁾ أصله من العطف استقدمه أهل غرداية وأسندوا له مشيخة العطف 1712/1124 من بين العلماء الذين نسبوا إلى مدينة غرداية نذكر بالخصوص إبراهيم بن يوسف 1171/567 لم نجد معلومات كثيرة عن حياته الأولى لأن الذين ترجحوا له اكتفوا بالقول بأنه من شيوخ غرداية كانت له مساهمة في بناء مدينة غرداية ومن العلماء الذين نسبوا إلى غرداية العالم الجليل تامر بن علي بن إسماعيل بن ازارت 1211/608⁽³⁾ ولد في غرداية سنة 560-1164 لا نعرف كغيره من علماء هذه الفترة معلومات كثيرة عن حياة هؤلاء الشيوخ المؤسسين للحركة الفكرية بوادي ميزاب لأن الذين ترجحوا له اكتفوا بالقول بأنه كان أول شيوخ العزابة بغرداية ومن بين علماء غرداية نذكر أيضا العالم الجليل أبا الحاج بن داود لا نعرف تاريخ مولده لأن الذين ترجحوا له ذكروا بأنه كان على قيد الحياة سنة 1207/697 ولم نعرف أيضا أين تلقى دراسته والشيوخ الذين تتلمذ عليهم لأن الذين ترجحوا له قالوا عنه بأنه تولى مشيخة غرداية وله باع في علم

(1) جمعية التراث، المرجع السابق، ج 2 ص 148.

(2) نفسه، ج 2 ص 256.

(3) نفسه، ج 2 ص 267.

الفلك والكيياء أسس مسجدا في غرداية سنة 630 وهو الجد الأكبر لآل الحاج في غرداية وهنا نطرح سؤال مهم متى دخل هذا العالم إلى غرداية ومن علماء غرداية أيضا أبو بكر بن يوسف بن مصعب 1791/1206⁽¹⁾ لا توجد لدينا معلومات كثيرة عنه وأن كل ما نعرفه أنه كان عضو في حلقة عزابة غرداية وبذلك فهو من أعيانها ورجال الفكر بها ومما يؤكد على أهمية هذا الشخص أنه كان من بين أعضاء وفد بني ميزاب الذي توجه إلى الجرامة لحسم الخلاف الذي وقع بين سكان المدينة ويعتبر أيضا من بين الذين يعود لهم الفضل في نسخ مجموعة من المخطوطات بخزائن غرداية ومن بين علماء غرداية نذكر أيضا با محمد من علماء القرن 17/11⁽²⁾.

المعلومات المتوفرة لدينا عن حياته قليلة ما عدا أن الذين ترجموا له ذكروا بأنه قدم إلى غرداية من جبل نفوسة وتولى مشيخة غرداية وقد تبين له خلال وصوله إليها أن المستوى الفكري بها قد عرف تدني وكذلك الوضع الاجتماعي وهو ما دفعه إلى التوجه إلى المغرب لتلقي العلم عن شيوخه فمكث سنين يأخذ عن علماء المغرب ويبدو لي أن العلماء الذين تتلمذ عليهم كانوا من أهل السنة لأن المغرب الأقصى لم يكن به علماء إباضية خلال هذه الفترة والاستفادة من علماء المغرب سهل له مهمة العمل على إعادة النهضة العلمية في غرداية وعندما عاد إليها قام بحركة إصلاحية، من علماء نفوسة الذين وافدوا على غرداية نذكر جد أولاد يونس لا نعرف تاريخ مولده والشيوخ الذين تتلمذ عليهم لأن الذين ترجموا له اكتفوا بالقول بأنه كان حيا سنة 1171/567 وهو من بين القاطنين الأوائل للمدينة ومن المساهمين في بنائها وتطور عمرانها وترك بها أبنائه وأحفاده المعروفين اليوم بأولاد يونس القاطنين بغرداية وبريان وبذلك نجد أن سكان غرداية لم يكونوا كلهم ممن بني مصعب فنجد المهاجرين إليها من المراكز الإباضية بداخل الجزائر وخارجها ومن بين المهاجرين إليها باحمد الشهير بخديم أمه

(1) جمعية التراث، المرجع السابق، ج2 ص 165.

(2) نفسه، ج2 ص 167.

ت 653-1255⁽¹⁾ لا نعرف تاريخ مولده والأسباب التي دفعته إلى الانتقال إلى غرداية قادما إليها من قصر البخاري خلال سنة 564/1268 لكن يبدو لي أن الهجرة كانت نتيجة لتعرضه لمضايقات في قصر البخاري مما جعله يلجأ إلى غرداية وكان من بين الإباضيين والدليل على ذلك أنه تتولى مشيخة غرداية وهذا المنصب لا يتولاه الأمن كان على المذهب الإباضي ومن هؤلاء المهاجرين حريز بن موسى⁽²⁾ لا نعرف الكثير عن حياته لأن الذين ترجموا له اكتفوا بالقول. بأنه كان حيا سنة 1149/1736 وأصله من مدينة العطف وبالتحديد من أولاد يونس بن القاسم قدم إلى غرداية بطلب من سكانها الذين رحبوا به وعينوه على مشيخة غرداية وأن تعينه ربما يرجع بالدرجة الأولى إلى الاختلاف حول تعيين أحد أعيان غرداية من المعاصرين له ومن علماء غرداية أيضا حموا بن حريز⁽³⁾ لا نعرف الكثير عن حياته لأن المترجمين له ذكروا بأنه من أهل القرن الخامس ومن بين الذين نصبوا خيامهم حول مدينة غرداية سنة 477/1055 ومن المساهمين في تأسيسها لكن هناك مصادر إباضية ترى بأن التأسيس الأول للمدينة كان سنة 222/836 ومن علماء غرداية نذكر أيضا داوود بن إبراهيم طباح⁽⁴⁾ لا نعرف الكثير عن حياته ما عدا المعلومات التي تشير بأنه من مشائخ غرداية ومن أهل الحل والعقد بها عرف بشجاعته وشهامته وشارك إلى جانب إخوانه في تقديم المساعدة لأهل ورجلان عندما تعرضوا إلى الهجوم من قبل أمير توقرت وتولى خلال هذا الهجوم إمارة الدفاع وهذه الإمارة تنشأ عندما تتعرض منطقة وادي ميزاب أو المراكز الإباضية الأخرى إلى الأخطار الخارجية وتحل بمجرد إزالة الخطر ومن علماء غرداية نجد أيضا صالح النشاشيبي الغرداوي ق 11/17⁽⁵⁾ لا نعرف الكثير عن

(1) جمعية التراث، أعلام الإباضية، ج 2 ص 167.

(2) نفسه، ج 2 ص 256.

(3) نفسه، ج 2 ص 273.

(4) نفسه، ج 2 ص 291.

(5) نفسه، ج 2 ص 167.

حياته لأن مترجميه اكتفوا بالقول بأنه جد الناشابة بغرداية كان متعلما الوعظ والتقوى بها ومن علماء غرداية نذكر عبد الرزاق بن سعيد الخيري⁽¹⁾ لا نعرف الكثير عن حياته الأولى تعليمه والشيخوخ الذين تتلمذ عنهم لأن مترجميه اكتفوا بالقول بأنه عين بالأغلبية على مشيخة غرداية بعد وفاة والده الذي كان هو الآخر على رأس مشيخة غرداية وأن هذا الأخير لم يتولى المشيخة بعد وفاة أبيه مباشرة بل تولاها الحاج بلقاسم لسنة واحدة قام بأعمال جليلة خلدها له التاريخ كحفره لمجموعة من الآبار واهتمامه بنشر المعرفة في غرداية فقد شجع العلماء ولم يتوقف عن هذا الحد بل يعود له الفضل في استقرار بني مرزوق بغرداية.

وتذكر المصادر أنه في البداية فرقهم على عشائر المدينة ولا يزال هؤلاء إلى اليوم ومن علماء غرداية عيسى بن علوان ق 11/5 لا نعرف الكثير من حياته الأولى لأن الذين ترجعوا له ذكروا بأنه جاء من المغرب الأقصى والبعض الآخر يقول من الساقية الحمراء إلى غرداية⁽²⁾ كان من بين الذين ضربوا الخيام حولها ومن بين المساهمين في تأسيسها سنة 477.

وبعض المصادر تشير إلى أنه كان على المذهب الشيعي ثم مال إلى المذهب الإباضي وهنا يبدو لنا أن الهجرة كانت بعد أن تحول إلى الإباضية وكان من بين المساهمين في بناء غرداية ولعله كان من أهمهم على الإطلاق لأنه اشترط على سكانها بعد البناء أن لا يبنوا في البلدة إلا مسجدا واحدا ويكونوا جماعة واحدة تحكم بالعدل تولى مشيخة غرداية.

(1) جمعية التراث، أعلام الإباضية، ج 2 ص 196.

(2) جمعية التراث، ج 6 ص 687.

مدينة تابلالت:

تقع هذه المدينة بولاية بشار حاليا وتعتبر من بين المدن القديمة بتلك الولاية لأن المصادر التاريخية المتوفرة لدينا تشير أنها كانت من بين مدن دولة بني مدرار التي كانت عاصمتها سجللماسة ولكن بعض المصادر تشير أن الدولة المرابطية أعادت الاهتمام بالمدينة لأنه خلال قيامها كانت المدينة تعيش ظروف سيئة للغاية تمثلت في إرتفاع المكوس على القوافل التجارية التي تعتبرها والأموال التي تجمع من التجار استغلت في شراء الخمر وانتشار الرذيلة بين السكان وهو ما دفع بفقائها إلى الاستنجاد بالمرابطين لتخليصهم من هذه الشرور فتوجه هؤلاء إلى المنطقة بعد تصفية إقليم سجللماسة من خطر الزنا تبين بقيادة مسعود بن واندن أسسوا مدينة تابلالت واتخذوها قاعدة للتوسع نحو المغرب لكن يبدو لي أن هؤلاء لم يؤسسوا المدينة بل أعادوا الاهتمام بها لأهميتها من الناحية التجارية لأنها على الطريق الذي يربط بلدان المغرب الإسلامي ببلاد السودان وكان الزناتيون يسيطرون على هذا الطريق ومن خلاله يزودون الأندلس مما كانت تحتاج إليه من سلع وعلى الخصوص الذهب للعلاقة الحسنة التي كانت تربط هؤلاء بالخلافة الأموية بالأندلس ويسقوط الخلافة الأموية في الأندلس فقد الزناتيون سوق الأندلس وأصبحوا يفرضون ضرائب جائرة على القوافل التجارية لتي تجتاز تابلالة. ويبدو أن هذا كان له تأثير سلبي على السكان فقلت أهمية المدينة لأن اعتماد سكانها والقبائل المحيطة بها على التجارة وتربية المواشي وهو ما يشير إيه البكري بقوله: ليس يعرفون حرثا ولا زرعاً ولا خبزاً إنما أموالهم الأنعام وعيشهم من اللحم واللبن ينقذ عمر أحدهم وما رأى خبزاً ولا أكله إلا أن يمر به التجار من بلاد الإسلام أو بلاد السودان فيطعمونهم الخبز ويتحفونهم بالدقيق وبذلك تكون حياتهم صعبة إذا انعدمت التجارة يفقدون أدنى موارد العيش وبالتالي البحث عن رزق غير أن تاريخ تحديد تاريخ بناء المدينة يبقى أمراً صعباً وذلك لقلة المصادر والمراجع التي تناولت تاريخها ومن بين المراجع التي أشارت لها صالح بن

قربة الذي يقول عنها أن أقدم النصوص التاريخية تشير إلى أنها ترجع إلى القرن الثالث الهجري والذي أسسها هو الأمير أحمد بن ميمون المدراري غزا بلاد القبلة وملك مدينة تابلالت وتوفي في شهر صفر سنة 4/270.

والرحالة الذي قدم وصفا شاملا عنها الرحالة الوزان القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي.

ويقول دولا شبال أن المدينة تأسست خلال عهد الدولة المرابطية ولم يوضح من الذي أسسها هل هو يوسف ابن تاشفين أو أبو بكر بن عمر اللمتوني.

كانت المدينة في البداية ربما عبارة عن حصن عسكري ثم تحولت إلى مدينة بفضل نشاطها التجاري لأنها كانت محطة لإلتقاء المسالك التجارية التي تربط مدن المغرب الإسلامي الشمالية والسودان الغربي والدولة المرابطية من بين دول المغرب الإسلامي التي استطاعت أن تتحكم في مسالك التجارة والأسواق التجارية في السودان الغربي والمغرب الإسلامي والأندلس مما كان له تأثير إيجابي على مداخل الدولة وبذلك تحولت تابلالت من محطة للقوافل التجارية العبرة للصحراء الكبرى إلى مركز تجاري هام يتحكم في تجارة العبور من المغرب الإسلامي إلى السودان الغربي.

الأحوال الاجتماعية:

يبدو من خلال المصادر القليلة المتوفرة بين أيدينا أن سكان تابلالت قبل قيام الدولة المرابطية كانوا من العناصر الزناتية الذين استقروا بها وبضواحيها وفرضوا آرائهم على القوافل التجارية المارة عليها وبعد القضاء على الإمارات الزناتية قدم إليها مجموعة من القبائل الصنهاجية المتمثلة في المتونة ومسوفة ودكالة استقروا بداخلها ومارسوا بها النشاط التجاري.

الأحوال الاقتصادية:

تعتبر تابلبالت من بين المحطات التجارية في الجزائر خلال العصور الوسطى واستمرت إلى العصور الحديثة لأنها توجد في الحوض الغربي الذي يربط سجلماسة أودغست.

كذلك وجود مجموعة من السبخات الغنية بالملح وهذا الأخير يعتبر من السلع الثمينة التي يكثر عليها الطلب من قبل السودانيين.

والتوسع الهيلالي على الجنوبي الشرقي للجزائر كان له تأثير على المسالك التجارية التي كانت تربط الجريد بوجلان وأودغست فتضاعفت الحركة التجارية في الجنوب الغربي من الجزائر وأصبحت تابلبالت من أهم المراكز التجارية والأهمية تكمن في موقعها الممتاز بين فقيق وسجلماسة من الناحية الشرقية.

تندوف:

وقع اختلاف بين الكتاب في تحديد اسم تندوف فالبعض يطلق عليها تيندوفست والبعض الآخر طبنطوف ويبدو من خلال الآثار التي توجد ضمن محيط الولاية أن الناحية عرفت تطور عمراني خلال المراحل التاريخية المختلفة فالباحث المتجول في تلك المنطقة يجد بقايا الحيوانات بحرية كانت عندما كانت المنطقة عبارة عن بحر وكذلك رسومات صخرية وقبور بعضها يعود إلى العصور القديمة بينما البعض الآخر يرجع إلى العصور الوسطى حيث كانت المنطقة تحتازها القوافل التجارية المتجهة إلى السودان الغربي وأغلب تلك القبور توجد فوق المرتفعات وفي بعض الأحيان نجد القبور الإسلامية مجاورة للقبور القديمة.

من بين الرحالة المسلمين الذين تناولوا تندوف البكري الذي قال عنها تندوفس أي الآبار التي يحتفرها المسافرون وهو ما يؤكد لنا بأنها كانت عبارة عن محطة تتوقف بها القوافل التجارية خلال توجهها إلى السودان الغربي وتوجد بزاوية بالعمش وثيقة تشير إلى العين التي كانت بالقرب من مقر الولاية.

كما سبق لي أن اتصلت بمجموعة من الشيوخ يملكون وثائق تتعلق بتحديد المحطات التي كانت تتوقف بها القوافل التجارية خلال توجهها من تندوف نحو السودان الغربي ومناطق استخراج الملح التي يتم تبادلها بالذهب لكن المصادر التي أرخت للدولة المرابطية المتواجدة لدينا لم تشر إلى تندوف هل كانت ضمن مضارب الملمثين لأن اسم تاجكانت معناه القبائل الصنهاجية التي أسست الدولة المرابطية لكن يبدو لي أن المدينة لم تأسس كمدينة إلا بعد مجيء بلعمش واستقرها بها فأنشأت الزاوية والمسجد ثم بعد ذلك المدرسة 1203

وأول ما شيد بها المسجد العتيق في حي موساني يوجد في مخطوط بأردار ذكر الأصول تاجا كنت فقد ورد فيه أن تاجا كنت على طائفتين الوسر والرمضانين فهم أولاد موسى أي أهل سيدي المختار من آل محمد بن الأعمش أهل علم وجود وصلاح والمساعد أهل مولود بن الحرطاني، وأما أولاد سيدي علي أهل العلم الحاج بن سيدي علي فهم محسوبون من تاجا كنت وهم أهل زاوية ينسبون لقبيلة حمير، والرقبية أولاد سيدي أحمد الرقبي يدعون أنهم شرفاء إلا أنهم لا شجرة عندهم وهم أهل إبل وغنم رحالة لأن الغنم عندهم أكثر، وأما تاجا كنت فهم أهل إبل ومعز وبعدهم الماربطون أولاد سيدي أحمد العروسي هم أهل ابل في الساقية الحمراء، تاجا كنت يتزوجون أربع نساء مثل الرقيات.

بناء المسجد العتيق الكائن بحي موساني يخدم فيه النساء ليلا والرجال نهارا ثم بناء القصبات التي لا تزال لحد الآن منها قصبه آل بلعمش بحي موساني والتي لا تزال ماثلة لحد الآن ببروجها ومناراتها وأقواسها وهي مقر للزاوية المعروفة بزاوية آل بلعمش لكن تعرضت إلى الإهمال كغيرها من قصور جنوبنا الكبير فلم ترمم وقد تعرضت للانحيار حيث أصيبت بعض جدرانها وأبراجها لقنابل خلال الحرب بين المغرب والجزائر سنة 1963 ولم يعد ترميمها.

قصبه آل العبد بحي الرماضيين والتي لا تزال شاخة بطابعها المعماري لكنها حيث الأخرى تعرضت لتدمير مقصود من قبل السلطة المحلية عندما تم شق الطرقات بالقرب منها ولم يراعى المحافظة على تراثها المعماري فأزيلت بعض القصور وحسب سكان تندوف كانت من أجل القصور بطابعها المعماري.

دار الديباني الوسري بحي القصابي لا تزال آثارها لحد الآن ماثلة للعيان وتتميز بمميزات معماري ذات أهمية كبرى، دار الشرفاء بحي موساني قرابة البقيع المجاور للمسجد العتيق، دار أهل السنهوري بحي موساني قبلة المسجد العتيق، هذه المباني التي ورد ذكرها في أشد الحاجة إلى الترميم إذا أردنا أن نحفظ على التراث المعماري المميز لهذه القصور.

الجوانب الثقافية:

تندوف تعتبر من أهم المراكز الثقافية في أقصى الجنوب الغربي وهذا راجع لموقعها الإستراتيجي الهام لأنها تحد الجنوب المغربي وكذلك موريطانيا وخاصة منطقة شنقيط التي تعتبر من أهم الحواضر الثقافية في موريطانيا الشقيقة وبها تراث مغربي مخطوط يحتاج إلى العناية وتحقيقها وحتى تندوف من الحواضر الثقافية لأنها تحتوي على خزانين خزانة آل بلعمش وخزانة آل العبد التي نجد بها مجموعة هامة من الوثائق التجارية تحتاج إلى دراسة معمقة وهي تبين لنا السلع التي كانت تنقل من تندوف إلى جنوب المغرب الأقصى وموريطانيا والصحراء الغربية وكذلك بلاد السودان خاصة تمبكتوا

وكذلك أنواع السلع التي تتمثل في السلع الإفريقية الذهب والعاج والعبيد والسلع القادمة من بلدان المغرب الإسلامي والتي تتمثل في الخردوات والقماش والسكر والناي واستمر التبادل التجاري بين تندوف وتمبكتوا بواسطة القوافل التجارية حتى الحرب العالمية الثانية.

كما نجد أيضا مجموعة من الوثائق تتعلق بدور الجالية اليهودية في العلاقة بين تندوف وموانئ المغرب الأقصى على الخصوص ميناء السويرة.

خزانة آل بلعش تحتوي هي الأخرى على مجموعة من رسائل بين علماء الزوايا وعلماء الدول المجاورة لتندوف وكذلك الفتاوى ومن خلالها يمكن دراسة المجتمع التندوفي والبعض من تلك الفتاوى تتعلق بحل الصراعات التي عرفتها الناحية بين آل تاجكانت والرقبيات وهنا يبرز لنا الدور الهام لزواية آل بلعش وبما أن المسس لهذه الزواية ينتسب للطريقة القادرية وقد تلقى هذه الطريقة ممن علماء كنتة نجد تراث الكتبيين يتواجد بهذه الزواية سواء تمثل في الرسائل المتبادلة بين علماء الزواية وزواية أزواد وكذلك مؤلفات الكتبيين يضاف إلى ذلك المؤلفات الإسلامية من تفسير وحديث واللغة والتصوف والأدب وحتى بعض المخطوطات الطبية توجد بهذه الزواية.

كان لزواية آل بلعش دور مشرف في ازدهار الحركة العلمية بتوات لأنها أصبحت مقصدا لرجال العلم قدموا إليها للأخذ عن علمائها من منطقة النيجر ومالي وموريطانيا والصحراء الغربية والجنوب المغربي وقد ساهم هؤلاء في هذه الحركة العلمية ومن أهم الشخصيات التي جاءت إلى تندوف محمد محمود التركي مصحح القاموس المحيط وهذا الكتاب المصحح تمكن من الاطلاع عليه بالخزانة ومن هؤلاء محمد بن يحيى الولاتي والوالي الصالح ماء العينين وغيرهم من الذين أفادوا واستفادوا من هذه الخزانة كما تخرج منها علماء أجلاء نذكر منهم على سبيل المثال الحصر علي بن ناصر بن محمد التريكي أحمد القلوي.

لم يقتصر دور أسرة آل بلعش على التعليم فقط بل ساهمت في إقامة خزانة ثمينة من حيث مخطوطاتها وكان من بين الناسخين علماء الأسرة من آل بلعش حيث تحتوي الخزانة على مجموعة من المخطوطات التي نسخوها وبعض الشروحات المخطوطات ذات أهمية كبرى.

علماء تندوف:

اتفغ بن الأعمش الكبير المتوفى قبل 1260/ من أهم إنتاجه العلمي الموجودة بالزاوية فتوى بعنوان العصمة من الخطأ فيما يقع من مسائل الاختلاف فيها في سنة 1190.

له فتوى في نقض حكم إصداره العلامة السيد مختار الكنتي عام 1206 له فتوى في إبطال نازلة ابن هنون.

نسخة كتاب السنوسي المقدمة في التوحيد سنة 1209.

من أبرز هؤلاء العلماء نذكر العلامة محمد المختار بن تفغ بن الأعمش ابن جب بن عمر ابن أبي بكر الموساني الحكاني ينتهي نسبه إلى جاكنا الابن الحميري حسب شجرة النسب الموجودة بالزاويا والتي تنص على أن العائلة تنسب إلى المرابطين الذين أسسوا دولتهم في بلاد المغرب الإسلامي انطلاقا من الجنوب وهذه الدولة أسستها ثلاثة قبائل صنهاجية هي لمتونة ومسوفة ودكالة وآل بلعمش يقولون أنهم من لمتونة ولمتونة في رأيهم قبيلة عربية من اليمن.

ولد الشيخ في مدينة تندوف في سنة 1203 من أسرة علم وقضاء هذه الأسرة كانت تقيم بضواحي تندوف.

شيوخه يبدو للباحث من خلال اطلاعه على الوثائق بخزانة آل بلعمش أن دراسته الأولى كانت على يدي أبيه تفغ بن الأعمش الذي كان عالما وهو ما خول له تولي القضاء في تندوف ثم رحل إلى الحواضر القريبة من تندوف وعلى الخصوص حاضرة الشناقطة في إقليم شامة الذي كان يزخر بمجموعة من الأعلام الأجلاء فأخذ عنهم ولم يتوقف عن هذا بل توجه إلى أزوات أو أزواد حسب بعض المصادر فأخذ العلم على علماء كتنة وفي مقدمتهم الوالي الصالح سيدي المختار الكنتي الذي كان من أبرز علماء عصره ويؤكد هذا أثره الذي لا زال جزءا هاما منه لم ينشر وأخذ

عنه الطريقة القادرية والطريقة القادرية انتقلت إلى السودان بواسطة الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي الذي يعتبر أستاذ الكتبيين وهو الذي أشار على تاجكانت بناء تندوف وتأسيس الزاوية على الطريقة القادرية.

من أهم إنتاجه العلمي نسخ كتاب السلم المرونق للعلامة سعيد قدورة ويبدو لي من خلال معلوماتي أن الكتاب للأخضري وقد شرحه الشيخ قدورة كما نسخ كتاب العالم الجليل سيدي أحمد بن صالح الدرعي المعروفة بالهدية المقبولة في علل الطب سنة 1268 له نسخ أخرى في علم الطب هو كتاب اللدان المحمولة في الهدية المقبولة في حلل الطب المشمولة سنة النسخ 1278.

وله أيضا كتاب الرحمة في الطب والحكمة وهو ما يؤكد أن هذا العالم الجليل اهتم بالعلوم الطبية وهذه الكتب لا تزال بالخزانة، لم يتوقف على عملية النسخ فله كتابين أولهما معرفة المباني لصحة المعاني في علوم القرآن ألفه سنة 1271 وشفاء الصدور في فتح مسألتي المشكور سنة التأليف 1263.

وتحتوي الخزانة على مجموعة من فتاويه توجد بعض نسخها في ولاية أدرار من أهم الطلبة الذين تتلمذوا عليه في زاويته العلامة أحمد محمود التركيزي وهو الشهير باللغة وعلم الأنساب.

ومحمد يحيى الولاقي من الشناقطة والوالي الصالح ماء العينين المشهور في منطقة الصحراء الغربية وابنه يكون خليفته على الزاوية والخزانة توفي سنة 1287/1866 من أقواله المشهورة على مدينة تندوف رزقها يأتيها من بعيد والميت فيها بإذن الله سعيد والباغي فيها يموت بالحديد.

أحمد دكنة بن محمد المختار ولد حوالي 1260 وتوفي 1318 تولى شؤون الزاوية بعد وفاة أبيه من حيث الأشراف والتدريس قام بنسخ مجموعة من الكتب توجد بالخزانة

نذكر منها في الشعر ديوان علي كرم الله وجهه في الشعر 1277، ديوان مجنون ليلي، ديوان الحماسة لأبي تمام، ديوان ذي الرمة ويبدو لي أن هذه الدواوين كانت تدرس لطلبة الزاوية في ميدان الأدب، في الفقه، مناسك الحج لعلي النوري المالكي، شرح مختصر عبد العزيز الراشدي الهلالي الفيلاي 1282، كتاب المحاضرات لابن سعود البوسي، الجزء الأخير من كتاب الخطاب، شرح إيضاح السر الماصون في شرح فرائض ابن ميمون لعلي بن محمد الرسموكي، التصوف شرح منظومة الإمام زروق، وقات الرشاد إلى سبيل التقى والسداد للإمام عبد الله ابن صالح 1317.

ملحق الصور



أدرار



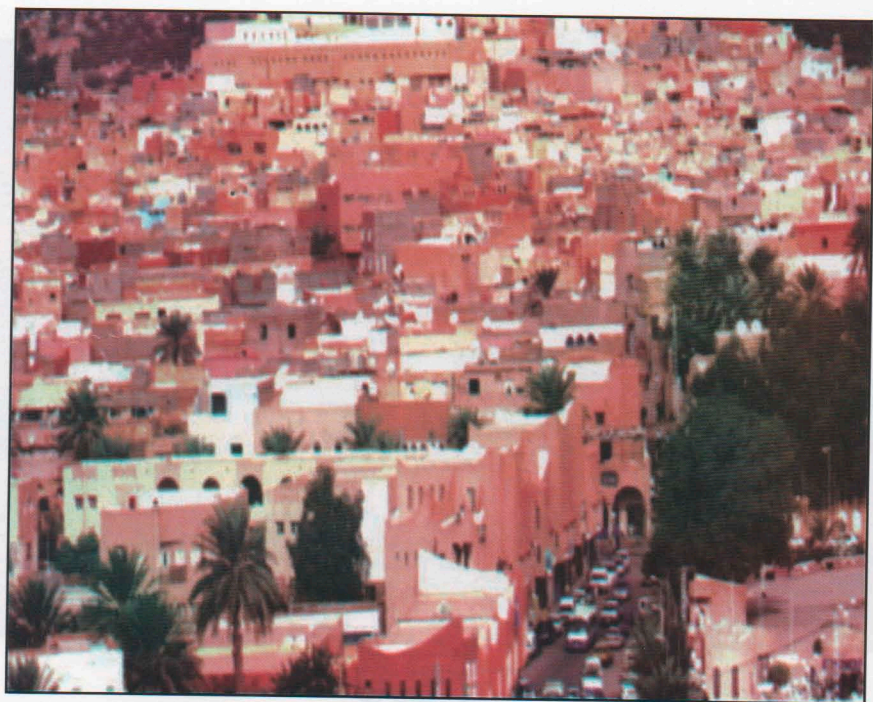
أدرار



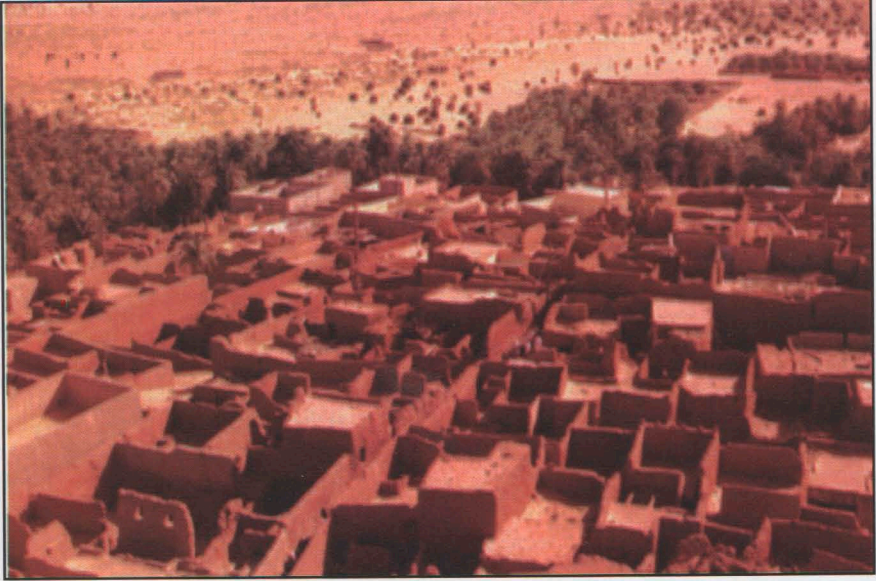
بسكرة



غرداية

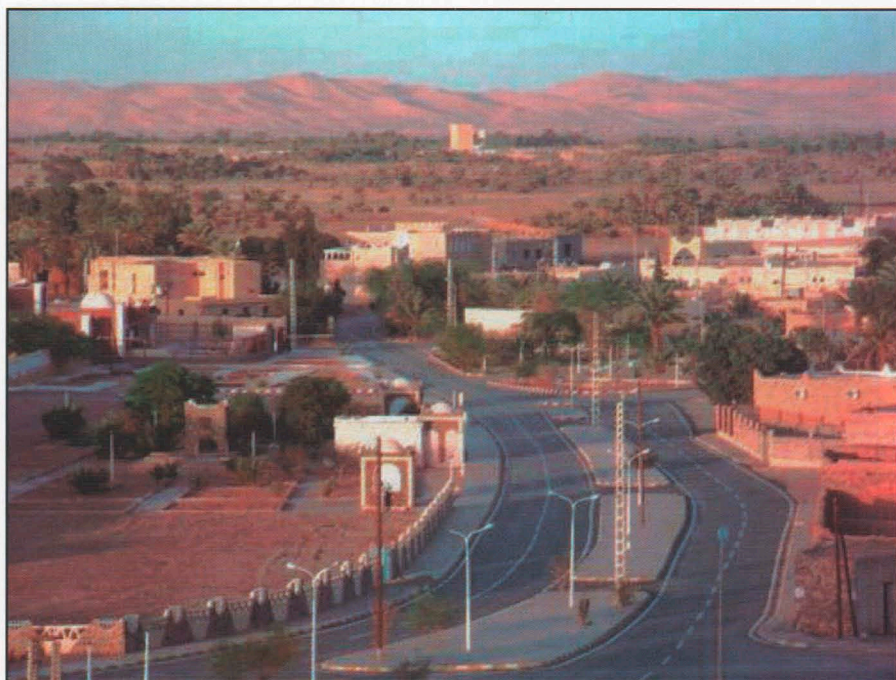


غرداية



تيميمون

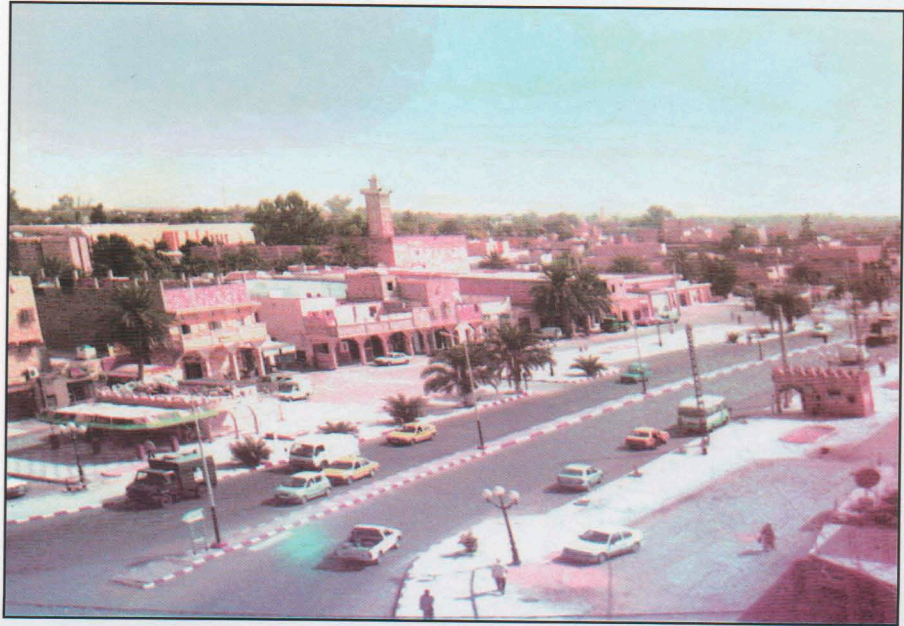
واد ساج



تندوف



واد سوف



ورقلة



القراة



واد سوف

المصادر والمراجع

المصادر:

- عبد الكريم بن محمد الرحلة في طلب العلم مخطوط بخزانة أحمد ديدي تمنطيت.
- عبد الرحمان بن عمر التتلاي الرحلة مخطوط بخزانة سيدي أحمد ديدي تمنطيت، نوازل الغنية مخطوط بخزانة كوسام.
- القتوري نوازل القتوري مخطوط بخزانة الشيخ سيدي أحمد ديدي.
- عمر بن عبد القادر المهداوي الدرة الفاخرة في ذكر المشائخ التواتية مخطوط بخزانة أحمد ديدي.
- محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق البكري درة الأقلام في أخبار المغرب بعد الإسلام.
- محمد عبد الكريم بن عبد الحق جوهرة المعاني فيما ثبت لدي من علماء القرن الثاني مخطوط بخزانة سيدي أحمد ديدي تمنطيت.
- البكري بن عبد الكريم الشجرة البكرية مخطوط بخزانة سيدي أحمد ديدي.
- مولاي أحمد الإدريسي نسيم النفحات في ذكر جوانب من أخبار توات مخطوط بخزانة كوسام.
- ابن بطوطة تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار تحقيق علي المنتصر الكتاني بيروت 1985.
- ابن خلدون العبر وديوان المبتدأ والخبر في أخبار المغرب والعجم ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر.
- عبد الرحمان السعدي تاريخ السودان باريس 1964.
- العياشي رحلة العياشي المعروفة بهائد الموائد تحقيق محمد حاجي 1977.

- محمد الطيب بن عبد الرحمان القول البسيط في أخبار تمنطيت تحقيق فرج محمد فرج الجزائر 1977.

- يحيى بن أبي بكر الورجلاني كتاب السيرة وأخبار الأئمة.

- أبو الربيع سليمان بن عبد السلام الوسياني سير الوسياني.

- أبو العباس أحمد بن سعيد الدرحيني طبقات الدرجيني تحقيق إبراهيم طلاي 1974.

- أبو القاسم بن إبراهيم البرادي كتاب الطبقات.

- أبو العباس أحمد بن سعيد الشماخي سير الشماخي.

المراجع:

- أحمد الحمدي محمد بن عبد الكريم رائد الحركة الفكرية في إقليم توات رسالة ماجيستر جامعة وهران 2000/1999.

- عبد الله بن أحمد يوسف مقران الكنز المفقود في حياة ومآثر سيدي موسى بن المسعود.

- عبد الرحمان الجليلي تاريخ الجزائر العام الجزائر 1977.

- محمد عبد العزيز الزهرات في أخبار علماء توات.

- عبد الحميد بكري النبذة في تاريخ توات وأعلامها من القرن التاسع إلى القرن الرابع عشر.

- إبراهيم بن نوح متياز تاريخ ميزاب.

- علي يحيى معمر الإباضية في موكب التاريخ.

- محمد علي دبوز نهضة الجزائر الحديثة في خمسة أجزاء.

- الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي

فمن بين قصائده المعروفة والمشهورة القصيدة التي ألقاها أمام الحصرة النبوية:

بشارك يا قلبي هذا سيد الأمم وهذه حضرة المختار في الحرم
وهذه الروضة الغراء ظاهرة وهذه القبة الخضراء كالعلم
ومن نظمه في بحر الرجز:

صفة أهل الجهل في هذا الزمان الترك للحق وقلعة الأمان
إذا دعوا للحق والعبادة قالوا بلى طريقنا بالعادة
والأمر بالمعروف عندهم غريب واتباع السنة عندهم معيب
ويسمح الجور من أهل الفضل ويبغض الحق من أهل العلم
ويقول في شأن تعامل الناس مع اليهود:

برئيت للرب الودود من قرب أنصار اليهود
قوماً أهانوا دينهم وأكرموا دين اليهود
يكفي الفتى من شينهم ونخبث صنع أصلهم
انقطعوا من دينهم ورفعوا دين اليهود

ومن الشعراء العلامة محمد أبو علي العباني من بين قصائده ما بعث بها إلى ابنه إبراهيم لما غاب عنه إلى إفريقيا وتركه أعمى مقعداً وهي:

أيا ولدي يلومك من يلوم وتجتنبك الخصوص والعموم
بتركك والد رباك طفلاً وترك مبرة الآباء شؤون
أتهجرني وأنت ربيع قلبي ويا ولدي إني بكم رحيم
أتركني ضعيف الجسم أعمى ولم تشغلك يا ولدي علوم
أراك بالنعيم شغلت عني نعيم السهر ويحك لا يدوم
فلا تقطع زمانك في عقوقي فتفسد ما تصلي وما تصوم

ومن نظمهم في مدح الرسول ﷺ:

بربع الحبي بدر اليمن لاحا فأولنا بطلعتنه فلاحا
وغني فيه قمري غناء أثار جوي الغراب به فصاحا
وناحت فيه عكرمة هذيلنا وناح الخطان به صباحا

ومن قصائده في مدح رسول الله ﷺ:

أكففت دموعك أن الجفن عبران بربع دار وما بالدار عمران
تبكي عليها وما في ربعها أحد من الأناس وأهل الشيع قد بان
فزارني منهم طيف فقلت له والقلب مني على الأحباب ولهان
أهلا بطيف عرى ليلا فأيقظني من المنام وجفن الليل وسنان

ثم يصف روضة الرسول ﷺ فيقول:

مهما بدت روضة المختار وارتفعت من طيبة وبدا النخيل والبان
أنزل على الرجل إجلالا لمن خضعت لعز عز علاه الإنس والجنان
واخلع نعالك وامش غير متعل هيبة المصطفى والرأس عريان
وقبل التراب تعظيما لتربته وقرب الدمع إن الدمع قربان
وسر على الرأس إن وجدت ذاك بها واضرع لمولوك إن الله حنان
واخضع لربك كي تحظى بمتته فإن رب العلا بالفضل منان

ثم ينتقل الشاعر إلى ما حدث عندما نزل عليه الوحي لأول مرة فيقول:

لم لا أهيم به وهو الذي خدت بنور مولده للفرس نيران
وخاض نهرهم به وماؤهم والنهر قبل حبيب الله ملآن
وأشرق في السناء في نور مولده من السرور بخير الرسل بلدان
فعمها نوره والأرض مشرقة وقد أضاءت به بصرى وكنعان

لم لا أهيّم به وهو الذي سقطت يمين مولده الميمون أو ثمان
 لم لا أهيّم به وهو الذي شهدت بأنه خير خلق الله رهبان
 لم لا أهيّم به وهو الذي هتفت بصدق لهجته جن وكهان
 لم لا أهيّم به وهو الذي فرحت بحسن عزته حور وولدان
 لم لا أهيّم بمن سمى المنزلة ما حلها قبل خير الرسل إنسان
 بعدها يتعرض لما نتج عن دعوته:

هو الذي قد دعا لمنهج ملته قوم وهم عن طريق الحق عميان
 لحاهم الله قد ضلت عقولهم وكفرهم برسول الله بهتان
 لما علمت بقلبي صدق سيدنا وأن أعداءه هم الذين خان
 عجبت من كفرهم به وقد علمت كهولهم صدقة حق وشبان
 كم كذبوه وحادوا عن طريقته وكم أتاهم على التصديق برهان
 كم جادلوا وكم مالت بأنفسهم عن الهدى لطريق الإفك صلبان
 يا صاح دع كفرهم لدين سيدنا وقل يمدك بالتوفيق ديان
 الحمد لله ما زالت تصدقه منا النفوس وفي القلوب إيمان

ثم يتعرض لغزوات الرسول صلى الله عليه وسلم فيقول:

فكم غزا غزوات شأنها عجب وما غزا غزوة في الدهر سلطان
 منها حين ومنا يوم غزوته

فهارس الأعلام

- إبراهيم بن مناد العطفائي.: 324.
- إبراهيم بن يوسف أبي يعقوب بن إبراهيم السدراقي.: 283.
- إبراهيم بن يوسف بابيه.: 303.
- إبراهيم بن أحمد.: 294.
- أبو حفص عمر بن عبد القادر.: 144 - 158 - 161 - 163 - 245.
- أبو عبد الله الحسن بن عبد الرحمان.: 145.
- أبو عبد الله محمد العربي.: 161.
- أبو عبد الله محمد بن أحمد الدرعي.: 147 - 152.
- أبو العباس سيدي الحبيب البلبالي.: 223.
- أبو العباس أحمد.: 148.
- أبو العباس أحمد بن مبارك.: 160.
- أبي عبد الله محمد السجلماسي.: 160.
- ابن دريد.: 150.
- ابن عاصم.: 160 - 161 - 197.
- ابن عاشر.: 160 - 193 - 254.
- ابن هشام.: 150 - 159 - 194.
- أحمد بن الحاج قاسم.: 286.

- أحمد بن محمد بن أبي بكر بن يوسف القرطاني.: 290.
- أحمد بن محمد بن مالك الفيلاي.: 239 - 240.
- أحمد بن المختار.: 157.
- أحمد بن يوسف.: 44 - 140.
- أحمد زروق.: 182 - 220 - 230.
- أحمد بن صالح.: 156.
- أحمد بن عبد العزيز: 142 - 147 - 152.
- أحمد بن صالح السوفي.: 148 - 151.
- أحمد بن ميمون.: 202 - 330.
- أيوب بن إسماعيل المزماتي أبو سليمان.: 283.
- باحمد أو أيوب.: 325 - 326.
- باحمد الشهير بخديم أمه.: 326.
- بحيوا بن موسى يسر بن موسى بن الحاج.: 318.
- جد أولاد يونس.: 326.
- سليمان بن يحيى.: 302 - 303 - 304.
- صالح بن إبراهيم بن يوسف.: 287.
- صالح بن موسى.: 303.
- عبد الرحمان الكرتي المصعبي.: 323.

- عبد العزيز بن إبراهيم الثميني.: 303 - 322.
- عبد الله بن عيسى اليسجني.: 323.
- عبد الله بن أبي زيد عبد الرحمان بن عمر.: 145.
- عبد الله بن عمر بن عبد الرحمان التتلافي.: 146.
- عبد الله بن محمد بن البركة.: 146.
- عبد الله الرقاني.: 143 - 195.
- عبد الله بن عبد الكريم.: 218.
- عبد الرحمان البلبالي.: 220 - 224 - 225 - 248.
- عبد الرحمان بن الحبيب.: 226.
- عبد الرحمان بن عمر.: 146 - 153 - 154 - 155 - 157 - 159 - 215 - 235 - 251.
- عبد الرحمان بن محمد.: 158.
- عبد الرحمان بن إدريس.: 146.
- عبد الرحمان بن عمر بن أحمد بن يوسف.: 146.
- عبد الرحمان بن إبراهيم.: 149 - 157 - 218.
- عبد الرحمان بن محمد التامرتي.: 173.
- عبد الرحمان القسنطيني.: 174.
- عبد القادر البلبالي.: 228.

- عبد القادر بن عمر.: 141 - 145 - 188.
- عبد الحميد بن أحمد بن ميمون عبد الحفيظ عبد الوهاب.: 204.
- عمر بن محمد بن مصطفى الرقاني.: 147.
- علي الخرشي.: 161.
- عبود بن منار المزاتي.: 288.
- عثمان بن خليفة السوفي.: 284.
- محكم الهواري.: 325.
- محمد السدراتي أبو عبد الله محمد بن الخير.: 274.
- محمد بن إبراهيم.: 293.
- محمد التواتي.: 293.
- محمد بن المبروك البداوي.: 142 - 215.
- محمد بن أحمد المطارفي.: 144.
- محمد بن إسماعيل.: 186.
- محمد الطالب بن عبد الله بن علي.: 174.
- محمد البكري بن عبد الكريم.: 171 - 217.
- محمد الخرشي.: 171.
- محمد بن عمر البدوي.: 171 - 210.
- محمد بن عبد الرحمان البلبالي.: 142 - 148 - 153 - 170 - 216.

- محمد بن أبي نعام: 153.
- محمد بن محمد بن أحمد بن أبي الحبيب: 155.
- محمد بن مالك القبلاوي: 153.
- محمد بن عبد الله الوليد: 158.
- محمد بن عبد الكريم: 60 - 61 - 63 - 72 - 127 - 134 - 135 - 209 - 216 - 225 - 227 - 293.
- محمد بن دين الله التيطافي: 144.
- محمد بن عبد الله الأدغاغي: 170 - 229.
- محمد بن أحمد بن ميمون: 204.
- محمد بن أحمد بن الحبيب: 228.
- ميمون بن عمر: 201.

فهارس الأماكن والقبائل والأسر

فهارس الأماكن:

- بلاد توات: 104 - 136.
- بلاد غرداية بلاد السودان: 14 - 77 - 139 - 144 - 260 - 265 - 266 - 268 - 329 - 334.
- بلاد التكرور: 132 - 144 - 151 - 191.
- باب المدينة: 262.
- باب السلطان بودة: 30 - 262.
- بسكرة: 3 - 4 - 5 - 6 - 7 - 8 - 10 - 11 - 12 - 13 - 14 - 15 - 16 - 17 - 18 - 19 - 20 - 21 - 22 - 23 - 24.

فهرس

- 03 مدينة بسكره
- 07 عناصر السكان
- 20 قصر الدوسن
- 21 الأحوال السياسية
- 21 عهد الأغالبة
- 23 الدولة الحفصية
- 26 عهد الدولة الحفصية
- 42 بسكره في العصور الحديثة
- 44 الحياة الفكرية ببسكره
- 45 مدينة طولقة
- 46 عناصر السكان
- 47 قصر بنظنيوس
- 47 قصر تنومة
- 48 رباط سعادة

- 48 حصن أوماش
- 48 مدينة بادس
- 50 مدينة وادي سوف
- 52 وادي سوف في العصر الإسلامي
- 53 عناصر السكان
- 56 الأحوال الاقتصادية
- 56 وادي سوق في العصور الحديثة
- 58 توات 1
- 58 التضاريس
- 58 الأهمية التاريخية
- 59 الاسم
- 64 القصور
- 72 أصول السكان
- 89 إحصاء الأشراف العلويين بتوات
- 92 الكتّين
- 94 الخنافس
- 94 الزوي

95	الشعانية.....
97	الحروب بإقليم توات.....
99	فقارة.....
106	الحياة الروحية.....
109	الأحوال السياسية.....
109	إقليم توات.....
110	علاقة الإقليم بالدول المجاورة.....
111	استقلال الإقليم.....
136	تدخل السعديين في إقليم توات.....
140	الأسر العلمية في توات.....
183	توات في وصف الرحالة المغاربة.....
188	الزوايا.....
188	تراجم العلماء.....
199	الأسرة البكرية.....
217	الأسرة البلبالية.....
229	الأسرة المطارفية.....
232	الأسرة البدوية.....

- 236 الأسرة القسنطينية
- 239 العائلة الجنتورية
- 239 العائلة العلمية الفلانية
- 241 علماء تنجيرين
- 249 مناظرات ومحاورات بعض علماء توات
- 254 العلوم
- 254 الفقه
- 255 علوم القرآن
- 255 علوم اللغة
- 255 التاريخ والتراجم
- 256 الزاب
- 256 وادي ريغ
- 257 سدراتة
- 259 مدينة ورجلان
- 259 الاسم
- 260 القسم الشرقي
- 267 العلاقات التجارية في العصور الحديثة

- 269 الأحوال السياسية
- 278 الأحوال الاجتماعية
- 282 الأحوال الثقافية
- 286 الحياة الفكرية في العصور الحديثة
- 290 توقرت
- 292 الأحوال السياسية
- 292 إمارة بني جلاب
- 295 الأحوال الاقتصادية
- 297 بلاد ميزاب
- 315 الفن المعماري لمذن وادي ميزاب
- 321 الأحوال الثقافية
- 329 مدينة تابلالت
- 330 الأحوال الاجتماعية
- 331 الأحوال الاقتصادية
- 332 تندوف
- 334 الجوانب الثقافية
- 336 علماء تندوف

- 339 ملحق الصور
- 351 المصادر والمراجع
- 356 فهارس الأعلام
- 361 فهارس الأماكن والقبائل والأسر
- 362 فهرس



هذا الكتاب

- يرصد هذا الكتاب مدن الجزائر في العصور الوسطى ومُساهماتها الكبيرة في تشجيع التجارة .
- كما يُبين مدى اشتهار حِرْفِيّيها الحُذّاق ودورهم في تثمين المواد الخام.
- دون إغفال خاصيّة النسيج العمراني للمدن الصغيرة والمتوسطة في سد حاجيات سكانها على ريفها القريب والبعيد .
- ناهيك على ما ذكره من تنوع سكاني في تلك الحواضر والأمصار الإسلامية الجزائرية "فتيهرت" على سبيل المثال يسكنها البصري والكوفي والبغدادي والتلمساني والتنيسي، مما أضفى عليها تعايشا في غاية الانسجام والطمأنينة.
- بيّن فيه طُرق المواصلات البرية والبحرية بين هذه الحواضر والأمصار وصلتها في تطوير الواقع الاجتماعي والاقتصادي.

الناشر

ISBN 9 9 4 7 2 6 3 5 9 4



9 789947 263594

